

النبوءة

الروايةُ كاملةٌ
في خمسة مجلدات



البؤساء

لِسَاءِ فَرَنسَةِ الْعَظِيمِ
فِيكتور هيجو

المجلد الثالث

نقله إلى العربية
مُنِيرُ الْعَبَّاسِي

دار العالم للملايين
بيروت



البُؤْسَاءُ

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

القسم الثالث

ماریو سیس

الكتاب الأول

باريس مدروسة من خلال ذرتها

١

في نضارة الصبا

لباريس طفل ، ولغابة طائر . أما الطائر فيدعى الدثوري ، وأما
الطفل فيدعى المنشرد .

زاوج ما بين هاتين الفكرتين ، التي تتطوي احدهما على جميع
حرارة الفرن ، والاخرى على جميع ضياء الفجر . إقدح هاتين الشرارتين
معاً : باريس والطفولة ؛ وعندئذ يشب منها كائن صغير ، كائن يجدر

بـ « بلوتوس » * أن يدعوه Homuncio **

* Pluton شاعر لاتيني هزلي (حوال ٢٥٠ - ١٨٤ ق . م .)

** في اللاتينية ، ومعناها الطرح ، او الجبن .

هذا الكائن الصغير مفعم بالبهجة . إنه لا يأكل الطعام كل يوم ، ومع ذلك فهو يمضي الى المسرح كل ليلة ، اذا رأى ذلك مناسباً . إنه مخلوق لا قميص على ظهره ، ولا حذاء في رجله ، ولا سقف فوق رأسه . إنه مثل ذباب السماء الذي لا يملك شيئاً من هذه جميعاً . أما منه فتتأرجح ما بين السابعة والثالثة عشرة ؛ وهو يجيا مع العصاة التي ينتمي اليها ، ويضرب في الشوارع ، وينام في الهواء الطلق ، ويرتدي سروالاً عتيقاً من سراويل أبيه ينتهي الى عقبيه ، وقبعة عتيقة من قبعات أبي آخر تهبط الى أبعد من أذنيه ، وحالة بنطلون مفردة ذات حاشية صفراء . إنه يعدو ، ويتتبع الأثر ، ويقتل الوقت ، ويسود الغليون بالاستعمال ، ويُقسم مثل رجل من اهل الجحيم ، ويختلف الى الحانات ، ويعرف اللصوص ، ويخاطب الفتيات بضمير المفرد ، ويهذر بلغة السوق ، ويغني اغاني داعة ، وليس في فؤاده شيء رديء على الإطلاق . ذلك بأن في نفسه جوهرة ، هي البراعة . والجواهر لا تتحلل في الوحل . وما دام المرء طفلاً فإن ارادة الله تقضي بأن يكون بريئاً .

ولو قد سألنا هذه المدينة الهائلة : مَنْ ذلك المخلوق ؟ اذن لاجابت : إنه ولدي الصغير .

٢

بعض أماراته الخصوصية

إن « متشرد » باريس هو قزم العملاقة . ولن نبالغ . فعند ملاك الساقية هذا قميص في بعض الاحيان ؛ ولكنه في هذه الحالة قميص مفرد ليس غير . وعنده حذاء في بعض

الاحيان ؛ ولكنه في هذه الحالة حذاء من غير نعل . وإن له في بعض الاحيان مأوى ، وهو يجبه ، لأنه يجد فيه أمه ؛ ولكنه يفضل الشارع ، لأنه يجد هناك حريره . إن له ألعاباً خاصة به ، وحِيلة خاصة به قائمة على اساس من بغضه للبورجوازيين . وإن له استعاراته الخاصة . فهو يكتبني عن موت الشخص بـ « أَكَلِ الهندياء البرية من جذورها » . وإن له مِهْنَةُ الخاصة ، مثلَ إحضار عجلات الكِراء ، وخَفَض مَواطِي العربات ، وقَبْض مكوس المرور من خفة الشارع الى الأخرى حين تهطل الامطار الغزيرة ، وهو ما يدعوهُ « إقامة جسور الفنون » ، ويذيع الخطب التي تُكثر السلطات من إلقاتها لمصلحة الشعب الفرنسي ، ويكشط المروق التي تقصل ما بين بلاط الشوارع . وإن له عمله الخاصة ، وهي تَأَلَف من مختلف ضروب القِطْع النحاسية الصغيرة المطرقة التي يجدها المرء على الطريق العام . ولهذا العِلة الغريبة ، التي يُطلق عليها اسم الـ « مِرَاق » ، دورة نظامية لا تعرف التغير في دنيا الاطفال النجربة الصغيرة هذه .

و « المنتشرد » مجموعة حيواناته الخاصة التي يدرسها في الزوايا بضناية : بقعة الرب الرحيم ، الدودة ذات الرأس الميت ، عنكبوت الحقل ، « الشيطان » ، وهي حشرة سوداء تهددك بأمانة ذيلها الملتح بقرنين . وإن له غوله الحرافيّ ذا الحراشف تحت البطن ومع ذلك فهو ليس بجردّون ، وذا البثور على الظهر ومع ذلك فهو ليس بملجوم * - غوله الذي يعيش في ثقب الاتنين العتيقة ، والبواليع الجافة : مخلوق أسود ، مخلي ، دبّس ، زحّاف ، بطيء في بعض الاحيان ، سريع في بعض الاحيان ، لا يصرخ البتة ولكنه يجدّق ، وهو فظيع جداً الى حدّ أن احداً من الناس لم يره من قبل . وهو يدعو هذا القول « الشيء الاصم » . والبحث عن « الاشياء الصم » بين الحجارة متعة

* الملجوم : ضفدع الجبل .

خطرة الى حدّ مثير . ومنعة اخرى من 'متعه' ، ان يرفع بلاط الشارع فجأة ويرى قل الحشب . وكل منطقة في باريس مشهورة باللّقى التي يجدها المرء فيها . هناك 'حرش' * في مستودعات الحشب والفحم بال 'أورسولين' ؛ وهناك 'كثيرات الارجل' ، في الـ 'بانتيون' ، وهناك أشراخ** في خنادق الـ 'شان دو مارس' .

وهذا الطفل مشهور بأجوبيته المفحمة مثل تاليران : إنه لا يقلّ عنه شكاً وسخرية ، ولكنه أكثر اخلاصاً . ولقد 'فطّر' على ضرب غريب من المزاج الطروب غير متوقع . إنه 'يذهل' صاحب الدكان بضعه المرح الذي لا سبيل الى وقفه . إن 'سلمه' الموسيقية لتزلق من الكوميديا الرفيعة الى المهزلة الرخيصة .

وغرّة جنازة . ويتفق ان يكون في الموكب طيب . فيصبح
'متشرد' :

- 'غريب ! من أيّ عهد بدأ الاطباء يشتمون ضحاياهم ؟ ،
ويضمّ حشد من الناس 'متشرداً' آخر . ويلتفت اليه رجل مقطب
الوجه زيتن نفسه بنظارة وحليّ ويقول في استمزاز :
- 'انت ايها اللوغد ، لقد كنت نخاصر امرأتى ! ،
فيجيبه 'المتشرد' :
- 'اذا يا سيدي ! نعال وفتشني ! ،

* جمع حريش ، وهي دويبة تعرف أيضاً بأبي مقص ، وثاقب الاذن .
** جمع شرخ ، وهو ولد الضفدع .

إنه قريب إلى النفس

وفي الماء ، وبفضل بضع درجيات يعرف دائماً كيف يحصل عليها ، يدخل « الطرح » الى احد المسارح . فما ان يجتاز تلك العتبة الصحراوية حتى ينتقل من حال الى حال . كان « المتشرد » *Gamin* ، فأسمى « متشرد » باريس ، *Titi* والمسارح أشبه شيء بضرب من المراكب مقلوبة رأساً على عقب ، وقد جعل قمرها في اعلاها . وإنما يجتشد « متشردو باريس » في هذا القمر . و « متشردو باريس » بالنسبة الى « المتشرد » بمثابة الفراشة بالنسبة الى اليرقانة * . إنها هي هي ، ولكنها مزودة بجناحين يمكنانها من الطيران في الجو . وبحسب ان يكون هناك ، بأشراق سعادته ، وبقوة حماسه وبهيجته ، وتصفيق يديه الشبيه بتصفيق الاجنحة حتى يجعل من ذلك القمر الضيق ، الآسن ، المظلم ، القدر ، غير الصحي ، البشع ، المقيت قطعة من الجنة نفسها . أعطى الكائن البشري ما لا غناء فيه ، واحرمه بما هو ضروري ، تخلق « المتشرد » .

و « المتشرد » ليس خلواً من كل ميل الى الادب . ولكن نزعت هذه - ونحن نقول هذا بالقدر الملاثم من الاسف - ليست نحو الآثار الكلاسيكية . فهو بطبيعته قليل الحظ من الروح الاكاديمية . وهكذا نقول ، على سبيل المثال ، ان شعبية ماداموزيل مارس ** بين هذا الجمهور الصغير المؤلف من اطفال رُثجين كانت مُتبلة بشيء من التهمك . كان « المتشرد » يدعوها ماداموزيل « موش » *Muche* *** .

* البرقانة : الدودة التي تتحول الى حشرة .

** *Mars* كاتبة مسرحية فرنسية شهيرة (١٧٧٩ - ١٨٤٧)

*** اصطلاح عامي يؤدي معنى الشاب المحبول .

وهذا الخلق يصرخ ، ويجزأ ، ويستخَر ، ويعارك . إن له خِرَافاً
 مثل طفل من الاطفال ، واسمياً مثل فيلسوف من الفلاسفة . وهو
 يتصيد السمك في البالوعات ، ويصطاد الطير في المستنقعات ، ويعتصر
 البهجة من القذارة ، ويقذف مفارق الطرق بشمات قريحتة الوقادة .
 يتهم ويلسع ، يصفر ويغني ، يهلل ويوسعُ سباً ، يلطف هلتولبا *
 بـ « ماتانتور لوريت » ، ويرتل من غير تغيير في لهجة الصوت جميع
 الاوزان من مزمو *de Profundis* ** حتى *Chi - en Lit* *** ، ويجد من
 غير ان يبحث ، ويعرف ما يجله . اسارطي حتى المكر ؛ مجنون
 حتى الحكمة ؛ غنائي حتى الاقذاع ، يجلس القرفصاء على الاولمب ،
 ويتمرغ في المزابل ، ويخرج منها مغطىً بالنجوم . ان « منشرَد »
 باريس هو « رابليه » **** صغيراً .

إنه لا يرضى عن بنطلونه إلا اذا كان ذا جيبٍ خاص بالساعة .
 وهو لا يدهش الا نادراً ، ولا يروّع إلا في أحوال اكثر ندرة ؛
 وهو يحوّل الحرافات الى أبياتٍ من الشعر غير الموزون ويغنيها ،
 ويحطم المبالغات ، ويسخر من الفوامض والاسرار ، ويخرج لسانه في
 وجه الاشباح ، وينزع مسحة الشعر عن التمدح والفخر ، ويُدنّخل
 الكاريكاتور على كل تضخم ملحمي . وليس مردّة ذلك الى انه ذو نزعة
 نثرية . لا ، فالمسألة بعيدة عن ان تكون كذلك . ولكنه يستمض
 عن الاحلام الغريبة باختلاط الصور على نحوٍ هزلي ضاحك . فاذا برز

* تعبير كنسي . والكلمة عبرانية معناها « سبحوا الرب . »

** هو الزمور المئة والثلاثون ، ومعناه الحرفي « من الاعماق » .

*** اسم أغنية . ومعناها الحرفي « قناع الكارنافال » .

**** الاديب الفرنسي الشهير ، وقد سبق التعريف به .

له آدامستر * صاح :
- « مرحباً بك ، ايها الغول ! »

٤

إنه قد يكون ذا غناء

تبدأ باريس بالمتبطل المضيق وقته في التعديت إلى كل شيء والاصفاء لكل شيء وتنتهي بالمشرد - كائنات ليس ثمة مدينة أخرى جديدة بها . الرضا المنفعل الذي يكتفي بمجرد النظر ، والمبادرة التي لا تتضب . « برودوم » و « فويو » . إن باريس وحدها تعتق هذين في تاريخها الطبيعي . إن الملكية كلها لمنطوية في المتبطل المضيق وقته . وإن الفوضوية كلها لمنطوية في المشرد .

إن طفل الضواحي الباريسية الشاحب هذا ليعيش ، وينمو ، ويقتحم المآزق ويخرج منها ، في غمرة من الآلام ، شاهداً مُروياً على واقعنا الاجتماعي ومشكلاتنا الانسانية . إنه يحسب نفسه مُهيباً ، ولكنه ليس كذلك . وهو ينظر ، مستعداً لأن يضحك ، مستعداً لشيء آخر ايضاً . ألا فليسمع التعامل ، وسوء الاستعمال ، والحزى ، والاضطهاد ، والجور ، والاستبداد ، والبغي ، والتعصب ، والظفان . ولنحذر المشرد ، الفاجر فاه .
إن هذا الصبي سوف يكبر .

* Adamastor أو « عملاق العواصف » شخصية روائية ابتدعها كاموئين اكبر الشعراء البرتغاليين في قصيدته Lusitades حيث يروي مغامرات فاسكا داغاما ، فما إن يعتمد المكتشف البرتغالي الشهير اجتياز « رأس العواصف » الذي دعي في ما بعد « رأس الرجاء الصالح » حتى يبرز له هذا العملاق ويمنعه من الذهاب إلى ابد .

من أيّ طين 'جبل' ؟ من حمأة الشارع الأولى . حققة من وحل ،
ونفضة ، فاذا آدم بين يديك ! يكفي ان يمرّ ربّ من هناك . ولقد
مرّ بالمشرد رب ما ، دائماً . فلاحظ أثره في هذا الكائن الصغير . وانما
نعني بكلمة الحظ هذه ، المصادفة بعض الشيء . والان ، أبعد لهذا
القرم المجهول بالتراب العامّ الغليظ ، هذا الجاهل ، الأمي ، المروع ،
السوقي ، الفوغالي ، ان يصبح أبونياً * أم بيوتياً ** ؟ إنتظرْ فإن
curtis nota روح باريس ، هذا للشيطان الذي يخلق أولاد المصادفة ورجال
القدر ، عاكساً عمل الحزاف اللاتيني ، يصنع من الجرة زهرية نقبة .

٥

حلووه

إن « المتشرد » بحب المدينة ، وبحبّ العزلة ايضاً ، إذ كان فيه
شيء من الحكيم . انه *urbis amator* * مثل فوسكوس و *ruris amator* **
مثل فلاكوس .

إن النكع المتفكر ، يعني التبطل ، هو عند الفيلسوف وسية حسنة
من وسائل قتل الوقت ، وبخاصة في ذلك الضرب من الريف النفل ،
البشع ولكن الغريب ، والمكوّن من طبيعتين ، الذي يسيطر ببعض

fontes نسبة الى « أبونيا » في آسيا الصغرى القديمة . وكانت لجة الايوبين
البوابة معروفة بالذوبة والقة .

fontes نسبة الى « بيونيا » وهي من مقاطعات بلاد الاضيق القديمة ، ويصرف
اهلها بالجلالة وعدم المبالاة بالجمال الفني .

*** في اللاتينية ، وتعني : « هاوي المدينة » .

**** في اللاتينية ، وتعني : « هاوي الريف » .

المدن الكبرى ، وبيارس على وجه الخصوص . إن دراسة ضاحية ما لا تعدو ان تكون دراسة لمزدوج الطبيعة . نهاية الاشجار ، وبداية المنازل ؛ نهاية الاعشاب ، وبداية الطرق المعبدة ؛ نهاية الانلام ، وبداية الدكاكين ؛ نهاية آثار العجلات العميقة ، وبداية الآلام ؛ نهاية الحرير الالهي ، وبداية الضوضاء البشرية . ومن هنا كان الاهتمام بها قائماً العادة .

من هنا كانت هذه المواطن غير المفزية ، الموصوفة دائماً بأنها كثيفة هي المواطن التي يختارها الحالم لتزهاته التي تبدو وكأن ليس لها هدف ما .

ومديح هذه السطور تسكع دهرآ طويلاً حول « باب بارس » ، ولقد أفاده ذلك مَعيناً من الذكريات البعيدة الغور . فهذا العشب الحليق ، وهذه الازقة الكثيرة الجبارة ، وهذه الطباشير ، وهذا التراب السكسي المزوج بالصالح ، وذلك الجنين ، وتلك الرتبة النضة التي تتكشف عنها الاوض الموات والاراضي التي لم تُزوع ، وطلائع نباتات البتانيين وقد لُحت فجأة في ارض غائرة ، وذلك المزيج المؤلف من برّي ومدينيّ ، وهذه الرقع الواسعة المقفرة حيث يقيم طبّالو الحامية مدرستهم الصاخبة ويقلدون دمدمة المعركة ، وهذه العزلة التامة نهراً ، وتلك المهالك ليلاً ، والطاحون العجوز المتقلقة التي تدور مع الريح ، والدواليب الرافعة للاتقال في مقالع الجبارة ، والحافات القائمة عند زوايا المقابر ، والحر الحفي الذي لتلك الجدران الكالحة العالية التي تقطع على نحو مربّع اراضي متراصة الاطراف لا تكاد ترى في المدى البعيد إلا رؤية ضبابية ولكنها مفرقة بأشعة الشمس ، حافة بالفراشات - كل اولئك كان يجذبه ويأخذ بمجامع قلبه .

ولعله لا يوجد فوق ظهر الارض احد لا يعرف هذه المواطن الفريدة : « لا غلاسير » ، و « لا كونيت » ؛ وجدار غرونيل

المائل المرتش بقذائف المدافع ؛ والد « مون يارناس » ؛ و « لا فوس »
 أو « لو » ؛ وشجرات البندق البيضاء على ضفاف المارن العالية ؛
 والد « مون سوري » ؛ و « لانومب إيسوار » ؛ و « لا بيير بلات
 دو شاتيون » ، حيث يوجد مقلع حجارة مستنقذ لم يعد يصلح لغير
 إنبات الفطر ، فهو موحد على مستوى الأرض بباب يُرفع ويوضع
 باليد ذي ألواح منتهرة . و « ريف رومة » ، فكرة . و « ضاحية باريس »
 فكرة ثانية . وليس إلا سطحاً ذلك النظر الذي لا يري في كل ما
 يشكّل أفقنا غير حقول ، وبيوت ، وأشجار . إن مظاهر الأشياء هي
 أفكار الهمية . والمكان الذي يتصل عنده السهل بالمدينة يحمل دائماً طابعاً
 لا سبيل إلى وصفه من الكتابة العميقة . هناك تخاطبك الطبيعة وتغاطبك
 الإنسانية في آنٍ معاً . هناك تبرز الأصالات المحلية .

وكل من هام على وجهه ، مثلنا ، في تلك البقاع المنعزلة المحاذية
 لضواحيننا التي نستطيع أن ندعوها « تيمبوس » * باريس ، قد لمح
 هنا وهناك ، في البقعة الأكثر إفقاراً ، ولحظة كان على غاية من عدم
 التوقع ، خلف سياج مهزول من الأشجار الشائكة ، أو عند زاوية
 جدار كثيب ، أطفالاً مجتمعين على نحو مشوش ماض ، أطفالاً شاحبي
 الوجوه ، موحلين مغبورين ، ممزقي الثياب ، متنفسي الشعر ، يلعبون
 لعبة المدنية والوند متوجة بالنفج ، أنهم جميعاً أطفال آبقون من
 الأمر الفقيرة . إن الجادة الخارجية هي مدام النفس ، وإن الضاحية
 ملكهم . هناك كان من دأبهم ابداً أن يتزهوا بدلاً من الذهاب إلى
 المدرسة . هناك يغنون ، في براءة ، مجموعة اغانيهم القدوة . إنهم هناك ، أو

* أَلْتِمْبُوس ، في العقيدة الكاثوليكية ، موطن بين الجنة والجحيم تستقر فيه
 ارواح الرجال الصالحين الذي توفوا قبل مجيء المسيح كما تستقر فيه ارواح الاطفال
 الذين ماتوا قبل أن يسمدوا . وهذا يذكر بالأعراف في العقيدة الاسلامية ، وهو
 سور بين الجنة والنار .

على الاصح ، انهم يعيشون هناك ، بعيدين عن كل عين ، وسط اشعة نوار او حزم ان الرفيقة ، راكعين حول حفرة في الارض ، لاعبين بالكُرّات ، متنازعين على ارباع الدسو ، متحرّرين من المسؤولية ، مرسكي الاجنحة ، مطلقي السراح ، سعداء . فما إن يروا اليك ، حتى يتذكروا أن لهم صناعة ، وان عليهم ان يكسبوا رزقهم ، فاذا بهم يعرضون عليك ان تشتري جورباً صوفياً عتيقاً مليئاً بالخنافس او باقة من الزنابق . وهذه الاجتماعات بالاطفال الغريبيين هي احدى المقتاتة ، المحزنة في الوقت نفسه ، التي يقع عليها المرء في ضواحي باريس . وقد يكون بين هذا الحشد من الغلمان ، في بعض الاحيات ، بضع فتيات صغيرات - أهنّ أخواتهم ؟ - يكدن ان يكنّ شابات ، مهزولات ، محمومات ، خلعت عليهن الريح للساعة ضرباً من التقافيز ، وعلا للنشّ وجوههن ، واتخذن قبعات من سنابل الجاودار والحشاش البري ، منبهجات ، شاردات الأبصار ، حافيات الأقدام . إننا لئري بعضهن يأكلنّ حبات الكرز وسط القمع الناهض على سُوقه . وإننا لنسمعن في الماء يضحكن . والواقع ان هذه الجماعات ، التي تجلوها أشعة الظهيرة القوية بجلاء دافئاً ، او التي تلمس في الفسق ، لتشفل المتأمل فترة طويلة ، فتختلط هذه الرؤى بأحلامه .

باريس نقطة الدائرة ؛ والضاحية يحيط هذه الدائرة . - ذلك هو العالم كله عند هؤلاء الاطفال . انهم لا يفامرون في الذهاب الى ما وراء ابداء . وليس في استطاعتهم بعد ان يعيشوا خارج الجو الباريسي اكثر مما يستطيع السك ان يجيا خارج الماء . فعلى بُعد فرسخين من باب المدينة ، لا يوجد في نظرهم شيء . إن داييري ، ، ود جانتني ، ، ود آر كوني ، ، ود بيلفيل ، ، ود اوپرفيليه ، ، ود مينيلونتان ، ، ود سوازي لو روا ، ، ود بيلانكور ، ، ود مودون ، ، ود إيسي ، ، ود فانف ، ، ود سيفر ، ، ود بوتو ، ، ود نوثي ، ، ود جينفيليه ، ، ود كولومب ، ، ود رومانفيل ، ، ود شاتو ، ، ود آسنير ، ،

و « بوجفال » ، و « قانتير » ، و « آنغيان » ، و « نوازي لو
 سيك » ، و « نوجان » ، و « غورقاي » ، و « دوانسي » ،
 و « غونيس » - عند هذه المواطن ينتهي الكون .

٦

قليل من التاريخ

في تلك الفترة - برغم انها تكاد تكون معاصرة - الجارية فيها
 أحداث هذه القصة ، لم يكن ثمة ، كما هي الحال اليوم ، ضابط بوليس عند
 كل زاوية من زوايا الشوارع (وهي حنة ليس لدينا منسج من
 الوقت للاسهاب فيها) ؛ كانت باريس تغص بالاطفال المتسكعين .
 وتشير الاحصاءات الى ان نحواً من مئتين وستين طفلاً لا مأوى لهم -
 في المتوسط - يقبض عليهم البوليس سنوياً ، في الاراضي غير المبيجة ،
 وفي البيوت التي لما يتم تشييدها ، ونحت قناطر الجور . ولقد أنتج
 احد هذه الاعشاش ، ولا يزال شهيراً الى اليوم ، « سنونو جسر
 آر كولا » . والى ذلك ، فهذا هو أشد أعراضنا الاجتماعية أذىً
 وتخريباً . إن جميع جرائم الانسان لتبدأ بتشرده الاطفال .

ومع ذلك فيتعين علينا ان نرتضي باريس . وهذا الارضاء حق ،
 الى درجة نسية ، وبرغم الذكوى التي استرجعناها منذ لحظة . فبينما
 نجد في كل مدينة كبيرة اخرى ان الطفل المتسكع هو الرجل الهالك ؛
 وبينما نجد في جميع المواطن تقريباً أن الطفل المستغرق في بطائه قد نذر
 نفسه واستسلم ، بمعنى من المعاني ، لضرب من الانغماس المشؤوم في
 الرذائل العمومية التي تقترس فيه الحسنة والضمير ، نرى ان متشرد
 باريس - ونحن نصرّ على ذلك - برغم خشونته البالغة ، واتلام شره

في الظاهر - يكاد يكون سليماً لم يس ، باطنياً . وانه شيء رائع جدير بالتأمل ، شيء يلتصق في الطهارة الجيدة التي نكتشف عنها ثوراتنا الشمسية : أن نزاهة ما ، تنشأ عن الفكرة التي تملأ هواء باريس كما يملأ الملح ماء المحيط . إن استنشاق المراء هواء باريس يحفظ عليه نفسه .

وما نقوله هنا لا يُزيل ، مجال من الاحوال ، انقباض الصدر الذي نستشعره كلما التقينا واحداً من هؤلاء الاطفال الذين يتراءى لنا وكأن روابط الاسرة المتهدمة تطفو من حولهم . ففي حضارتنا الحالية ، التي ما تزال بعيدة جداً عن الكمال ، ليس من غير السوي ان نرى كسرات الأسر هذه تنفوخ نفسها في الظلام ، غير عاقبة ، الا نادراً ، ما الذي حل بأولادها ، طارحة فلذات من حياتها على الطريق العام . ومن هنا تنشأ المقادير المظلمة . وهذا ما يُعرف - ذلك ان الشيء الحزين قد صاغ مصطلحه - بدو إلقاء الطفل على حصباء الطريق في باريس .

ولنقل بالمناسبة ان هذا التخلي عن الاطفال شيء لم تعمل الملكيات القديمة قط على إخماده . إن قليلاً من مصر ومن بوهيميا في الطبقات الدنيا قد لاأم الطبقات العليا ولبي مصالح الاقوياء . ان كراهية تعليم اطفال الشعب كانت عقيدة جوهرية . أي فائدة ترتجى من الانوار الجزئية ، ؟ ذلك كان شعارهم . ومن هنا كان الطفل المتسكع حصة الطفل الجاهل .

وفوق هذا فقد كانت الملكية في حاجة الى الاولاد ؛ وهكذا ألقت على الشوارع نظرة خاطفة .

ففي عهد لويس الرابع عشر - لكي لا نذهب الى ابعد - رغب الملك بحق ، في ان ينشيء اسطولاً . كانت الفكرة جيدة . ولكن لننظر الى الوسيلة . إن بلداً ما ، لا يستطيع ان يملك اسطولاً اذا لم يكن ثمة ، الى جانب السفينة للشرعية ، دمية الرياح ، مركب آخر قادر على ان يجري بالمجذاف او بالبخار الى حيث يريد لكي يقطرها عند الحاجة .

وآنذاك كان سجن الاشغال الشاقة بالنسبة الى الاسطول بمثابة السفن البخارية اليوم . ومن هنا ، كان ينبغي ان تكون ثمة سجون خاصة بالاشغال الشاقة . ولكن سجون الاشغال الشاقة لا تتحرك الا بالاشغالين . واذن ، فيجب ان يكون ثمة اشغالون . ومن طريق البرمائيات ومدراء المقاطعات صنع كولبير * اكبر عدد ممكن من رقيق الاشغال الشاقة . ونهض القضاء بالمهمة في حماسة . لقد أبقي رجل^١ قبعته على رأسه أمام موكب ديني^٢ ، وهي عادة هوغونوتية ، فأرسل الى سجن الاشغال الشاقة . وكان الشرطة اذا ما وجدوا في الشارع غلاماً قد بلغ الخامسة عشرة ولم يكن له مكان بيت فيه ، ساقوه الى سجن الاشغال الشاقة . عهد^٣ عظيم وعصر^٤ عظيم .

وفي ظل لويس الخامس عشر اختفى الاطفال من باريس . لقد حاقهم البوليس لفرض خفي^٥ لم يدر احد^٦ ما هو . وتهاشم الناس باحداس رهبة مروعة عن حمامات الملك الارجوانية . وانما يتحدث بارييه ** ، في سذاجة ، عن هذه الاشياء . ولقد اتفق في بعض الاحيان ان الضباط ، وقد اعوزهم الاطفال ، اخذوا بعض من كانت لهم آباء . وهجم الآباء ، بالسين ، على الضباط . وفي مثل هذه الاحوال كان البرلمان يتدخل ويشتق - من ؟ الضباط ؟ لا . الآباء !

* Colbert رجل الدولة الفرنسي المشهور (١٦١٩ - ١٦٨٣)

** Barbier مؤرخ فرنسي معروف (١٦٨٩ - ١٧٧١) أرخ للعبة الممتدة ما بين

عام ١٧١٨ وعام ١٧٦٣ .

سوف يحتل المشرّد مكانه

بين طبقات الهند

إن أخوية المشردين الباريسية تكاد أن تكون طبقة من طبقات الهند الاجتماعية المغلقة . وفي استطاعة المرء أن يقول : إن واحداً لا يريد أن يكون له علاقة بهم .

وكلمة « المشرّد » هذه طُبعت أول ما طُبعت ، وانتقلت من اللغة العامية إلى لغة الأدب ، عام ١٨٣٤ . وإنما كان ظهورها للمرة الأولى في كتيب اسمه « كلود غو » ، *Claude Guen* . ولقد أحدث ذلك هزة عنيفة . وسرت الكلمة وحازت القبول

والعناصر التي هي قوام الأجلال بين المشردين مختلفة جداً . فقد عرفنا وجربنا واحداً كان يتمنع بأعظم الاحترام ويحظى بأكبر الإعجاب لأنه رأى رجلاً يسقط من أبراج نوتر دام ؛ وآخر لأنه وُفق إلى أن يشق طريقه إلى الفناء الخلفي حيث وضعت مؤقتاً تماثيل قبة الانفاليد ومزق بعض الرصاص ؛ وثالثاً لأنه بَصُرَ بعربة مسافرين متقلبة رأساً على عقب ؛ ورابعاً لأنه عرف جندياً كاد يفتأ عَيْنَ رجلٍ من البورجوازيين .

وهذا يفسّر ذلك التعجب الذي أرسله مشرّدٌ باريسي ، وإنما لزفرة عميقة يسخر منها الدهماء من غير أن يفهموا : « اوه ، يا الله ! يا الله ! يا الله ! الستُ مَيِّه الخط ؟ فكروا أني لم أُرَ إلى الآن شخصاً يسقط من الطابق الخامس ! » ، ناطقاً بهذه الكلمات بغتة خاصة لا سبيل إلى التعبير عنها .

وما أجملها كلمة تصدر عن فلاح ! يقول احدهم : « يا أبا فلان ، إن الداء قد أمات زوجتك ؛ فلم لم تستدع طبيباً ؟ » فيجيبه الآخر : « ولماذا يا سيدي ؟ اننا نحن الفقراء يجب ان نموت بأنفسنا ! » ولكن اذا كانت انفعالية الفلاح كلها منطقية في هذه الكلمة فان جميع الفوضوية المتحررة التي تسمي طفلاً الضواحي منطقية في هذه الكلمة الاخرى : كان احد المحكوم عليهم بالموت يصفى الى الكاهن المعرف الجالس أمامه في العربة التي نقلته الى المشقة . فصاح أحد غلمان باريس : « إنه يتحدث الى كاهنه . أوه ، يا له من جبان ! »

إن قدرآ من الجرأة في الامور الدينية ليرفع من شأن « المتشرد » . فلأن يكون المرء متزناً شيئاً ليس بالقليل .
 وهم يرون ان من واجبه ان يشهدوا بإعدام المحكوم عليهم بالموت . إنهم يشيرون الى المقصلة ويضحكون . وهم يخلعون عليها مختلف الالقاب : « نهاية الحساء » - و « العاوية » - و « الام السماوية » - و « القعة الاخيرة » الخ . الخ . ولكي لا يفقدوا شيئاً من المشهد ، تراهم يتسوّرون الجدران ، ويتسلقون الشرفات ، ويصعدون الى رؤوس الاشجار ، ويتعلقون بالقضبان الحديدية ، وينشبثون بالمداخن .
 « المتشرد » يولد بناء سطوح كما يولد ملائحاً . والسطح لا يوقع في نفسه من الخوف اكثر مما يوقعه الصاري . وليس من عيد يعدل ساحة الاعدام : « لا غريف » . وشمشون والأب مونتيز هما الاسمان الشعبان حقاً . إنهم ينادون المحكوم عليه بالموت لكي يشجعوه . وهم يعلنون ، في بعض الاحيان ، عن إعجابهم به . ولقد لفظ المتشرد ، لاسينيرو ، عندما رأى « دوتان » الرهيب يموت بشجاعة ، هذه الكلمة المفعملة بالمستقبل : « لقد حسنته ! » . وفولتير غير معروف عند أخوية المتشردين ، ولكنهم يعرفون « بابافوان » جيداً . إنهم يمزجون رجال السياسة بالجرمين ، في الخبر الواحد . وهم يروون الاحاديث عن آخر

الملابس التي ارتداها كلٌ منهم . إنهم يعرفون أن « توليون » اعتمر بقلنسوة وقناد ؛ وأن « آفريل » اعتمر بقبعة ذات حافة ، مصنوعة من جلد كلب الماء ؛ وأن « لوفيل » اعتمر بقبعة مستديرة ؛ وأن « دولابورت » المعجوز كان أصلع حاسر الرأس ؛ وأن « كاستينغ » كان متورّد الوجنتين بالغ الجمال ؛ وأن « بوريس » كان ذا لحية صفيرة حلوة ؛ وأن « جان مارت » احتفظ بجماله بنظونه ؛ وأن « لأكوفيه » وأمه نخاصما . ولقد صاح أحد المنشردين في وجه هذين الآخرين : « لا ننتقدا الآن العربة التي تحملكما ! » ولكي يرى منشرد آخر « ديباكر » يمرّ - وكان ذلك المنشرد قصيراً وسط الحشد - راح يتسلق عموداً من أعمدة المصابيح عند الرصيف . فعبس دركيّ كان هناك في وجهه . فقال المنشرد : « دعني اتسلق ، يا سيدي الدركي . » ولكي يلطّف من نقمة يمثل السلطة أخاف : « أنا لن أقع ! » فأجابه الدركي : « أنا لا أبالي أوقعت أم لم تقع . »

والحادثة التي لا تنسى قيمة كبيرة في أخوية المنشردين . وإنما يبلغ أحدهم قمة المجد إذا ما اتفق أن جرح نفسه جرحاً بليغاً ، حتى العظم ، كما يقولون .

وقبضة اليد ليست وسيلة هزيلة من وسائل الاحترام . ومن الأشياء التي يولع « المنشرد » بتوذيدها ولوعاً شديداً قوله : « أنا قويّ جداً ، أنا ! » . ولأن تكون أعسرَ يحطّك عندم موضع الحسد . والحوّل ، في نظرم ، مدعاة إلى الاحترام العظيم .

حيث نقرأ كلمة فاتنة للملك السابق

وفي الصيف ، يسخ نفسه الى خفدفة . وفي المساء ، حين يهبط الليل
تجاء جسرَيّ أوسترليتز وبيننا ، ينبثق من أطواف الفحم ومن مراكب
الغسالات ويغطس مخفوض الرأس في الدّ سين ، وفي مختلف ضروب
الحرق لقوانين الحشمة والبوليس . بيد ان شرطة المدينة له بالمرصاد ،
ومن هنا كانت تنشأ عن هذا الوضع حالة مسرحية الى حد بعيد أدّت في
احدى المناسبات الى ارسال صيغة أخوية لا تنسى . وهذه الصيغة ،
التي كانت شهيرة حوالى عام ١٨٣٠ ، هي تنبيه استراتيجي من « متشرد »
الى « متشرد » . إنها مُقطّعة مثل بيت من شعر هوميروس ، في
اسلوب من الاختزال يكاد يمتنع على التفسير امتناع ألحان عبد * مينيرفا
الأيولوسينية ** ، وتذكر مرة أخرى بـ « ايفويه » *** العتيقة .
وهذه هي : « اوهيه ، ايها المتشرد ، اوهيه ! انظر هناك ! إنهم
قادمون ليقبضوا عليك ! خذ ثيابك ، واهرب من خلال البالوعة ! »
وفي بعض الاحيان يكون في ميسور هذه الذبابة الصغيرة - وهو القلب
الذي يجلعه هو على نفسه - ان تقرأ . وفي بعض الاحيان يكون في
ميسورها ان تكتب ، ولكنها تعرف دائماً كيف « تخربش » .
و « المتشرد » يكتسب بتعليم خفي متبادل لنا نعرفه جميع المواهب

* عند قدماء اليونان .

** لبة الى ايلوليس ، وهي مدينة في بلاد الاغريق القديمة ، في آبيكا ،
حيث كانت تقام الاحتفالات الدينية على شرف الآلهة سيريس .
*** Evohé آناه نداء وتعب في اللاتينية ، وكانت ترسلها كاهنات باخوس
الراقصات وهنّ شعث الثور ، متوجات الرؤوس بالبلابل ، حاملات الصبي ذات الرؤوس
الصنوبرية الشكل في ايديهن ، مطلقات صياحات متتارة .

المسكنة النفع في القضايا العامة . فمن سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٣٠ فـ
صياح الديك الرومي ؛ ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨ كان من دأبه
أن يرسم إجازة على الجدران رسماً متعجلاً رديئاً . وذات امسية من
امامي الصيف ، فبا كان لويس فيليب عائداً الى قصره ماشياً ، بصراً
بواحد منهم ، صغير جداً ، لا يزيد طوله على هذا المقدار ، يتصبب
المرق منه ، ويرفع نفسه على رؤوس اصابعه لكي يرسم بالفعل إجازة
هائلة على أحد أعمدة باب دو 'نوني' . فما كان من الملك ، بتلك السذاجة
التي ورثها عن هنري الرابع ، إلا أن ساعد المتشرد وأتم رسم الإجازة ،
وأعطى الغلام ليرة ذهبية لويبة قائلاً : « الإجازة موسومة على
هذه أيضاً ! » والمتشرد يحب الجلبة والصخب . فالعنف والضجة يروقان
له . إنه يحقت الكهنة . وذات يوم ، في « شارع الجامعة » ، كانت
'تخرج لسانه استهزاءً عند باب العربات رقم ٦٩ . فسأله غابر سييل :
« لماذا تفعل ذلك عند هذا الباب ؟ » فأجابه الغلام : « إن هناك
كاهناً ! » وكان ذلك ، في الواقع ، مقر السفير البابوي . ومع ذلك ،
ومهما تكن نزعات « المتشرد » الفولتيرية قوية ، فانه ما إن تسنح له
الفرصة التي تمكنه من ان يصبح منشداً في الجوقة الكنسية حتى يسارع
الى انتهازها ، وفي مثل هذه الحال يخدم القداس في أدب . وثمة شيطان
لا سبيل له الى بلوغهما ، فهو يتوق اليهما ابدأ ، ولكن على غير طائل :
أن يقلب الحكومة ، وان يوقع بنطلونه .

والمتشرد ، في أكمل أحواله ، يعرف جميع رجال الشرطة الباريسية ،
فما ان يلتقي واحداً منهم حتى يلمص اسمه على وجهه . إنه يحرصهم على
اصابع يديه . إنه 'يدرس اخلاقهم ويضع ملاحظاته الخاصة عن كل منهم .
إنه يقرأ نفوسهم وكأنما يقرأ كتاباً مفتوحاً . وهو يقول لك على البديهة
ومن غير تردد : « فلان خائن . » - « فلان خبيث جداً » - « فلان
عظيم » . « فلان مضحك » (وجميع هذه الكلمات : خائن ، خبيث ،

عظيم ، مضحك ، لها في فيه معنى خاص) « هذا الشرطي يتوهم ان « الجسر الجديد ، ملكه ويمنع العالم من التفرّد على الكورنيش خارج الحواجز . وذاك الشرطي عنده هوسٌ بشدّة آذان الناس ! ، الخ . الخ .

٩

روح غالة القديم

كان ثمة شيء من هذا الغلام في بوكولين ** ، ابن السوق . وكان ثمة شيء منه في بومارشيه . *** والواقع ان اسلوب « المتشرد » في الحياة لا يعدوان يكون ظلًا من ظلال الروح الغالي . وهذا الاسلوب ، اذا ما مزج في حكمة ، يعطي المرء في بعض الاحيان قوةً جديدة ، كما تفعل الكحول بالحر . وهو في بعض الاحيان ناحية ضعف . إن هوميروس يكرّر الكلام على غير طائل . ليكن ذلك . وفي استطاعة المرء ان يقول ان فولتير يمثل دور « المتشرد » . ولقد كان كامبل ديمولين من ابناء الاحياء الخارجية العتيقة . أما سامبيونيه **** الذي جعل المعجزات وحشية فكان غلاماً من غلمان الشوارع الباريسية ؛ لقد اجتاح ، وهو بعد صغير ، أروقة سان جان دو بوفيه وسان ايتيين دو

« غالة او بلاد الغال هي فرنسا القديمة .

** يقصد مولير . وكان والده ، جان بوكولين Poquelin ، سانع سجاد .

*** Beaumarchais كاتب فرنسي (١٧٣٢ - ١٧٩٩) . اظهر آثاره « حلاق لشبيلية » و « زواج فينارو » .

**** Championnet قائد فرنسي (١٧٦٢ - ١٨٠٠) نظم الجمهورية التي اقامها الفرنسيون في نابولي عام ١٧٩٩ وكان رجلاً زلياً وانسانياً .

مون . وكان قد لعا مع صندوق ذخائر القديسة جانفريف الى حد
كاف لايقاع التشنج في قارورة القديس جانفريف المقدسة .
ومشرّد باريس محتشم ، ساخر ، متفطرس . إن اسنانه قبيحة ،
لأنه يشكو سوء التغذية ولأن معدته تؤلمه ، وإن عينيه جيلتان لاث له
نصباً من العبقرية . وخلق به ان يطفر مرتقياً سلم الجنة في حضرة
« جود » نفسه . وهو ماهر في الملاكمة باليدن والرجلين معاً . وكل
ضروب النمو مكنة بالنسبة اليه . إنه يلعب في الساقية وينتصب ثانية
بالثورة . ووقاحت لا تشفيها القذائف ؛ فقد كان ولدأ طائشاً . إنه
بطل ! وهو مثل الطيبي * الصغير يزرّ جلد الاسد . وبارا الطبال كان
مشرّدأ من مشردي باريس . إنه يتفد الى الامام ! ، كما يقول
جواد التوراة « ها ! ها ! ها » ، وينتقل في لحظة من طفل الى عملاق .
وغلام الحماة هذا هو غلام المثل الأعلى أيضاً . رقص مدى انبساط
الجناح هذا المتمدن من مولير الى بارا .
وعلى الجملة ، ولكي نوجز ذلك كله في كلمة ، نقول إن المشرّد
مخلوق يعبت ويلهو لأنه نعس .

١٠

هي ذي باريس ، هوذا الانسان

ولكي نوجز مرة اخرى نقول إن مشرّد باريس اليوم شبه شيء
بد غريكولوس ** رومة في العصور القديمة . إنه الشعب طفلأ ،
وقد تبدت نجايد العالم القديم على جبينه .

* نسبة الى طيبة ، عاصمة بيوتيا ، احدى مقاطعات بلاد الاغريق القديمة .

** Graculus لفظة لاتينية تعني الاغريقي .

المتشرد نعمة من نعم الله على الأمة ، وهو في الوقت نفسه مرض
من امراضها . مرض ينبغي ان يعالج . كيف ؟ بالضياء .

الضياء بشفي .

الضياء ينور .

ان جميع الاشعاعات الاجتماعية السخية لتفتق عن العلم ، عن الادب ،
عن الفنون ، عن التعليم . اصنعوا رجالاً ؛ اصنعوا رجالاً . امنحوم
الضياء لكي يعطوكم الدفء . وسواء عاجلاً أم آجلاً ، ستعزل مسألة التعليم
الشامل الباهرة مكانها بسلطان الحقيقة المطلقة الذي لا حيل الى مقاومته .
وعندئذ سيتعين على اولئك الذين يحكمون تحت اشراق الفكرة الفرنسية
ان يختاروا واحداً من أمرين : أطفال فرنسة ، او منشردى باريس ؛
شعل في الضياء ، او شهب في الظلام .

المتشرد لسان حال باريس ، وباريس لسان حال العالم .

ذلك بأن باريس حاصل جمع . باريس ذروة الجنس البشري . ان
هذه المدينة العجيبة كلها هي مجمل الاخلاق والعادات المينة والاخلاق
والعادات الحية . ومن يرى باريس يُخيل اليه أنه يرى التاريخ كله ويرى
السماء رابراجها في اثناء ذلك . في باريس كاينول * ، وهو الـ اونيل
دو فيل ، ** . وفيها بارتينون *** هو نوتردام **** وفيها « مون
آفانتين » ***** هي ضاحية سان انطوان . وفيها آبنساريوم هو

* Capitole هيكل جوبيتير القائم على احدى التلال السبع في رومة القديمة .
** Hôtel de Ville مقر بلدية باريس ، وقد بديء بنائه عام ١٥٣٣ وأتم عام
١٦٢٣ ثم جدد ووسع في عهد الملك لويس فيليب ، ثم اتت عليه النار عام ١٨٧١ فأعيد
بناؤه من عام ١٨٧٢ - ١٨٨٢

*** parthénon هيكل ايلنا الشير الذي زخره بدياس .

**** كاتدرائية نوتردام دو باري الشهيرة .

***** Mont - Aventin احدى التلال السبع التي بنيت عليها مدينة رومة .

السوربون . وفيها باتتيوت * هو البانتيوت . وفيها
 « طريق مقدس » ** هو جادة الايطاليين . و « برج رباح » *** هو
 الرأي العام : وهي تعوض عن الـ « جيمونيا » **** بالسخرية . إن
 « ماجو » ***** باريس هو المفناج ؛ وإن الـ « ترانستيفرينو »
 فيها هو ابن الضواحي القديمة ، وإن حملها ***** هو رجل السوق
 القوي ، و « لازارونها » ***** هي جماعة القصوص بوصفها طبقة
 اجتماعية ؛ والـ « كوكني » ***** فيها هو الشاب المتأنق المضحك .
 إن كل ما تقع عليه في سائر المدن موجود في باريس . فبائعة سمك
 « دومارسيه » ***** تستطيع ان تحافظ على مركزها امام
 بائعة اعشاب يوريبيديس . وفيجانوس قاذف القرص يحيا من
 جديد في شخص فوربوسو الراقص على الحبال . وثيرابونتيغونوس ميل

* Panthéon هيكل شهر شيد في وسط ساحة مارس برومة وقد اتم بناءه
 فيباليوس آغريا . اما باتتيون باريس فأثر باريسي مشيد على « الطراز الاغريقي الجديد »
 ما بين ١٧٥٤ و ١٧٨٠ .

** Via Sacra طريق رومة من البالدين الى الكاينول مرأ بالفوروم ، وكان
 يسلكه اللامحون والمتحرون .

*** Tour des Vents وقد شيد آندروليغوس في اثينا (القرن الاول قبل الميلاد)
 على شكل مشن الزوايا وجعل على كل وجه من وجوهه صورة بحمة تمثل هذه الريح
 او تلك .

**** Gémonies في رومة القديمة ، سلم تهيئ الجانب الشمالي للفرق من جبل كاينولين
 حيث تعرض جثث المحكوم عليهم بالموت ويثا يقذف بها الى نهر التير .

***** majo لقب يطلق على التأتلين في اسبانية الجنوبية .

***** Transtévérin لفظ كان يطلق في رومة على مكان ما وراء التير .

***** وردت هذه الكلمة هكذا في الاصل الفرنسي مرسومة بالحرف اللاتيني Hammal

***** Lazzarone كلمة يطلقها اهل نابولي على أحط طبقات الشعب .

***** Cockney لفظة انكليزية تعني القندي الجاهل وتطلق بخاصة على الحلي

المعروف بالـ East End

***** Dumarsais كالب ونحوي فرنسي (١٦٧٦ - ١٧٥٦)

يستطيع ان يخفي ويده في يد فادبونكيو رامي القنابل . وداماسب
 المتاجر بالتخف على سبيل الاتفاق خليف به ان يكون سيّداً في
 الدكاكين التي تبيع السلع الجيدة والرخيصة في وقت معاً . وجدير
 بفانسان * ان تلقي القبض على سقراط كما تضع الـ و آغورا ، **
 ديدرو في صندوق حديدي . ولقد اكتشف غريمو دو لا رينير لحم
 البقر المحترق المطبوخ بدنه نفسه كما اخترع كورنيلوس القنفذ المشوي .
 ونحن نرى من جديد تحت منطاد قوس النجمة ، ذلك المربع المنحرف
 الذي تحدث عنه بلوتوس *** . واكل الأسياف الذي التقاه آبولوس
 **** في الـ و بوسيلوم ، ***** هو مبتلع السيوف ذوات الحد
 الواحد في الـ و بون نوف ، . وابن اخت و رامبر ، *****
 و كور كيليون ، ***** الطفلي بشكلان زوجاً . ويقوم ديفروفوني
 بتقديم إرغاسيلوس في صالون كامباسيريس ***** . وفي استطاعة المرء ان
 يرى شبان رومة الاربعة المعجيين بأنفسهم ، آلسيجارثوس ، وفودروموس
 وديابولوس ، وآغريبا ، عبطون الـ و كورتي ***** في مركبة برید

* Vincennes مدينة فرنسية في شمالي فرنسا ، شرقي باريس ، ولها قصر اثري وكنيسة
 بالغة الجمال .

** Agora لفظ يطلق على الساحة الرئيسية في المدن الاضريقية القديمة .
 *** Plaute شاعر هزلي لاتيني (٢٥٠ - ١٨٤ ق م)
 **** Apulée كاتب لاتيني من اهل القرن الثاني للميلاد .
 ***** Poecillum رواق في آتينا مزدان بالرسوم الفنية .
 ***** Rameau مؤلف موسيقي فرنسي (١٦٨٣ - ١٧٦٤)
 ***** Curculion هو بطل مسرحية هزلية للشاعر اللاتيني بلوتوس تحمل اسمه .
 ***** Cambacérés سياسي فرنسي (١٧٥٣ - ١٨٢٤) كان رئيساً لمؤتمر
 الوطني بعد يوم ٩ ترميدور (أو ٢٧ تموز سنة ١٧٩٤ وهو اليوم الذي أسقط فيه
 روببير وانتهى عهد الارهاب)
 ***** La Courtille حي من احياء باريس القديمة اشتهر بكثرة حافاته .

لابانوت . ولم يقف آلوس جيلوس * أمام كونفرير أطول بما وقف شارل نوديه ** امام بولشبنيل *** . إن مارتون ليست نيرة ، ولكن بارداليسكا لم يكن تيناً . ونرى بانتولابوس المهرج يضحك من نومتانوس المنغمس في اللذات في المقهى الانكليزي ، وهيرموجينوس **** صادقاً في الدنان زيليزيه ، وحوله ثراسيوس الشحاذ في زي يويش ***** يجمع الصدقات . والملاح الذي ينشبت بأزوار ملايك في التويلري بعيد الى ذاكرتك ، بعد ألفي عام ، كلمة تيزبريون : ***** *quis propterantem me prehensit pallio* إن خير سورين تفلد خير ألبا ***** ، ووازن حافة ديسوجيه الحمراء كأس بالاترون الضخمة . وتطلق مقبرة دالاب لاشيز ، ***** تحت وابل الامطار الليلية البوارق المتوهجة عينها التي كانت تطلقها ال « أسكيليز » ***** وقبر الفقير الذي يشقى خمس سنوات يساوي نعش للعبد المستأجر . حارول أن تسمي شيئاً لا يوجد في باريس . إن دن

-
- * Aulus Gellius غروي وناقد لاتيني من اهل القرن الثاني للبلاد .
 ** Nodier أديب وكاتب سير فرنسي (١٧٨٠ - ١٨٤٤)
 *** نمودج من فاذاج الشخصية الكوميديّة ، وهو في غرنة ذو حدة خلفية وحدة امامية وقبة ذات قرنين الخ . وقد سبق التعريف به .
 **** Hermogenus خطيب يوناني من اهل القرن الثاني للبلاد .
 ***** Bobéche مشعوذ فرنسي كان يلبي الناس باعمال الرخافة . وقد اشتهر في عهد الامبراطورية وعهد عودة آل بوربون الى العرش .
 ***** من الذي يملك بيتي في الحال ؟
 ***** Alba Longa مدينة في لاتيوم القديمة كانت منافسة لرومة ، وقد دمرتها المدن المجاورة خلال حكم الملك الروماني طالوس هوستيلوس .
 ***** Père - Lachaise هي مقبرة باريس الرئيسية ، وقد سبق التعريف بها .
 ***** Les Esquilles حدائق أنشأها ميسين الفارس الروماني على احدى تلال رومة السبع شرقي المدينة واقام وسطها دارة (فيلا) ضخمة .

تروفونيوس * لا يحتوي على شيء غير موجود في وعاء
كمنر ** الحشي الصغير . ويُنعت إرغافيلاس *** حياً في شخص
كاغليسترو **** . ويتجسد قاساقانتا للبرهمي في الكونت دو سان
جيرمان ***** . وتجتوح جبانة سان ميدار من العجائب الخيرة قدور
ما يجتوحه المسجد الاموي في دمشق .

إن لباريس « إيزوب » ***** هو مايو ***** ، وكانيديا هي الآنة
لينومار ***** . إنها تقف مشدودة مثل دلف ***** أمام

* Trophonius معمار بارع انشا معبد دلف . وقد أسمى النار الذي دين به
هيرا بهواته الآمية الكاشفة من الغيب .

** Meomer طبيب آلامي ، واضع نظرية القوة المغناطيسية الحيوانية المعروفة بـ
« المسرية » . ولقد اقام عدة سنوات في باريس حيث تدفق المرضى واهل
الفضول على « وعائه الحشي » ليشهدوا مسر يقوم حوله بمختلف العابه المغناطيسية .
*** Ergaphilas منحوذ قديم .

**** Cagliostro مشرذ وطبيب ومشتغل بالسر والتنجيم (١٧٤٣ - ١٧٩٥) وهو
إيطالي لقي نجاحاً كبيراً في قصر لويس السادس عشر وفي المجتمع الباريسي الرافئ في
ذلك الحين ولعب دوراً كبيراً في الحركة الماسونية .

***** Le comte de Saint Germain مفامر شهير ، ولله يهودي من اصل برتغالي ،
توفي عام ١٧٨٤ ولقد ادعتى بلاط لويس الخامس عشر بالثقة التي كان يزعم بها انه
عاش في القرن السادس عشر . ثم انه طرد من فرنسا فتنحى الى الكثرة فالروسيا
فألمانيا . وكانه كاغليوسترو - الوارد ذكره في الحاشية السابقة - يتباهى بأنه تفينه .

***** Esopé مؤلف أمثال يوناني ، وكان شخصية نصف اسطورية يتلونها قبيحة
تسامة محدودة .

***** Mayeux شخصية ابتكرت بعد ثورة ١٨٣٠ . وكان مايو ، الحرس
الوطني برغم حديثه الزدوجة ، يمثل على نحو كاريكاتوري بورجوازية ذلك العهد للذين
تتردد على السنتيم دائماً كلمتا الدستور والمواطن وغيرها .

***** Lenomard وكانت تدعى القدرة على كشف الغيب من خلال اوراق
اللب . (١٧٧٢ - ١٨٤٣)

***** Delphes مدينة اغريقية قديمة على سفح جبل براس حيث كان لابلون
مبكل يرسل النبوءات والمواقف الالهية .

حقائق الرؤيا الساطعة . إنها 'تدمير الطاولات كما كانت دودون * 'تدمير
الأناني' المثلة القوائم . إنها تتوج العامة المغناج كما كانت رومة تتوج
البغي' البقة الذكية . وخلاصة القول ، اذا كان لويس الخامس عشر
اسوأ من كلوديوس ** فقد كانت مدام دوبارتي *** خيراً من
ميسالين . **** وإنما تجمع باريس في طراز واحد رائع كان له وجود
حقيقي وقد دفعنا بمرفقه فعلاً ، المرئي الاغريقي ، والقرحة العبرية ،
والمزاج الفاسكوني ***** المستفح . إنها تمزج ديوجين ، وأيوب ،
وباتياس ***** ، وتلبس احد الاشباح ثوباً من أعداد صحيفة
« الدستور » ، ***** القديمة ، ونضع شودروك دوكلو .

وعلى الرغم من ان بلوتارك ***** يقول « إن الطاغية لا
يشيخ أبداً » فإن رومة في عهد سيلاً ***** ، وفي عهد دوميتيان

* Dodone مدينة قديمة في « ايبر » جنوبي مقدونية ، وكان بها هيكل لجوبيتر
غرب غابة من السديان .

** Claude الأول ، امبراطور روماني حكم من عام ٤١ الى عام ٥٤ للميلاد .
تزوج أولاً من ميسالين ثم من آغريين . وكان ذا عصر طيب وضع قوانين لتطلق
بسلطه على العبد الارقاء ولكنه وقع تحت سلطان زوجته التي ما لبثت ان سمته .

*** Madame du Barry محظية لويس الخامس عشر وقد سبق التعريف بها
(١٧٤٣ - ١٧٩٣)

**** Messaline زوجة الامبراطور كلوديوس الاول وكانت مشهورة بفجورها وفسوقها .
***** نسبة الى غاسكونيا ، المقاطعة الفرنسية القديمة .

***** Paillasse احدى شخصيات المسرح المشي في نابولي .
***** Le Constitutionnel صحيفة متحررة انشئت عام ١٨١٥ ، وقد وجهت
هجمات عنيفة ضد حكومة شارل المائثر مهدت لثورة ١٨٣٠

***** Plutarque المؤرخ اليوناني المعروف (٤٥ أو ٥٠ - حوالي ١٢٥ م .)
***** Sylla و Domitian امبراطوران رومانان .

أفغنت وخفقت من غلوائها . كان التير نهراً أشبه بـ « لينيه » . *
 إذا كان لنا ان نصدّق المروية النظامية ، بعض الشيء ، التي لفظها
 فاروس فييسكوس : *Contra Gracchos Tiberim habemus . Bibere Tiberim* :
 إن باريس تشرب مليون ليترو ماء كل يوم ولكن *id est seditionem oblivisci*
 هذا لا ينمها في بعض المناسبات من ان تدقّ ناقوس الخطر .
 ومع هذا كله فباريس ولد طيب . انها تقبل كل شيء في أبهة .
 وهي غير شكة في ما يتصل بفينوس . ان « كاليسيج » ** باريس
 هو تنوّقي *** الطابع . إنها تفخر ، شرط ان تضعك . إن
 البشاعة لتُنهجها . وإن الدمامة لتوقع السرور في نفسها . وإن الرذيلة
 لتلفت انتباهها . كن مضحكاً وعندئذ يكون من الجائز ان تصبح
 وتعدّأ . حتى الرياه ، ذلك السفه الوضيع ، لا تتور باريس عليه . وهي
 أديبة التزعة الى حد يجعلها لا تسد أنفها أمام باسيل **** ولا تجفل من
 صلاة تارتوف ***** أكثر مما اجفل هوراس ***** من 'فواق' (حازوقة)
 بريابوس ***** . والواقع ان صورة باريس الجانية لا يُغوزها أي من

* *Léthé* احد انهار جهنم ، في الميثولوجيا ، ومعنى اسمه « النسيان » . ذلك ان
 الاشباح تشرب من مياهه لكي تنسى الماضي نسياناً تاماً .
 ** *Callipyge* اسم لاحتد بمائل فينوس موجود في منحوت نابولي .
 *** نسبة الى الهوتنتوت *Hottentots* وهم شعب من شعوب الطريقة الجتوية نصير
 القامة ذو بشرة سمراء ضاربة الى الصفرة .
 **** هو بطل مسرحية « بومارشيه » الهزلية : « حلاق اشيلى » . وقد أمسى
 رمزاً للمرائي الملائف الطمّاع .
 ***** *Tartuffe* بطل مسرحية شهيرة لموليير وهو يتل شخصية الرجل المرائي ايضاً .
 وقد « مضرت » هذه المسرحية في فجر النهضة الحديثة ومثلت باسم « الشيخ متلوف » .
 ولا تزال شخصية الشيخ متلوف الى اليوم تصوّر الورع الكاذب والتلّى الخادع .
 ***** *Horace* الشاعر الروماني الشهير (٦٥ - ٨ ق م)
 ***** *Priapus* إله الجنائش والبرائش ، ثم إله الحب والتناسل . وكان ابن
 اخوس وفينوس .

ملاحع الوجه الملكي . إن مرقس مابي * لا يعرف رقص الجانيكولوم ** البولييسي *** ولكن مؤجرة الملابس هناك تنتهم بعينها الحساء السهل القيادة كما كانت « ستافلا » القوادة تراقب العذراء « بلانيزيوم » تماماً . وال « باربير دو كوما » ليس كولوسيوم **** ولكنه يتكشف عن قدر هائل من الوحشية وكأن قيصر نفسه كان يشهد الحفلة . وصاحبة الحان السوربة أكثر ملاحاة من الام ساعيه ، ولكن اذا كان فيرجيل قد اختلف الى الحانة الرومانية فان دافيد دانجيه ***** وبالزواك ***** وشارليه ***** يتخذون بحالهم في الحارة الباريسية . إن باريس لتقبض على ازمة السلطان . إن العبقريات لتسطع في سحائها ، وان العذائر الحمراء الملفة لتزدهر في ربوعها . ويزادونيس هناك بركبته البارقة الراحدة ذات الاثنتي عشرة عجلة . ويدخلها سيلينوس ***** على أتانه . ذلك أن سيلينوس قد قرأ رامبونو ***** إن باريس مرادف الكون . باريس هي اثينا ، ورومة ،

-
- * Mabile مرقس باريسي شهير مطع نجمة من عام ١٨٤٠ الى عام ١٨٧٥
 ** Janiculum رابية قرب نهر التير في رومة .
 *** نسبة الى بولييمنيا Polyhymnia عروس الترانيم الرفيمة او الاعادي المقدسة .
 **** Coliseum مدرج رومة العظم حيث كان الثقاتلون يضطربون ، وحيث كان يقذف بالمسيحين طعاماً للوحوش .
 ***** David d'Angers مثل فرنسي شهير (١٧٨٨ - ١٨٥٦)
 ***** Balzac الكاتب الفرنسي الكبير ، مؤلف « الأب عوريو » و « اوجي غرانديه » . (١٧٩٩ - ١٨٥٠)
 ***** Charlet رسام فرنسي برع برسم المشاهد العسكرية (١٧٩٢ - ١٨٤٦)
 ***** Silenus ابو باخوس بالرضاع وقد جعلته الميثولوجيا الاغريقية مخرج الاولاد .
 ***** Ramponneau مؤسس حانة « الطفل الملكي » المشهورة في باريس .
 (١٧٢٤ - ١٨٠٢)

وسياريس * ، وبيت المقدس ، وبانتين ** . إن حقب الحضارة كلها لماثلة فيها على نحو موجز ، وكذلك جميع عهود البربرية ايضاً . وخليق بباريس أن يستبد بها الفيظ لو لم تعرف المقصة .
 إن قليلاً من ساحة غريف *** لمقبول ، إذ اي شيء كان يمكن ان تنتهي اليه تلك الحياة المرحاة الصاخبة كلها من غير ذلك التتيل ؟ لقد احتاطت قوانينا ، في كثير من الحكمة لذلك . وبفضلها يقطر الدم من ذلك الساطور فوق هذا الكارنافال العام .

١١ سخرية وحكم

وفي باريس لا حدود ولا قيود . إن أباً من المدن الاخرى لم نعرف هذا السلطان الذي جزأ في بعض الاحيان بأولئك الذين يخضعهم لأمرته . « لكي أرضيكم ، ايها الاثنيون ! » كذلك هتف الاسكندر . ولكن باريس تذهب الى ابعد من وضع القوانين . إنها تضع « الموضة » ، بيد انها تذهب الى ابعد من وضع « الموضة » ايضاً . انها تضع « الروتين » . وقد تتباله باريس اذا بدا ذلك حسناً في عينيها . فهي تميز لنفسها هذا الترف أحياناً . وعندئذ يغدو الكون كله أبله معها . ثم ان باريس تستيقظ ، وتترك عينيها ، وتقول : « أنا بلهاء ؟ » وتنفجر ضاحكة في وجه الجنس البشري . اي اعجوبة هي هذه المدينة !

* Sybaris مدينة ايطالية قديمة أسسها الاخيون سنة ٧٢٠ ق . م وكانت ذات تجارة زاهرة افادت عليها ثروات هائلة جعلت اهلها ينغمسون في الشهوات .
 ** Pantin محلة قرب باريس تكثر فيها المصانع .
 *** Place de Grève ساحة الاعدام في باريس .

ما أغرب أن نلتقي هذه الأشياء العظيمة كلها وهذه الأشياء المضحكة وتتناغم ، وأن لا يُزعج هذا الجلال كله من هذا التزوير المازيء كله ، وأن يكون القم نفسه قادراً على أن ينفخ اليوم في صور القيامة وينفخ غداً في زمارة منه بضعة درجات ! إن لباريس مزاجاً مرحاً مطلق السلطان . ان ابتهاجها لمن الصاعقة ، وان أضحاحها لتحمل صولجاناً . وقد تنطلق أعاصيرها من تقطيب وجه . ان انفجاراتها ، وأيامها الحامسة ، وروائعها ، وأعاجيبها ، وملاحمها ، لتمضي الى اقاصي الكون ، وكذلك كلامها المتهافت الذي يعوزه المنطق والترابط . ان ضحكها هو فوهة بركان يصيب رشاش الأرض كلها . وان مزاحها الحاجن تشرر . انها تقرض كاريكاتورها على الشعوب ، كما تقرض مثلها الاعلى . وأسمى آثار الحضارة الانسانية تتقبل سخرياتها ، وتغير خلودها لاقوالها الداعرة . انها شائعة . ان لها يوم ١٤ تموز الاعجوبي الذي يحور الكرة الارضية . وهي تحمل جميع الأمم على ان تقسم بين ملعب التنس * . ان ليها في ٤ آب ليبدد في ثلاث ساعات ألف عام من الاقطاعية . إنها تجعل من منطقها عضل الارادة الأجماعية . إنها تضاعف نفسها تحت مختلف اشكال السموت . إنها تملأ بأشعاعها واشطون ، وكوسبيو-سكو ** وبوليفار ***

* Serment du Jeu de Paume البين التي أقسمها ، في ٢٠ حزيران سنة ١٧٨٩ نواب طبقة الدوام على « ان لا يتفرقوا قبل ان يعطوا فرنسا دستوراً » ، وكان الملك قد حظر عليهم الاجتماع في قاعهم المألوفة فانتقلوا الى قاعة مجاورة تعرف بقاعة « ملعب التنس » وأقسموا البين هناك .

** Kosciuszko جنرال بولوني (١٧٤٦ - ١٨١٧) فاضل طويلاً من اجل تحرير بلاده من سيطرة الروسا البصرية .

*** بطل من ابطال الاستقلال وحركات التوحيد في اميركة الجنوبية وقد سبق التعريف به .

وبوتزاريس * وريغو ** وبم *** ومانين **** ولوبيز *****
 وجون براون ***** وغاريبالدي . إنها في كل مكان يتوهج فيه
 المستقبل . في بوسطون عام ١٧٧٩ ؛ وفي جزيرة سان ليون عام ١٨٢٠ ؛
 وفي بينث عام ١٨٤٨ ؛ وفي بايرمو عام ١٨٦٠ . إنها تهمس بالشعار
 الجبار ، الطوية ، في آذان دعاة تحريم الاسترقاق الاميركيين المجتمعين
 في المركب في هاربرز فيري ، كما تهمس به في آذان وطني آنكوت
 المجتمعين في الظلام في آرشي ، أمام فندق غوزي على شاطئ البحر . إنها
 تخلق كاناريس ***** . إنها تخلق كيروغا ***** . إنها تخلق بيزاكان .
 وهي تشعّ العظمة على الارض كلها . واذا كان بايرون قد قضى نحبه في
 ميسولونغي ***** ، واذا كان مازيه قد قضى في برشلونة فلأنهما قد انطلقا

* Botzaris احد ابطال حرب الاستقلال اليوناني . (١٧٨٨ - ١٨٢٣)
 ** Riego جنرال وطني اسباني (١٧٨٥ - ١٨٢٣) وقد مات قتلاً بأمر
 الملك فرديناند السابع .
 *** Bem جنرال بولوني (١٧٩٥ - ١٨٥٠) ابلى بلاءً حسناً في القتال ضد
 النموسيين والروس خلال الثورة الهنغارية عام ١٨٤٩ .
 **** Manin وطني ايطالي (١٨٠٤ - ١٨٥٧) رئيس جمهورية البندقية عام
 ١٨٤٨ وكان مناضلاً للبطرة النموية .
 ***** Lopez رجل دولة باراغواي (١٨٢٧ - ١٨٧٠) تولى رئاسة الجمهورية .
 وقد ناضل ، في عناد ، ضد الارجنتين والبرازيل .
 ***** John Brown داعية اميركي من دعاة الغاء الرقيق (١٨٠٠ - ١٨٥٩)
 وقد شقّق لأنه دعا الرنوج الى اعتناق الحسام ، وكان موته سبباً في انفجار حرب
 الانفصال .
 ***** Constanstin Canaris ملاح يوناني (١٧٩٠ - ١٨٧٧) استشهد في حرب
 الاستقلال .

***** Antonio Quiroga جنرال اسباني (١٧٨٤ - ١٨٤١) قائد القوات
 الدستورية ايام ثورة ريفو التي اشير اليها من قبل .
 ***** Missolonghi مدينة يونانية اشترت بصمودها الاسل في وجه الاتراك
 عام ١٨٢٢ ، و ١٨٢٣ ، و ١٨٢٥ وكان الشاعر الانكليزي بايرون متطوعاً آنذاك
 في صفوف الثوار .

الى حيث دفعتهما رياحا . إنها منبر تحت قدمي ميرابو ، وفوهة بركان تحت قدمي روبسبير . إن كتبها ، ومسرحها ، وفنها ، وعلمها ، وأدبها ، وفلسفتها هي الأصول التي ينهل منها الجنس البشري . إن عندها باسكال ، ورينيه ، وكورني ، وديكارت ، وجان جاك ، وفولتير لكل لحظة ، وموليير لكل عصر . إنها تجعل الفم الكورني يتكلم بلغتها ، وتنتهي تلك اللغة الى ان تصبح كلمة الله . إنها تنشئ في جميع العقول فكرة التقدم . والعقائد الجوهرية المحررة التي تصوغها ، هي الاجيال سيوف لا تسمو عليها سيوف ؛ وإنما بروح مفكرها وشعرائها صنع جميع الابطال في جميع الشعوب ، منذ عام ١٧٨٩ ؛ ولكن ذلك لا يحول بينها وبين أن تمثل دور المشرد . وهذه العبقرية الهائلة التي ندعوها باريس ، حتى وهي تخلق العالم بضيائها خلقاً جديداً ، ترسم بالفحم أنف بوجينييه على جدار هيكل نيزيه * وتكتب كويندوفيل **القص** على الأهرام .

إن باريس لتبدي نواجزها دائماً . فهي إما مزججة أو ضاحكة . تلك هي باريس . إن أدخنة سطوحها هي أفكار الكون . وكأم من الوحل والجماعة ، إذا شئت ، ولكنها فوق ذلك كائن أخلاقي . إنها أكثر من عظيمة ؛ إنها غير متناهية . لماذا ؟ لأنها تتجراً . المرأة . هذا هو ثمن التقدم .

إن جميع الفتوح الجليلة هي ، كثيراً أو قليلاً ، ثواب المرأة . فلم يكن كافياً - لكي تندلع الثورة - ان يتنبأ بها مونتيسكيو ، ويبدشرها ديدرو ، ويعظنها بومارشيه ، ويبدبها كوندورسيه ** ،

* Thérèse بطل اغريقي ، وهو شخصية نصف اسطورية تصل اعمالها البطولية بأعمال هرقل البطولية .

** Condorcet فيلدف ورياضي فرنسي (١٧٤٣ - ١٧٩٤) لعب في الثورة دوراً بارزاً ثم نجرع السم في عهد الارهاب ، اجتناباً للعقصة .

ويمتد لها آرويه * ويتعمدها روس . كان من الضروري ان
يجرؤ عليها دانتون .

إن تلك الصيحة « الجؤأة ! » ** هي ضرب من الـ *fiat lux* *** .
والحق أن تقدم الجنس البشري الى الأمام يقتضي ان تلتهم القمم التي
حواله بدروس في الشجاعة نبية دائمة . إن الجراءات لتذهل للتاريخ ،
وهي تشكل أحد أنوار الانسان الهادية . والفجر يشعراً حين يبرزغ .
الكفاح ، واقتحام الاخطار ، والمثابرة ، والاصرار ، والاخلاص للذات ،
والمصارعة مع القَدَر ، وإذهال الهزيمة بالذعر البير الذي تنزله بنا ،
ومواجهة القوة الفاشية حيناً ، ونحدي الطغور النشوان ، والصدود ،
والمقاومة - تلك هي الأمثلة التي تحتاج اليها الامم والنور الذي
يكهرها . ان البرق الرهيب نفسه لينطلق من شعة بروميبوس ومن
بوق كامبرون **** الفخاري .

١٢

المستقبل كامن في الشعب

أما الشعب الباريسي ، حتى حين يبلغ مبلغ الرجال ، فهو « منتشر »

* يقصد لولتير .

** يقصد كلمة دانتون الشهيرة : « الجؤأة ! تم الجؤأة ! ودائماً الجؤأة ! » التي
وردت في خطابه الذي ألقاه في ٢ ايلول ١٧٩٢ والذي ألهم الجمية التشريعية ثم
ألهم ليرة كلها .

*** في اللاتينية ، ومعناها « ليكن نوراً » إشارة الى ما جاء في سفر التكوين :
« وقال الرب ليكن نور ، فكان نور . » فكان المؤلف يريد ان يقول : إن
صيحة دانتون تلك كانت بمثابة مولد النور في فرنسا .

**** راجع الفصل الخامس بكامبرون في الجزء الخامس .

من المتشردين دائماً . إنك إذا تصوّر الطفلَ تصور المدينة . ومن أجل ذلك درسنا هذا النسر من خلال ذلك الدؤوري الصريح .

إن العريق الباريسي ، ونحن نصرّ على ذلك ، إنما يوجد في الضواحي قبل كل شيء . هناك نقع على الدم الصافي ؛ هناك نجد السياه الحقيقية ؛ هناك يعمل هذا الشعب ويتألم ، والألم والكدح هما صورتا الانسان . هناك أعداد هائلة من الكائنات المجهولة تكثرُ فيها أغرب الناذج البشرية ابتداءً من مُتَوَلِّد البضائع من « لا راييه » حتى قصّاب مونفوكون . *Fax nobis* * كذلك يصبح شبّرون . فيضيف بورك ** الساخط : الرعاع . - التقطيع ، الجمهور ، السوقة . إن هذه الكلمات تُلفظ لفظاً سريعاً . ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فأيّ بأسٍ فيه ؟ وماذا يضيرني إذا كانوا يمشون خفاة ؟ إنهم لا يعرفون القراءة ؛ يا للخسارة ! أتتخلّى عنهم من أجل هذا ؟ اتجعل شفاهم لغةً عليهم ؟ الا يستطيع النور أن ينفذ الى هذه الجماهير ؟ فلنعدّ الى تلك الصيحة : النور ! ولنصرّ على ذلك ! النور ! النور ! ومن ذا الذي يستطيع ان يجزم أن هذه الكثافات لن تغدو شفافة ؟ البت للثورات تموتاً في الصورة الى ما هو أسى ؟ فامضوا ، ايها الفلاسفة ، علموا ، نوّروا ، أهبوا ، فكثروا جهاراً ، تكلموا جهاراً ، اهرعوا في جذل الى وضع النهار ، آخروا في الساحات العامة ، بشّروا بالانباء السارة ، انثروا ألفباءاتكم في سقاء ، أعلنوا حقوق الانسان ، أنشدوا المارسييز ، أبذروا الحماة ، إزعوا الاغصان الخضراء من شجر السديان ، إجعلوا الفكر إعصاراً . إن هذه الجماهير يمكن أن يُسمّى بها . فلنتعلم كيف نُفيد من اضطرام المباديء والفضائل الواسع هذا ، الذي يطلق الشرر ، ويفرقع

* في اللابيه ، وهي حثالة المدينة .

** Borko كتاب وخطيب انكليزي (١٧٢٩ - ١٧٩٧) اشتهر بدائه هزوة القرية .

ويوقع الشعريرة في بعض الفترات . إن هذه الاقدام الخافية ، هذه الاذرع العارية ، هذه الاسمال البالية ، هذه الجمالات ، هذه الحقارات ، هذه الكلمات ، يمكن ان 'تصطنع في النضال من اجل تحقيق المثل الأعلى . انظر' من خلال الشعب تلمح الحقيقة . إن هذا التراب الحبيس الذي تطأه بقدميك ، اذا ما قذفت به في الأتون ، وتركته يذوب ويفور ، يصبح بلوراً يبهز الأبصار ، وبفضله سوف يلمع غاليليو جديد ، أو نيوتن جديد فيكشف النجوم .

١٣

غافروش الصغير

بعد حوالي ثمانى سنوات او تسع سنوات انقضت على الاحداث التي رويناها في القسم الثاني من هذه القصة شوهد ، على د جادة التامبل ، وعلى مقربة من « شاتو دو » فنى صغير في الحادية عشرة او الثانية عشرة من العمر كان خليقاً به أن يحقق في دقة كبيرة المثل الاعلى للمتشرد ، الذي وصفناه آنفاً ، لو لم يكن - وضحكة عمره على شفقه - ذا فؤاد مظلم فارغ بالكلية . كان هذا الطفل يرتدي على نحو غريب بنطلون رجل ، ولكنه لبس بنطلوناً أخذه من أبيه ، و'صدرة' نسائية ذات ردين ، ولكنها لم تكن صدرة ورثها عن امه . لقد كساه نفر من الغرباء ، بهذه الاسمال صدقة وإحساناً . ومع ذلك ، فقد كان له أب ، وكانت له ام . ولكن أباه لم يفكر به قط ، وأمه لم تحبه قط . كان واحداً من أولئك الاطفال الجديرون بالشفقة من بين جميع أولئك الذين لهم آباء وامهات والذين هم - برغم ذلك - يتامى . ولم يكن هذا الطفل يستشعر فيضاً من السعادة إلا في الشارع . إن

حبيب الطريق كانت عنده أقل قوة من قلب أمه .

كان أبواه قد ألقياه في حضم الحياة بوفة .

وكان قد نشر جناحيه في كثير من البساطة ، وطار .

كان صيباً صاخباً ، شديد الشحوب ، رقيقاً ، نيبهاً ، ساخراً

تبدو عليه سيما من الحيوية والمرض في وقت واحد . كان يروح ويجيء

ويغني ، ويلعب لعبة النقش والطغراء ، * ويكشط السواقى ، ويسرق

قليلًا ، ولكنه كان يفعل ذلك في ابتهاج ، مثل القطط وعصافير

الدوري ، ويضعك حين يدعو الناس صيباً خالغ العذار ، ويفض

حين يدعوته صيباً زقاقياً . لم يكن عنده لا مأوى ، ولا طعام ، ولا

نار ، ولا حب ، ولكنه كان منتهجاً لأنه كان حرّاً .

وحين يكون هؤلاء الساكنين رجالاً تحتهم رضى نظامنا الاجتماعي

دائماً تقريباً ، ونسحقهم ، ولكن حين يكونون أطفالاً يفترون بأنفسهم

لأنهم صغار . إن اصفر الثقوب تنجيهم .

بيد أنه كان يتفق لهذا الولد في بعض الأحيان ، ان يقول لنفسه

كل شهرين أو ثلاثة أشهر ، برغم الإهمال الذي يجيا في غرفته : « إسمع ،

سوف أذهب وأرى أمي ! » ثم يغادر الجادة ، و « السيرك » و « باب

سان ماربان » ويحيط أروقة النهر ، ويمسح الجسور ، ويفتحي إلى

الضواحي ، ويمشي حتى إلى « السيرير » ويعمل - إلى ابن ؟ بالضبط

إلى ذلك الرقم المزدوج ، ٥٠ - ٥٢ ، الذي يعرفه القاري » ، إلى بيت

غوربو للمتيق .

في تلك الحقة ، كان البيت ذو الرقم ٥٠ - ٥٢ ، الخالي في العادة ،

المزدان على نحو مرمدي باللوحة القائمة « غرف للتأجير » - نقول كان

ذلك للبيت ، وهو رضع قادر ، أهلاً بعدد من الأشخاص الذين لم تكن

هي اللعبة التي ترمى فيها طعة تقود في الهواء ثم يقبض عليها باليد ، وعلى الشخص

الآخر مرفة وجهها .

لأحد منهم ، من جميع النواحي الأخرى ، كما هي الحال في باريس دائماً ، صلة أو علاقة بالآخر . كانوا كلهم ينتسبون الى تلك الطبقة البلدية التي تبدأ بالبورجوازي الصغير المُفسر ، وتهبط درجات البؤس في طبقات المجتمع الدنيا ، درجة درجة حتى تصل الى هذين المخلوقين اللذين تنتهي بهما أشياء التمدن المادية كلها : البلايمي الذي يكتس الوحل ، والحرقّي الذي يلتقط المِزق البالية .

كانت « المستأجرة الرئيسية » التي عرفها البيت في عهد جان فالجان قد ماتت ، وكانت قد خلقتها امرأة أخرى مثلها تماماً . ولست اذكر ايّ فيلسوف قال : « نحن لن نفتقر ابداً الى نسوة عجائز . » وكانت العجوز الجديدة تدعى مدام بورغون . ولم يكن في حياتها ما يلفت النظر غير سلالة من ثلاث بينفاوات تربعت واحدة اثر أخرى على عرش فؤادها .

وكان أشدّ سكان ذلك البيت للعتيق بؤساً أسرة مؤلفة من اربعة اشخاص - الاب والام وفتاتين في ميعة الصبا - يقطنون كلهم في علبة واحدة من تلك العلالي التي نحدثنا عنها من قبل .

ولم تكن تلك الاسرة لتبدلَ المرة ، للوهلة الاولى ، بشيء فريد غير عَوَزها المتطرف . وكان الاب قد اتخذ ، يوم استأجر الغرفة ، اسم جوندريت . ولم تنقُص فترة على انتقاله الى هناك - ذلك الانتقال الذي كان يشبه ، اذا اردنا ان نستعير تعبير المستأجرة الرئيسية الجدير بالذكر ، دخول لا شيء على الاطلاق - حتى قال جوندريت هذا لتلك المرأة التي كانت ، مثل العجوز التي سلفتها ، بوابة تكتس السلم في الوقت نفسه : « ابنتها الأم الفلانية ، اذا ما أقبل أحدٌ بالمصادقة وسأل عن رجل بولوني ، او ايطالي ، أو ربما عن رجل اسباني ، فأعلمي أنّي انا المنصود . »

كانت هذه الاسرة هي أسرة ذلك الصبي المرح الحافي القدمين ، وكان

إذا ما وصل الى هناك وجد الفقر ، والبؤس ، ووجد - وهذا أدعى الى الحزن - عيوساً موصولاً . كان يجد موقداً بارداً ، وقلوباً باردة . فاذا ما دخل سألوه : « من أين أتيت ؟ » فيجيب : « من الشارع » . حتى اذا فارقه سألوه : « الى اين انت ذاهب ؟ » فيجيب : « الى الشارع . » فتقول له امه : « ما الذي جاء بك الى هنا ؟ »

لقد عاش ذلك الطفل في انعدام الحنان مثل تلك الاعشاب الشاحبة التي تنبت في الاقمية . ان تلك الحياة لم تورثه المأما ، وانه لم يكن ليعقد على احد . كان لا يدري ، على وجه الضبط ، كيف ينبغي ان يكون الأب والام .

ومع ذلك فقد أحب امه وأخته .

ولقد نسينا ان نقول ان القوم كانوا ، في جادة التامبل ، يدعون هذا الغلام غافروش الصغير . لماذا سمي غافروش ؟ لعلّ مرد ذلك الى ان أباه كان يدعى جوندريت .

ان قطع الجيوط جميعاً هو ، في ما يبدو ، غريزة عند بعض الأسر البائسة .

لقد كانت الغرفة التي احتلتها اسرة جوندريت في بيت غوربو العتيق هي آخر غرفة في اقصى الرواق ، وكان يحتل الغرفة المحاذية شاب فقير جداً يدعى مسيو ماريوس .

فلنرَ من كان مسيو ماريوس هذا .

الكتاب الثاني

البورجوازي الكبير

١

تسعون عاماً واثنان وثلاثون سنة

في شارع بوشر ، وشارع نورماندي ، وشارع سانتونج ، لا يزال بضعة سكان قدماء يحتفظون بذكرى رجل عجوز يدعى ميسو جيلنورمان ويحبّون التحدث عنه . كان ذلك الرجل عجوزاً يوم كانوا في نضارة الشباب . وكانت هذه الصورة المظلمة عند أولئك الذين ينظرون في كآبة الى هذه الجهرة الغامضة من الظلال التي ندعوها الماضي ، لما تختف بعد من تيه الشوارع القائمة على مقربة من « التامبل » ، والتي خلعت عليها في عهد لويس الرابع عشر عشر أسماء مقاطعات فرنسة كلها ، كما خلعت

في ابامنا هذه اسماء عوامم اوروبه كلها على شوارع حيّ تيفولي الجديد .
تدوج* - ولتقل ذلك قولاً عابراً - يتجلى فيه التقدم .

وكان مسيو جيلنورمان ، الذي تمتع بالحياة قدراً ما تمتع بها أيما
رجل آخر ، عام ١٨٣١ ، واحداً من أولئك الرجال الذين أمسوا موضوع
فضول لجرّد أنهم عمّروا دهرًا طويلاً ، والذين تصكّنتهم الفرابية لأنهم
كانوا من قبل مثل أيّ إنسان آخر ، ثم غدوا الآن لا يشبهون احداً
البتة . كان شيخاً غريباً . وكان في الواقع من أهل جيل آخر ، فهو
يمثل بوجوازي القرن الثامن عشر الحقيقي ، الكامل المتعجرف بعض
الشيء ، اللابس بوجوازيه الطيبة المعجزة ، كما يلبس المراكيز*
مركيزيهم . كان قد تجاوز التسعين . وكان يشي منتصب القامة ،
ويتحدث بصوت مرتفع ، ويرى في وضوح ، وبشرب الخمر صرفاً ،
ويأكل ، وينام ، ويغط في النوم . وكان يحتفظ بأسنانه الاثنتين
والثلاثين جميعاً . وكان لا يصطنع نظاونه إلا عند القراءة . كان ذا
مزاج غرامي ، ولكنه قال إنه هجر النساء منذ عشر سنوات هجراً
كاملاً لا تردّد فيه . إنه لم يعد يُعجّب ، كذلك قال . وما كان
ليضيف : « أنا هرمٌ أكثر مما ينبغي » ، ولكن « أنا فقير أكثر مما
ينبغي . » كان يقول : « لو لم أكن متهدماً ، هيء ! هيء ! »
وكان دخله الباقي لا يتجاوز ، في الواقع ، خمسة عشر ألف ليرة تقريباً .
وكان يحلم بأن يفوز بأرث ، وأن ينعم بدخل مقداره مئة ألف فرنك
لكي يتخذ بعض الخيلات . إنه لم يكن من ذلك الضرب المريض من
ابناء الثمانين الذين كانوا يموتون ، مثل مسيو دو فولتير ، طوال حياتهم .
إن تعبيره** لم يكن تعبيراً لئيماً . وهذا المعجوز المرح كان
دائماً في صحة جيدة . كان سطحياً ، طيئاشاً ، سريع الغضب . وكان

* جمع مركيز .

** أي امتداد الاجل به حتى غدا هراً عجوزاً .

الحلق يستبد به في كل مناسبة ، واكثر ما يكون ذلك حيث لا يقتضي الموقف حنقا البتة . كان يرفع عصاه كلما اختلف امرؤ معه في الرأي ؛ وكان يضرب خدمه كما كانت الحال في العصر العظيم * ؛ وكانت له ابنة غير متروجة تبلغ من العمر الحسين ، وكان يضربها - حين يستبد به الغضب - ضرباً مبرحاً ؛ ويتمنى لو يُلَهَب ظهرها بالسياط . لقد كانت تبدو في عينيه وكأنها في الثامنة من العمر . وكان يصفع خدمه في عنف ويقول : « آه ، اينها الجيفة ! » وكانت احدى آياته : « قسماً ببابوج البابوجية الاكبر ! » وكان في بعض النواحي على سكينه فريدة . فهو يعهد في حلالة ذقنه ، كل يوم ، الى حلاق كان قد جنّ ، حلاق كان يكرهه لحسده مسيو جيلنورمان بسبب من زوجته ، وهي امرأة جميلة ، مفناجة . وكان مسيو جيلنورمان يعجب بفطنته الخاصة في جميع الحقول ، ويصرّح بذلكه الشديد . فن اقواله : « إن عندي شيئاً من نفاذ البصيرة حقاً . انا استطيع ان احزر ، حين يلدغني برغوث ، من اية امرأة قد جاءني ! » وكانت اكثر الكلمات تردداً على لسانه هي التالية : « الانسان الحساس » و « الطبيعة » . ولم يكن يضفي على هذه الكلمة الاخيرة المعنى الواسع الذي جعلته حقتنا لها . ولكنه كان يُقحمها على طريقته في أهاجيه الصغيرة المرسلة من زاوية الموقد . فيقول : « ان الطبيعة ، لكي يكون للعضارة شيء من كل شيء ، تعطيها حتى بعض النماذج من البربرية المسلية . فعند اوروبية نماذج من آسية وافريقية ، على صورة مصغرة . إن المرة هي نسيرة الصالون ، والحزدون هو غمّاح الجيب . إن راقصات الاوبرا متوحشات ورديات اللون . انهن لا يفترسن الرجال ، ولكن يعشن عليهم . أو بالاحرى ، فأن الساحرات يحولنهم الى عمارات ثم يبتلعنها .

* يقصد بالعصر العظيم عهد الملك لويس الرابع عشر .

إن قبائل الكارايب * لا تدع شيئاً غير العظام ، أما هاتيك الراقصات فلا يبقين شيئاً غير الاصداف . تلك هي عاداتنا . نحن لا نفترس ، ولكن نقرض . نحن لا نبيد ، ولكن ننشئ الاطفال .

٢

سيد كهذا جدير بمسكن كهذا

كان يقطن في ماريه ، شارع « فتيات كالفير » رقم ٦ . وكانت البيت ملكه . والواقع ان ذلك البيت كان قد هدم ثم سُيّد من جديد ، ولعل رقمه قد «غير» في ثورات الترقيم تلك التي تخضع لها شوارع باريس . ولقد احتل شقة عتيقة واسعة في الدور الاول ، بين الشارع والحدائق ، مغطاة حتى السقف بـ«بُسط» «غوبلين» و «بوفيه» تمثل مشاهد من حياة الرعاة . وكانت موضوعات السقوف والجدران تُكرّر في صورة مصغرة على الكراسي ذوات الاذرع . ولقد طوّق مريره بحجاب (بارافان) عريض ذي تسع أوراق مطلية بـ«بلك» كورومانديل . وكانت ستائر طويلة فضفاضة تدلى على النوافذ ، فتحدث طيات عريضة منكسرة رائعة . وكانت الحديقة ، الواقعة تحت نوافذه مباشرة ، متصلة بالزاوية التي بينها بسلم ذات اثنتي عشرة درجة او خمس عشرة درجة كان الرجل المعجوز يرتقيها ويهبطها في نشاط وجذل . وبالإضافة الى مكتبة ملاصقة لغرفته كان عنده جهّ نساءً أنيق يحرص عليه كثيراً - خلوة بهيجة مزدانة بالسجاد الرائع التبنّي اللون الموشى بازهار السوسن والمصنوع في سجون لويس الرابع عشر الخاصة بالمحكوم عليهم بالاشغال

* Caraïbes هم السكان الاصليون لجزر الآنتي الصغرى والشواطئ الاميركية المجاورة ، وقد انقرضوا اليوم أو كانوا .

الشاقة ، وقد أمر مسيو دو فيفون * نزلاء تلك السجون بأن يصنعوه لمخبطته .
وانما ورث مسيو جيلنورمان ذلك من اخت شرسة جلدته ماتت وعمرها
مئة عام . وكانت له زوجتان اثنتان . وكان سلوكه منزلةً وسطاً بين
رجل البلاط الذي لم يكنه ، وبين رجل القانون الذي كان يمكن ان
يكونه . كان مبتهجاً كريم النفس حين يشاء . وفي شبابه كان واحداً
من اولئك الرجال الذين 'يخدعون بزواجهم دائماً ولا 'يخدعون بتحليلاتهم
ابداً لانهم ابغض الازواج الى النفس واكثر الأحبة فتنةً ، في وقت
معاً . كان خبيراً بالرسم . وكانت في غرفته لوحة تمثل رجلاً مجهولاً من
عمل جوردين ** ، وقد أخرجت بضربات فرشاة جليطة وبلايين من
التفاصيل ، على نحو مضطرب ، وكأنما كان ذلك محض مصادفة . ولم
تكن ملابس مسيو جيلنورمان على غرار ملابس الملك لويس الخامس
عشر ، بل لم تكن على غرار ملابس الملك لويس السادس عشر . كان يرتدي
ملابس كملايس فتيان عهد القنصلية « الذين لا يصدقون » *** وكان
يحسب نفسه غضّ الاهاب ، حتى ذلك الحين . فهو يتبع الزي أنى
اتجه . وكانت ستوته من جوخ رقيق ذات ظهر عريض ، وذيل طويل
كذيل سمك « مورو » ، وازرار فولاذية ضخام . وكان يرتدي الى هذا
بنطلوناً قصيراً وحذاء ذا أبازيم . وكان يضع يديه ، دائماً ، في بعض
جيوبه . ويقول في نبوة ذي السلطان : « الثورة الفرنسية حكومة
من القصوص المسلحين » .

* de Vivonne مارشال فرنسة (١٦٣٦ - ١٦٨٨) ، ونائب الملك في صقلية عام
١٦٧٥ وقد ابلى بلاءً حسناً في معركة باليرمو البحرية .

** Jordaens رسام فلمندي (١٥٩٣ - ١٦٧٨)

*** incroyables وهو الاسم الذي اطلق في عهد القنصلية على جماعة من الشبان الملتكبين
المارضين ، المتكلمين في كلامهم وملابسهم . وكانوا يرتدون ثياباً خضراً مزدانة بازرار
ضخام وسترة طويلة مشقوفة تغطي نصف تغطية بنطلوناً ذا ثنيات .

٣ لوقا - الروح

ويوم كان في السادسة عشرة 'شرف ذات مساء ، في الاوبرا ،
بتعديق حسناوين اليه في وقت واحد ، وكانت هاتان الحسناتان قد تخطتا
آنذاك مرحلة الشباب ، وكانتا شهيبتين تفتن بهما فولتير : « لا كامارغو ،
و « لا ساليه » . واذ وقع بين ثارين ، فقد ارتد ارتداداً بطولياً الى
راقصة صغيرة - وكانت فتاة تدعى ناهيري يبلغ عمرها ستة عشر عاماً مثله
- خاملة الذكر مثل هرة ، قد شغفته حباً . كان مُفعماً بالذكريات .
وكان يهتف : « كم كانت جميلة ، غويمارد غويمارد غويمارد ينيث تلك ،
يوم رأيتها آخرة مرة في لونشان ، وقد غصّتها العواطف السامية ،
وازدانت بجليتها الغريبة المصنوعة من الفيروز ، وارتدت ثوباً لونه كلون
الاطفال الذين أبصروا النور منذ قريب ، وفي يديها وقاء من فرو
عصف به الاحتياج ! » وكان قد ارتدى في شبابه سترة من نوع
« اللندي القزم » كان يُكثر من التحدث عنها في طلاقة فيقول : « لقد
لبست كما يلبس تركي من المشرق المشرقي ! » ورأته مدام دو بوفليير
مصادفة ، وهو في العشرين من عمره ، فوصفته بقولها : « مجنون فاتن » .
وكان يهزأ بجميع الاسماء التي رآها على مسرح السياسة أو في مناصب
الدولة الرئيسية ، إذ كان يجدها وضيفة مبتذلة . كان يقرأ الجرائد ،
الصحف ، النشرات الاخبارية ، كما كان يقول ، وهو يكاد يَخْتَنق من
شدة الضحك ويقول : « من هؤلاء الناس ! كوربيير ! هومان !
كازيمير بيريه ! هؤلاء وزراء لكم . أنا التخيّل اني أرى ما يلي في
احدى الصحف : مسيو جيلنورمان ، وزيراً . سوف يكون ذلك
مضحكاً . حسن ! إنهم بلهاء الى حدّ يجعلهم قادرين على الرضا بذلك ! »

وكان يسمى كل شيء باسمه ، في حرية ، سواء أكان ذلك الاسم نظيفاً أم قذراً ؛ ولم يكن ليستشعر الحرج في حضرة النساء . كان يتألف من أشياء جلقة ، بذينة ، فاحشة بسكينة وبرود غريبين أنيقين . كانت ذلك ضرباً من « البساطة وعدم التكلف » اللذين عُرف بهما عصره . فما تجدر ملاحظته ان عصر الكنايات في الشعر كان عصر الفجاعات في النثر . لقد تنبأ جده بأنه سوف يغدو رجلاً عبقرياً ، وكان قد خلع عليه هذين الاسمين ذوي المغزى : لوقا - الروح * .

٤

يرجوان يعيش مئة عام

وكان قد ربح في شبابه عدة جوائز ، في كلية مولين ، وهي البلدة التي ولد فيها ، وثوَج بيدَي دوق نيفورنيه ، وكان يدعو دوق نيفير . ولم يستطع لا المؤتمر الوطني ، ولا مسوت لويس السادس عشر ، ولا نابوليون ، ولا عودة آل بوربون ، ان تمحو من ذهنه ذكرى هذا التتويج . كان دوق نيفير ، عنده ، أعظم شخصيات العصر . وكان يقول : « أي سيد عظيم ساحر ! وائي سجا رائعة له بوشاحه الازرق ! » وفي رأي مسيو جيلنورمان ، ان كاترين الثانية كفرت عن جريمة تجزئة بولونيا بشراء سرّ إكسير الذهب من بيستوشيف مقابل ثلاثة آلاف روبل . وهنا كانت تعرف هزة ، فيصيح : « إكسير الذهب ، صبغة بيستوشيف الصفراء ، قطرات الجنرال لاموت ، كانت الزجاجة الواحدة منها ، المتسعة لنصف أوقية ، تباع في القرن الثامن عشر بليرة ذهبية لويسية - الدواء العظيم لكوارث الحب ، العلاج الكلي لجميع الامراض الناشئة عن فينوس .

* احد الانجليين الاربعة ، ويُعتبر راعي الرسامين .

لقد أرسل لويس الخامس عشر مئتي زجاجة منه الى البابا . ، وكان الحق يستبد به والسخط يعصف به اذا ما قال له امرؤ إن اكسير الذهب ليس شيئاً غير بركاورور الحديد . وكان مسيو جيلنورمان يقدر آل بوروبون ، ويرتعد مشترئاً من ذكرى عام ١٧٨٩ . كان لا يفتأ يروي كيف نجا بنفسه اثناء عهد الارهاب ، وأي مبلغ من المرح والذكاء كان ينبغي ان يتكشف عنه لكي ينقذ رأسه من المقصلة . واذا ما خطر لاي شاب ان يطري الثورة في حضرته اسود وجهه واستبد به الغضب حتى الاغواء . ولقد كان يشير في بعض الاحيان ، من طرف خفي ، الى سنه البالغة تسعين عاماً ، ويقول : « لشد ما آمل ان لا ارى الثالثة والتسعين مرتين . » وفي احيان اخرى ، كان يوحى الى الناس أنه يعترم ان يعيش مئة عام .

٥

باسك ونيقوليت

وكانت له نظرياته . ودونك واحدة منها : « حين يحب امرؤ النساء حباً عارماً ، وتكون له زوجة لا يعنى بها الا قليلاً ، زوجة بشعة ، شرمة ، شرعية ، مولعة بتوكيد حقوقها ، جاثمة على القانون ، حسود عند الحاجة ، فليس له غير سبيل واحدة للخلاص من ذلك واقرار السلم ، وهي ان يلقي بأزمة صرة ماله الى زوجته . ان هذا التنازل يجعله حراً . عندئذ تشغل نفسها على نحو موصول ، وتقف ذاتها للاهتمام بالقطع النقدية ، مزنجرة بذلك أصابعها ، وتتولى تربية مستأجري الارض المشاركين في غلاتها ، وتروض الفلاحين ، وتدعو الهامين الى الاجتماع ، وتشرف على الكتاب العدول ، وتلقي الخطب في محرري العقود ، وتزور المحامين الصغار ، وتلاحق الدعاوى ، وتحرر الايجارات ، وتبلي العقود ، وتتشعر أنها صاحبة السلطة ،

وثبيع ، وتشترى ، وتنظّم ، وتأمر ، وتعدّ ، وتحلّ المشكلات بالتنازل عن بعض الحقوق ، وتعقد وتفسخ ، وتتخلّى عن أشياء ونسلّم بأشياء كانت موضع خلاف ، وتردّ بعض الحقوق ، وترتب ، وتبعثر ، وتقتصد ، وتبذر . إنها ترنكب الواناً من الحماقات - سعادة - آمرة وشخصية - وهذا ما يعزّيها . إنها ، وقد احتقرها زوجها ، تستمد الارتياح من العمل على خراب ذلك الزوج . « وهذه النظرية طبقها مسيو جيلنورمان على نفسه ، فأُمتست هي تاريخه . فقد دبرت زوجته - الثانية - أمر ثروته على نحو لم يُبق له حين وجد نفسه ، ذات يوم صاحٍ ، رجلاً أرمل ، (اذا 'حوّل كل شيء ' تقريباً الى راتب سنوي) ، غير دخلٍ مقداره خمسة عشر ألف فرنك لا بد ان ينفد ثلاثة ارباعها معه . ولم يتردد ، إذ ما كان ليعنى كثيراً بان يختلف ميراثاً . والى هذا ، فقد رأى الاخطار تحدق بالتركات ، وتصبح مثلاً بمتلكات قومية . كان قد شهد التغييرات الجوهرية التي طرأت على الفوائد التي تدفعها الحكومة للرهون التي لا تُردّ ، وكان قليل الثقة بالدفتراكبير المعروف بـ « الاستاذ » . وكان يقول : « سوف يؤول ذلك كله الى الى شارع كوينكامبوا . » * وكان بيته في شارع « فتيات كالفير » ، كما قلنا من قبل ، ملكاً له ؛ وكان عنده خادمان ، « ذكر وانثى » . وكان مسيو جيلنورمان يعيد تعييد الخادم حين يدخل بيته . وكان يخلع على الرجال اسماء مقاطعاتهم : نيموا ، كونتوا ، بواتفين ، بيكاردا . وكان خادمه الاخير رجلاً ضخّم الجثّة عاجزاً عن المشي ، مبهوراً ضيق النفس ، في الخامسة والחסين من العمر ، غير قادر على ان يركض عشرين خطوة ، ولكن لما كان قد ولد في بايون ، فقد خلّع عليه مسيو جيلنورمان اسم « باسك » . أما الخادما فكنّ « كاهن » يُسمّين في بيته نيقوليت (حتى مانبون ، التي ستظهر مرة اخرى في ما بعد) . وذات يوم وفدت عليه طاهية مفرورة

* rue Quincampoix شارع في باريس حيث كان يقوم مصرف « لو » الذي اغلق ابوابه بعد

ان افلس عام ١٧٢٠

ذات وشاح ازرق ، تنتسب الى جنس البوابين الرفيع . فسالها مسيو جيلنورمان : « كم تطلين في الشهر ؟ » - « ثلاثين فرنكاً » - « ما اسمك ؟ » - « اوليسي » - « سوف تأخذين خمسين فرنكاً ، وسيكون اسمك نيقوليت . »

٦

حيث نرى مانيون وصغيرها

كان الاسي يتوجّم ، في منزل مسيو جيلنورمان ، الى غضب . وكان الغيظ يعصف به حين يستشعر اليأس . كانت له اهواؤه المختلفة ، وكان يبيع لنفسه كل شذوذ . وكان من بين الاشياء التي أقام على أساسها رونقه الخارجي وارتياحه الباطني ، كما أشرنا آنفاً ، أنه لا يزال غزيراً ناضر العود ، وأنه يُقبَلُ في قوة على أنه كذلك . وكان يدعو ذلك « تمتع المرء بشهرة ملكية » . ولكن الشهرة الملكية عادت عليه في بعض الاحيان بهدايا فريدة . فقد حمل اليه ذات يوم ، في سلة مثل سلال الحمار ، صبيّ بدينٍ ابصر النور منذ قريب . وكان هذا الصبيّ يصرخ مثل الشيطان ، وقد لُفّ بالاقمطة على أحسن وجه . وكانت خادمةٌ طردت قبل ستة أشهر تقول إنه ولده . وكان مسيو جيلنورمان قد اتمّ آنذاك عامه الرابع والثمانين . واستبدت السخبط بالحاشية ، وأطلقت صيحات الاحتجاج . وهل حبت هذه العاهرة الوقعة ان ثمة مخلوقاً يمكن ان يصدق هذا ؟ يا لها من جسارة ! يا لها من فريسة قبيحة ! اما مسيو جيلنورمان فلم يُظهر شيئاً من الغضب . لقد نظر الى الاقمطة في ابتسامة محببة كابتسامة رجل وجد في القرية إطراء له . وقال وكأنما يخاطب شخصاً وهمياً : « حسناً ، ماذا ؟ ما هذا ؟ »

ما المسألة ؟ ما الذي عندنا هنا ؟ انتم في حالة لطيفة من الدهش ،
 وتبدون مثل شعب جاهل فعلاً . إن دوق آنفوليم ، وهو ابن سيفاح
 من صاحب الجلالة شارل التاسع ، تزوج في الخامسة والثمانين بامرأة بلهاء
 في الخامسة عشرة من العمر . وان مسيو فيرجينال ، مركيز آلوي ،
 أخا الكاردينال دو سورديس ، كبير اساقفة بوردو ، رُزق - وهو في
 الثالثة والثمانين ، ومن خادمة لزوجته الرئيس جاكاب - ولدًا ، ولدًا
 من اولاد الحب الحقيقيين أصبح في ما بعد فارساً من فرسان مالطة ،
 ومستشاراً للدولة من اهل الحمام . وأحد كبار الرجال في هذا القرن ،
 الأب تابارو ، كان ابن رجل في السابعة والثمانين من العمر . ان هذه
 الاشياء لا تعدو ان تكون عادية جداً . واخيراً ، الكتاب المقدس !
 وبناء على ذلك ، أعلن ان هذا السيد الصغير ليس مني . ولكن
 احيطوه بعنايتكم . إنها ليست غلطته . ، وكانت العملية سهلة جداً .
 فقدّمت اليه الخلوقة ، تلك التي تدعى مانبون ، هدية ثانية في السنة
 التالية . وكان المولود ذكراً ايضاً . وهذه المرة استسلم مسيو جيلنورمان.
 لقد ردّ الطفلين الى الأم ، واخذ على نفسه أن يدفع ثمانين فرنكاً
 كل شهر لأعالتهم ، شريطة ان لا تعود تلك الأم الى مثلها مرة ثانية .
 وأضاف : و اريد ان تحسن الأم معاملتهما . سوف اذهب لاراها بين
 الفينة والفينة . ، وهو ما قام به فعلاً . وكان له من قبل اخ كاهن
 ظلّ طرال ثلاثة وثلاثين عاماً رئيساً لاكاديمية بواتيه ، وقد توفي في التاسعة
 والسبعين من العمر . وكان مسيو جيلنورمان يقول : « لقد فقدته شاباً » .
 وكان هذا الاخ الذي كاد يُنسى ، رجلاً بخيلاً لين الجانب استشر بوصفه كاهناً
 انه مضطر الى ان يمنح الفقراء الذين يلتقيهم بعض الصدقات ، ولكنه ما
 كان ليعطيهم أبداً غير قطع نحاسية او فلوس فقدت قيمتها الشرعية ،
 واجداً بذلك وسيلة للذهاب الى جهنم من طريق الجنة . اما مسيو
 جيلنورمان ، الأرشد ، فلم يتخذ من اعطاء الصدقات تجارة ، ولكنه كان

يعطي عن طيب نفس ، وفي نبل . كان عطوفاً ، خفيف اليد ، محباً
 للاحسان ؛ ولو قد كان غنياً اذن لكان مملؤه خليفاً بأن يكون
 سامياً . كان يرغب في ان يكون كل ما يتصل به معمولاً على نطاق
 واسع ، حتى الفش والحداع . وذات يوم ، بعد ان سرقة احد رجال
 الاعمال ، في مسألة ميراث ، على نحو صفيق ملحوظ ، أطلق هذه
 الصيحة المهيبة : « تبا لك ! هذا شيء قذر ! أنا خجل جداً من هذه
 المخادعات الصغيرة . لقد فسد كل شيء في هذا القرن ، حتى الاندال .
 وحق الموت ، ليست هذه هي الوسيلة الى سرقة رجل مثلي . لقد
 سُـرِـقـت وكأنني في غابٍ ، وليكني سُـرِـقـت في خِـتة .
Sylvae sint consule dignae . وكانت له في وقتٍ ما ، كما ذكرنا ،
 زوجتان . وقد رُزق من الاولى فتاة ظلت غير متزوجة ، ورزق من
 الثانية فتاة اخرى توفيت في الثلاثين من عمرها وكانت قد تزوجت ،
 بحكم الحب او بحكم المصادقة ، جندياً ثرياً كان قد خدم في جيوش
 الجمهورية والامبراطورية ، وفاز بوسام لحسن بلائه في اوستوليتز ، ورُقي
 الى رتبة كولونيل في واترلو . وكان البورجوازي العجوز يقول :
 « هذا هو عارُ أمرتنا . » وكان يتنشق مقداراً كبيراً من السعوط ،
 وكانت له براعة فريدة في تفضين مقدم قميصه المخترم بظاهر يده . وكان
 لا يؤمن بالله إلا قليلاً .

٧

قاعدة : لا تستقبل احداً إلا في المساء

كذلك كان ميسو لوقا - الروح جيلنورمان الذي لم يفقد شعره

البتة ، الرماديّ اكثر منه أبيض ، والمسرّح دائماً على طريقة اذني الكلب . وعلى الجملة ، ومع ذلك كله ، فقد كان رجلاً جليلاً .
لقد كان يشبه القرن الثامن عشر : طيئاشاً وعظيماً .

وعام ١٨١٤ ، في السنوات الأولى لعودة آل بوربون الى العرش ، كان ميسو جيلنورمان - الذي كان لا يزال شاباً ، فهو لم يتجاوز آنذاك الرابعة والسبعين - يحيا في ضاحية سان جيرمان ، شارع سيرفاندوني قرب سان سوليس . ولم يكن قد انسحب الى شارع ماربه إلا حين اعتزل المجتمع بعد ان تخطى عامه الثمانين .

وإذ اعتزل المجتمع احاط نفسه بسور من عاداته . وكانت عاداته الرئيسية ، التي لم يشذ عنها قط ، هي إبقاء باب داره موصداً طوال النهار ، وعدم استقبال احد كائناً من كان ، ولأبداً مسألة من المسائل إلا في المساء . كان يتعشى في الساعة الخامسة ، ثم يفتح باب داره . كان ذلك هو الزمي الشائع في عصره ، وما كان ليتخلى عنه بحال . وكان يقول : « النهار مافل ؛ وليس يستحق غير المصاريع المغلقة . إن الناس الجديرين بالاحترام لا يضيئون ذكاهم إلا حين تضيء نقطة سمّت الرأس نجومها . » لقد تمسك متربصاً بكل انسان ، ولو كان الملك نفسه . تلك هي كياسة عصره القديمة .

٨

واحدة وواحدة لا تساويان زوجاً

أما ابنتا ميسو جيلنورمان فقد سبق منا الكلام عليهما . لقد وُلدت احدهما بعد ولادة الاخرى بعشر سنوات . وفي صباهما ، كان الشبه بينهما ضئيلاً جداً ؛ وكانتا لا توحيان سواء من حيث الشخصية او من

حيث الحيّا ، أنها شقيقتان . فأما الصغرى فكانت مرحة الروح يجذبها كل ما هو مشرق ، منهكةً بالأزهار والاشعار والموسيقى ، تواقفةً الى التحليق في الأجواء المهيبة ، شديدة الحماسة ، لطيفة ، مخطوبة منذ الطفولة ، في الخيال ، لشخصية بطولية غامضة . وأما الكبرى فكانت لها هي الاخرى اوهاما . ففي الاعماق اللازوردية كانت ترى مقاولاً ، بموّن جنودٍ طبيّاً ضخماً غنياً جداً ، زوجاً أبه على نحوٍ باهر ، رجلاً مليونيراً ، أو والياً . وكانت الحفلات المقامة في دار الولاية وحاجب غرفة الانتظار المطوّق عنقه بسلسلة ، والحفلات الرسمية الراقصة ، والخطب الملقاة في مقرّ العدة ، وأن تكون السيدة الوالية ، - كان ذلك كله يعصف في خيالها عصفاً . وكذلك تاهت الشقيقتان ، كلٌّ في حلمها ، يومَ كانتا فتاتين صغيرتين . كانت لكتيهما اجنحة ، فأما احدهما فكان جناحها مثل جناحي ملاك ، وأما الاخرى فكان جناحها مثل جناحي إوزة .

ولكنّ أياً من الآمال لا يتحقق تحقّقاً كاملاً ، هنا في هذه الدنيا على الاقل . إن أياً من الجنان لا تغدو أرضية خلال الفترة التي نعيشها . لقد تزوجت الصغرى فتى أحلامها ، ولكنها ماتت . أما الكبرى فلم تتزوج .

وكانت هذه ، عند دخولها القصة التي نرويها ، فضيلةً عجوزاً ، مخدّرةً غير قابلة للاحتراق ، أحد الأنوف الحادة على نحوٍ متطرف ، وأحد العقول التي لا يمكن ان يقع المرء على أغلظ منها . وظاهرةٌ مميزة : ففارجَ نطاق الأسرة المباشرة ما كان أحدٌ يعرف اسمها . كانت تدعى الآنسة جيلنورمان الكبرى .

ومن حيث الرياء كانت الآنسة جيلنورمان الكبرى خليقة بأن تتفوق على أيما آنسة انكليزية . كانت هي الحياء مغالياً في الشرّ ، وكانت لها في حياتها ذكرى رهيبة : لقد رأى رجلٌ ، ذات يوم ، رباط ساقها .

ولم ترد السنّ على ان ضاعفت من هذا الحياء القاسي الفؤاد . فاذا بشوْها المطرز يعن في الكثافة ، واذا به يعن في الارتفاع . لقد ضاعفت عدد الأباْزيم والدبابيس هناك ، حيث ما كان ليخطر في بال احد . أن ينظر . إن وجه الغرابية في خُلُق اللواتي يفرطن في الاحتواس في كل ما يتصل بالعفة أنهم يكثرن من عدد الحرس كلما كانت القلعة اقل تعرضاً للخطر .

ومع ذلك - وليفسّر من يستطيع التفسير ألغاز البراة القديمة هذه - فقد ارتضت ، من غير ما استنكار ، أن يقبلها ضابط من الرماحة ، هو ابنُ ابنِ عمها ، ويدعى تبيودول .

وبرغم هذا الرماح المفضل فإن لقب « المُحدّرة » الذي خلعهناه عليها يلائها ملائمة مطلقة . كانت الآنة جيلنورمان ضرباً من النفس الغسقية . إن المغالاة في التعلق بأهداب العفة هي نصف فضيلة ونصف رذيلة .

ولقد اضافت الى الغلوّ في التعفف التطرف في التقوى ، وهي بطانة منسجمة معه . كانت من اخوية العذراء ، فهي تصطنع تقاباً ابيض في بعض الاعياد وتتم ببعض الصلوات الخاصة ، وتعظم « الدم الطاهر » ، وتجلّ « القلب المقدس » ، وتسليخ ساعات من التأمل أمام مذبح يسوعي على الطراز القديم في كنيسة موصدة في وجه العوامّ من المؤمنين ، وتدع روحها لتحلق وسط سحائب الرخام الصغيرة ، ومن خلال اشعة الحُشب المذهب السابغة .

وكانت لها صديقة من صديقات العبادة ، وهي عانس مثلها تدعى الآنة فوبوا ، وكانت هذه الصديقة على غاية البلاهة ، فكان فؤاد الآنة جيلنورمان يطفح ، الى جانبها ، بسعادة ناشئة عن شعورها بأنها نسّر . وفي ما وراء ما كانت تردّده من الـ *Agnus Die* و الـ *Ave Maria* * لم تكن الآنة فوبوا - لتعرف شيئاً غير الاساليب المختلفة في صنع المربيات . لقد كانت الآنة فوبوا - الكاملة بين افراد نوعها - رمزَ البلاهة الحالي

* صلاتان ، وتعني الاولى « حَمَلُ الرب » والثانية « السلام عليك يا مريم . »

من إما مسحة من الذكاء .

ويتعين علينا ان نقول ان الآنسة جيلنورمان كسبت ببلوغها سنّ الشيخوخة اكثر مما خسرت . وتلك هي الحال مع الطبائع المطوعة المنفعة . انها لم تكن في يوم من الايام غنيّة ؛ وهي طيبة نسبية . والى هذا فان السنين تبلي الزوايا ، ولقد أدركها عامل الزمن الملطّف . كانت محزونة حزناً غامضاً لم تكن هي نفسها لتعلم سرّه . كان في كيانها كله خدرٌ حياة انتهت ولكنها لم تبدأ قط .

لقد دبرت منزل أبيها . فقد كان مسيو جيلنورمان يحيا الى جانب بنته ، كما رأينا مونسينور بيديفينو يحيا الى جانب اخته . وهذه الأسر المؤلفة من شيخ وعانس ليست شيئاً نادراً ، وانها لتوقع في النفس دائماً تلك الانطباعة المؤثرة التي يوقعها مشهد ضعفين يتوكأ احدهما على الآخر . وكان المنزل يضمّ فوق ذلك ، بين هذه العانس وهذا الشيخ ، طفلاً ، صبياً صغيراً يرتجف دائماً وينعقد لسانه أمام مسيو جيلنورمان . ولم يكن مسيو جيلنورمان ليكلّم هذا الطفل ابداً إلا في صوت فظّ ، وبمساعدة عصاً مرفوعة في بعض الاحيان : « هاي ! مسيو ! - ايها الوغد ، ايها الفاجر ، تعال الى هنا ! أجبني ايها الحقير ! دعني أراك ، يا من لا يصلح لشيء ! ، الخ . الخ . كان يحبه حباً جماً كان حفيده . ولـ سوف نرى هذا الطفل كرة أخرى .

الكتاب الثالث

الجدُّ والحفيد

١

صالون قديم

كان من دأب مسيو جيلنورمان ، يوم كان مقيماً في شارع
سيوفاندوني ، ان يتردد على عدد من الصالونات الفخمة جداً ، النبيلة
جداً . وكان يُستقبل في تلك الصالونات ، برغم انه بورجوازي . واذ
كان على ذكاء مضاعف ، ذكائه الذاتي والذكاء الذي كان يُعزى اليه ،
فقد كان رواد تلك الصالونات يلتصقون به ويرحبون به ترحيباً بالغاً . وما
كان ليذهب الى ايما مكان إلا على شريطة أن يسيطر هو على المجلس .
إن هناك رجالاً يرغبون في ان يفرضوا نفوذهم ، بأي ثمن ، ويجرحون

على لفت انتباه الناس اليهم . فحيث لا يستطيعون أن يكونوا جهابذة ناطقين بالحكمة ، يجهلون من أنفسهم مهرجين . إن مسيو جيلنورمان لم يكن من هذا الضرب من الرجال . فسيطرته على الصالونات الملكية التي كان يختلف إليها لم تكلفه شيئاً من احترام الذات . كان جهبذاً في كل مكان . ولقد قدّر له أن يقاوم مسيو دو بونالد ، بل ان يقاوم مسيو بنجي - بوي - فاليه نفسه .

وحوالى عام ١٨١٧ جرت عادته بأن يقضي فترة ما بعد الظهر مرتين كل اسبوع في منزل مجاور لمنزله ، بشارع فيرو ، عند البارونة دو ت..... ، وهي سيدة جليلة محترمة كان زوجها سفيراً لفرنسة في برلين في عهد الملك لويس السادس عشر . وتوفي البارون دو ت..... الذي وقف حياته على ضروب النشوة الروحية والرؤى المغناطيسية ، في ديار الهجرة ، مفتقراً حتى الافلاس ، غير مخلف غير عشرة مخطوطات مجلدة بجلد أحمر ، مذهب الحوافي ، تنتظم ذكرياته الغريبة عن مسمر * ووعائه الحشبي الصغير . ولم تشأ مدام دو ت..... ان تنشر المذكرات قط بدافع من الوقار ، وأعالت نفسها بدخل ضئيل لبس يدري احد كيف ثبت في وجه الطوفان . لقد عاشت مدام دو ت..... بعيدة عن البلاط - وهو مجتمع يتفاوت افواده تفاوتاً عظيماً في العادات والمركز الاجتماعي ، كما قالت - في عزلة نبيلة ، مختالة ، فقيرة . وكان نفر قليل من الاصدقاء يجتمعون حول نارها المتوملة مرتين في الاسبوع ، وهذا ما شكل صالوناً ملكياً متحصناً . كانوا يشربون الشاي هناك ، ويطلقون - وفقاً لهبوب الريح نحو الرثاء أو نحو الشعر الغنائي الحماسي - أنات الاسى أو صيحات الشنينة في وجه العصر ، وفي وجه الدستور ، وفي وجه البونايرتين ، وفي وجه تسليم الطاهيات الماهرات الى البورجوازيين ، وفي وجه نزعة لويس الثامن

* سبق التعريف به في الفصل العاشر من الكتاب الاول ، من هذا القسم ، فليراجع .

عشر اليعقوبية * . ولقد تلهّوا بالتهامس بالآمال التي كانوا يعلقونها على اخي الملك ، الثاني في تسلسل الاتحاد ، وهو الذي تولى العرش بعدُ فعرف بشارل العاشر .

وكانوا يستقبلون الاغاني السُّوقية التي تدعو نابوليون « نيقولا » بعاصفة من البهجة . وكانت بعض الدوقات ، اكثر نساء العالم رقةً وأشدّهن فتنة ، ينتشين بمقاطع مثل هذه موجهة « الى المتحالفين » ** :

« اغرزوا في سراويلكم مرة ثانية ،
اطراف القمصان التي تتدلى على اجسامكم ،
لكي لا يقولوا ان الوطنيين
قد رموا الراية البيضاء ! »

وتسلّوا بنكت جناسية اعتقدوا انها فظيعة ، وبتلاعب لفظي بريء .
حـبـوه سـاماً ، وبيعـض الرباعيات الشعرية ، بل وبيعـض النثائيات ، من مثل هذين البيتين اللذين قيلتا في وزارة دوسول *** وهي وزارة معتدلة اشترك فيها السيدان « دوказ » **** و « دوسير » :

« لكي تثبتوا المرش المتزعزع على قاعدته ،
يجب ان تميزوا الارض (de sol) والبرئن (de terre) والكوخ (de case) ***** »

* يقصد بالثورة اليعقوبية الثورة التحريرية نسبة الى جماعة « اليقافة » الشهيرة في تاريخ الثورة الفرنسية .

** يقصد بالمتحالفين هنا ، Fédération ، الحرس الوطني الذي غالف عام ١٨١٥ لثمرة آل بوربون .

*** Desolles جنرال فرنسي (١٧٦٧ - ١٨٢٨) وقد تولى رئاسة الوزارة عام ١٨١٨ . ولكن « دوказ » كان هو الرئيس الحقيقي للحكومة .

**** Decazes رجل دولة فرنسي (١٧٨٠ - ١٨٦٠) تولى رئاسة الوزارة ايضاً .

***** لاحظ الجناس بين قوله de sol واسم رئيس الوزارة Desolles وبين قوله de serre واسم الوزير Deserre ، وبين قوله de case واسم الوزير دوказ .

وفي بعض الاحيان كانوا يضعون لائحة باعضاء مجلس الاعيان ، ذلك المجلس يعقوبي الى حدّ قبيح ، ويرتبون الاسماء ، في تلك اللائحة ، بحيث تتألف منها مثلاً ، جل كهذه : * Damas, Sabran, Gouvion Saint-Cyr وكانوا يفعلون ذلك كله في مرح وابتهاج .

وفي ذلك العالم الصغير كانوا يقلدون الثورة ساخرين . وكان لديهم ميل غريب الى ان يشعذوا الغضب نفسه بمعنى معكوس . وهكذا أنشدوا أغنية ça ira على هذا النحو :

Ah ! ça ira ! ça ira ! ça ira !
Les buonapartist , à la lanterne ! **

ان الاغاني كالمفصلة . فهي تحتز الرؤوس في غير مبالاة : اليوم هذا الرأس وغداً ذلك الرأس ؛ انه مجرد اختلاف في النسخ .

وفي قضية فوبالديس *** التي ترقى الى ذلك العهد ، ١٨١٦ ، تعصبوا لـ « باستيد » و « جوسيون » لأن فوبالديس كان « بونابرتياً » . كانوا يسمون الأحرار « الاخوة والاصدقاء » وكانت تلك أعلى درجات التحقير . ومثل بعض ابراج الكنائس كان لصالون السيدة البارونة دو تـ ديكان اثنان . احدهما ميسو جيلنورمان ، والاخر الكونت دو لاموت فالوا

* أي : « داما » يطمئن بالسيف « غوفيون سان سير . » على اعتبار الجنس بين اسم Sabran عضو ذلك المجلس و Sabrant « اي طاعناً بالسيف » .
** أي أن انصار بونابرت سوف يشقون على رؤوس اعمدة الفوانيس ...
والاغنية في الاصل من اغاني الثورة ، وهي تقول في البيت الثاني :

Les aristocrates à la lanterne

وهكذا يكون رواد الصالون الملكي الذي يتحدث عنه المؤلف قد وضعوا كلمة « البونابرتيين » محل كلمة الارستوقراطيين ، اذ كان الملكيون - انصار آل بوربون - يرون في البونابرتيين عدوم الاول .

*** Fualdés حاكم فرنسي قتل في روديز عام ١٨١٧ (هكذا في معجم لاروس)
وقد احدثت الحاكمة الجنائية دويأ هائلاً في فرنسا كلها .

الذي كان القوم يتهامون حوله في ضرب من الاحترام : « اندري ؟ هذا هو لاموت Lamothe قضية العقد * . إن الحزبيين ليصابون بمثل فقدان الذاكرة هذا .

ولنصف أيضاً : إن رُتب الشرف ، عند البورجوازيين ، تتناقص من طريق الاتصال الميسر أكثر مما ينبغي . واذن فيتعين عليك أن تعرف من تستقبل . وكما يفقد المرء شيئاً من الحرارة في جوار أولئك الذين يشكون البرد كذلك يُعنى بنقص في الاعتبار اذا اقترب من المحقرين من الناس . والواقع ان المجتمع الارستوقراطي القديم جعل نفسه فوق هذا القانون كما وضع نفسه في سائر القوانين جميعاً . فقد كان ماريني آخر مدام بومبادور * يستقبل في صالون البرنس دو سوييز *** . على الرغم ؟ لا . لأنه . وكان دو باري ، عراب لا فوبرنيه ، يستقبل احسن استقبال في صالون المارشال دو ريشيليو **** . إن ذلك المجتمع

* قضية العقد فضيحة شملت الناس في فرنسا في السنوات التي سبقت الثورة الفرنسية (١٧٨٤ - ١٧٨٦) وتفصيل المسألة ان الكاردينال دو روهان كان يحرص على امتراء الملكة ماري انطوانيت فسمح للكويتيس دو لاموت Le Motte بأن تحدهه . ذلك ان هذه المرأة اوهمته ان الملكة ترغب اشد الرغبة في الحصول على عقد تبلغ قيمته مليوناً وستمئة ألف فرنك ولكن الملك يرفض ان يشتريه لها . فما كان من الكاردينال الا ان اشتراه لها ، وسلمه الى الكويتيس دو لاموت لكي تحمله الى الملكة . ولكن المقد اختفي . ولم يتمكن الكاردينال من دفع الثمن . واكتشفت المسألة ، فوضع في الباسيل ، ولكن البرلمان برأه فنفى من باريس ... ووضح ان الكويتيس لاموت Le Motte بطة هذه الفضيحة هي غير الكونت دو لاموت Lamothe « ديك » الصالون المشار اليه ... وهذا ما عناه المؤلف بقوله : ان الحزبيين يصابون بمثل فقدان الذاكرة هذا .

** المركيزة دو بومبادور Pompadour محظية لويس الخامس عشر . وكان اخوها ماريني Marigny (١٧٢١ - ١٧٨١) المدير العام لمبالي الملك .
*** Prince de Soubise مارشال فرنسا (١٧١٥ - ١٧٨٧) وكان خادماً مطواً للر كيزة دو بومبادور .

**** Maréchal de Richelieu مارشال فرنسا (١٦٩٦ - ١٧٨٨) لعب دوراً بارزاً في بلاطي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر .

اشبه بجبل الاولب . فيه يستشعر كل من عطارد * والبرنس دو غومينيه أنه في بيته . إن اللص يُسمح له في الدخول الى هناك ، شرط ان يكون إلهاً .

ولم يكن الكونت دو لاموت ، الذي أوفى عام ١٨١٥ على الحامسة والسبعين ، ليمتاز بشيء غير صمته وإفراطه في إطلاق الحكم والامثال ، ووجهه البارد ذي الزوايا ، وسلوكه المعصن في اللطف ، وسترته المزورة حتى ربطته عنقه ، وساقيه الطويلتين المتصالبين ابدأ في بنطلون طويل رخوي ذي لون كاون تراب « سينيا » ** المحروق . وكان وجهه من لون بنطلونه .

إن مسيو لاموت هذا كان « مبعثلاً » في ذلك الصالون بسبب من « شهرته » ، وبسبب من أن اسمه - وهو شيء غريب ، ولكنه صحيح - قالوا . ***

أما مسيو جيلنورمان فكان مديناً بالاحترام الذي أحيط به لشخصه وحده ليس غير . لقد فاز بالاحترام لأنه جدير بأن يفوز بالاحترام . كانت له - برغم مرحه ، ومن غير ان يكلفه ذلك شيئاً من ابتهاجه - طبيعة مهيبة ، وقورة ، نزيهة ، متفطرمة على نحو بورجوازي ؛ ولقد ظهرت شيخوخته ذلك وقوته . إن المرء لا يكون قرناً من الزمان على غير طائل . فالسنون تلبس الرأس ، آخر الامر ، تاجاً من الوقار .

والى ذلك كله ، كان يطلق بعض تلك الكلمات التي تنطوي من غير

* Mercure ابن جوبيتر ورسول الالهة . وكان هو نفع إله الفصاحة والتجارة والصوص . وهو يقابل « هرمس » عند الاغريق .

** sienne تراب حديدي يتخذ منه مادة صبغية تكون سمراء ضاربة الى الصفرة في حالته الخام ، فاذا ما أحرق استخرج منه صبغ اسمر ضارب الى الحمرة .

*** Valois على اسم الاسرة الفرنسية المالكة التي تولت عرش فرنسا عام ١٣٢٨ في شخص فيليب السادس .

ريب على شرر النسب العريق . وهكذا ، حين اقبل ملك بروسيا - بعد ان اعاد لويس الثامن عشر الى عرشه - لزيارته تحت اسم الكونت دو رويين استقبله المتحدرون من لويس الرابع عشر وكأنه مركيز من مراكزة براندبورغ ، تقريباً ، وفي جفاء بالغ الرقة . وأقرت مسيو جيلنورمان ذلك قائلاً : « إن جميع الملوك ، الذين لا يتربعون على عرش فونسة هم ملوك مقاطعات . » ولقد نطق بالسؤال والجواب التاليين في حضرته ، ذات يوم : « هم يحكم على محررال « كورييه فونسيه ؟ » - « بان تعطل جريدته » *à être suspendu* فما كان من مسيو جيلنورمان إلا ان قال : « ان *sus* هذه زائدة . » * إن اقوالاً من هذا النوع لتجعل للمرء مركزاً .

وفي « نسخة شكر » سنوية لمناسبة عودة آل بوربون الى العرش ، قال عند رؤيته مسيو دو تاليران : « هوذا صاحب الفخامة الشر . » وكان يوافق مسيو جيلنورمان ، عادة ، ابنته - هذه الآنسة التي تجاوزت آنذاك الاربعين وبدت وكأنها في الخمسين - وغلامٌ وسيم في السابعة ، أبيض ، متورد الوجنتين ، غض ، ذو عينين سعيدتين واثقتين ، كان لا يكاد يظهر في هذا الصالون حتى يسمع من حوله أزيزاً : « ما أجمل ! يا للخسارة ! يا له من طفل مسكين ! » وكان هذا الطفل هو الذي قلنا كلمة عنه منذ لحظة . كانوا يدعونه « الطفل المسكين ! » ، لأن أباه كان « قاطعاً من قطاع الطرق في اللوار » .

وكان « قاطع طريق اللوار » ، هذا هو صهر مسيو جيلنورمان ، الذي سبق ان اشرنا اليه ، والذي كان مسيو جيلنورمان يدعوه « عارأسرته » .

* يقصد انه كان ينبغي ان يحكم عليه بالشنق *être pendu* لا بتعطيل الجريدة فحسب *être suspendu* ، لان حذف السابعة *sus* من فعل *suspendre* ينقل المعنى من « التعطيل » الى « الشنق » .

احد اشباح ذلك العصر الحمراء.

إن كل من 'قدّر له ان يمر' ، في تلك الحلقة ، بمدينة فيرنون الصغيرة وان يسير على ذلك الجسر الجميل الفخم الذي نرجو ان يحل محله في وقت قريب جسر رهب من اسلاك الحديد ، قد لاحظ من غير ريب ، عندما خفض بصره من أعلى سور الجسر ، رجلاً في نحو الخمسين من العمر يعتمر بقبعة جلدية ذات حافة ناتئة ، ويرتدي بنطلوناً وصدره من جوخ رمادي غليظ خيط فوقها شيء اصفر كان في وقت ما عصابة حمراء ، وينتمل حذاء خشبياً ؛ رجلاً لو تحنه الشمس ، ذا وجه يكاد يكون أسود وشعر يكاد يكون أبيض ، على جبينه ندبة عريضة تمتد فتشغل جزءاً من خده ؛ رجلاً محدودب الظهر ، متقوساً ، أملت به الشيخوخة قبل الاوان يتمشى كل يوم تقريباً ، وفي يده إما مسحاة وإما مدبة لتشذيب الاغصان في أحد تلك البيوت المسورة المجاورة للجسر ، والمحيطه بضفة الـ « سين » ، اليسرى مثل سلسلة من السطائح - أحواش فاتنة ملأى بالرياحين يستطيع المرء ان يقول ، لو كانت اكبر كثيراً : انها حدائق ، ولو كانت اصغر قليلاً : انها باقات . وجميع هذه الاحواش تقضي ، من ناحية ، الى النهر ومن ناحية اخرى ، الى بيت من البيوت . وإنما كان الرجل ذو الصدرة والحذاء الخشي ، الرجل الذي تحدثنا عنه اللحظة ، يجيا حوالى عام ١٨١٧ في اصفر هذه الاحواش ، وفي اكثر تلك البيوت تواضعاً . كان يجيا هناك متوحداً منعزلاً ، يكتنفه الصمت والفقر ، مع امرأة ليست بالشابة وليست بالعجوز ، ليست بالجميلة وليست بالقبيحة ، ليست بالريفية وليست بالمدينية كانت تقوم على خدمته . وكان ذلك المربّع من الارض الذي يدعوه

حديقته شهيراً في المدينة بجمال ازهاره التي كان يتعهدا بعنايته . لقد كانت الازهار موضوع اهتمامه .

وبالاكتثار من العمل ، والمواظبة ، والانتباه ، ودلاء الماء ، ووفقاً الى ان يخلق بعد الخالق ، وكان قد اخترع بعض الزنايق والزهرات الذهبية التي بدت وكأن الطبيعة قد نسيتها . كان حاذقاً . ولقد سبق سولانج بودين الى تشكيل كتل صغيرة من التربة التي ينبت فيها الخللج لاستنبات بعض الشجيرات النادرة الثمينة المحلوبة من اميركة والصين . فما إن يرتفع الضحى ، من كل يوم ، في فصل الصيف ، حتى يكون في ممرات حديقته يحفر ، ويشذب الاغصان ، ويقتلع الاعشاب الطفيلية ، راوياً النباتات ، ماشياً وسط ازهاره في سبيل من الطيبة ، والحزن ، والرقه ، مستسلماً الى الاحلام في بعض الاحيان ، واقفاً لا يتحرك ساعات بكاملها ، مصفياً الى انشودة طائر على شجرة أو زقزقة طفل في بيت ، او محدقاً الى فطرة من ندى على طرف نصل من نصال العشب كانت الشمس تجعل منها ياقوتة جهرية . كانت مائدته مهزولة جداً ، وكانت يشرب اللبن اكثر مما يشرب الحمر . كان جديراً بالما طفل ان يحمله على الاستسلام ، وكانت خادمتة تؤنبه . كان خجولاً الى حد جعله يبدو كفوراً . وكان قادراً ما يغادر بيته ؛ وما كان ليرى احداً غير الفقراء الذين يخفقون زجاج نافذته بأصابعهم ، وغير كاهنه ، الأب مابوف ، وكان رجلاً عجوزاً طيباً . ومع ذلك فقد كان يفتح باب داره في ابتسامه كلما قرعه احد من ابناء المدينة أو من الغرباء ، كائناً من كان ، بحدوده الفضول الى رؤية زنايقه ووروده . ذلك كان « قاطع طريق اللوار » . وكل من قرأ ، في الوقت نفسه ، المذكرات العسكرية ، وسير

الرجال ، و « المونيتور » * ، وبلاغات « الجيش العظيم » ** الرسمية خليف « بأن يبدعه » اسم « كثيراً ما يتردد فيها ، هو اسم جورج بوغيرمي . ففي صدر الشباب ، كان جورج بوغيرمي هذا جندياً في كتيبة سينتونج . وانفجرت الثورة . وكانت كتيبة سينتونج تؤلف جزءاً من جيش الرين . ذلك ان كتاب النظام الملكي القديمة احتفظت باسمائها المنسوبة الى المقاطعات حتى بعد سقوط الملكية ، ولم توحد في ألوية إلا سنة ١٧٩٤ . وقاتل بوغيرمي في « سبير » ، و « وورمز » ، و « نويشتات » ، و « توركهائم » ، و « آلزي » ، و « ميانس » حيث كان احد المتين الذين شكلوا مؤخرة جيش هوشار *** . لقد صمد هو وأحد عشر مقاتلاً آخرين في وجه فيلق أمير هيس بكامله ، خلف متراس آندرناخ القديم ، ولم يرتد الى «مجماع الجيش إلا عندما احدثت مدافع العدر نفرة من أعلى السور الى منحدره . وكان تحت امرة كليبر في مارشيين ، وفي معركة مون باليسيل حيث كسرت ذراعه بقذيفة من بندقية . ثم انتقل الى الحدود الايطالية ، وكان احد رماة القنابل الثلاثين الذين دافعوا عن شعب تاند مع جوبير **** . ورقي جوبير الى رتبة

* Le Moniteur Universel الجريدة الرسمية للحكومة الفرنسية من السنة الثانية للجمهورية حتى عام ١٨٦٩ .

** هو الجيش الذي نظمه نابليون عام ١٨٠٤ ابتداء غزو بريطانيا ، اول الامر ثم وجهه لشن الحملات العسكرية التي قام بها عام ١٨٠٥ وعام ١٨٠٦ . (وبعد عام ١٨٠٦ أطلق على هذا الجيش اسم جيش الرين .) وقد خُلع هذا الاسم نفسه - الجيش العظيم Grande Armée - على الجيش الذي قاده نابليون عام ١٩١٢ ، الى روسيا .

*** Houchard جنرال فرنسي (١٧٣٨ - ١٧٩٣) هزم الانكليز في هوندشوت عام ١٧٩٣ ، ولكنه لم يطارده القوات المهزومة فاتهم بمداراة العدو ، وحُكمت عليه المحكمة الثورية بالموت على المقصلة .

**** Joubert جنرال فرنسي (١٧٦٩ - ١٧٩٩) أبلى بلاء حثاً تحت إمرة نابليون في الحملة الايطالية عام ١٧٩٦ .

جنرال معاون ، ورتي بونغيرسي الى رتبة ملازم ثانٍ . وكانت بونغيرسي الى جانب ييرتييه * وسط وابل القذائف الذي انصب في معركة لودي ** تلك التي قال نابوليون عنها : « كان ييرتييه مدفعياً ، وفارساً ، ورامي قنابل . » اقد رأى جنراله القديم ، جوبير ، يحرّ صريعاً في « نوفي » ، لحظة كان يصيح ، « شاهراً سيفه : « الى الامام ! » ، واذ ركب هو وسريرته ، بحكم ضرورات الحلة ، زورقاً شراعياً خفيفاً كان متجهاً من جنوا الى مرفأ صغير على الشاطئ . فقد وقعوا في وكر مؤلف من سبعة مراكب او ثمانية مراكب شرعية انكليزية . وأراد الربان ان يلقي بالمدافع الى البحر ، وان يجنب الجنود في الطبقة القائمة بين جسري المركب ، وينسل تحت جنح الظلام مثل سفينة تجارية . فما كان من بونغيرسي إلا ان ثبت الراية المثلثة الالوان الى حبال سارية العلم ، ومرّ تحتاً تحت مدافع السفن الحربية البريطانية . حتى اذا اجتاز عشرين فرسخاً من هناك هاجم بزورقه الشرعي واعتقل - وقد تعاضمت جسارته - ناقلة انكليزية ضخمة تحمل الجنود الى صقلية ، وكانت مثقلة بالرجال والحيل الى حد جعل كل زاوية فيها ملأى بمن تحمل ، حتى الفجوات المؤدية الى « عنبر » البضائع . وفي سنة ١٨٠٥ كان في فصل مالمرداك ، الذي انتزع غوتزبورغ من الارشيدوق فيرديناند . وفي وتجن تلقى بين ذراعيه ، تحت وابل من القذائف ، الكولونيل موبيني الذي اصيب بجراح مميتة على رأس كتية الفرسان التاسعة . ولقد أبلى بلاءً حسناً في أوستوليتز ، اثناء ذلك الزحف الرائع الذي انتشر فيه الجنود انتشاراً عميقاً ، تحت نيران العدو . وحين سقطت خيالة الحرس الامبراطوري الروسي فوجاً من كتية المشاة الرابعة التي يحارب جنودها مصطفين كان بونغيرسي بين اولئك الذين ثاروا لهذا الفوج

* Berthier مارشال فرنسا (١٧٥٣ - ١٨١٥) كان من اعوان نابوليون وقائداً من اكبر قواد « الجيش العظيم » .

** Lodi مدينة ايطالية اتصر فيها نابوليون على النمويين في ١٠ نوار ١٧٩٦

والذين هزموا ذلك الحرس . ومنحه الامبراطور صليب الحرب . وعلى
التعاقب رأى بوغيرسي الى وورمر* يقع أسيراً في مانتو** ، وميلاس***
يقع أسيراً في الاسكندرية ، وماك يقع أسيراً في أولم . كان يؤلف جزءاً
من القليل الثامن ، من الجيش العظيم ، الذي قاده مورنيه**** ، والذي
استولى على هامبورغ . ثم انتقل الى الكتيبة الخامسة والخمسين من كتائب
الجند المقاتلين مصطفين ، تلك التي كانت من قبل كتيبة الفلاندر . وفي
ايلو***** كان في المقبرة التي قاوم فيها الرئيس الباسل ، لويس هيجو ، عم
مؤلف هذا الكتاب ، هو وأفراد سريته وحدهم ، وعددهم ثلاثة وثمانون
رجلاً ، مجهود الجيش العدو كله طوال ساعتين كاملتين . وكان بوغيرسي
واحداً من أولئك الثلاثة الذين خرجوا من تلك المقبرة على قيد الحياة . ولقد
شهد معركة فريدلند ، ثم رأى موسكو ، ثم الـ « بيريزينا » ، ثم لوتزين ،
وبوتزين ، ودرسدن ، وفاساو ، وليبزغ ، وفجاج جيلينهاوزن ، ثم مونغراي ،
وشاتو تيري ، وكراون ، وضفاف المارن ، وضفاف الأين ، والوضع الرهيب
في لاون . وفي « آرنى لو دوك » ، وكان برتبة رئيس ، طعن عشرة من
الجنود القوزاق بسيفه ، وانقذ من الموت عريفه لا جنوا له . ولقد جرح
في تلك المناسبة ؛ ولقد استُخرجت سبع وعشرون سُلطة من ذراعه

* Wurmsier جنرال نموي (١٧٢٤ - ١٧٩٧) هزمه بونايرت في كامينغليون
واكرمه بعد ذلك على الاستسلام في مانتو .

** Mantoue مدينة في ايطاليا ، وقد استول عليها بونايرت ، بعد ان هزم وورمر

عام ١٧٩٧

*** Baron de Mélas جنرال لموي (١٧٢٩ - ١٨٠٦) هزمه بونايرت في

معركة مارانتو .

**** Mortier مارشال فرنسة (١٧٦٨ - ١٨٣٥) وقد خاض معركة فريدلند ،

ولوتزين ، وليبزغ .

***** Eylau مدينة في بروسية حيث هزم بونايرت (٨ شباط ١٨٠٧) القوات

البروسية والروسية .

اليسرى وحدها . وقبل استسلام باريس بثمانية ايام اجرى تبادلاً مع رفيق له ، ودخل سلاح الفرسان . كان له ما يدعى في النظام القديم «اليد المزدوجة» ، يعني انه كان بارعاً - بوصفه جندياً - في اصطناع السيف او البندقية ، وبارعاً - بوصفه ضابطاً - في قيادة كوكبة من الفرسان او فوج من المشاة . والحق ان هذه البراعة ، التي تنتهي بها الثقافة العسكرية الى حد الكمال ، هي التي تخلق بعض الاسلحة الخاصة ، كسلاح «التنانين» مثلاً الذي يتألف من جنود هم خيالة ورجالة في وقت معاً . لقد رافق نابليون الى جزيرة ألبا . وفي واترلو ، قاد كوكبة فرسان دارعين في لواء دوبروا . وكان هو الذي انتزع الراية من فوج لونبورغ . لقد طرح الراية على قدمي الامبراطور ، وكان مخرجاً بالدم ، فقد اصيب ، وهو ينتزع الراية ، بضربة سيف عبر وجهه . وصاح الامبراطور مخاطبته ، وقد غلبه السرور : « أنت كولونيل ؛ انت بارون ؛ انت ضابط في جوقة الشرف ! » واجاب بوغيرسي : « مولاي ، إني اشكرك بالنيابة عن ارملي » . وبعد ساعة سقط في وادي أوهين . فمن كان جورج بوغيرسي هذا ؟ لقد كان « قاطع طريق اللوار » ذاك نفسه .

لقد رويننا ، من قبل ، شيئاً من قصته . فبعد واترلو أخرج بوغيرسي ، كما نذكر ، من طريق أوهين الفائرة ووفّق الى اللعاق بالجيش ، فنقل من عربة إسعاف الى عربة إسعاف حتى بلغ معسكر الجند الموقت في اللوار .

وخضعت حكومة آل بوربون تعويضاته ، ثم ارسلته الى فيرنون ليقم فيها إقامة جبرية ، تحت الحراسة . وإذا انكر الملك - لويس الثامن عشر - كل ما تمّ خلال « الأيام المئة » ، فإنه لم يعترف لا بمنزلاته كضابط في جوقة الشرف ، ولا برتبته ككولونيل ، ولا بلقبه كـ « بارون » . أما هو فلم يغادر فرصة إلا وقّع فيها اسمه هكذا : الكولونيل البارون بوغيرسي . ولم يكن عنده غير سترة زرقاء عتيقة ،

وما كان ليخرج من بيته البتة من غير ان يعلّق عليها العقدة الوردية الشكل المؤذنة بأن حاملها ضابط في جوقه الشرف . وأعلمه النائب العام أن النيابة سوف تلاحقه لانه يزين صدره ، « على نحو غير شرعي » ، بهذا الوسام . فلما حمل اليه احد الوسطاء غير الرسميين هذا الاعلام اجابه بوغريسي في ابتسامة مريرة : « بخيل اليّ ان ثمة واحداً من امرين : إما ان اكون أنا لم اعد افهم الفرنسية ، وإما ان تكونوا انتم لم تعودوا تتكلمونها . ولكن الامر الذي لا ريب فيه هو اني لا أفهمكم . » ثم راح يخرج من بيته ، يومياً ، طوال اسبوع ، معلقاً تلك العقدة الوردية . ولكن احداً لم يجرؤ على إزعاجه . ومرتين او ثلاث مرات كتب اليه وزير الحرب أو الجنرال قائد القوات في المقاطعة موجهاً الخطاب على النحو التالي : « السيد الكومندان بوغريسي » . فكان يعيد الرسائل الى مصدرها من غير ان يفتّحها . وفي تلك الآونة نفسها كان نابوليون في سانت هيلانة يقف الموقف ذاته من رسائل « السير هدسون لو » المعنونة : الى الجنرال بونابرت . وأخيراً انتهى بوغريسي - وليغفر لنا القارئ هذه الكلمة - الى ان يجد في فمه اللعاب نفسه الذي وجده امبراطوره .

ولقد كان في رومة ، كذلك ، بضعة اسرى من الجنود القرطاجيين رفضوا الانحناء لفلامينيوس * وكانت تعتلج في صدورهم نفحة من روح هتيبيل .

وذات صباح التقى النائب العام في احد شوارع فيرنوث ، فمضى اليه وقال : « سيدي النائب العام ، هل يجاز لي ان احمل ندبتي ** ؟ »

* Flaminius قائد روماني (٢٣٠ ؟ - ١٧٤ ق . م) وقد تولى منصب (قنصل)

في عام ١٩٨ ق . م .

** الندبة : اثر الجرح الباقي على الجلد .

ولم يكن لديه غير نصف راتبه الهزيل جداً والذي كان يقدم اليه بوصفه قائد كوكبة فرسان ؛ ولقد استأجر اصغر بيت استطاع ان يجده في فيرنون . وهناك عاش وحده على النحو الذي وصفنا منذ لحظة . ففي عهد الامبراطورية ، بين حربيين اثنتين ، وجد متعماً من الوقت لأن يتزوج الانسة جيلنورمان . ولقد اقر البورجوازي العجوز ، الذي استبد به السخط ، ذلك الزواج ، وقال وهو يطلق زفرة : « ان اعظم الاسر تكوه على ذلك . » وفي عام ١٨١٥ ، توفيت مدام بونغيرسي - وكانت امرأة معجبة من كل ناحية ، مثقفة ونادرة المثال ، جديرة بزوجها - مخافة وراها طفلاً ، وكان هذا الطفل خليقاً بأن يكون بهجة الكولونيل في عزله ، ولكن الجد طالب بحفيده في صلف ، معلناً أنه إذا لم يفز به فسوف يحرمه الميراث . واذعن الأب حرصاً منه على مصلحة الفتى . حتى اذا حرم ابنه انشأ بحسب الرياحين .

والى ذلك ، فقد هجر كل شيء فهو لا يتحرك ، وهو لا يتأمر مع الآخرين . لقد وزع افكاره بين الاشياء البريئة التي يقوم بها ، والاشياء العظيمة التي قام بها . لقد سلخ وقته آملاً ان يبتدع قرنفلة ، او متذكراً اوسترلنيز .

ولم يكن لمسيو جيلنورمان ايما اتصال بصهره . كان الكولونيل ، في نظره ، « قاطع طريق » ، وكان هو ، في نظر الكولونيل ، « رجلاً متبلد الذهن » . ولم يتحدث مسيو جيلنورمان الى الكولونيل قط ، إلا لكي يشير ، في بعض الاحيان ، اشارات ساخرة الى « بارونيته » . وكان مفهوماً على نحو واضح جداً ان نونغيرسي يجب ان لا يحاول رؤية ابنه او التحدث اليه البتة ، والا تُطرد الفتى وحرم الميراث . لقد كان بونغيرسي عند آل جيلنورمان ، مصاباً بالطاعون . ولقد رغبوا في ان ينشئوا الطفل كما يحلو لهم . ولعل الكولونيل قد اخطأ في قبول هذه الشروط ، ولكنه اذعن لارادتهم معتقداً أنه يحسن

صنعاً ، وانه يضحي بنفسه ليس غير . ولم يكن ميراث جيلنورمان الجد شيئاً مذكوراً ، ولكن ميراث الانسة جيلنورمان الكبرى كانت ذا شأن . فقد كانت هذه الحالة التي ظلت عذراء ، مومرة جداً من ناحية أمها ، وكان ابن شقيقتها هو وريثها الطبيعي .

وعرف الطفل ، الذي يدعى ماريوس ، ان له أباً ولكنه لم يعرف شيئاً اكثر من ذلك . ان احداً لم يقل له كلمة عنه . ومع ذلك ، ففي المجتمع الذي كان جده يصطحبه اليه ، وفقت المهمات ، والتلميحات ، والغمزات الى ان تنور الفتى الصغير ، آخر الأمر . لقد انتهى الى ان يدرك شيئاً . وإذا تشرب على نحو طبيعي - بضرب من الترشع والتسرّب البطيء - الافكار والآراء التي شكلت ، اذا جاز التعبير ، مداه التنفسي ، فقد أمسى شيئاً فشيئاً ، لا يفكر بأبيه إلا في خجل وفي انقباض صدر .

وفما كان الفتى يشب على هذا النحو ، كان الكولونيل يفرّ - كل شهرين او ثلاثة اشهر - ويفدّ خلصة على باريس ، وكأنه مجرم قديم يغادر مكان إقامته الاجبارية ، ليمضي الى سان سوليس ، ساعة كانت الحالة جيلنورمان تصطحب ماريوس الى القداس . هناك كان يرى طفله ، وهو يرتجف خشية ان تلتفت الحالة الى الوراء ، ويختفي خلف احد الأعمدة ، جامداً لا يتحرك ، غير واجد في نفسه الجرأة على ان يتنفس . كان المحارب القديم ذو الندبة يخاف هذه العانس العجوز .

ومن هنا ، في الواقع ، نشأت صلته بكاهن فيرنون ، الأب مابوف . وكان هذا الكاهن الفاضل أنخاً لوكيل كنيسته سان سوليس ، الذي لاحظ ذلك الرجل ، عدة مرات ، يحدّق الى هذا الغلام كما لاحظ الندبة التي على خده ، والمعبرات الكبار التي في عينيه . وكان هذا الرجل - الذي كانت له سيماء رجل حقاً والذي بكى مثل امرأة - قد لفت انتباه وكيل الكنيسة . ولم يبرح ذلك الوجه ذاكرته . وذات يوم ، وكان قد شخص الى فيرنون ليرى اخاه ، التقى بالكولونيل

بونغورسي على الجسر فعرف فيه رجلاً سان سوليس . وحدث وكيل الكنيسة أخاه في ذلك ، فقام كلاهما ، تحت ستار ذريعة من الذرائع ، بزيارة الكولونيل . وأدت هذه الزيارة الى زيارات أخرى . وما لبث الكولونيل ، الذي اعتصم بادىء الامر بتحفظ شديد ، أن باح بمكنون صدره ، فعرف الكاهن روكيل الكنيسة القصة كلها ، وكيف ضحى بونغورسي بسعادته من أجل مستقبل ولده . وكان من نتيجة ذلك أن استشعر الكاهن إجلالاً له وحنواً عليه ، وان استشعر الكولونيل بدوره مودةً للكاهن . وإلى هذا ، فحين يتفق أن يكون كلٌّ من الكاهن القديم والجندي القديم مخلصاً وصالحاً ، فليس ثمة ما يتأزج ويلتغم أكثر مما يتأزجان ويلتغمان . إنها ، في الأساس ، ينتسبان الى ضرب واحد من الرجال . لقد وقف احدهما نفسه للوطن الذي على الارض ، ووقف الآخر نفسه للوطن الذي في السماء . ولا فرق غير ذلك . ومرتين كل عام ، في اليوم الاول من كانون الثاني وفي عيد القديس جورج ، كان ماريوس يكتب رسائل بنوية الى ابيه - رسائل كانت خالته تليها ، وكان في ميسور المرء ان يزعم أنها منقولة عن واحد من تلك الكتب التي تقدم الى الناس نماذج مختلفة من الرسائل الجاهزة . ذلك كان كلٌّ ما سمع به مسيو جيلنورمان . ولقد كانت الوالد يجيب برسائل تفيض حناناً كان الجد يقحمها في جيبه من غير ان يقرأها .

٣

« لقد رقدوا في سلام »

كان صالون مدام دو تـ كلٌّ ما عرفه ماريوس من العالم . كان الكوة الوحيدة التي استطاع ان يطل منها على الحياة . وكانت

هذه الكوة قائمة ، وكان يخترقها البرد اكثر مما يخترقها الدفء ، وينفذ منها الظلام اكثر مما ينفذ النور . وما لبث الطفل - الذي كان عند دخوله هذا العالم الغريب مجرد بهجة وضياء - أن أمسى عزوفاً ، وان أمسى - وهو ما يتناقض مع سنه اكثر - وقوراً وصيناً . لقد وجد نفسه محوطاً بجميع هؤلاء الاشخاص المهيبن الغريبين ، فراح ينظر في ما حوله بدهش جدي . وتضافر كل شيء لزيادة هذا الذهول . فقد كانت في صالون مدام دو ت سيدات عجائز نبيلات موقرات يُدعَيْن « ماثات » و « نوح » و « Lévis » التي كانت تلفظ « ليفي » ، و Cambis التي كانت تلفظ كامبيس . وامتزجت هذه الوجوه العتيقة وهذه الاسماء التوراتية في ذهن الطفل بـ « العهد القديم » الذي كان قد شرع يحفظه عن ظهر قلب . وحين كان عقدهن ينتظم في حلقة حول نار محتضرة ، وفي ضوء مصباح باهت مظلل بلون اخضر ، وقد بدت صورهن الجانبية الصارمة وشعورهن الرمادية حيناً ، للبيضاء حيناً آخر ، واثوابهن الطويلة التي جعلت لعصر آخر ، والتي ما كان في استطاع المرء ان يتبين منها غير الألوان الحدادية ، وراحت تندّ من افواههن بين الفينة والفينة كلمات فخيمة وكالحة في وقت معاً ، كان ماريوس الصغير ينظر اليهن بعينين مروّعتين حاسباً انه يرى لا نسوة ولكن آباءً ومجوساً ، لا كائنات حقيقية ، ولكن اشباحاً .

وبين هاته الاشباح انتثر عددٌ من الكهنة الذين كان من دأبهم أن يختلفوا الى هذا الصالون العتيق ، وعددٌ من الأشراف : المركيز دو ماسني ، سكرتير الاسعاف الخاص بـ « دو بري » ؛ والفيكونت دو فالوري الذي نشر تحت اسم « شارل انطوان » المستعار بعض القصائد الوحيدة القافية ؛ والبرنس دو بوفرومون الذي كان شعره قد خالطه الشيب برغم انه ما يزال شاباً والذي كانت له زوجة جميلة ذكية كان ثوبها المحملي القرمزي ذو الحواشي الذهبية الكاشف عن جزء غير

يسير من الصدر 'يُجفّل' هذه الظلمات ؛ والمركيز دو كوربوليس ديسلينوز ،
خير من فهم ، في فرنسا ، « الكياسة المتعادلة » ؛ والكونت داماندر
الرجل الطيب ذو الذقن الحيرة ؛ والفارس دو بور دو غي الكثير
التردد على مكتبة اللوفر المدعوة مكتبة الملك . وقد روى مسيو دو
بور دو غي ، الأصلع ، الهرم أكثر منه طاعناً في سنّ ، انه أرسل
في عام ١٧٩٣ ، حين كان في السادسة عشرة ، الى سجن الاشغال الشاقة
بوصفه « متردّاً » ، وقبّد بالحديد مع رجل في العقد التاسع من عمر
هو الاسقف ميربوا ، وكان متردّاً ايضاً ، ولكن ككاهن ، على حين
كان هو متردّاً كجندي . وكان ذلك في طولون . وكانت مهمتهما
ان يذهبا الى المفصلة ليلاً ، ويجمعا رؤوس اولئك الذين أعدموا ذلك
النهار وجثثهم . كانا يحملان هذه الابدان القاطرة منها الدم على ظهرهما ،
وكانت قلنسوتاهما الأشغاليتان الجراوان تعلوهما ، من وراء ، طبقة من
الدم ، جافة في الصباح ، ندبة في الليل . وكانت هذه الحكايات
الفاجعة تغزر في صالون مدام دو ت ... وبحكم الاكثار من لعن مارا *
انتهوا الى ان يصفقوا لـ « تريستايون » ** . ولقد لعب بعض النواب
الذين هم من نوع يتعذر وجوده لعبة الـ « هويست » * هناك : مسيو
تيبور دو شالار ، ومسيو لومارشان دو غوميكور ، ومتهكم البمين
الشهير مسيو كورنيه دينكور . وكان قاضي فوريت ، بينطلونه قصير
ورجليه المهزولتين ، يمرّ أحياناً بهذا الصالون في طريقه ، بيت مسيو
تاليران . كان رفيق اللهو للكونت دارتوا ؛ وعلى نقيض ارسطو الجاني
أمام كامباسب **** سحّل « لا غيار » ***** على ان رحف على يديها

* مارا احد وجوه الثورة الفرنسية البارزين ، وتريستايون احد زعماء المصايات
الملكية ، وقد سبق التعريف بها .

*** whist ضرب من لعب الورق .

**** Cambasbe او Pancaste خلية الاسكندر المقدوني .

*** Marie — Madeleine Guimard راقصة الاوبرا الفرنسية الشهيرة (١٧٤٣ - ١٨١٦)

ورجلها . وهكذا مكن الاجيال من ان ترى فيلسوفاً يثار له احد القضاة .
اما جماعة الكهان فكان يمثلها الأب هالما ، وهو الرجل نفسه الذي
قال له مساعده في « الصاعقة » ، مسيو لاروز : « عجباً ! ومن الذي لم
يبلغ الخمسين من العمر ؟ بعض الفلمان الاغوار ، وبما ! » ويمثلها ايضاً
الأب لوتورنير ، واعظ الملك ؛ والأب فريستينو الذي لم يكن قد أمسى
بعدُ لا كونتاً ، ولا اسقفاً ، ولا وزيراً ، ولا عضواً في مجلس الاعيان ،
والذي كان يرتدي ثوباً كهنوتياً عتيقاً يعوزه بعض الازرار ؛ والأب
كيرافتان ، كاهن سان جرمان دو بويه . والى جانب هؤلاء كانت السفير
البابوي ، وكان في ذلك الحين مونسنيور ماتشي ، وكبير اساقفة نيزبي
الذي اصبح بعدُ كاردينالاً ، والتميز بانفه الطويل المستغرق في التفكير ،
وصاحب سيادة آخر يحمل هذه الالقاب : « الآبات بالميري ، حبرٌ أهلي » ،
أحد القيمين السبعة المشاركين في مكتب الوثائق بالكرسي الرسولي ؛
كاهن قانوني في الكنيسة الملكية الليبرية ، محامي القديسين
Postulatore di Santi وهي رتبة يناط بها أمر إعلان القداسة ونعني تقريباً
مقدم العرائض الى قسم اللجنة . واخيراً كان ثمة كاردينالان : مسيو دو
لا لوزيرن ، ومسيو دو كليرمون تونير . وكان الكاردينال دو لا لوزيرن
كاتباً ، ولقد كان له بعد ذلك بسنوات شرف توقيع بعض المقالات في
صحيفة « المحافظ » *Conservateur* جنباً الى جنب مع شاتوريان . وكان
مسيو دو كليرمون تونير كبير اساقفة تولوز ، وكثيراً ما كان يفسد
على باريس لقضاء فصل الصيف فيها عند اخيه الماركيز دو تونير ،
الذي كان وزيراً للبحرية والحربية . وكان الكاردينال دو كليرمون تونير
عجوزاً قميء الجسم مرحاً يكشف عن جوربه الاحمر تحت ثوبه الكهنوتي
المرفوع . ومن فرائده كرهه الشديد للأنيسكلوبيديا * ، ولعبه اليائس في

* هي دائرة المعارف الشهيرة التي وضعها (١٧٥١ - ١٧٦٦) دالامبير وديدرو
بالاشتراك مع فولتير ، ومونتيسكيو ، وروسو وغيرهم . وقد كان لها ابد الاثر في تنوير
العقل الفرنسي والتنميد للنهضة .

البيلارد . وكان الناس الذين مرّوا في ذلك العهد ، في ليالي الصيف ، بـ « شارع السيدة » حيث كان آنذاك « فندق كليرمون تونير » يقفون لسمّعوا تصادم الكُرّات ، وصوت الكاردينال الحاد يصيح مخاطباً مساعده مونسينيور كوتريه ، اسقف كاريستا من غير أبرشية : « أنظر ، ايها الاب ، لقد أصبت الكورتين في وقت واحد . » وانما اصطحب الكاردينال دو كليرمون تونير ، اول مرة ، الى صالون مدام دو تـ حديقته المقدّم عنده ، مسيو دو روكلور ، اسقف سينليس السابق ؛ وأحد الاربعين الخالدين . وكان مسيو دو روكلور جديراً بالاعتبار لقامته الفارعة ومواظبته على حضور جلسات الاكاديمية . ومن خلال الباب الزجاجي ، قرب المكتبة ، حيث كانت الاكاديمية تعقد جلساتها آنذاك ، كان في ميسور الفضولين ان يروا ، كل خميس ، اسقف سينليس السابق واقفاً ، في الاغلب ، منضوحاً بالذرور منذ قريب ، مرتدياً جورباً بنفسيجياً ، موليّاً الباب ظهراً ، ولعل مراده من ذلك ان يُظهر قَبْتَهُ الصغيرة احسن ما يكون الأظهار . والواقع ان هؤلاء الاكاديميين جميعاً ، على الرغم من ان اكثرهم كانوا رجال بلاط بقدر ما كانوا رجال كنيسة ، زادوا في رصانة صالون دو تـ ، هذه الرصانة التي اكدها خمسة من اعضاء مجلس الاعيان الفرنسي هم المريكيز دو فيراي ، والمريكيز دو تالارو ، والمريكيز ديبوفيل ، والفيكونت دامبري ، والدوق دو فالانتينوا . وكان الدوق دو فالانتينوا هذا ، برغم انه امير موناكو ، يعني برغم انه امير أجنبي ، يُجِلّ فرنسا وهيئة اعيانها إجلالاً عظيماً الى درجة جعلته يرى كل شيء من خلالها . وكان هو الذي قال : ان الكوادلة هم « اعيان فرنسا » الرومانيون ، واللوردات هم « اعيان فرنسا » الانكليز . واخيراً ، ولما كان من الواجب ان تُثبت الثورة وجودها في هذا القرن ، في كل مكان ، فقد كان هذا الصالون الاقطاعي يسيطر عليه ، كما قلنا ، رجل بورجوازي . لقد تربّع مسيو جيلنورمان على العرش هناك .

كان ثمة جوهرُ المجتمع الباريسي « الشرعي » . فقد كان مجال بين كثير من الشخصيات الشهيرة ، على الرغم من نزعتها الملكية ، وبين الدخول اليه . فثي الشهرة فوضوية دائماً . ولو قد دخل شاتوبريان الى هناك ، اذن لترك مثل ذلك الاثر الذي يجدر بـ « الأب دوشين » * ان يتركه . ومع ذلك ، فقد تسرب بعض المنضوين الجدد تحت لواء الملكية الى ذلك العالم « الصحيح المعتقد » بشيء من التسامح . ولقد استقبل الكونت بونيو ، هناك ، بمتعة خاصة .

إن صالونات اليوم « النبيلة » لا تشبه تلك الصالونات على الاطلاق . فضاحية سان جيرومان الحاضرة تفوح منها رائحة المهرطقة . إن ملكي اليوم هم - ولنقلها إعجاباً بهم - دماغوجيون يتظاهرون بخدمة الشعب لاستمالة اليهم .

وفي صالون مدام دو ت ، حيث المجتمع رفيع سام ، كانت الذوق مصفى متشاحناً تحت زخرف عريض من الجمالة . وكانت عادات القوم هناك تقتضي مختلف ضروب الرقة ، المبالغ فيها ، على نحو لا إرادي : هذه الضروب التي كانت هي النظام القديم نفسه ، دفيناً ، ولكنه حي . وبعض هذه العادات ، في اللغة بخاصة ، كانت تبدو مضحكة . ولقد كان خليقاً بالملاحظين السطحيين ان يحسبوا كلاماً ريفياً بعض ما هو كلام عتيق ليس غير . فقد كان « قصائد ذلك الصالون يدعون امرأة ما : « السيدة الجنوالة » . ولم تكن « السيدة الكولونيل » خارج نطاق الاستعمال تاماً . وكانت مدام دو لبيوت الفاتنة ، إحياءً منها لذكرى دوق لونغفيل ودوقه شيفروز من غير شك ، تؤثر هذه التسمية على لقبها بوصفها أميرة . وكانت المركيزة دو كريكوي ، هي الاخرى ، تدعو نفسها « السيدة الكولونيلة » .

* *le Père Duchesne* صحيفة سياسية كان يصدرها « هيبير » اثناء الثورة الفرنسية ، وقد سبق التعريف بها .

كان ذلك المجتمع الصغير السامي هو الذي اخترع في التويلري تلك الدماعة التي تقضي بأن يقال دائماً ، حين يُتحدث الى الملك في ألفة : الملك ، بضمير الغائب ، وليس جلالتم على الاطلاق ، ذلك لأن هذا اللقب ، جلالتم ، قد « دنته الغاصب » .

كان القوم يجامون الحقائق والناس ، هناك . لقد سخروا من العصر ، وهو ما أسقط عنهم واجب فهمه . وكانوا يتعاونون على الدهش . كان كل منهم يُطلع سائر الجماعة على ما عنده من معرفة . كان مينوشالغ * يعلم أيبينيد . ** وكان الأصم يزود الأعمى بالانباء . ولقد أعلنوا ان الزمن الذي كرت منذ كوبلنتز *** لم يتصرّم قط . وكما كان لويس الثامن عشر ، بنعمة الله ، في السنة الخامسة والعشرين من سني حكمه ، فكذلك كان « المهاجرون » في السنة الخامسة والعشرين من شبابهم ، قولاً واحداً .

كان كل شيء متناغماً . إن شيئاً ما ، لم يكن حيويّاً اكثر مما ينبغي . كان الكلام نقشاً أو بكاد . وكانت الصحيفة ، المتساوقة مع الصالون ، تبدو وكأنها ورقة من اوراق البردي . كان ثمة شبان ، ولكنهم كانوا امواتاً بعض الشيء . وفي غرفة الانتظار ، كانت الخادومات عجائز . فقد كانت هذه الشخصيات ، التي ولى زمانها نهائياً ، تُخدّم بايدي أناس من الطراز نفسه . وكان ذلك كله تبدو عليه سيما من عاش منذ

* من شخصيات التوراة ، وكان جدّ نوح ، وقد عاش في ما رووا ٩٦٩ سنة . وقد غدا اسمه طمأ على كل من عمر دهرأ طويلاً .

** Epiménide فيلسوف كريتى من اهل القرن السابع قبل الميلاد ، وكان شخصية نصف اسطورية ، فقد زعموا انه كان ابن حورية من حوريات الماء ، وانه نام سبأ وخمين سنة في احد الكهوف . وكثيراً ما يشار الى قوم أيبينيد ويقتطه وخصوصاً في لغة السياسة .

*** Coblents مدينة المانية تجمت فيها ، عام ١٧٩٢ ، حشود النبلاء المهاجرين وشكلت « جيش كوندية » الملكي ، وقد سبق التعريف بها .

دهر بعيد جداً ، فهو يعاند القبر . كانت هذه الالفاظ ، حافظ ، عافطة ، عافط ، هي القاموس كله تقريباً . وكان تفتح الموء بالصيت الحسن هو النقطة الجوهرية . والواقع أنه كان ثمة بعض الطيب في آراء هذه الجماعات الجليلة ، وكانت أفكارهم تفوح منها رائحة الاعشاب الهندية . كان عالماً مومياً . كان السادة محتطين ، وكان الخدم محشونين بالتبن .

وكانت مركيزة عجوزاً فاضلة - احدى المهاجرات اللواتي افتقرن - تواصل القول : « شعبي » وهي التي لم يبق عندها الآن غير خادمة واحدة .

اي شيء كانوا يفعلون في صالون مدام دو ت ... ؟ كانوا منظرين مغالين في التطرف .

والواقع ان كون المرء مغالياً في التطرف - على الرغم من ان ما يمثله هذا التعبير قد يكون قائماً ما يزال - فقد اليوم معناه . فلتوضح ذلك . إن المغالاة في التطرف هي ان تجاوز المطلوب . إنها ان نهجم الصولجان باسم العرش ، وتاج الاسقف باسم المذبح . إنها ان نسيء الى من تدعاه . إنها ان ترفض وسط سيور العربية . إنها ان نقاحك - أمام ركام الخطب المكذس لاحتراق المجرمين - في درجة اكتواء المرافقة . إنها ان تعيب على الصنم قلة صنميته . إنها ان تحقر بدافع من الافراط في الاحترام . إنها لا تجمد في البابا مقداراً كافياً من البابوية ، وفي الملك مقداراً وافياً من الملكية ، وأن تجمد في الليل قدراً من النور اكثر مما ينبغي . إنها ان تستاء من حجر الشطوط * ، من الثلج ، من التّم ** من الزنبق ، باسم البياض . إنها ان تكون مؤيداً للاشياء الى حد ان تصبح عدوّاً لها .

* ضرب من الرخام الابيض الشفاف . ويعرف في الفرنسية بـ albatre
** طائر مائي شديد البياض يشبه الازو ولكنه اطول منه عنقاً . وهو يعرف

في اللغات الاجنبية بـ cygne

لأنها أن تغلو في الموالاة حتى تنتهي الى المعارضة .

إن روح « التطرف المغالى فيه » خاصة فريدة من خصائص الصدر الاول من عهد عودة آل بوربون الى العرش .

والواقع ان التاريخ لم يعرف شبيهاً لهذه الفترة القصيرة ، التي بدأت عام ١٨١٤ وانتهت حوالى ١٨٢٠ بمجيء مسيو دو فيفيل * ، رجل « اليمين » العملي ، الى الحكم . لقد كانت هذه السنوات لحظة خارقة للعادة ، فهي مشرقة ومظلمة في آنٍ معاً ، ضاحكة وعابسة ، مضادة بمثل اشعة الشمس ، ومغلقة في الوقت نفسه بظلام الكوارث الكبرى التي كانت ما تزال تلاحق على الرغم من أنها كانت تدفن نفسها ، على مهل ، في غياهب الماضي . كان ثمة في ذلك الضوء وفي ذلك الظل عالم صغير نسيج وحده ، عالم حديث عتيق ، بهيج محزون ، فني هرم ، يفرك عينيه ، فليس من شيء يشبه الاستيقاظ اكثر من العودة . كانت هناك جماعة تنظر الى فرنسا في سخط ، على حين تنظر فرنسا اليها في سخرية . وكانت الشوارع ملأى بمراكزة كالبوم صالحين عجائز ، ومهاجرين قد عادوا ومهاجرين في سبيلهم الى العودة ، وبجمهرة من المتعلقين باهداب النظام القديم ذاهلين منشدين أمام كل شيء . رجال ذوو نبالة وشجاعة يتسمون لوجودهم في فرنسا ويبيكون عليها ايضاً . لقد اسعدهم ان يروا وطنهم كرة أخرى ، واستبد بهم اليأس لأن ابصارهم لم تعد تقع على نظامهم الملكي . كان نبلاء الحروب الصليبية يبصقون على نبلاء الامبراطورية ، يعني على نبلاء السيف ؛ وكانت الأعراق التاريخية تفقد معنى التاريخ ؛ وابناء رفاق شارلمان يحرقون رفاق نابوليون . لقد

* Comte de Villèle سياسي فرنسي (١٧٧٣ - ١٨٥٤) كان زعيماً للفئسات الملكية الغالية في التطرف ، بعد عوده آل بوربون الى العرش . وقد تول وئاسة الوزارة من عام ١٨٢١ الى عام ١٨٢٨ .

تبادل السيوف ، كما ذكرنا ، الشاتم والاهانات . كان سيف فونتنوا * مضحكاً ، ولم يكن غير صداً ؛ وكان سيف مارانفو ** بغيضاً ، ولم يكن غير حمام . لقد أنكرت الايام السالفة يوم امس . ولم يبقَ نمة لا احساسٌ بما كان عظيماً ، ولا احساسٌ بما كان مضحكاً . كانت هناك من اطلق على بونابرت اسم سكاين *** . لقد انقضى ذلك العالم . إن شيئاً ما - ونكرر ذلك - لم يبقَ منه اليوم . وحين يتفق لنا ان نرمم صورة عنه ، وان نجعلها تعيش ككرة ثانية في أذهاننا ، يبدو غريباً لدينا مثل عالم سابق للطوفان . وفي الحق ، ان طوفاناً قد ابتلعه هو الآخر . لقد اختفى تحت ثورتين . أيّ فيضانات هي الكلمات ! ما أسرع ما تفسر كل ما يُوكلُ اليها هدُمه ودفنه ، وما اعجل ما تخلق الأهراق المروعة !

تلك كانت سيا الصالونات في تلك العهود النائية الساذجة ، عندما كان ميو مارتنفيل **** اسد ذكاء من فولتير .

كان لتلك الصالونات ادبها الخاص وسياستها الخاصة . كانت تؤمن بـ « فيفيه » ***** . وكان ميو آجيه يضع القوانين لها .

لقد انتقدت ميو كولنيه ، الصحافي المتاجر بالكتب القديمة في « كي مالاكيه » . ولم يكن نابوليون عندهم غير « غول كورسيكة » . وفي ما

* Fontenoy من اعمال بلجيكة حيث هزم المارشال دو ساكس في حفرة لويس الخامس عشر الانكليز والهولنديين سنة ١٧٤٥ وقد سبق التعريف بها .

** احدى المارك الشهيرة التي انتصر فيها بونابرت ، وقد سبق التعريف بها .

*** Scapin احدى شخصيات الكوميديا الايطالية وهي تمثل خادماً ذا حيل ومؤامرات . وقد قدم موليير هذه الشخصية في مزلته المائة « غنايات سكاين » .

**** Martainville صحافي وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٧٦ - ١٨٣٠) . كان ملكياً متحمساً ، ولقد امس عام ١٨١٨ صحيفة « الراية البيضاء » .

***** Flévéه صحافي واديب فرنسي (١٧٦٧ - ١٨٣٩)

بعد كان لإدخال المركيز دو بونوايرت ، قائد قوات الملك العام ، الى دنيا التاريخ ، اذعاناً لروح العصر .

ولم تحتفظ هذه الصالونات بصفاتها دهرأ طويلاً . ف منذ عام ١٨١٨ شرعت بعض العناصر المتحررة في اعتدالٍ تنبت بينها ، مشكلة نوعاً مزعجاً . وكان اسلوب هؤلاء يقتضيهم ان يكونوا ملكيين وان يلتمسوا العذر بسبب من ذلك . فحيث كان المغالون في التطرف شديدى الزهو ، كانت هذه العناصر المعتدلة في تحورها خجلة بعض الشيء . كانوا ذوي ذكاء ، وكانوا يعتصمون بالصمت ، وكانت عقائدهم السياسية 'منشأة' بالكبرياء على نحو لائق . وكان ينبغي ان يوفقوا الى النجاح . لقد انهكوا في ما كان ملائماً من نواح اخرى : الافراط في عقد الرقبة البيضاء وفي السترات المزورة . والواقع ان غلطة هذا الحزب المتحرر ، أو مصيبتة ، كانت خلق الشباب الهرم . لقد اتخذ رجاله اوضاع الحكماء . ولقد حلموا بأن يلقحوا مبدأ السلطة المطلقة المفرطة ليفوزوا منه بسلطة معتدلة . لقد عارضوا التحرر الهدام ، وعارضوه في ذكاء نادر احياناً ، بتحرير محافظ . ولقد سمعناهم يقولون : ' لا تظلموا الحزب الملكي . لقد ادى للبلاد اكثر من خدمة . لقد أعاد الينا التقليد ، والعبادة ، والدين ، والاحترام . إنه مخلص ، شعاع ، أيّ ، محب' ، متفاني . لقد أضاف ، ولو في اسف ، عظمة الملكية القديمة الى عظمة الأمة الجديدة . إنه مخطيء في عدم فهمه الثورة ، والامبراطورية ، والمجد ، والحربة ، والافكار الجديدة ، والاجيال الجديدة ، والقرن الذي نعيش فيه . ولكن هذا الخطأ الذي ارتكبه في حقنا ، ألم نرتكب نحن مثله ، بعض الاحيان ، في حقّه ؟ إن على الثورة ، التي نحن ورثناها ، ان تفهم كل شيء . ان هجوم العناصر المتحررة على الحزب الملكي ضرب من سوء الفهم . اي غلطة ا وأي عمى ! إن فرنسا الثورة يُعوّزها الاحترام لفرنسة التاريخية ، يعني لأمتها ، يعني لنفسها . فبعد الحامس من ايلول يعامل نبلاء الملكية كما عومل نبلاء الامبراطورية بعد الثامن من

تمرز . لقد كانوا هم ظالمين للنسر * ، وما نحن أولاء . نظلم زهرة الزنبق**
 أينبغي ان يكون عندنا دائماً شيء نأمر بقتله أو بحبه من غير محاكمة ؟
 راية فائدة توجب من تشويه تاج لوبس الرابع عشر ، او توس هنري
 الرابع الحامل شعار أسرته ؟ نحن نسخر من مسيو دو فوبلان الذي عا
 حروف N *** التي كان يحملها جسر « بينا » ! ولكن ما الذي فعله
 مسيو دون فوبلان هذا ؟ ما تفعله نحن اليوم . إن بوفين **** هي ملك
 لنا مثل مارانغو سواء بسواء . وإن زهرات الزنبق هي ملك لنا
 ايض مثل حروف N تماماً . إنها ميراثنا . ما الذي نكسبه من إنقاصه ؟
 ينبغي أن لا نتبرأ من وطننا في الماضي كما ينبغي ان لا نتبرأ منه في
 الحاضر . لماذا لا نرغب في تاريخنا كله ؟ لماذا لا نحب فرنسة كلها ؟ ،

تلك هي الطريقة التي كانت العناصر المتحررة في اعتدال تنتقد بها
 الحزب الملكي وتدافع عنه ، فيستاء ذلك الحزب من الانتقاد ، ويعصف به
 السخط بسبب من الدفاع .

لقد طبع المتحررون المعتدلون الفترة الاولى من العهد الملكي بطابعهم ،
 في حين ان الجمع ***** طبع الفترة الثانية بطابعه . ان البراعة قد
 خلفت النزوة . فلنوجز هذه اللحة .

لقد وجد مؤلف هذا الكتاب في طريقه ، وهو يروي هذه القصة ،

* شعار نابوليون .

** شعار آل بوربون .

*** الحرف الاول من اسم نابوليون بوناپرت .

**** Bouvines هي المعركة التي انتصر فيها ليليب اوغست ، عام ١٢١٤ ،
 على الامبراطور اوتون وحليفه ملك انكلترا وكونت الفلاندر .

***** La Congrégation هو « مجمع المذراء المقدسة » الذي أسس عام ١٨٠١ ثم
 تماطلت قوته في عهد عودة آل بوربون الى الحكم وتم له في الدولة نفوذ عظيم .
 ولقد سقط هذا المجمع بسقوط شارل العاشر .

تلك اللحظة الغريبة من التاريخ المعاصر . ولقد كان مضطراً الى ان يلقي عليها نظرة عابرة ، وان يعيد رسم بعض ملامح ذلك المجتمع الفريدة التي أمست اليوم مبهولة . ولكنه يفعل ذلك على عجل ، ومن غير ما فكرة لاذعة او هازئة . ان ذكريات ترشح بالحنان والوقار - فهي ذكريات تتصل بأمه - تشده الى تلك الحقبة . والى ذلك -- ولنقل هذا - فقد كان لذلك العالم الصغير عظمت . إننا قد نبسم له ابتسامة ساخرة ، ولكننا لا نستطيع أن نزدريه أو ان نبغضه . كان فرصة الايام السالفة .

وخضع ماريوس بونغيرسي ، شأن سائر الاطفال ، لتعليم ما . فحين فارق يدي الحالة جيلنورمان عهد جدّه في تثقيفه الى استاذ وقور يتميز بأصفي البراءة الكلاسيكية . لقد انتقلت تلك النفس الآخذة في التفتح من يدي امرأة مغالية في التمسك باهداب الفضيلة والاحتشام في كل ما يتصل بالعلقة الى يدي متعالم غليظ مضحك . وأتم ماريوس سنوات دراسته في المدرسة الثانوية ثم التحق بمدرسة الحقوق . كان ملكياً ، متعصباً ، صارماً . كان قليل الحب لجدّه الذي كان مرحه وعدم احتشامه يجرحانه ، وكان موضع ابيه في نفسه فراغاً قائماً . وكان ماريوس ، في ما عدا ذلك ، ولدأً مهاماً ولكنه فاتر ، نبيلاً ، كريماً ، فخوراً ، متدينأً ، متهموساً . كان فاضلاً حتى القسوة ، طاهراً حتى التوحش .

٤

نهاية قاطع الطريق

وإنما أنهى ماريوس دراساته الكلاسيكية في تلك الفترة التي اعـتـزل

فيها مسيو جيلنورمان الحياة الاجتماعية . ولقد ودع الشيخ ضاحية سان جيرمان ، وصالون مدام دوقة ... وانتقل الى الـ « ماريه » ليستقر في منزله بشارع « فتيات كالفير » وكان يخدمه هناك ، الى جانب البواب ، « نيقوليت » تلك التي خلقت مانبون ، وذلك الـ « باسك » المبهور الضيق النفس الذي تحدثنا عنه من قبل .

وفي عام ١٨٢٧ بلغ ماريوس سنه السابعة عشرة . واذا انقلب الى المنزل ذات مساء رأى جده وفي يده رسالة .

وقال مسيو جيلنورمان :

— « ماريوس ، سوف تسافر غداً الى فيرنون . »

فتساءل ماريوس :

— « لماذا ؟ »

— « لكي ترى أباك . »

وارتعد ماريوس . لقد فكر في كل شيء إلا هذا : أن يوماً قد يأتي يضطر فيه الى ان يرى والده . ان شيئاً ما ، لم يكن أبعد عن التوقع من هذا ، وأدعى الى الدهش ، وأبغض — ولنقل هذا — الى النفس . كان ذلك هو الجفاء يُكرهه على ان ينقلب مودة . إنه لم يكن حزناً .. لا . لقد كان عملاً من اعمال السخرة .

كان ماريوس مقتنعاً ، الى جانب الدوافع السياسية التي تنفّره من ابيه ، بأن هذا الأب السياف الجاهل فنّ الحرب — كما كانت مسيو جيلنورمان يدعوه في لحظاته الدمثة الرفيقة — لم يكن يجبه . وكيف لا يقتنع بذلك وهو الذي هجره وتركه للآخرين . واذا أحس أنه لم يُحبّ قط فانه لم يُحبّ قط . وقال في ذات نفسه : ليس ثمة ما هو طبيعي اكثر من هذا . وكان من الانشداه بحيث لم يوجه الى مسيو جيلنورمان سؤالاً ما . وأردف الجد قائلاً :

— « يبدو أنه مريض . إنه يريد أن يراك » .

وبعد لحظة صمت ، اضاف :

- « إنطلق غداً صباحاً . أحسبُ ان في فِناء دو فونتين عربية تنطلق في الساعة السادسة وتصل الى هناك ليلاً . أركب هذه العربية . هو يقول إن الحالة ملحة . »

ثم إنه دَعَكَ الرسالة ووضعها في جيبه . لقد كان في وسع ماريوس ان يسافر ذلك المساء نفسه فيكون الى جانب ابيه صباح اليوم التالي . كانت ثمة في ذلك العهد عربية عمومية تغادر روان ليلاً وتمر بفيرونوت . ولكن لا مسيو جيلنورمان ولا ماريوس فكّر في الاستعلام عنها .

وفي اليوم التالي ، وصل ماريوس الى فيرونوت مع الفسق . وكانت الشموع قد بدأت تضيء . وسأل اول عابر سبيل التقاء : بيت مسيو بونغيرمي ؟ ذلك بأنه كان متفقاً في تفكيره مع وجهة نظر العهد البوربوني الجديد ، فلم يعترف هو ايضاً ببارونية ابيه او برتبته ككولونيل . وهدّوه الى المنزل . وقرع الجرس . واقبلت امرأة ففتحت الباب حاملةً بيدها مصباحاً صغيراً .

وقال ماريوس :

- « مسيو بونغيرمي ؟ »

وظلت المرأة جامدة لا تتحرك .

وسألها ماريوس :

- « أهو هنا ؟ »

واومأت المرأة برأسها إيماءة ايجابية .

- « هل استطيع ان اتحدث اليه ؟ »

واومأت المرأة إيماءة سلبية .

فأردف ماريوس :

- « ولكني ابنه . إنه ينتظرنني . »

فقال المرأة :

- « إنه ما عاد ينتظرك . »

ولاحظ عندئذ أنها تبكي .

واشارت بأصبعها الى باب غرفة منخفضة . ودخل .

كان في تلك الغرفة ، المضأة بشعة من شمع موضوعة على الموقد ، ثلاثة رجال ، احدهم واقف ، والآخر راكع ، والثالث مرتد قيصه ليس غير وقد تمد بطوله على الارض . كان ذلك الممدد على الارض هو الكولونيل .

وكان الرجلان الآخران طبيبا وكاهنا يصلي .

كان الكولونيل قد اصيب منذ ثلاثة ايام بجمى دماغية . وكان قد كتب عند بدء المرض ، وقد استشر قرب المنية ، الى مسيو جيلنورمان مطالباً بروية ابنه . وتقالم الداء . وليلة وصول ماريوس الى فيرون كان الكولونيل قد أصيب بنوبة من الهذيان . لقد وثب من سريره على الرغم من الحادمة وهو يصيح : « ابني لم يأتِ حتى الآن ! سوف اذهب للقاءه ! » ثم انه خرج من غرفته وسقط على ارض غرفة الانتظار . كان قد لفظ انقاسه منذ لحظة ليس غير .

وكان الطبيب والكاهن قد دعيا الى المنزل ، ولكن الطبيب كان قد وصل بعد فوات الاوان ؛ والكاهن كان قد وصل بعد فوات الاوان ؛ وكذلك كان الابن قد وصل بعد فوات الأوان .

وعلى ضوء الشمعة الباهت ، كان في استطاعتهم ان يتبينوا على وجنة الكولونيل الشاحب الصريع دمعة كبيرة كانت قد تحدّرت من عيـنه الميتة . كانت العين خامدة ، ولكن الدمعة لم تكن قد جفت . كان قد سفع هذه الدمعة لتأخر ولده .

وتأمل ماريوس هذا الرجل الذي رآه للمرة الأولى ، وللمرة الاخيرة ؛ هذا المحيّا الجليل الناضج بالرجولة ؛ هاتين العينين المفتوحتين اللتين لا تريان البتة ؛ هذا الشعر الأشيب ؛ هذه الأوصال القوية التي كانت في ميسور

المرء ان يتبين عليها ، هنا وهناك ، بعض الخطوط السمراء التي كانت ضربات سيف ، وضروباً من النجوم الحمر التي كانت حقراً احدثتها القذائف . لقد تأمل هذه الندبة المائلة التي طبعت البطولة على ذلك الوجه الذي كان الله قد طبع عليه الطيبة . وفكر في ان هذا الرجل كان أباه ، وان هذا الرجل كان ميتاً ؛ وظلّ جامداً لا يتحرك .

كان الحزن الذي استشره هو الحزن الذي كان خليقاً بأن يستشره أمام ايّ امرئ تقع عيناه عليه طريح الموت .

كان الحداد ، الحداد الممض ، يحيم على تلك الغرفة . فالخادمة تنتحب في احدى الزوايا ، والكاهن يصلي ، مسموع الزفرات ؛ والطبيب يكفكف العبرات . إن الجثة نفسها قد بكت .

ونظر هذا الطبيب ، وهذا الكاهن ، وهذه المرأة من خلال اشجانهم الى ماريوس ، من غير ان ينطقوا بكلمة . كان هو - لا غيره - الغريب وسط هذه المناحة . وإذ لم يغلب التأثر على ماريوس إلا قليلاً ، فقد احسّ بالحجل واستشر الارتباك بسبب من وضعه هذا . وكان يمسك بقبعته في يده ، فتركها تقع على الارض لكي يحملهم على الاعتقاد بان الامى قد حرمه القدرة على الامساك بها .

وفي الوقت نفسه استشر شيئاً كتبكيت الضمير ، واحتقر نفسه لتصرفه على هذا النحو . ولكن أهى غلطته ؟ إنه ما كان يجب أباه ، حقاً ! ولم يخلف الكولونيل شيئاً . ان بيع أثائه لم ينهض بنفقات دفنه إلا بشق النفس . ووجدت الخادمة قصاصة من الورق قدّمتها الى ماريوس كانت تنطوي على هذه الكلمات مكتوبة بخط الكولونيل :

- « الى ولدي : - إن الامبراطور قد جعلني باروناً في ساحة القتال بواترلو . ولما كان عهد آل بوربون الجديد ينكر عليّ هذا اللقب الذي دفعت دمي ثمناً له فان ولدي سوف يأخذه ويحمّله . وليس من ريب في انه سوف يكون جديراً به » .

وعلى قفا تلك القصاصة كان الكولونيل قد أضاف :
- « وفي معركة واترلو تلك نفسها ، انقذ حياتي جندي برتبة رقيب .
إن ذلك الرجل يدعى تيناردييه . وأعتقد انه كان يدير ، منذ فترة
غير بعيدة ، فندقاً صغيراً في قرية بضواحي باريس ، في « شيل » ،
او في مونفيرماي . فاذا ما لقيتهُ ولدي فلسوف يقدم الى تيناردييه
كل خدمة يقدر عليها . »

وبدافع من الاحترام الغامض للموت ، هذا الاحترام الذي يفرض
نفسه دائماً على قلب الانسان ، لا بدافع من واجب الطاعة لأبيه ،
اخذ ماريوس تلك الورقة ، وضغط عليها .

ولم يبق من الكولونيل أثرٌ ما . كان مسيو جيلنورمان قد باع
سيفه وبذلته العسكرية لأحد المتاجرين بالسلع القديمة . وسطا الجيوانات
على الحديقة ، ونهبوا الرياحين النادرة . أما للنباتات الاخرى فأُمت
عوسجاً وعليقاً ، أو ماتت .

ولم يُقم ماريوس غير ثماني وأربعين ساعة في فيرون . وبعد الدفن ،
رجع الى باريس ، واستغرق في دروسه الحقوقية من غير أن يفكر في
أبيه اكثر مما كان يفعل لو انه لم يعيش قط . لم ينقض يومان حتى كان
الكولونيل قد دُفن ، ولم تمض ثلاثة ايام حتى كان قد نسي .
وطوّق ماريوس قبعته بعصابة حريرية . ذلك كان كل شيء .

٥

فائدة الذهاب الى القديس

في جعل المرء ثورياً

كان ماريوس قد احتفظ بعبادات صباه الدينية . وذات يوم من ايام

الأحد ذهب لبسع القديس في « سان سوليس » ، في « كنيسة العذراء » نفسها التي كانت خالته تصعبه إليها يوم كان صبياً صغيراً . واذ كان في ذلك اليوم أكثر ذهولاً وأشد استسلاماً للاحلام بما كانت في العادة ، فقد اتخذ مكاناً له خلف أحد الأعمدة وركع ، من غير أن ينتبه لذلك ، أمام كرسي من مخمل أوترخت 'كتب على ظهره هذا الاسم : مسيو مابوف ، وكيل كنيسة . ولم يكد القديس يبدأ حتى برز رجلٌ عجوز وقال لماريوس :

« سيدي ، هذا مكاني . »

وسارع ماريوس الى مغادرة المكان ، واتخذ العجوز كرسية . وبعد القديس ، ظل ماريوس مستغرقاً في التفكير على بُعد بضع خطوات . واقترب العجوز نحوه ، كرة اخرى ، وقال :

« عفوك يا سيدي لازعاجي اياك منذ لحظة قصيرة ، ولازعاجي اياك الآن مرة ثانية . ولا شك في انك قد حسبتني شرساً ، ومن اجل ذلك ينبغي أن ابور لك موقفي . »

فقال ماريوس :

« هذا غير ضروري يا سيدي . »

فاستأنف العجوز كلامه قائلاً :

« أجل ! انا لا اريد ان تكون فكرة سيئة عني ، انت ترى اني ألزم ذلك المكان ، والذي يبدو لي ان القديس هو هناك افضل . لماذا ؟ سوف اقول لك . فطوال سنوات عديدة رأيت أباً صالحاً فقيراً في الى ذلك المقعد مرة كل شهرين او كل ثلاثة اشهر من غير انقطاع - أباً لم تكن لديه اياها فرصة اخرى او ايام وسيلة اخرى لرؤية ولده الصغير بعد ان حرمنه ذلك بعض التسويات العائلية ، كان يقبل ساعة يعرف انهم قد جاءوا بابنه الى القديس . و يخاطر ببال الصغير قط ان أباه كان هناك . بل لعل ذلك الصبي البريء ما كان يدري ان له أباً ! وكانت

الأب ، من ناحيته ، يلتزم الجلوس خلف هذا العمود لكي لا يكون في ميسور أحد ان يراه . كان ينظر الى ولده ويبكي . كان ذلك الاب المسكين يعبد هذا الولد الصغير ! لقد رأيت ذلك . لقد أمسى هذا الموضع مقدساً عندي ، ومنذ ذلك الحين أخذت نفسي بالهجيء الى هنا لكي اسمع القداس . أنا أؤثره على « مقعد العمل » ، حيث يحق لي ان اجلس بوصفي وكيلاً من وكلاء الكنيسة . بل لقد عرفت ذلك السيد المسكين بعض المعرفة . كان له حم * ، وعمة غنية جداً ، وأنساب ، لم اعد اذكر تماماً ، وكانوا يهدونه بجرمان الولد من الميراث اذا ما رآه هو ، هو أبوه ! لقد ضحى بنفسه لكي يصبح ابنه ، ذات يوم ، غنياً وسعيداً . وإنما تفرق شملهم بسبب من الآراء السياسية . أنا أقرّ اعتناق الآراء السياسية طبعاً ، ولكن هناك اناساً لا يعرفون ابن ينبغي أن يقفوا . يا السهي ! لأن الرجل الذي شهد واترلو ليس غولاً ؛ إن الاب لا يفصل عن ابنه من اجل ذلك . لقد كان زعيماً (كولونيل) من زعماء بونابرت . لقد توفي ، على ما أعتقد . كان يسكن في فيرنون ، حيث يعمل أخيه كاهناً ، وهو يدعى بونغاري او مونبارسي أو شيئاً مثل ذلك . لقد كان في جسده ، في الواقع ، اثر من ضربة سيف . »

فقال ماريوس وقد شعّب لونه :

— « بونغيوسي ؟ » .

— « تماماً . بونغيوسي . أكنت تعرفه ؟ »

فقال ماريوس :

— « اها السيد ! لقد كان ابي . »

وشبك وكيل الكنيسة المعجوز يديه ، وصاح :

— « آه ! انت ذلك الطفل ! اجل ، هذا صحيح . ينبغي ان يكون قد

أصبح رجلاً الآن . حسناً ، اها الطفل المسكين ، في استطاعتك أن تقول

* ابو الزوجة .

انه كان لك اب أحبك حباً عظيماً ! ،
 وبسط ماريوس ذراعه الى الرجل العجوز ومشى معه حتى منزله .
 وفي اليوم التالي قال لمسيو جيلنورمان :
 - « لقد أعددتُ مع بعض الاصدقاء نزهة صيد . هل تسمح لي بان
 أغيب ثلاثة أيام ؟ »
 فاجابه الجد :
 - « وأربعة ! اذهب وروح عن نفسك . »
 وبغفزة من احدى عينيه همس في أذن ابنته :
 - « مسألة عشق موقت ! »

٦

معنى الالتقاء بوكيل كنيسة

اما الى اين ذهب ماريوس فذلك ما منعرفه بعد قليل .
 وغاب ماريوس ثلاثة أيام ، ثم انقلب الى باريس ، فقصد توأ الى
 مكتبة مدرسة الحقوق ، وطلب مجموعة أعداد ال « مونيتور » .
 لقد قرأ ال « مونيتور » . قرأ تاريخ الجمهورية والامبراطورية .
 قرأ مذكرات القديسة هيلانة* ، وجميع المذكرات ، والصحف ،
 والبيانات الرسمية ، والاذاعات . لقد التهم كل شيء . ويوم وقع على
 اسم ابيه ، أول مرة ، في بيانات الجيش العظيم الرسمية عصفت به
 حتى تطاولت اسبوعاً بكامله . وسمى الى الاجتماع بالجنرالات الذين

* Mémoires de Sainte Hélène تأليف Las Cases وهو عرض لآمال نابوليون الاول
 في مختلف عهوده . وفيه عطف ظاهر على الامبراطور . (١٨٢٣)

حارب جورج بونغيرسي تحت امرتهم ، ومن بينهم الكونت هـ . وقدّم
اليه وكيل الكنيسة مابوف ، وكاث قد ذهب لزيارته مرة اخرى ،
صورة عن حياة فيرنون واعتزال الكولونيل الحياة الاجتماعية ، ورباحينه ،
ووحدته . وهكذا انتهى ماريوس الى ان يفهم ، اوضح الفهم ، هذا
الرجل النادر ، السامي ، الوديع ، هذا الضرب من الاسد - الحمل الذي
كان اياه .

وفي غضون ذلك لم يعد يرى احداً تقريباً من آل جيلنورمان بعد
ان استغرق في هذه الدراسة التي شغلت وقته كله وأفكاره كلها . كان
يبرز عند تناول الطعام ، حتى اذا التمسوه بعد ذلك لم يعثروا عليه .
كانت الحالة تتدهر ؛ وكان الجلد يتسم قائلًا : « بوه ! بوه ! إنه عهد
البُنَيَّات ! » وفي بعض الاحيان كان العجوز يضيف : « يا للشيطان !
لقد حُبتْ ! » انها مغازلة . ولكن يبدو أنه هيام .
كان هياماً ، حقاً .

كان ماريوس في سبيله الى الشغف بأبيه .
وفي الوقت نفسه طراً تغير فوق العادة على أفكاره . وكانت مظاهر
هذا التغير متعددة ومتعاقبة . واذ كان هذا التاريخ هو تاريخ كثير من
العقول في عصرنا فنحن نعتقد ان من المفيد ان نتبع هذه المظاهر
خطوة خطوة ، وأن نشير اليها جميعاً .
إن ذلك التاريخ الذي وقعت عليه ، الآن ، عيناه ، قد اذهله .
لقد كان الاثر الاول انشدها .

ان الجمهورية والامبراطورية لم تكونا عنده ، حتى ذلك الحين ، غير
كأثنين خيفتين . الجمهورية ، مقصلة في غسق ؛ والامبراطورية ، حسام
في الليل . كان قد نظر اليهما ، وهناك ، حيث توقع ان لا يجد غير
ظلمات مختلطة ، وجد في ضرب من دهش خارق مشوب بالخوف

وبالبهجة كواكب ساطعة : ميرابو ، فيرنيو * ، مان جوست ، روبسبير ، كاميل ديمولان ، دانتون ، وشمساً مشرقة : نابوليون . ولم يدّر أين هو . لقد ارتدّ وقد أعمته الانوار . وشيئاً بعد شيء ، زائله الدهش ، وتعود هذه الاشعاعات . وانشأ يتأمل الاعمال من غير دوار ، ويدرس الشخصيات من غير دعر . لقد برزت الثورة والامبراطورية بروزاً مضيئاً أمام عينيه الجاهدين . لقد رأى كلّاً من مجموعتي الحوادث والرجال هاتين 'تلخّص' نفسها في حقيقتين ضخمتين : الجمهورية ، في سيادة حق المواطن 'معاداً' الى الجماهير ؛ والامبراطورية ، في سيادة الفكرة الفرنسية مفروضة على اوروبّة . لقد رأى صورة الشعب الجليلة تنبثق من الثورة ، وصورة فرنسة العظيمة تنبثق من الامبراطورية . وأعلن في ما بينه وبين نفسه ان ذلك كله كان حسناً . اما ما أمّله انشداؤه في هذا التقدير الأول التركيبيّ اكثر مما ينبغي فلنسا نرى ان من الضروري أن نشير اليه هنا . إنّما نصف حالة عقلٍ يُعذّر الخطى . والتقدّم لا يتم بوثبة واحدة . وإذا قلنا هذامرةً والى الأبد ، في ما يتصل بما تقدم وفي ما يتصل بما سوف يلي ، نتابع الكلام .

لقد شعر عندئذ انه لم يفهم وطنه ، حتى تلك اللحظة ، باكثر مما كان قد فهم أباه . إنه ما كان يعرف لا هذا ، ولا ذاك ، ولقد كان يغشّي عينيه ضرب من الظلمة الارادية . أما الآن فقد أخذ يرى . واستبدّ به الاعجاب من ناحية ؛ وغلب عليه التقديس من الناحية الاخرى . كان مفعماً بالاسف وتبكيّت الضمير . وخطر له ، في بأس ، انه لا يستطيع الآن أن يبتّ كل ما في روحه إلا الى جدث . أوه ! لو ان أباه كان حياً ، لو لم يُجرّمه ، لو ان الرب قد أجاز ، برحمته وخيريته ، ان يبقى أبوه على

* Vergnaud من رجال الثورة البارزين (١٧٥٣ - ١٧٩٣) وقد اعتقل مع الجيولدين ومات على المقصلة .

قيد الحياة، اذن لاسرع الى العَدُو، واذن لطرح نفسه على قدميه ، واذن لصاح مخاطباً اياه : «أبي ! انا هنا ! هذا أنا ! إن لي قلباً مثل قلبك ! انا ولدك !» ما كان اجدره بان يعانق رأسه الابيض ، ويندّي شعره بالدموع ، ويحدق الى ندبته ، ويضغط على يديه ، ويهيم بشيابه ، ويقبل قدميه ! اوه ! لماذا توفي والده في مثل هذه السرعة ، قبل الكهولة ، قبل العدالة ، قبل حب ولده ! واعتلجت في فؤاد ماريوس زفرة موصولة كانت تقول في كل لحظة : «والأسفاه !» وفي الوقت نفسه أمس اكثر أخذاً بأسباب الجدّة ، وأشدّ إمعاناً في الرصانة ، واعظم ثقة بأيمانه وعقله . لقد اقبلت ومضات من الحقّ ، في كل لحظة ، لكي تتمّ تفكيره . كان ذلك أشبه شيء بنموّ باطني ، فقد استشعر ضرباً من الاتساع الطبيعي الذي حمله اليه هذان الشيطان ، الجديدان عليه : أبوه ووطنه .

وانفتح كل شيء ، وكان في يده مفتاحاً . لقد شرح لنفسه ما كان قد أبغضه ، واستوعب ما كان قد مقته . لقد رأى في وضوح ، منذ ذلك الحين ، المعنى السماويّ ، الالهيّ ، البشريّ الذي انطوت عليه الاشياء العظيمة التي علّم أن يكرهها ، والرجال العظام الذين لقّن أن يسبّهم . وحين فكّر في آرائه السابقة ، التي كان يعتنقها حتى وقت قريب ، والتي بدت له مع ذلك عتيقة جداً ، اخذه السخط على نفسه ، وابتنس . ومن إعادة اعتبار ابيه ، انتقل على نحو طبيعي الى اعادة اعتبار نابوليون .

بيد أن هذا - وهو ما يتعين علينا ان نقوله - لم يمتّ من غير غناء .

لقد أشرب ، منذ الطفولة ، بآراء حزب سنة ١٨١٤ في بونابرت . والواقع ان تحاملات العهد البوربوني الجديد كلها ، ومصالحه كلها ، وغرائزه كلها كانت تنزع الى تشويه نابوليون . لقد أبغضه ذلك العهد اكثر مما ابغض روبسبير نفسه . ولقد استقل في كثير من البراعة تعب الأمة ، وبغض

الأمهات . وكان بونابرت قد أمسى ضرباً من غول يكاد يكون اسطورياً . ولكي يصور هذا الغول لحيال الشعب ، الذي يشبه كما قلنا من قبل خيال الاطفال ، فقد اظهر حزب سنة ١٨١٤ جميع الافئدة المروعة ، واحداً بعد واحد ، ابتداء من تلك التي تنسم بالفضاعة ولكنها تظل عظيمة ، حتى تلك التي تنسم بالفضاعة ولكنها مضحكة ، من تيباريوس * الى كروكوميتين **. وهكذا كنت ، عند الكلام على بونابرت ، حرّاً في أن تنتخب او في ان تنفجر بالضحك ، شرط ان يكون البغض هو الأساس . ولم يسبق لمايوس ان كانت له عن ذلك الرجل - كما كانت يدعى - أية افكار غير هذه الافكار على الاطلاق . لقد نمت جنباً الى جنب مع الصلابة التي كانت في طبيعته . لقد كان في بؤديه رجل صغير عنيد يكره نابوليون .

حتى اذا قرأ تاريخه ، وبخاصة حين درسه في الوثائق وفي العناصر الرئيسية التي يتشكل منها ، اخذ ذلك النقاب الذي كان يجلب نابوليون عن عيني مايوس يتمزق شيئاً بعد شيء . لقد لمح شيئاً غير متناه ، وتراعى له انه كان يخدع نفسه - حتى تلك اللحظة - في أمر نابوليون كما خدعها في سائر الامور . وكل يوم ، كان نظره يزداد وضوحاً ؛ وشرع يرقى في بطنه ، خطوة خطوة - في اسفل تقريباً باديه الامر وفي نشوة بعد ذلك وكأنما كان موقفاً بسحر لا يقاوم - درجات الحماسة المظلمة اولاً ، ثم درجاتها المضادة على نحو باهت ، واخيراً درجاتها النيرة الباهرة .

وذات ليلة ، كان وحده في غرفته الصغيرة القائمة تحت السطح . كانت شمعة مضادة ، وكان يقرأ متكئاً على طاولته الى جانب النافذة

* هو ثاني اباطرة الرومان (٤٢ ق . م - ٣٧ ب . م) كان حاكماً قديراً ولكنه شديد القوة . وقد سبق التعريف به .

** كائن خرافي يخوف به الاطفال . وهو اقرب شيء الى « الفول » الذي يخوف به اطفالنا في بعض البيئات .

المفتوحة . وتقاطرت عليه ، من الفضاء الرحب ، ضروب المواجه
وامتزجت بتفكيره . أيُّ مشهد هو الليل ! نحن نسمع اصواتاً مبهمّة
لسنا ندري من اين تقبل . نحن نرى جوبيتير وهو اكبر من الارض
ألفاً ومئتي مرة ، يلتصق مثل جرة . القبة السماوية زرقاء ؛ النجوم
تتلاّأ ؛ ذلك شيء خفيف .

وقرأ بيانات الجيش العظيم الرسمية ، تلك الفلذات البطولية التي كتبت
في ساحة المعركة . كان اسم ابيه يرد فيها احياناً ، وكان اسم
الامبراطور يتردّد خلالها دائماً . وتبدّت له الامبراطورية العظيمة كلها .
لقد احسّ وكأن مَدّاً كان ينتفخ في ذات نفسه ويرتفع . لقد بدا له في
بعض اللحظات ان اياه يمرّ على مقربة منه مثل نسمة من النسيمات ،
ويهمس في أذنه . وشيئاً بعد شيء ، غدا غريباً تأثراً . لقد حسب انه
سمع الطبول ، والمدافع ، والابواق ، وخطى الافواج الموزونة ،
وخبب الفرسان المبهم الثاني . وبين الفينة والفينة كانت عيناه ترتفعان
نحو السماء ، فتريان البروج الهائلة تسطع في الاعماق التي لا قرار لها ،
ثم ترتدان الى الكتاب فتريان هناك اشياء اخرى بالغة الضخامة تضطرب
في غير وضوح . كان منقبض الصدر . وكان مهتاجاً ، مرتجفاً ، لاهثاً .
وفجأة ، ومن غير ان يدري هو نفسه اي شيء يحركه ، أو اي شيء
كان يطيع ، نهض وبسط ذراعيه خارج النافذة ، وحدّق الى الظلام ،
الى الصمت ، الى اللانهاية المظلمة ، الى الرحب الأزلي الذي لا حدّ له ،
وصاح : « فليحي الامبراطور ! »

ومن ذلك الحين انتهى كل شيء ؛ الغول الكوروسكي - الفاصب -
الطاغية - الوحش الذي كان عشيق أخواته - الممثل الذي تتلمذ على
تالما * - مسمّم يافا - النمر - بُوؤنايرته - كل هذا قد تلاشى وأُخلى

* Talma مسرحي فرنسي (١٧٦٣ - ١٨٢٦) وكان نابوليون يؤثره على
الممثلين جميعاً .

مكانه في عقله لأشراق غامض وساطع تألق فيه من ارتفاع سامق لا يدرك طيف قصر الرخامي الشاحب . إن الامبراطور لم يكن عند أبيه غير القائد القدير المحبوب ، الذي يُعجب به المرء ، ويقف نفسه لخدمته . أما عند ماريوس فكان شيئاً أكثر من ذلك . كان الرجل المختار لأنشاء الفرقة الفرنسية التي خلفت الفرقة الرومانية في السيادة على العالم . كان المهندس الأعجوبي لسقوط ما ، والمنتم عمل شارلمان ، ولويس الحادي عشر ، وهنري الرابع ، وربشليو ، ولويس الرابع عشر ، ولجنة السلامة العامة ؛ وكانت له ، من غير ريب ، عيوبه ، وأخطاؤه ، بل وجرائمه ، يعني بوصفه بشراً . ولكنه كان جليلاً في أخطائه ، متألماً في عيوبه ، جباراً في جرائمه . كان الرجل الذي اختارته الاقدار لكي يذكره الامم على ان تقول : الامة العظيمة . بل لقد كان خيراً من ذلك . كان تجسّد فرنسة نفسه ، فانحاً أوربة بالسيف الذي شهره ، والعالم بالضياء الذي سفعه . لقد رأى ماريوس في بونابرت ذلك اللطيف الباهر الذي سيظهر على الحدود دائماً ، والذي سيمارس المستقبل . طاغية ، ولكنه حاكم فوق العادة ممنع جميع الصلاحيات وأطلقت يده في العمل . طاغية منبثق من جمهورية ، ومختصر لثورة . لقد أمسى نابوليون ، في نظره ، الرجل الشعب ، كما كان يسوع الرب الانسان .

وشأن جميع الداخلين حديثاً في دين من الاديان أسكره دخوله في الدين ، واندفع في تشيعة اندفاعاً متهوراً ، وذهب الى أبعد مما ينبغي . كانت طبيعته هكذا ؛ فما إن يبط منعديراً حتى يتعذر عليه أن يتوقف ، أو يكاد . واستبدت به العصبية للسيف ، واختلطت في ذهنه بالحماسة للفكرة . إنه لم يدرك أنه ، الى جانب العبقرية ، ومن غير ما تميز ، قد أعجب بالقوة ، يعني أنه أقام في ركني صميمته ما هو السهي من جهة ، وما هو وحشي من جهة . ومن نواح كثيرة ، انشأ بخدع نفسه في شؤون اخرى . لقد أقر كل شيء . فتنة وسيلة للوقوع في

الخطأ فيها يتخذ المرء سبيله الى الحق . وكان له ضرب من سلامة القلب العنيفة الجافية التي ابتلعت كل شيء جملة . ففي السبيل الجديدة التي سلكها ، اهل في محاكمته أخطاء العهد القديم كما اهل في تقديره عظمة نابوليون مختلف الملبسات والاسباب التخفيفية .

وأياً ما كان فقد خطا تلك الخطوة الكبيرة . فحيث رأى من قبل سقوط الملكية ، رأى الآن جلوس الشعب على العرش . لقد تغيرت قبلته . فما كان غروب الشمس ، انتهى الان الى ان يصبح إشرافها . لقد دار الى الورا .

ونمت هذه الثورات كلها في ذات نفسه من غير ان تشعر أسرته بها على الاطلاق .

وحين اطرّح في هذا الجهد الحفيّ جلده البوروبوني القديم المغالي في التطرف اطرّاحاً كاملاً ؛ حين تعرّى من كل ما هو ارسوقراطي ، يعقوبي ، وملكي ؛ حين أمسى ثورياً بكل معنى الكلمة ، ديموقراطياً الى الاعماق ، جمهورياً او يكاد ، شخص الى حفار في الدكي ديزوريفر ، وأوصى على مئة بطاقة تحمل هذا الاسم : البارون ماريوس بونغيرسي .

ولم يكن ذلك غير نتيجة منطقية جداً للتغير الذي طرأ عليه ، وهو تغير دار كل شيء فيه ، بمثل القوة الجاذبة ، على محور أبيه . وإذا لم يكن يعرف أحداً ، وإذا لم يكن في وسعه ان يترك بطاقته عند باب أحد ، فقد وضع تلك البطاقات في جيبه .

وبسبب من نتيجة طبيعية اخرى كان كلما ازداد قرباً من أبيه ، من ذكراه ، من الاشياء التي قاتل الكولونيل من أجلها طوال خمس وعشرين سنة ، ازداد بعداً عن جده . وقد سبق منا القول إن خصال مسيو جيلنورمان ما كانت لترضيه منذ عهد بعيد . كان يكرهه كره شاب آخذٍ باسباب الجدّ شيخاً عانياً مستهتراً . ان مرح جيرونت * ليصدم كتابة

* Géronte إحدى شخصيات موليير ، ويمثل العجوز القاسي الفؤاد ، الشحيح ، العنيد .

فيرتر* وبقيظها . والواقع انه ما دامت الآراء السياسية نفسها والافكار نفسها مشتركة بين ماريوس ومسيو جيلنورمان فقد التقيا بواسطتها وكأنما يلتقيان على جسر ، حتى اذا سقط هذا الجسر برزت الهوة . وفوق ذلك كله ، فقد عصفت الثورة بماريوس على نحو لا سبيل الى وصفه عندما فكر أن مسيو جيلنورمان قد فصله من غير ما رحمة ، وبدوافع حمقاء ، عن الكولونيل ، وبذلك حرم الأب ابنه ، والابن أباه .

ومن خلال بريرة بأبيه كاد ماريوس أن ينتهي الى كره جده .
ومها يكن من أمر فأن ايأ من هذا لم يُعلن ، كما قلنا ، عن نفسه على نحو خارجي . كل في الامر أنه ازداد فتوراً يوماً بعد يوم ، وانه كان قليل الكلام على المائدة ، نادر الإقامة في المنزل . فاذا غفقه خالته من اجل ذلك كان بالغ الرقة ، وكان يتذرع بدروسه ، وبالْحُكْم ، والامتحانات ، والمحاضرات الخ . وما كان الجد ليغيّر تشخيصه المنزه عن الخطأ : « عاشق ! أنا أفهم ذلك ! »

وكان ماريوس يغيب عن المنزل بين الفينة والفينة .
وكانت الحالة تتسائل :

— « الى اين تراه يذهب ، على هذه الشاكلة ؟ »
وفي احدى هذه الرحلات ، البالغة القصر دائماً ، قصد الى مونفيرماي إنفاذاً للوصية التي تركها له ابوه ، وبحث عن رقيب وانزلوا السابق ، الفندق في ، تيناردييه . وكان تيناردييه قد أفلس ، وكان الفندق قد أوصد ، ولم يكن احد ليدري ما الذي حل به . واضطر ماريوس ، من اجل القيام بهذا البحث ، الى التغيب عن المنزل أربعة أيام .
وقال الجد :

— « لا ريب في انه ضلّ السبيل » .
ولقد خيّل اليهما أنها لاحظا أنه يحمل على صدره وتحت قميصه شيئاً

* Werther بطل قصة الشاعر الألماني غوته الشهيرة الحاملة هذا الاسم .

يتدلى من عنقه بشريطة سوداء .

٧

تنورة ما

لقد تحدثنا عن أحد الرماحة .

كان ابن ابن أخى مسيو جيلنورمان ، الذي كان يحيا بعيداً عن الاسرة ، وبعيداً عن الحياة العائلية كلها ، في مقر الحامية . وكانت الملازم الاول نيبودول جيلنورمان قد حقق جميع الشروط التي يحتاج اليها المرء لكي يكون ما يدعى ضابطاً جميلاً . كان له « خصر آنسة » ، وطريقة في جر الحسام المظفر ، وشارب معقوص . كان نادراً ما يذهب الى باريس ، نادراً الى حد ان ماريوس لم يره قط . والواقع ان ابني العمومة لم يعرف واحداً منهما الآخر إلا بالاسم . وكان نيبودول ، كما نعتقد أننا ذكرنا ، اثيراً لدى الحالة جيلنورمان تفضله لأنها لم تكن تراه . إن عدم رؤية الناس يساعدنا على ان نتخيل فيهم مختلف ضروب الكمال . وذات صباح انقلبت الآنسة جيلنورمان الكبرى الى غرفتها وهي مهتاجة الى ابعاد ما تسمع لها وداعتها بأن تحتاج . كان ماريوس قد سأل جده ، كرة اخرى ، ان يأذن له في القيام برحلة قصيرة ، مضيفاً أنه يعتزم الانطلاق تلك الليلة نفسها . وكان الجدة قد أجاب : « اذهب ! » ، ثم اضاف ، على انفراد ، رافعاً حاجبيه الى أعلى جبينه : « إنه يعاود جريمة المبيت خارج المنزل . » وكانت الانسة جيلنورمان قد رجعت الى غرفتها في ارتباك شديد ، ملقية على السلم علامة التعجب هذه : « هذا جميل ! » وعلامة الاستفهام هذه : « ولكن الى اين تراه يذهب ؟ » وتخيّلت مغامرة من مغامرات القلب المحظورة قليلاً او كثيراً ، امرأة

في الظل" ، موعداً غرامياً ، سرّاً خفياً ؛ ولم تكن خليقة بأن تغضب لو قدّر لها ان 'تقعّم نظارتها فيها . إن مذاق سرّ من الاسرار أشبه شيء بياكورة ريبة . والنفوس الطاهرة لا تكره ذلك البتة . إن في 'حجرات التطرف في التقوى بعض الفضول الى الفضيحة .

لقد كانت اذن فريسة رغبة عمياء في معرفة قصة ما .

ولكي تلتهم عن هذا الفضول الذي كان 'يوثرها من الاحتياج اكثر مما تعودت ، لجأت الى مواهبها وشرعت تنشئ - بخيط من القطن فوق خيط من القطن - قطعة من وشي الامبراطورية وعودة آل بوربون الذي كانت تكثر فيه عجلات العربات ذوات الدولابين . حمل "عبوس" ، وعاملة شرسة . وكانت قد سلخت في كرميتها عدة ساعات عندما 'فتح الباب . ورفعت الآنسة جيلنورمان أنفها . كان الملازم الأول تيبودول أمامها يحبسها بنحية المرافق العسكري . وأطلقت صيحة ابتهاج . فقد تكون المرأة عجوزاً ، وقد تكون مسرقة في التعفّف ، وقد تكون ورعة ، وقد تكون عمة - أو خالة ، ولكن من المستعب دائماً ان ترى رماحاً يدخل غرفتها .

وهتفت :

- « انت هنا ، ياتيودول ! »

- « لقد احببت ان امرّ بكم في طريقي ، ايها العمة . »

- « عانقني اذن . »

فقال تيبودول :

- « ها أنا ذا افعل ! »

وعانقها . ومضت العمة جيلنورمان الى مكتبها وفتحته .

- « سوف تبقى عندنا طوال الاسبوع على الاقل ، اليس كذلك ؟ »

- « ايها العمة ، سوف أرحل هذا المساء . »

- « مستحيل ! »

- « إني مضطر الى السفر معها كلف الامر . »

- « إبقى ، يا صغيري تيبودول ، ارجوك . »
 - « القلب يقول نعم ، ولكن الاوامر تقول لا . القصة بسيطة . لقد
 'غير مقر' حاميتنا . كنا في ميلون ، وها قد وجهنا الآن الى غايون .
 ولكي نذهب من مقر الحامية القديم الى المقر الجديد يتعين علينا أن نمر
 بباريس . وهكذا قلت : سوف أذهب وأرى عمي . »
 - « دونك هذه جزاء ما لقيت من تعب . »
 ووضعت في يده عشر ليرات ذهبية .
 - « تعين جزاء ما نعمت به من سرور ، ايها العمّة العزيزة . »
 وعانقها تيبودول كرة أخرى ، وسعدت بأن خدشت جدائل ثوبه
 العسكري رقبته خدشاً طفيفاً .
 وسألته :

- « اتقوم بهذه الرحلة على صهوة الجواد مع كتيبتيك ؟ »
 - « لا ، ايها العمّة . لقد اردت ان أراك . لقد حصلت على اجازة
 خاصة . ان خادمي يقود جوادي . اما انا فأركب العربّة العمومية .
 وبالمناسبة ، هناك سؤال أحب ان أوجه اليك . »
 - « ماذا ؟ »

- « إن ابن عمي ماريوس بونغيرمي راحل ايضاً ، اليس كذلك ؟ » .
 فصاحت العمّة وقد استثير فضولها ، فجاءت الى ابعد حدود الاستشارة :
 - « كيف تعرف ذلك ؟ »
 - « حين وصولي ، شخّصت الى مركز العربات العمومية لأحجز محلاً
 في القسم الامامي من العربّة . »
 - « ثم ماذا ؟ »

- « كان احد المسافرين قد حجز محلاً في القسم الأعلى من عربّة .
 لقد رأيت اسمه في السجل . »
 - « اي اسم ؟ »
 - « ماريوس بونغيرمي . »

فصاحت العمة :

- « الفتى الشرير ! آه ، إن ابن عمك ليس غلاماً حسن السلوك مثلك .
- انا لا أستطيع ان افكر انه سوف يمضي الليل في عربة عمومية . »
- « مثلي انا . »
- « ولكنك تفعل ذلك بحكم الواجب . أما هو فيفعله بدافع الفسق والفجور . »

فقال تبيودول :

- « وما الفرق ؟ »
- وهنا وقعت حادثة في حياة الآنسة جيلنورمان الكبرى . لقد راودتها فكرة . ولو كانت رجلاً ، اذن لصفعت جبينها . وخاطبت تبيودول في لهجة شديدة ، قائلة :

- « اندري ان ابن عمك لا يعرفك ؟ »
- « لا . لقد رأيته انا . ولكنه لم يتنازل يوماً فينظر اليّ . »
- « وسوف تسافران معاً على هذا الشكل ؟ »
- « هو في القسم الأعلى من العربة العمومية ، وانا في القسم الأمامي منها . »

- « الى أين تذهب هذه العربة العمومية ؟ »
- « الى الآنديلي . »
- « اذن فماريوس ذاهب الى هناك ؟ »
- « إلا اذا غادر العربة ، مثلي ، في بعض الطريق . سوف أنزل في فيرون لاتخذ الطريق الفرعية الى غايون . انا لا اعرف شيئاً عن طريق ماريوس .. »

- « ماريوس ! يا له من اسم بشع ! ويا لها فكرة صائبة ، تلك التي جعلتهم يسمونه ماريوس . ولكن انت ، على الاقل - انت تدعى تبيودول ! »

- فقال الضابط :
- « كنت أوتر ان يكون ألفرد . »
 - « إسمع يا تيودول . »
 - « انا سامع ، اينها العمة . »
 - « انقبه . »
 - « أنا منتبه . »
 - « هل أنت مستعد ؟ »
 - « نعم . »
 - « حسناً . إن ماريوس يغيب عن البيت في كثير من الاحيان . »
 - « إيه ! إيه ! »
 - « إنه يسافر . »
 - « آه ! آه ! »
 - « انه يبيت خارج المنزل . »
 - « اوه ! اوه ! »
 - « نريد ان نعرف ما وراء ذلك كله . »
 - وفي هدوء رجل من بروتر ، أجاب تيودول :
 - « تتورة ما . »
 - وبتلك الضحكة المكبوحة التي تتم عن اليقين أضاف :
 - « فتاة صغيرة . »
 - « هذا واضح ، كذلك صاحبة العمة التي حسبت أن ماريو جيلنورمان يتكلم ، والتي استشعرت ان اقتناعها بأنه ينبثق على نحو لا يقاوم من هاتين الكلمتين ، « فتاة صغيرة » ، اللتين انطلقنا بالجرس نفسه من فم أخي الجدة وفم ابن ابن الأخ جميعاً . واستأنفت كلامها :
 - « تم بهذا الصنيع من أجلنا . إن تبع ماريوس قليلاً . إنه لا يعرفك ؛ ولسوف يكون ذلك سهلاً عليك . فما دام ثمة « فتاة صغيرة »

لفحاول .أن ترى « الفتاة الصغيرة » . في استطاعتك ان تبعث الينا بالحكاية . إن ذلك سوف يسلي جدك . »

ولم يكن نبيودول شديد الرغبة في مثل هذا الضرب من الترويض . ولكن الليرات الذهبية العشر وقعت في نفسه موقع الارتياح العظيم ، وخيل اليه انه يرى تمةً يمكن ان تتلوها . فقبل المهمة ، وقال :

— « كما تريدن ، ايها العمة . »

ثم اضاف بينه وبين نفسه :

— « ها أنا ذا قد أمست دُويينا * . »

وعانقته الآنسة جيلنورمان .

— « إنك لا تقوم بمثل هذه الحيل ، يا نبيودول . أنت تطيع الانظمة ؛ انت عبدٌ للأوامر الصادرة اليك ؛ انت رجلٌ تدقيق وواجب ، وإنك لا تترك أمرتك لكي تذهب وترى مخلوقة كهذه . » وصقر الرماح خده في ارتياح ، وكأنه كارتوش ** أطربت أمانته .

وفي المساء الذي تلا ذلك الحوار ، ركب ماريوس العربة العمومية من غير أن يخاطر في باله أنه مراقب . أما المراقب فكان اول ما صله ان استسلم للرقاد . كان نومه صيحاً يؤذن بضمير مرتاح . لقد غط آرغوس *** طوال الليل .

وعند منبجج الصباح صاح سائق العربة العمومية :

* Duenna عبوز تكتلف في اسبانية بمراقبة فتاة صغيرة او امرأة شابة .

** Cartouche زعيم عصابة من اللصوص ، وقد سبق التعريف به .

*** Argus في الميثولوجيا الاغريقية عملاق ذو مئة عين عهد اليه في مراقبة « ليو » التي مُسخت بكرة ، فلما كان من « عطارد » الا ان اوقع النوم في عينيه بانقام قيثارته واحتر وأسه . ثم مُزعت عيونه في ذب الطاووس . والمراد بـ « آرغوس » هنا ، نبيودول .

- « فيرونون ! محطة فيرونون ! المسافرون الى فيرونون ! »
وأفاق الملازم الأول تيبودول من سباته ، ودمدم نصف قائم :
- « حسن . في هذا المكان سوف أنزل . »
حتى اذا انجلت ذاكرته شيئاً بعد شيء ، نتيجة البقطة ، تذكر عنته
والثيرات الذهبية العشر ، والتقارير الذي كلف بتقديمه عن سلوك ماريوس .
وأغراه ذلك بالضحك .

وفكر ، فيما كان يزور صدرته غير الرسمية : « لعله غادر العربة .
جائز ان يكون قد ترجل في « بواشي » . لعله قد نزل في « ترييل » .
إن لم يكن قد نزل في « مولان » ، فلهذه قد ترجل عند « مانت » ، إلا
اذا نزل في « رولبواس » ، وإلا اذا ذهب حتى « باسي » ، ليس غير ، مع
امكان انعطافه الى الشمال نحو « إيفرو » ، أو الى اليمين نحو « لاروش
غوييون » . إتبعه ، يا عمي . يا للشيطان ! اي شيء سوف اكتبه اليها ،
الى تلك المعجوز الطيبة ؟ » .

في تلك اللحظة بدا من زجاج القسم الامامي من العربة بنظارات
أسود كان يحيط من قسمها الأعلى .

وقال الملازم الاول :

- « أياكون هذا ماريوس ؟ »

لقد كان هو ماريوس .

وكانت ريفية صفيحة واقفة الى جانب العربة ، بين الحيل والسائقين ،
تعرض الازهار على المسافرين ، صائحة :

- « أزهار لسيداتكم ! »

واقترب ماريوس منها ، واشترى اجل ما في ملتها من الرياحين .
وقال تيبودول واثباً من العربة :

- « والآن ، هو ذا شيء مثير . الى من توى يحمل هذه الرياحين ؟

ينبغي ان تكون امرأة جميلة الى حد فائق تلك التي تحمل اليها باقة كهذه .

لاني أودّ أن أراها . »

وشرع يتبع ماريوس ، لا تنفيذاً لمهمة عهد بها اليه ، هذه المرة ، ولكن بدافع من الفضول الشخصي ، مثل تلك الكلاب التي تقتنص لحسابها الخاص .

ولم يلتق ماريوس بالأى تيبودول . وخرجت من العربة العمومية بعض النسوة الانيفات . لقد بدا وكأنه لم ير شيئاً مما حوله . وفكّر تيبودول : « ايبكون عاشقاً ؟ »

ومشى ماريوس نحو الكنيسة :

وقال ماريوس مخاطباً نفسه :

- « حسن ، الكنيسة ! هذا هو . إن المواعيد الفرامية المتبعة بشيء من القدّاس هي المواعيد الفضلى . ليس ثمة ما هو ألدّ من غمرة تمرّ عبرَ الربّ الرحيم ! »

حتى اذا انتهى ماريوس الى الكنيسة لم يدخلها ، بل استدار خلف البناء . ثم اخفى عند زاوية عمود من اعمدة صدر الكنيسة . وقال تيبودول :

- « اللقاء في الخارج . فلتنرّ الفتاة الصغيرة . »

واقترّب على رؤوس اصابعه نحو الزاوية التي استدار ماريوس حولها . حتى إذا بلغها وقف مشدوهاً .

كان ماريوس راكعاً على العشب ، مخفياً وجهه بيديه ، فوق قبر من القبور . كان قد نثر باقته هناك . وفي اقصى القبر ، عند مرتفع يعين موضع الرأس ، انتصب صليب من خشب أسود كُتِبَ عليه هذا الاسم بأحرف بيضاء : الكولونيل الباون بونيمى . لقد سمع ماريوس ينتحب .

كانت « الفتاة الصغيرة » قبراً .

رخام ضد صوان

الى هناك كان ماريوس قد ذهب أول مرة غاب فيها عن باريس .
والى هناك كان يعود كلما قال مسيو جيلنورمان : « انه يبيت خارج
المنزل . »

واضطرب الملازم الاول تبيودول لهذا الالتقاء ، غير المتوقع ،
بقبر . لقد اعتراه شعور مقيت غريب لم يكن قادراً على تحليله -
شعور مؤلف من احترام لقبر ، مزوج باحترام لكونولونيل . وانكفاً ،
تاركاً ماريوس وحده في المقبرة ، وكان في انكفائه ذاك شيء من
النظام . لقد بدا له الموت بكثافتين ضخمتين ، ولقد أدى له التحية
العسكرية أو كاد . وإذا لم يدر ما ينبغي ان يكتبه الى عمته ، فقد
اعتزم ان لا يكتب اليها شيئاً على الاطلاق . ولعل شيئاً ما كان
لينتج عن الاكتشاف الذي تم لتبيودول في موضوع غراميات ماريوس
لو لم يُتبع مشهد فيرونون - بفضل تدبير من تلك التدابير الحفية التي
تحفل بها المصادفة - بنوع من الضربة المقابلة في باريس .

لقد رجع ماريوس من فيرونون في ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث
وشخص الى بيت جده . واذا استبد به التعب بسبب من الليلتين
اللتين قضاهما في العربة العمومية ، واستشعر الحاجة الى التهويض
عن قلة نومه بساعة يمضيها في مدرسة السباحة ، فقد ارتقى السلم مسرعاً
الى غرفته ، فنزع سترة السفر الطويلة والشريطة السوداء المطوَّقة عنقه
ومضى على جناح السرعة الى الحمام .

وكان مسيو جيلنورمان - وقد أفاق باكراً مثل جميع الشيوخ
المنتمين بصحة جيدة - قد سمعه يعود ، فسارع بأقصى ما تكتنه رجلاه

المعجوزان الى ارتقاء السلم المؤدية الى غرفة ماريوس لكي يعانقه ، ولكي يستجوبه في اثناء العناق ، ويستطلع بعض الاستطلاع من ابن أقبل . ولكن المراهق اقتضاه النزول وقتاً أقصر من ذلك الذي احتاج اليه ابن الثمانين في الطلوع . حتى اذا دخل مسيو جيلنورمان عليّة ماريوس لم يجده هناك .

كان السرير مرتباً لم يُمسّ ، وقد انتشرت فوقه ، في غير ما احتياط أو حذر ، سترة ماريوس الطويلة وشريطته السوداء .

وقال مسيو جيلنورمان :

« انا أفضل هذا . »

وبعد لحظة دخل غرفة الاستقبال حيث كانت الآنسة جيلنورمان الكبرى قد جلست ، وأخذت تطرّز عجلات عربتها . وكان الدخول مظفراً .

وأمسك مسيو جيلنورمان السترة في يده ، وشريطة العنق في يده ، وصاح :

« النصر ! سوف ننفذ الى السرّ ! سوف نعرف نهاية النهايات ! سوف نلمس فجور 'مراثينا ! ها نحن مع الرواية كاملة . إنّ عندي الصورة ! »

والحقّ ان علبة من الجلد الأسود المبرّغل ، اشبه ما تكون بجلية بيضة الشكل ، كانت تتدلى من الشريطة .

واخذ الشيخ هذه العلبة وتأمّلها ، فترةً ، من غير ان يفتحها ، وعلى وجهه سيما الشهوة ، والدهش ، والغضب التي ينظر بها شيطان فقير جائع الى مائدة بمنازة تمرّ تحت أنفه وهي غير معدة له .

« ذلك ان في جوف هذه العلبة صورة من غير ريب . أنا أعرف كل شيء عن ذلك . ان هذه العلبة تُحمل في رفق ، فوق القلب . يا لهم من بجانين ! إنها عاهرة بغيضة ما ، قد توقع الرعدة في اوصال

المرء ! إن للشبان مثل هذا الذوق الرديء كله ، في هذه الايام ! ،
فقالت العانس :

- « فلنترّ يا أبت ! »

وفُتحت العلبة بالضغط على نابض . ولم يجد فيها غير قصاصة من
الورق طويت في عناية .

وقال مسيو جيلنورمان ، وهو ينفجر بالضحك :

- « من داعرة الى داعر . أنا ادري ما هي . إنها رسالة غرام ! »
فقالت الحالة :

- « آه ! اذن فلنقرأها ! »

ولبست نظارتها . ثم نشرت قصاصة الورق وقرأت ما يلي :

- « الى ولدي : - إن الامبراطور قد جعلني باروناً في ساحة

القتال بواترلو . ولما كان عهد آل بوربون الجديد ينكر عليّ هذا اللقب
الذي دفعت دمي ثمناً له فان ولدي سوف يأخذه ويحمله . وليس من
ريب في أنه سوف يكون جديراً به . »

وليس من سبيل الى وصف الشعور الذي اعتلج في صدرَي الاب

وابنته . لقد أحسّا بالقشعريرة وكأنّ أنفاس رأس الموت قد مستها .

ولم يتبادلا كلمة واحدة . بيد ان مسيو جيلنورمان قال في صوت

خفيض وكأنّما كان يخاطب نفسه :

- « انه خطّ ذلك السياف الجاهل . »

وفحصت الحالة الورقة ، وقلبتها ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، ثم

أعادتها الى الصندوق .

وفي تلك اللحظة نفسها سقطت رزمة مستطيلة صغيرة ، ملفوفة بورق

أزرق ، من جيب من جيوب السترة . والتقطتها الانسة جيلنورمان ،

وفضّت الورقة الزرقاء . كانت بطاقات ماريوس المئة . ودفعت احداها

الى مسيو جيلنورمان الذي قرأ : البارون ماريوس بوغيمري .

وقرع الشيخ الجرس . واقبلت نيقوليت . وتناول مسيو جيلنورمان الشريطة ، والعلبة ، والسترة الطويلة والقابض على الارض وسط غرفة الاستقبال وقال :

- « أعيدي هذه الاشياء الى مكانها . »
وانقضت ساعة كاملة ساد فيها أعمق الصمت . كانت الرجل العجوز والعانس العجوز جالسين ، وقد ولّتا كل منهما ظهره للآخر ، ولعلهما كانا يفكران - كل من ناحيته - في الاشياء نفسها . وفي ختام تلك الساعة قالت الحالة جيلنورمان :

- « جميل ! »
وبعد لحظات برز ماريوس . ودخل . وحتى قبل ان يجتاز عتبة غرفة الاستقبال لمح جدّه الذي كان حاملاً احدى بطاقاته في يده ، والذي لم يكذب يراه حتى صاح في نبرة تفوق بورجوازية ساخرة كان فيها شيء يسحق سحقاً :

- « قف ! قف ! قف ! قف ! انت « بارون » الان .
انا أقدم اليك تهنيتي . ما معنى هذا كله ؟ »
وشاع الدم في وجه ماريوس ، بعض الشيء ، واجاب :
- « هذا يعني اني ابن ابي . »
وكفّ مسيو جيلنورمان عن الضحك ، وقال في قسوة :
- « أبوك ؟ انا أبوك . »

فأردف ماريوس وقد خفض بصره وغلبت الصرامة على وجهه :
- « لقد كان والدي رجلاً متواضعاً وبأسلاً خدام الجمهورية وفرنسة خدمة ماجدة ؛ رجلاً عظيماً في أعظم تاريخ قُدر للبشر ان يصنعوه ؛ رجلاً عاش ربع قرن في معسكرات القتال ، في النهار تحت القذائف ونحت القنابل ، وفي الليل وسط الثلج ، وفي الوحل ، ونحت المطر ؛ رجلاً انتزع رايتين ، وأصيب بعشرين جرحاً ، ومات منسياً مهجوراً ؛

رجلاً لم يكن يرتكب غير خطأ واحد ، هو انه أحب اكثر مما ينبغي عاقبتين اثنين : وطنه وأنا ! ،

كان ذلك اكثر مما استطاع مسيو جيلنورمان أن يحتمل سماعه . فلم تكذب هذه الكلمة ، الجمهورية ، تطرق سمعه حتى نهض ، او على الاصح ، حتى انتصب واقفاً . وكانت كل من الكلمات التي نطق بها ماريوس قد احدثت ، في وجه الملكي العجوز ، مثل ذلك الاثر الذي تحدثه أنفاس الكير في الفحم المشتعل . كان قائماً ففداً أحر ، وكانت أحر ففداً أرجوانياً ، وكان أرجوانياً ففداً متوهجاً .

وصاح :

- « ماريوس ايها الولد البغيض ! أنا لا أدري اي شيء كان أبوك ! أنا لا أريد أن أعرف شيئاً عنه ولست أعرفه . ولكن الذي أعرفه انه لم يوجد قط غير جماعة من البؤساء بين أولئك القوم جميعاً . أنهم كانوا كلهم شعاذين ، سفاحين ، ذوي فلانس حراء * ، ولصوصاً . أقول كلهم ! أقول كلهم ! أنا لا أعرف أحداً ! أقول كلهم ! أسمع أنت ، ماريوس ! انظر جيداً . ان فيك من البارونية مقدار ما في بابو جي منها ! لقد كانوا كلهم لصوصاً أولئك الذين عملوا تحت إمرة روبسيير ! وكانوا كلهم قطاع طرق أولئك الذين عملوا تحت إمرة بو - وو - فا - برته ! كلهم خوة خذلوا ، خذلوا ، خذلوا ملكهم الشرعي ! كلهم جبناء قرّوا من وجه البروسيين والانكليز في واترلو ! هذا هو الذي أعرفه ، فاذا كان أبوك واحداً منهم فلست أعرفه . أنا آسف لذلك ، يا سيدي . » .

وأسمى ماريوس ، بدوّره ، الفحم ، وأسمى مسيو جيلنورمان أنفاس الكير . وسرت الرعدة في اوصال ماريوس كلها . انه لم يدرك ما يجب ان يفعل ؛ لقد اشتعل رأسه . كان الكاهن الذي يرى الى قرايبه

* يفصد انهم ثوريون ، لان الفلانس الحمراء كان يتميز بها اشد انصار الثورة الفرنسية حاسة .

يقذف بها كلها في مهب الريح ، و « الفقير » الذي يرى عابراً سبيل يبصق على صنمه . انه ما كان يستطيع ان يسمح بالتلفظ امامه بمثل هذه الاشياء من غير أن يردّ عليها . ولكن اي شيء كان يستطيع ان يعمل ؟ لقد ديس أبوه ورُفس على مسمع منه ، ولكن من الذي داسه ورفسه ؟ جده . فكيف يثار لأحدهما من غير أن يبين الآخر ؟ كان متعذراً عليه ان يحقرّ جده ، وكان متعذراً عليه أن لا يثار لأبيه ، على حدّ سواء . كان امامه ، من ناحية ، جدّ مقدس ، وكان امامه ، من ناحية اخرى شعر أشيب . وأخذ الدوار ، وترنح من أثر تلك الزوبعة التي عصفت في رأسه . ثم رفع عينيه وحدق الى جده ، وصاح في صوت راعد :
- « فلبسقط آل بوربون ، وذلك الخنزير الكبير لويس الثامن عشر ! »
كان لويس الثامن عشر قد توفي منذ اربع سنوات ، ولكن ذلك ما كان ليقدم عنده أو يؤخر .

وفجأة غدا لون الشيخ ، برغم قرمزيته الشديدة ، اشدّ بياضاً من شعره . لقد استدار نحو تمثال نصفيّ لدوق دو برّي قائمٍ على الموقد . والمحنى له في احترام شديد ، وبضرب من العظمة الفريدة . ثم مشى مرتين ، في تزددة وفي صمت ، من الموقد الى النافذة ، ومن النافذة الى الموقد مجتازاً طوال الغرفة بكامله ، جاعلاً ارض الغرفة تقفض وكأن صورة من حبر تخطر فوقها . وفي المرة الثانية انحنى نحو ابنته ، التي كانت تتحمل الصدمة في انشداء خروفٍ طاعن في السن ، وقال لها في ابتسامة كادت تكون هادئة :

- « إن باروناً مثل حضرة السيد وبورجوازيّاً مثلي لا يستطيعان ان يظلا تحت سقف واحد . »

وتصدّر فجأة ، شديد الشحوب ، مرتعداً ، فظيماً ، وقد تعاظم جبينه بأشعاع الغضب المروّع ، وبسط ذراعه نحو ماريوس وصاح به :
- « أغرب من هنا ! » .

وغادر ماريوس البيت .

وفي اليوم التالي قال مسيو جيلنورمان لابنته :

« سوف ترسلين ستين « بيستولا » * كل ستة اشهر الى شارب

الدماء هذا ، ولن تحدثيني عنه بعد اليوم على الاطلاق . »

واذ كان لديه رصيد ضخم من الغيظ ينبغي ان ينفقه ، واذا لم يكن يعرف ما الذي يصنعه به ، فقد تحدث مع ابنته في برود طوال ثلاثة اشهر ونيف .

وانصرف ماريوس ، من ناحيته ، ساخطاً . ويحسن بنا أن ننصّ هنا

على حادثة أذكت غيظه اكثر فاكثراً . فتمة دائماً مثل هذه المقادير *

الصغيرة التي تعقد المآسي العائلية . إن المظالم لتعاظم برغم ان الأخطاء

لم ترد ، في الاساس ، اتساعاً . ذلك ان يقوليت حين سارعت الى نقل

« أشياء » ماريوس الى غرفته - تنفيذاً لأمر العجوز - كانت قد اسقطت

من غير ان تشعر ، وربما على سلم العلية التي كانت مظلمة ، الحلية الجلدية

السوداء المنطوية على الورقة المكتوبة بخط الكولونيل . ولم يُعثَر لتلك

الورقة او لتلك الحلية على أثر . وكان ماريوس مقتنعاً بأن « مسيو

جيلنورمان » - فهو لم يسهّ منذ ذلك الحين بغير هذا الاسم - قد

قذف بـ « وصية أبيه » الى النار . كان يحفظ عن ظهر قلب تلك الاسطر

القليلة التي خطها الكولونيل ، ومن هنا لم يضع شيء البتة . ولكن الورقة ،

الحطّ ، ذلك الاثر المقدس ، كل ذلك كان قلبه نفسه . اي شيء قد صنع بها ؟

وغادر ماريوس المنزل من غير ان يقول الى ابن كان ذاهباً ، ومن

غير ان يعرف الى اين كان ذاهباً ، وليس معه غير ثلاثين فرنكاً وساعته

وبعض الملابس في قطعة من بساط . واستأجر عربة من عربات الاجرة ،

ووثب اليها ، وانطلق كيفما اتفق نحو الحي اللاتيني .

أي شيء سيحلّ بماريوس ؟

* عملة فرنسية ذهبية قديمة . (pistole)

* المقادير ، هنا ، جمع مقدور ، وهو الأمر المضمون .

الكتاب الرابع

أصدقاء الألفباء

جماعة كادت تصبح تاريخية

في تلك الحقبة ، اللامبالية في الظاهر ، كانت فرنة نحسّ بقشعريرة ثورية غامضة . كانت بعض المسات المنبثقة من اعماق عامي ٨٩ ، و ٩٢ حديث القوم . وكانت باريس الفنية ، وليُفكر لنا هذا التعبير ، على وئلك ان تبدل جلدها . لقد تحول الناس من غير ان يعرفوا ذلك تقريباً ، بحكم حركة العصر نفسها . إن العنبر الذي يمشي فوق ميناء الساعة يمشي في النفوس ايضاً . لقد خطا كل امرئ تلك الخطوة التي كان يتعين عليه ان يخطوها الى أمام . وهكذا اصبح الملكيون متحررين ، واصبح المتحررون

ديموقراطيين .

كان ذلك اشبه بمدّ صاعد يعقّده ألف جزر . ان من خصائص الجزر أن يحدث مزيجات ؛ ومن هنا تلك المتحدّات الفكرية البالغة الغرابة . فقد قدّس الناس نابوليون وقدّسوا الحرية في آن واحد . اننا نكتب هنا التاريخ . لقد كان ذلك هو سراب تلك الفترة . ان الاواء تجتاز اطواراً متباينة . فالملكية الفولتيرية ، وهي ضرب من المذاهب غريب ، كان لها نِدْ لا يقل عنها غرابة ، هو التحررية البونابرتية .

كانت بعض الجماعات العقلية الاخرى اكثر جدية . لقد سبوت غور المبدأ ؛ لقد كلّفت بالحق . لقد تأقت الى المطلق ، ولحت وميضاً من الثمرات اللانهائية . إن المطلق ، بصرامته نفسها ، ليدفع بالعقول نحو الافق البعيد ، ويجعلها تطفو في اللا محدود . فليس شيء كالحلم خالقاً للمستقبل . اليوم مدينة فاضلة ، وغداً لحم ودم .

وكان للآراء التقدمية اساس مزدوج . فقد هدّد بروز السرّ الخفيّ و نظام الاشياء الموطّد ، ، الذي كان مريباً مرئياً - وهي اشارة ثورية الى أبعد الحدود . إن موارد السلطان لتلقي بموارد الشعب في الحثاق . وحضانة العصيان تقدّم الجواب على ثبيت الانقلابات .

وفي ذلك الحين لم تكن قد نشأت بعد في فرنسا ايّ من تلك المنظمات السرية التي تشبه منظمة « توجيندبوندي » الالمانية ومنظمة ال « كاربوناري » الايطالية . ولكن بعض « الحفريات » الغامضة كانت قد بدأت تتشعب . كانت جماعة ال « كوغورد » تتكوّن في إيكس ، وكانت في باريس - الى جانب جماعات اخرى من هذا الضرب - جمعية اصدقاء الالفباء .

من كان اصدقاء الالفباء هؤلاء ؟ كانوا جماعة هدّفا في الظاهر تعليم الاطفال ، وهدّفا في الواقع تقويم الرجال .

لقد أعلنوا انفسهم اصدقاء الالفباء A. B. C. وكان ال « abaissé »

(المحفوضون) هم أفراد الشعب . * كانوا يريدون ان يرتفعوا بهم . وهو تلاعب لفظي ينبغي أن لا نسخر منه . فالتلاعب اللفظي كثيراً ما يكون ذا خطر في عالم السياسة . إعتبر *Castratus ad Castra* التي جعلت نارسيس ** قائداً جيش . واعتبر : *Barbari et Barberini* واعتبر *Fueros y Fuegos*

واعبر *Tu es Petrus et super hanc petram* الخ . الخ . ***

ولم تكن جماعة اصدقاء الالقاء كثيرة الاعضاء . كانت جمعية مربة في المرحلة الجنينية . بل لقد كدنا ان نقول « عصابة متآمرين » لو أن عصابات المتآمرين تخلق ابطالاً . وكان افرادها يجتمعون بباريس ، في مكانين ، قرب ال « هال » ، في خمارة تدعى « كورنت » سوف يشار اليها فيما بعد ، وقرب ال « بانتيون » ، في مقهى صغير في ساحة « سان ميشيل » يدعى مقهى الموزين ، ولم يعد اليوم قائماً . كان اول موطن من موطني اللقاء هذين قريباً من العمال ، وكان ثانيها قريباً من الطلاب .

وكانت اجتماعات « اصدقاء الالقاء » العادية تعقد في غرفة خلفية من مقهى الموزين .

هذه الغرفة ، النائية بعض الشيء عن المقهى والمتصلة به بمجاز طويل جداً ، كان لها نافذتان ومنفذ بواسطة سلم خفية الى شارع دو غري الصغير . كانوا يدخلون هناك ، ويحتسون الخمر ، ويقامرون ، ويضحكون . كانوا يتحدثون عن كل شيء تقريباً في صوت مرتفع جداً ، وفي همس عن شيء آخر . وكانت قد علقت على الجدار خريطة قديمة لفرنسة في عهد الجمهورية ، وهي اشارة كافية لاثثير ظنون رجل من رجال الشرطة .

* والمجاورة اللفظية واضحة بين *A. B. C.* (الالقاء) والـ *abaissé* (المظلومون أو المحفوضون) .

** احد قواد الامبراطور يوستنيانوس ، واكرخوس ايطالية (٤٩٢ - ٥٦٨)
*** وكلاهما من باب الجنس كما هو واضح .

ومعظم « اصدقاء الالفباء » كانوا طلاباً على تحالف ودي مع بعض العمال . ودونك اسماء المقدمين فيهم ، وهي ملكُ التاريخ الى حد ما : آنجولراس ؛ كومبوفير ؛ جان بروفير ؛ فوني ؛ كورفيراك ؛ باهوريل ؛ ليسغل او ليغل ؛ جولي ؛ غرانتير .

وكان هؤلاء الشبان يؤلفون في ما بينهم ، بقوة الصداقة ، شبه أسرة . وكانوا كلهم ، ما عدا ليغل ، من أبناء الجنوب . كانت جماعة رائعة . لقد تلاشت في الاحاق غير المنظورة التي وراءنا . وعند هذه النقطة التي بلغناها الآن من المأساة لن يكون من غير المقيد ان نلقي شعاعاً من النور على هذه الرؤوس الشابة قبل ان يراها القارئ غارقة في ظلام مفارقة فاجعة .

فأما آنجولراس الذي قدّمنا اسمه على غيره - وسنرى في ما بعد لماذا - فكان وحيد أبويه ، وكان مومراً .

كان آنجولراس شاباً فاتناً ، قادراً على ان يصبح فظيلاً . كان وسيماً على نحو ملائكي . كان اشبه بآنتينوس * شرس . وإن من يرى انعكاس نظريته المتفكرة خليق بان يقول إنه قد اجناز ، في وجود سابق ما ، بالرؤيا الثورية . كان عالماً بحديثها مثل شاهد عيان . وكان يعرف جميع تفاصيل الحدث العظيم . طبيعة جبرية ومقابلة ، مستغربة في مراهق . كان احتفالياً ومناخلاً ، كان من وجهة النظر المباشرة جندياً من جنود الديوقراطية ؛ وكان ، فوق الحركة المعاصرة ، كاهناً من كهان المثل الاعلى . كان ذا حدقة ثاقبة ، وجفن احمر بعض الشيء ، وشفة سفلى غليظة سريعة الى الازدراء ، وجبين عال . ان الجبين المنبسط كثيراً في وجهه ، كالسماة المنبسطة كثيراً في أفق . ومثل بعض شبان الصدر الاول من هذا القرن ونهاية القرن الماضي ، أولئك الذين تمت لهم الشهرة في سن مبكرة ، كان ذا طلعة بالغة الفتاء ، ناضرة مثل وجوه الكواكب ، برغم أنه كانت له

* Antinoüs فتى من فتیان آسیه الوسطی ، وكان عبداً رقيقاً ذا جمال بالغ .

ساعات من الاصفرار والشحوب . كان قد بلغ الان مبلغ الرجال ، ولكنه ظهر وكأنه ما يزال طفلاً . لقد بدت أعوامه الاثنان والعشرون سبع عشرة سنة ليس غير . كان الجدة أغلب عليه ، ولم يبدو انه يعرف ان على ظهر الأرض كائناً يدعى المرأة . لم يكن له غير هوى واحد ، هو الحق ؛ ولم يكن له غير فكرة واحدة هي ان يذلل العقبات جميعاً . ولو قدر له ان يكون في جبل آفتين اذن لكان غراكوس * . ولو قدر له ان يكون في « المؤتمر الوطني » اذن لكان سان جوست . كان لا يرى الرياحين إلا في النادر النادر ، وكان ينكر الربيع ، ولم يكن يسمع الطيور وهي تغرد . ولقد كان نحره وإفاديه العاري خليفاً بأن لا يحركه اكثر مما يحركه آريستوجيتون ** . ولم يكن للزهور أبداً فائدة عنده شأنه في ذلك كشأن هارموديوس *** غير اخفاء السيف . كان زاهداً في الملذات ؛ وكان يفضّل طرفه في عفة أمام كل شيء إلا الجمهورية . كانت العاشق الرخامي للحرية . وكان حديثه ملهماً في خشونة ، وكانت فيه ارتعاشة تربلية من الترانيل . كان يدهشك بتحليقه . والويل للغرام الذي يغامر فيقترب منه ! ولو انّ عاملة مغناجة من عاملات ساحه كامبري او شارع سان جان دو بوفيه رأت هذا الوجه الآبق من الكلية ، وهذه المشية الشبيهة بثية غلام نبيل من مرافقي الامراء ، وهذه الاهداب الطويلة الشقراء ، وهاتين العينين الزرقاوين ، وذلك الشعر الذي شعثته الريح ، وهاتين الوجنتين الورديتين ، وهاتين الشفتين الطاهرتين ، وهذه الاسنان الرائعة — تقول لو ان عاملة مغناجة من اولئك العاملات رأت ذلك ،

* Gracchus خطيب روماني شهير دافع عن حقوق الشعب ، وحاول بالقوانين التي اقترحها ان يحد من جشع الارستوقراطية الرومانية . اما جبل آفتين فاحدى تلال رومة السبع ، وقد سبق التمرير به .

** Aristogiton أثيني تأمر مع صديقه هارموديوس ضد ولدي بيزيترات ، هيبارك وهيباس (٥١٤ ق.م.) وقد وقفا الى قتل هيبارك .

*** Harmodius راجع الهامش السابق .

وتشبهت هذا الفجر كله ، فحاولت ان تسدد سهام جمالها الى آنجولراس اذن لحدجها هو بنظرة مذهلة رهيبة تريها فجأة ايّ وادٍ سحيق يفصل ما بينه وبينها ، وتعلمها ان لا تخلط ما بين ملاك بومارشيه الغزل ، وملاك حزقيال الخفيف .

الى جانب آنجولراس الذي مثل منطق الثورة كان كومبوفير الذي مثل فلسفتها . وبين منطق الثورة وفلسفتها يقوم هذا الفارق - أن منطقها قد يؤدي الى حرب ، على حين ان فلسفتها لا تستطيع ان تنتهي إلا الى السلم . لقد أنتمّ « كومبوفير » « آنجولراس » وصحّحه . كان دونه ارتفاعاً ، واكثر منه اتساعاً . وكان يرغب في ان يفرغ في جميع الحقول المباديء العريضة للفكرات العامة . كان يقول : « الثورة ، ولكن الحضارة . » وحول الجبل الشديد الانحدار كان ينشر الافق الازرق المترامي الاطراف . ومن هنا كان في نظرات كومبوفير كلها شيء قريب التناول ، ميسور الاجراء . كان هواء الثورة مع كومبوفير صالحاً للتنفس اكثر من هواء الثورة مع آنجولراس . لقد عبر آنجولراس عن حقها الالهي ، وعبر كومبوفير عن حقها الطبيعي . لقد ذهب الاول بعيداً حتى روبسيير ، ووقف الآخر عند كوندورسيه . وعاش كومبوفير حياة الناس العامة اكثر من آنجولراس . ولو قدّر لهذين الشابين أن يبلغا التاريخ اذن لكان أحدهما الرجل المستقيم ، وثانيهما الرجل الحكيم . كان آنجولراس اكثر رجولة ، وكان كومبوفير أعظم إنسانية . إن لفظي *Homo* * و *Vir* ** تفصحان عن الفرق الدقيق بينهما حقاً . كان كومبوفير سهل الخليفة ، كما كان آنجولراس شرساً ، قاسياً ، بالنقاء الطبيعي . وكان يجب كلمة « مواطن » ، ولكنه أثر عليها كلمة « انسان » . ولقد كان خليقاً به أن

* في اللاتينية : رجل ، إنسان .

** في اللاتينية : ذكر ، فعل .

يقول مبتهجاً * *nombre* مثل الاسبان . كان قد قرأ كل شيء ، وقصد الى المسارح ، وشهد المحاكمات العامة ، وتعلم استقطاب الضوء من آراغو* ، وأغرم بمحاضرة كان جيوفروا سان هيلير قد شرح فيها المهمة المزدوجة للشريان الوداجي* الخارجي والشريان الوداجي الداخلي ، إذ يمد أحدهما الوجه بالدم ، ويمد الآخر الدماغ به . كان على اطلاع بماجریات العصر ، فهو يتتبع العلم خطوة خطوة ، ويعارض نظريات سان سيمون بنظريات فورييه ، ويفك رموز الاحرف الميروغليفية ، ويكسر الحصى التي يعثر عليها ويتحدث عن علم طبقات الارض ، ويرسم فراشة القز من الذاكرة ، ويشير الى الاخطاء اللغوية التي وقعت في « معجم الاكاديمية » ، ويدرس بنويسغور*** وديلوز ، ولا يثبت شيئاً حتى المعجزات ، ولا ينكر شيئاً حتى الاشباح ، ويقلب مجموعة أعداد الـ « مونيتر » ، ويفكر . كان يعلن ان المستقبل في ايدي المدرسين ، فهو شديد الانهماك في مسائل التربية . لقد دعا الى أن يعمل المجتمع من غير انقطاع على رفع المستوى الفكري والاخلاقي ؛ على سك العلم ؛ على وضع الفكرات موضع التداول ؛ على إغناء العقل في الشباب ؛ وكان يخشى أن يؤدي فقر الطرائق الشائعة آنذاك وحفارة العالم الادبي المطوق بقرنين او ثلاثة قرون تدعى كلاسيكية ، واعتقادية المتعالمين الرسميين الاستبدادية ، والافكار السبقية الكلامية ، والروتين أو النمطية - كان يخشى ان يؤدي هذا كله الى جعل معاهدنا الثانوية وكمياتنا مواطن اصطناعية لتربية المحار أو البطليينوس . كان حسن الثقافة ، مفراطاً في الحرص على صحة اللغة ، دقيقاً ، متعدد جوانب المعرفة ،

* كلمة اسبانية معناها « رجل » او « انسان » .

** Arago أحد كبار العلماء في القرن التاسع عشر (١٧٨٦ - ١٨٥٣) وله اكتشافات كثيرة في الفيزياء وعلم الفلك .

*** Puységur مارشال فرنسي (١٧٥٦ - ١٧٤٣) وقد وضع رسالة شهيرة في فن الحرب .

منكباً على الدرس ، مستغرقاً في التأمل ، « حتى التعلق بالأوهام ، كما كان اصداقاً يقولون . لقد آمن بهذه الاحلام جميعاً : خطوط السكة الحديدية ؛ والقضاء على الألم في العمليات الجراحية ؛ وتركيز الصورة في الحزاة المظلمة ؛ والتلغراف الكهربائي ؛ وقيادة المناطيد . واذ كان الى ذلك قليل الذعر من المعامل التي بنتها ، في كل مكان ، لمحاربة الجنس البشري ، ضروب الخرافات ، والاستبدادات ، والافكار السبئية ، فقد كان واحداً من اولئك الذين اعتقدوا بأن العلم سوف يوفى آخر الأمر الى ان يقلب الاوضاع . كان آنجلوراس زعيماً ؛ اما كومبوفير فكان هادياً . وإنه خلقت بالمرء ان يقاتل مع الاول ، وان يمسي مع الثاني . وليس معنى ذلك أن كومبوفير لم يكن قادراً على القتال ، فهو ما كان ليرفض مقارعة العقبات ، ومهاجمتها قسراً وبانفجار ؛ ولكن معناه ان إقامة التناغم التدريجي بين الجنس البشري ومصائره ، بتعليم الحقائق البدئية وإعلانات القوانين الوضعية ، كانت أدعى الى سروره . ولو كان له ان يختار واحداً من نورين ، اذن لآثر ميله الاضاءة على الالهاب . إن الحريق قادر على ان يحدث فجراً من غير ريب ، ولكن لم لا ننتظر ارتفاع الضحى ؟ ان البركان ينير ، ولكن الصباح ينير على نحو افضل . ولعل كومبوفير كان يؤثر وضاءة الجليل ، على سطوع الجليل . كان الضوء الذي يكدره الدخان ، والتقدم المستوي بالعنف لا يرضيان هذا العقل الرؤوف والجلدي غير نصف إرضاء . كان القاء شعب ما ، القاء عمودياً ، في لجة الحق ، وكان شيء من مثل عام ٩٣ ، يقذفان الرعب في فؤاده ! ومع ذلك فقد كان الركود أبغض الى نفسه ؛ كان يحس فيه تعفنًا وموتاً . وعلى الجلة ، فقد أحب الرغوة اكثر مما أحب الأبنجرة الفاسدة ، وآثر السيل على المستنقع ، وسلاسل نياغارا على بحيرة مونفوكون . وفي اختصار ، فهو ما كان يحب لا الوقوف ولا العجلة . وبينما كان اصداقاً الصاخبون ، الكلفون بالمطلق كلفاً فروسياً شهماً ، يهيئون بالمغامرات الثورية الباهرة ويلتمسونها ، كان

كومبوفير ينزع الى ان يدع التقدم يعمل عمله ، التقدم الصالح ، الذي قد يكون فائراً ولكنه محض ، وقد يكون منهجياً ولكنه خلوه من كل عيب ، وقد يكون خاملاً ولكنه ثابت الجنان . ولقد كان خليقاً بكومبوفير ان يركع ويشبك يديه متمنياً ان يفد المستقبل بكامل صفاته المشرق ، وان لا يعكر شيء تطور الشعب تطوراً فاضلاً لا يعرف الحدود . كان يكرر في غير انقطاع : الخير ينبغي ان يكون بريئاً . وفي الحق ، اذا كانت عظمة الثورة في أنها تحدد تحديداً موصولاً الى المثل الاعلى الذي يحسر العيون ، وان تطير اليه عبر الصواعق ، والدم والنار في برائتها ، فإن جمال التقدم في انه نقي طاهر الذيل . وهناك بين واشنطون الذي يمثل احدهما ، ودانتون الذي يتجسد فيه الآخر ، ذلك الفارق الذي يفصل ما بين الملاك ذي الجناحين الشبيهين بجناحي التمس ، والملاك ذي الجناحين الشبيهين بجناحي النسر .

وكان جان بروفير درجة أخرى من درجات المعنى نفسه اكثر رقة وألين جانباً . كان يدعو نفسه جيهان * ، بدافع من ذلك الهوى المؤقت الذي امتزج بالحركة القوية العميقة التي انبثقت منها دراسة القرون الوسطى ، الضرورية جداً . كان جان بروفير عاشقاً ، وكان يعنى بأصيص رياحين ، ويعزف على الفلوت ، وينظم الشعر ، ويحب الشعب ، ويرثي للمرأة ، ويبكي على الطفولة ، ويخلط في الثقة نفسها ما بين المستقبل والله ، ويلوم الثورة لأنها احتزّت رأساً ملكياً واحداً هو رأس اندريه شينييه ** . كان صوته رقيقاً ، عادةً ، ولكنه ما يلبث ان تغلب عليه

* Jeban de Paris رواية وضعها في القرن الخامس عشر مؤلف مجهول ، يسخر فيها امير فرنسي شاب من منافسه ملك انكلترا المجوز ، واذا ينثر الذهب في طريقه يستميل اليه قلب بنت من بنات ملك الاسبان .

** André Chénier شاعر فرنسي (١٧٦٢ - ١٧٩٤) شارك بادىء الامر في الحركة الثورية ، ثم احتج على العنف المفرط الذي لجأ اليه الثوريون في عهد الارهاب فأت على القصة .

الفعولة ، فبساطة . وكان حسن الثقافة حتى الموسوعية ، ومستشرقاً أو يكاد . وكان فوق ذلك كله خيراً . وفي دنيا الشعر كان يُؤثر الباذخ الجليل ، وهو شيء طبيعي جداً عند من يعرف مقدار التجاور ما بين الطيبة والعظمة . كان يعرف الايطالية ، واللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، وهذا ما ساعده على ان لا يقرأ غير اربعة شعراء : دانتي ، وجوفينال ، وأشيلوس ، وأشعيا . وفي الفرنسية ، كان يفضل كورني على راسين ، وأغريبا دويينييه * على كورني . كان مولعاً بأن يهيم على وجهه في حقول الشوفان البري والتوتنجان ، وكان يُعنى بمتابعة السحب بقدر ما يُعنى بمتابعة الاحداث تقريباً . وكان لعقله وضعان ، احدهما في جوار الانسان ، والآخر في جوار الله . كان إما دارساً ، وإما متفكراً . وطوال النهار كان يتعمق المسائل الاجتماعية : الأجور ، ورأس المال ، والبيع على الحساب ، والزواج ، والدين ، وحرية التفكير ، وحرية الحب ، والتربية ، والعقاب ، والبؤس ، والشركة ، والملكية ، والانتاج ، والتوزيع ، والاحجية الدنيا التي تُلقى ظلاً على قرية النمل الانسانية . وفي الليل ، كان يحدق الى النجوم ، تلك الكائنات الهائلة . ومثل آنجلوراس ، كان موسراً ، وكان وحيد أبويه . كان يتكلم في رقة ، مطأطئاً رأسه ، غاضاً من طرفه ، مبتسماً في ارتباك ، وكان ميء الهندام ، أخرق السياء ، شديد الحياء ، يشيع الدم في وجهه للاشياء . وفي ما عدا ذلك ، كان بأسلاً جريئاً .

وكان فويي عامل مراوح ، يتيم الأب والأم ، يكسب بشتى النفس ثلاثة فرنكات في اليوم ، وليس في رأسه غير فكرة واحدة ، أن يخلص العالم . وكانت له رغبة اخرى : أن يثقف نفسه ، وهو ما كان يدعو تخلص النفس ايضاً . كان قد علم نفسه القراءة والكتابة ؛

* Agrippa d'Aubigné شاعر فرنسي (١٥٥٢ - ١٦٣٠) كان هجاء بروناتياً حارب الى جانب الملك هنري الرابع ، ويمتاز شعره بعنفه وكثرة استعاراته .

وكلُّ ما عرفه إنما تعلمه بنفسه . وكان فربي قلباً كريماً . كانت يعانق الكون . ذلك ان هذا اليتيم تبنّى الشعوبَ جميعاً . لقد أعوزته الأم فأناً يفكّر في الوطن . إنه ما كان راغباً في ان يكون ثمة على ظهر الارض إنسانٌ لا وطن له . لقد حضنَ في ذات نفسه ، بالعرفة العميقة التي لرَجُل الشعب ، ما ندعوه اليوم فكورة القوميات . كان قد درس التاريخ خصيصاً لكي يقيم مسخّطه على أساسٍ من معرفته السبب في ذلك السخط . وفي تلك الذروة الحديثة التي ضمت أولئك المثاليين الواقعيين تفكيرهم على فرنسة ، كان يمثل الأمم الأجنبية . وكان اختصاصه يدور على محور اليونان ، وبولونيا ، وهنغاريا ، ومقاطعات الدانوب ، وإيطالية . كان يتلفظ بهذه الاسماء على نحو موصول ، لمناسبة ولغير مناسبة ، في إصرار الحق وعنادهم . وكان اعتدائه تركية على كريت وتسالية ، واعتدائه روسيا على فرسوفيا ، واعتدائه النمسا على البندقية - كانت هذه الاعتداءات كلها تثير غيظه . وكانت وسيلةُ العنف العظمى التي اصطُنعت عام ١٧٧٢ * توغر صدره بخاصة . وليس ثمة فصاحة اعظم سلطاناً من فصاحة الحق المفرغة في قالب من السخط . وكان هو مسلحاً بسلاح هذا الضرب من الفصاحة . فهو لا يملّ الحديث عن ذلك التاريخ الشائن ، ١٧٧٢ ، وتلك الامة النبيلة الباسلة التي كحنتها الحيانة ، وتلك الجريمة الثلاثية ، وذلك الكمين الهائل ، الذي 'فصّلت على مثاله مختلف' الاعتداءات الفظيعة التي تعرضت لها الدول فأبادت عدداً من الشعوب النبيلة ، ومحت اذا جاز التعبير سجلّ ولادتها . والواقع ان جميع الهجمات التي 'سُنت على المجتمع ترقى الى ذلك التاريخ الذي 'قسّمت فيه بولونيا . إن تقسيم بولونيا مبدأ مقرر ليست الجرائم السياسية الحاضرة كلها غير نتائج له . فطوال قرن بكامله لم يُطلع التاريخ طاغية ولا خائناً إلا

* يشير المؤلف الى تقسيم بولونيا الاول ، بين روسيا وبروسية والنمسا ، الذي تمّ في ذلك العام .

وَوَسَمَ ، وَأَيْدَ ، وَأَمْضَى ، وَوَقَعَ بِالْأَحْرَفِ الْأُولَى ، تَقْسِيمَ بُولُونِيَا لَا نَسْتَشْنِي مِنْ ذَلِكَ أَحَدًا مِنَ الطَّغَاةِ أَوْ مِنَ الْحَوْنَةِ . وَحِينَ نَبَحْتَ فِي مَلَفِ الْحَيَانَاتِ الْمَعَاصِرَةِ يَبْدُو ذَلِكَ التَّقْسِيمَ فِي الطَّلِيعَةِ . وَقَدْ اسْتَشَارَ مُؤْتَمَرُ فِينَا تِلْكَ الْجَرِيئَةَ قَبْلَ أَنْ يُنْجِزَ جَرِيمَتَهُ . لَقَدْ نَفَخَ عَامَ ١٧٧٢ فِي الصُّورِ مَحْمَسًا كَلَابَ الْقَنْصِ ، فَكَانَ عَامَ ١٨١٥ هُوَ حَصَّةُ الْكَلَابِ مِنَ الصَّيْدِ . ذَلِكَ كَانَ النَّصِّ الَّذِي لَا يَلُفُّ فَوْقِي مِنْ إِعَادَتِهِ كُلِّ يَوْمٍ . لَقَدْ جَعَلَ ذَلِكَ الْعَامِلُ الْفَقِيرُ نَفْسَهُ مُعَلِّقًا لِلْعَدَالَةِ ، وَلَقَدْ كَادَ أَنْتَهُ الْعَدَالَةُ بِأَنْ جَعَلَتْهُ عَظِيمًا . ذَلِكَ بِأَنْ لِلْحَقِّ أَبْدِيَّتَهُ . فَفَرَصَوْفِيَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْبِحَ تَنَارِيَةً أَكْثَرَ بِمَا تَسْتَطِيعُ الْبِنْدَقِيَّةُ أَنْ تَصْبِحَ تِيوْتُونِيَّةً . وَالْمُلُوكُ يَضِيعُونَ جَهْدَهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَيَضِيعُونَ شَرْفَهُمْ أَيْضًا . فَعَاجِلًا أَوْ آجِلًا يَطْفُو الْبِلَادُ الْمُتَفَرِّقَ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ وَيَعَاوِدُ الظُّهُورَ . وَهَكَذَا تَصْبِحُ بِلَادُ الْيُونَانِ بِلَادَ الْيُونَانِ مِنْ جَدِيدٍ ، وَتَصْبِحُ إِيْطَالِيَّةً إِيْطَالِيَّةً مِنْ جَدِيدٍ . إِنْ احْتِجَاجُ الْحَقِّ عَلَى الْوَاقِعِ يَسْتَمِرُّ إِلَى الْأَبَدِ . وَالْجَرِيئَةُ الْمُتَمَثِّلَةُ فِي نَهْبِ شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ لَا تَسْقُطُ بِمَرُورِ الزَّمَانِ . إِنْ هَذِهِ الْأَخْتِلَاسَاتُ الْعَلِيَا لَيْسَ لَهَا مُسْتَقْبَلٌ الْبَتَّةَ . فَلَيْسَ فِي مَبْسُورِكَ أَنْ تَحْمُو رِسْمَ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا تَحْمُو رِسْمَ مُنْدِيلٍ مِنَ الْمَنَادِيلِ .

وَكَانَ لِكُورْفِيْرَاكِ أَبٌ يَدْعَى مَسِيُو دُو كُورْفِيْرَاكِ . وَالْوَاقِعُ أَنَّ مِنْ أَخْطَاءِ الْعَهْدِ الْبُورْبُونِيِّ الْجَدِيدِ ، فِي مَوْضُوعِ الْارِسْتَوْقْرَاطِيَّةِ وَالنِّبَالَةِ ، إِيمَانُهُ بِأَدَاةِ الْإِضَافَةِ . وَأَدَاةُ الْإِضَافَةِ كَمَا نَعْلَمُ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى الْبَتَّةَ . وَلَكِنْ بُوْرْجُوَازِيَّةُ عَصْرِ الـ « مِينِيْرَفَا » رَفَعَتْ هَذِهِ الـ « دُو » ، de الْمُسْكِينَةَ مَقَامًا عَلِيًّا إِلَى حَدٍّ جَعَلَ النَّاسَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ مُضْطَرُونَ إِلَى التَّخْلِي عَنْهَا . وَهَكَذَا دَعَا مَسِيُو دُو شُوفَلِينَ نَفْسَهُ مَسِيُو شُوفَلِينَ ؛ وَدَعَا مَسِيُو دُو كُومَارْتِينَ نَفْسَهُ مَسِيُو كُومَارْتِينَ ؛ وَدَعَا مَسِيُو دُو كُونِسْتَانَ دُو رُوبِيَكِ نَفْسَهُ بِنَجَامَانَ كُونِسْتَانَ ، وَدَعَا مَسِيُو دُو لَافَايَيْتِ نَفْسَهُ مَسِيُو لَافَايَيْتِ . وَلَمْ يُرِدْ كُورْفِيْرَاكِ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنِ الرِّكْبِ فَسَمَّى نَفْسَهُ ، فِي اخْتِصَارٍ ،

كورفيراك .

ويكاد يكون في استطاعتنا ، ان نقف هنا ونجتزيه بالقول ، في ما يتصل بسائرنواحي شخصية هذا الرجل : كورفيراك : انظر تولوميبس . وكان كورفيراك يتمتع ، في الواقع ، بتوقد الخيال الفني الذي نستطيع ان ندعوه جمال العقل الشيطاني . وهذا التوقد يخبو في مراحل العمر القادمة ، كما تخبو ظرافة الهريرة ، وتنتهي كل تلك الملاحظة القائمة على قدمين اثنتين ، عند البورجوازي ، وعلى برائن اربعة ، عند الهر .

وهذا الطراز من العقل ينتقل من جيل من اجيال التلاميذ الى جيل ، ويمر من يد الى يد بنسوة الشباب المتعاقب ، من غير ان يطرأ عليه تغيير يستحق الذكر ، بحيث أن من قد قدر له ان يسمع كورفيراك يتحدث كما اسلفنا ، عام ١٨٢٨ ، كان خليقاً بأن يحسب أنه يسمع تولوميبس عام ١٨١٧ . كل ما في الأمر أن كورفيراك كان فني شجاعاً . فواء المشابه الظاهرية في العقل الخارجي كان ثمة فرق كبير بينه وبين تولوميبس . إن الرجل الكامن في كل منهما غيره في الآخر تماماً . كان في تولوميبس محام ، وكان في كورفيراك فارس مغامر .

كان آنجلولاس هو الزعيم ، وكان كومبوفير هو المهادي ، وكان كورفيراك هو المركز . كان رفيقاء يرسلان نوراً اقوى من نوره ، على حين كان يرسل هو حرارة اقوى من حرارتها . والحق انه كان يجمع صفتي المركز كليهما : الاستدارة والاشعاع . وكان باهوريل قد شارك في شغب حزيران ١٨٢٢ الدامي بمناسبة دفن « لالمان » الفني .

وكان باهوريل مخلوقاً دمث الاخلاق ، رديء العشرة ، شجاعاً ، مبذراً ، متلافياً حتى الجلود ، ثثاراً حتى الفصاحة ، جسوراً حتى القحة . كان خير عجيبة يمكن أن يكون منها شيطان ؛ وكان ذا صدرات مجازفة ، وآراء

قرمزية ؛ وكان صغاباً من النوع الرفيع ، يعني انه لا يجب شيئاً حبه للشجار اذا لم يكن ذلك الشجار شغباً ، ولا يجب شيئاً حبه للشغب اذا لم يكن ذلك الشغب ثورة . كان مستعداً دائماً لان يكسر احدى بلاطات الشارع ، ولأن يجرد الشارع بعد ذلك من بلاطه كله ، ولأن يقوض الحكومة بعد هذا وذاك ، لكي يرى اثر صنيعه . تلميذ في السنة الحادية عشرة . لقد اتخذ هذا الشاعر : لن اكون محامياً ابداً . واصطنع هذا الرمز : طاولة للوازم النوم كان المرء يلج فوقها فلتسوة مربعة . وكان كلما مرّ بمدرسة الحقوق ، وهو امرئ نادر ، يزور سترته الطويلة - فلم يكن المعطف قد اخترع بعد - ويتخذ احتياطات صحية . وكان يقول عن باب المدرسة الرئيسي : يا له من عجوز جميل ! وعن عميد المدرسة ، مسيو ديلفينكور : يا له من أثر نفيس ! كان يرى في دروسه موضوعات للاغاني ، وفي اساتذته مناسبات لرسم الصور الكاريكاتورية . وكان يستهلك في القيام بلا شيء جعله سنوية تبلغ نحواً من ثلاثة آلاف فرنك . وكان أبوابه ريفيين وفتى الى ان يوقع في نفسيهما احتراماً لابنهما . كان يقول عنها : « انها فلاحان ، لا بورجوازيان ، وهو ما يفسر ذكاءهما . » وكان باهوريل - وهو رجل غريب الاطوار - موزعاً في قهوات عدة . كانت لسائر رفاقه عادات ، اما هو فلم يكن له شيء من ذلك . كان يتسكع . ان الهيام على الوجه إنساني . أما التسكع فباريسي . وكان في اعماقه عقلاً فافذاً ، وكان مفكراً اكثر مما يبدو لعين الناظر .

كان أشبه بهمة وصل بين « اصدقاء الالفباء » وجاعات اخرى لما يكتمل تشكلها بعد ولكنها كانت في سبيلها الى ذلك .

وفي هذا الجمع من الرؤوس الفضة كان رأس أصلع .

روى المركيز دافاري الذي خلع عليه لويس الثامن عشر لقب دوق لأنه ساعده على ركوب احدى عربات الاجرة يوم هاجر من البلاد ، ان رجلاً قدّم عريضة الى الملك ، عام ١٨١٤ ، فيما كان يطأ ارض كاليه

عائداً الى الوطن .

وقال الملك :

« ماذا تريد ؟ »

« ادارة بريد ، يا مولاي . »

« ما اسمك ؟ »

« ليفل » L'Aigle (النسر) .

وزوى الملك ما بين حاجبيه * ، ونظر الى التوقيع الذي مهرت به العريضة ، فرأى الاسم مرسوماً هكذا : ليفل Lesgle فُسرَ الملك لهذا الرسم غير البونابرتي ، وشرع يبتسم . واستأنف صاحب العريضة كلامه :

« مولاي ، لقد كان جدي مدرّب كلاب يُلقب بـ « ليفل » Lesgueules (الاشدّاق) . ولقد أمسى هذا اللقب اسماً لي . فأنا ادعى ليفل ، أو ليفل ** Lesgle عند الأذغان ، وليفل L'Aigle عند التعريف . »

وهنا أنهى الملك ابتسامته . وفي ما بعد ، عيّن الرجلَ مديراً للبريد في « مو » ، إما سهواً أو قصداً .

وكان عضو الندوة الأقرع ابن ليفل هذا ، أو ليفل ؛ وكان يوقع اسمه ليفل (دو مو) . وكان رفاقه يدعونه ، رغبةً في الابهاز ، بوسويه .

كان بوسويه فتىً مرحاً قليل الحظ . وكان اختصاصه هو عدم النجاح في أي شيء . ومن ناحية ثانية ، كان يسخر من كل شيء . وفي الخامسة والعشرين أمسى أصلع . وكان أبوه قد توفي ، مختلفاً بيتاً وحقلًا . ولكنه ، هو الابن ، لم يجد ما هو أكثر إلحاحاً من إضاعة

* لان « النسر » شعار نابوليون بونابرت ورمزه .

** البين هنا 'توسم ولا تلفظ .

هذا الحقل وذلك البيت في مضاربة طائشة . ولم يبقَ لديه شيء . وكان على مقدار صالح من المعرفة والذكاء ، ولكنه كان يخيب دائماً . كان كل شيء 'يعوزه' ، وكان كل شيء يخدعه . فما إن يقيم بناء حتى ينهار على رأسه . فاذا ما شقّ قطعة من خشب ، قطع إصبعه . واذا ما كانت له خلية ، اكتشف وشيكاً ان له صديقاً أيضاً . وكل لحظة كان 'يلمّ' به بلاء ؛ ومن هنا مرّحه . وكان يقول : « أنا أحيّا تحت سطح القوميد المتساقط . » وإذا كان يتوقع دائماً وقوع حادث ما ، فلم يكن ليدهش إلا فادراً . وكان يتقبّل الحظ السيء في طمأنينة ، ويتسم لناكذات القدر مثل رجل يسمع الدعابات والاضاحيك . كان فقيراً ، ولكن جعبته من البشاشة ودماثة الاخلاق لم تكن تنضب . كان ينتهي مريعاً الى فلسفـه الأخير ، ولكنه ما كان ينتهي ابدأ الى ضحكته الاخيرة . وكان اذا ما وفدت المصيبة عليه سلم في 'وَدّة' على ذلك الصديق القديم . كان يربّت على ظهر الكوارث ، فقد كان يألف القدر الى حدّ جعله يناديه بلقبه ، فهو يقول : « صباح الخير ، ايها العبقري العجوز ! »

وكانت اضطهادات الحظّ هذه قد جعلته ذا موهبة اختراعية . كان كثير الموارد . لم يكن يملك شيئاً من المال ، ولكنه كان يجد الوسيلة ، حين يبدو ذلك صالحاً في نظره ، الى أن يغالي في « الأنفاق الجروح » . وذات ليلة ، ذهب الى حد انفاق مئة فرنك على عشاء مع فتاة بلهاء ثرثرة ، وهو ما أوحى اليه ، في غمرة من الافراط في الأكل والسكر ، بهذه الكلمة المأثورة : « يا ابنة الليرات الذهبية الخس ، إخلي حذائي من قدمي ! »

واتخذ بوسوويه سبيله ، في تودة ، نحو مهنة الحمامة ؛ فقد كان يدرس القانون على طريقة باهوريل . ولم يكن لبوسوويه بيت ، تقريباً . ولم يكن له في بعض الاحيان بيت البتة . كان 'يقيم' احياناً عند هذا ،

ويقيم أحياناً عند ذاك ، وغالباً ما كان يقيم عند جولي . وكان جولي هذا يدرس الطب ، وكان يَصْغُرُ بوسوويه بسنتين .

وكان جولي « مريض وهم » * شاباً . لقد أفاد من الطب ما جعله مريضاً أكثر منه طبيباً . وفي الثالثة والعشرين ، حسب نفسه مراضاً ، وأنفق أيامه في النظر الى لسانه في المرآة . كان يعلن ان الانسان يَمْنُط مثل ابرة البوصلة ، وهكذا كان يجعل رأس سريره ، في حجرة نومه ، الى الجنوب وقدمه الى الشمال لكي لا يعترض تيار الكرة الارضية المغناطيسي حركة الدم ، عنده ، في أثناء الليل . وفي أيام الجوّ العاصف ، كان يحس نبضه . ومع ذلك فقد كان أشدّهم مرحاً . وانما اجتمعت هذه المتنافرات كلها - شاب ، أهوَس ، معتلّ الصحة ، مراح - وتناغمت ، لتولّد كائناً غريب الأطوار قريباً الى النفس . كان رفاقه المسرفون في اصطناع الحروف الساكنة المجتحة يدعونه جولللي . وكان جان بروفير يقول : « في استطاعتك ان نظير عملي أربع لامات » * .

وكان من عادة جولي ان يحك أنفه بطرف عصاه ، وهي أماره على العقل الحصيف .

وكان لهؤلاء الشبان كلهم الشديدي التباين ، والذين يتعبين علينا ان لا نتكلم عنهم ، في الجملة ، إلا حديثاً جدياً - نقول كان لهؤلاء الشبان كلهم دين واحد ، هو التقدم

كانوا كلهم أبناء مباشرين للثورة الفرنسية . وكانت أكثرهم طيشاً يغلب عليهم الخشوع حين يُلْفِظ هذا التاريخ : ٨٩ . صحيح أن آباءهم ، باللحم والدم ، كانوا أو سبق أن كانوا من الدستوريين المعتدلين ، أو

* *Malade Imaginaire* ، وهي آخر مسرحيات موليير .

** *Quatre L* . واذا عرفت أن كلمة *aile* الفرنسية التي تلفظ كما يلفظ حرف *L* تماماً معناها « الجناح » ادركت التورية في كلام بروفير ذاك .

الملكيين ، أو المتحررين المعتدلين ، ولكن ذلك ما كان ليقدّم او ليؤخر كثيراً . إن هذه النوضى السابقة لأيامهم لم يكن لها اية صلة بهم ، فقد كانوا شباباً . كان دم المبادئ الصّرف يجري في عروقهم . لقد تعلقوا ، من غير ما فارق دقيق متوسط ، بالحق الذي لا يبلى ، وبالواجب المطلق .

وإذ انضوا تحت لواء واحد وثقفوا بثقافة جمعيتهم الواحدة فقد رسموا مثلهم الأعلى ، مرآ ، رسماً خفيفاً .

وبين هذه القلوب السريعة الانفعال كلها ، وهذه العقول المؤمنة كلها ، كانت ثمة متشكك واحد . كيف اتفق أن 'وجد هناك ؟ بحكم التجاور . وكان اسم ذلك المتشكك غرانتير ، وكان يوقع عادةً بهذا الرسم الرمزي R* . وكان غرانتير رجلاً يُعنى عناية شديدة بأن لا يؤمن بأي شيء . وإلى هذا ، فقد كان من الطلاب الذين أفادتهم فترة الدراسة في باريس علماً غزيراً : لقد تعلّم أن القهوة الفضلى كانت تقدّم في مقهى لامبلين ؛ وأن طاولة البليارد الفضلى كانت في مقهى فولتير ، وأنه كان في ميسورك ان تجد الكهك الجيد والفيتات الحسان في ' الحلوة ، في ' جادة مين ، ، والدجاج المشوي في مطعم الأم ساغيه ، والسك المطبوخ بالسمن وشيء من المعجن والخمر في باب لاكونيت ، وضرباً من الصبأ الخفيفة في باب كومبا . كان يعرف المواطن الممتازة ، التي 'يلتس فيها كل شيء . وإلى هذا ، فقد كان يعرف الملاكمة ، والتنس ، وبعض الرقصات ، وكان الى هذا يجيد اللعب بالنبوت ، سكيراً ، ضخماً . كان قبيحاً الى حدّ مروع . والواقع ان ايما بواسي ، اجهل مضربة للاحذية العالية في ذلك العهد ، كانت قد نطقت بهذه الجملة ، وقد ثارت على قبحه : ' إن غرانتير شخص ميؤوس منه ، ، ولكن

* ذلك ان هذا الحرف ، مرسوماً بشكله الكبير ، 'يلفظ بالفرنسية هكذا : Grand R. ومن هنا نفهم لماذا كان غرانتير يوقع اسمه بهذا الحرف R ليس غير .

اختيال غرانتير لم يعرف الحيرة والارتباك . كان ينظر ، في حناث
وفي تركيز ، الى كل امرأة ، وقد بدا كأنه يقول فيهنّ جميعاً :
لو كنتُ أَرْضَى فقط ! وكأنه يحاول ان يوقع في روع رفاقه انه مهوى
أفئدة النساء جميعاً .

هذه الكلمات كلها : حقّ الشعب ، حقوق الانسان ، العقد الاجتماعي ،
الثورة الفرنسية ، الجمهورية ، الديمقراطية ، الانسانية ، الحضارة ،
الدين ، التقدم ، كانت عند غرانتير اقرب شيء الى الكلام الفارغ
الذي لا يعني شيئاً البتة . كان يسخر منها . ذلك أن التشكك - هذا
التسوّس الذي يصيب الفكر - لم يُبتقِ في عقله فكرةً كاملةً واحدة .
كان يحيا في سخر . وكانت هذه هي الحقيقة البديهية عنده : ليس هناك
غير شيء يقينيّ واحد هو كأسى المترعة . كان يهزأ بالتفاني مهما تكن
ظروفه وسواء أكان الباذلُ نفسه أخاً أم أباً ، وبسيير الفتى ، أم
لوازيرو . كان يصيح : « لقد تعجّلوا موتهم كثيراً . » وكانت يقول
عن الصليب : « تلك مشنقة » اقتوتت بنجاح عظيم . « وكان يثير استياء
هؤلاء المفكرين الشباب - وهو الفاسق ، المقامر ، الخالع العذار ،
الثيل في معظم الاحيان - بأنشاده على نحو موصول : « أحب اللقيات ،
وأحب الخمر المعتقة . » على نعم : « فليحيَ هنري الرابع . »

ومع ذلك ، فقد كان لهذا المتشكك عصبية . ولم تكن هذه العصبية
لا فكرةً ولا عقيدةً جوهرية ، ولا علماً من العلوم . كانت رجلاً ، هو
آنجلولاس . لقد اعجب غرانتير بآنجلولاس ، وأحبه ، وكلف به . الى
من شد هذا المتشكك الفوضويّ نفسه في هذه الكتيبة من العقول
الجازمة ؟ الى اكثرها جزماً . وبأي وسيلة أخضعه آنجلولاس ؟ بالافكار ؟
لا . بالشخصية . ظاهرة كثيراً ما نلاحظ . متشكك يشابع مؤمناً ، ذلك
شيء سهل مثل قانون الألوان المتّمة . إن ما يعوزنا يجذبنا . وليس ثمة
من يحبّ النور بقدر ما يحبه الاعمى . والقزم يعبد رئيس الطبالين . إن

ضفدع الجبل يتطلع ابدآ الى السماء . لماذا ؟ لكي يرى العصفور طائراً .
لقد كان غرانتير ، الذي دبّ الشك في ذات نفسه ، يجب ان يرى الايمان
يخلق في ذات نفس آنجولراس . ان تلك الطبيعة العفيفة ، السليمة ، الثابتة ،
المستقيمة ، القاسية ، الساذجة قد فتنته ، من غير ان يفهم ذلك في وضوح ،
ومن غير أن يحاول شرحها لنفسه . لقد أعجب ، بحكم الغريزة بنقيضه .
لقد تعلق افكاره الرخوة ، المتذبذبة ، المتفككة ، المريضة ، المشوهة ،
بآنجولراس وكأنها تتعلق بعمود فقري . ان سلسلة ظهره الاخلاقية قد
انكأَت على تلك الصلابة الراسخة . وفي جوار آنجولراس ، أمسى غرانتير
شخصاً ما ، من جديد . وكان هو نفسه ، الى ذلك ، مؤلفاً من عنصرين
متنافرين ظاهرياً . كان ساخراً وودوداً . وكانت لامبالاته محبة . لقد
استغنى عقله عن الايمان ، ولكن قلبه لم يستغنى عن الصداقة . تناقض
عميق ، ذلك بأن المحبة يقين . كانت طبيعته هكذا . إن ثمة رجالاً يبدون
وكانهم ولدوا لكي يكونوا الوجه المقابل ، الظهر ، القفا . انهم بولوكس*
وباتروكلوس** ونيوس*** وأوداميداس ، وإيفيستيون ، وبيشيمبا .
لأنهم لا يحبون إلا اذا امتدوا الى شخص آخر . وهم يُدعون ثقات ، ولا
يذكر اسم كل منهم إلا مسبوقاً بواو العطف . ان وجودهم ليس ملكاً
لهم . انه الجانب الآخر من مصير ليس مصيرهم . لقد كان غرانتير واحداً
من هؤلاء الرجال . كان وجه آنجولراس الآخر .

* Castor و Pollux بطلان ميولوجيان ، كانا ولدين توأمين لجوبيتير و « ليدا »
وُجمِع ما بين هذين الاسمين عادة كرمز للمحبة .
** Patroclus بطل اغريقي ، كان صديقاً لآخيل ، وقد لحق به عند حصار طروادة
وحين رفض آخيل القتال ، لاستبائه من اغاممنون حل باتروكلوس محله وقاتل الطرواديين
حتى قتل ، وعندئذ عاد آخيل فانضم الى صفوف الاغريق لكي يثأر له .
*** Nisus طروادي شاب تبع « إينيه » إل ايطالية ، وقد خلّد محبته «أوريال»
الشاعر فيرجيل في الكتاب التاسع من الانبادة . وقد أصبح اسماً نيسوس وأوريال مثلاً
في الصداقة المخلصة حتى الموت .

ويكاد يكون في استطاعتنا ان نقول ان القرابات تبدأ باحرف الالفباء . ففي تسلسل هذه الاحرف لا تنفصل الـ o عن الـ p البتة . وفي ميـورك ، اذا احببت ، ان تلفظ o و p ، أو « أوربست » و « بيلاديس » * .

وعاش غرانتير ، وكان قمرأ دائراً في فلك آنجولراس حقاً ، في هذه الحلقة من الفتيان . لقد سكن هناك ، ولم يكن ليجد المتعة إلا هناك . كان يتبع هؤلاء الفتيان حينما ذهبوا ، وكان قوام بهجته ان يرى هذه الاشكال المظلمة تروح وتجيء من خلال أثر الحجر في رأسه . وكانوا يحملونه لبشاشته ودماثة خلقه

واذ كان آنجولراس مؤمناً ، فقد ازدرى هذا المتشكك ، واذا كان زاهداً في الشراب ، فقد احنقر هذا الكبير . لقد جاد عليه بشفقة يسيرة متشاحمة . كان غرانتير شبه بيلاديس غير مقبول البتة . كانت يلقى من آنجولراس معاملة قاسية دائماً ، وكان يُصد في خشونة ، وكانت يُبعد ثم لا يلبث ان يعود ، وكان برغم ذلك يقول عن آنجولراس : « يا له من تمثال رائع ! » .

* Oreste ابن اغاممنون وكلينمينستر ، ولا تزال صداقته مع بيلاديس Pylades البطل الفوسيدي (نسبة الى فوسيديا وهي مقاطعة في بلاد اليونان القديمة) «ضرب الامثال» .

و ذات أصيل كان له ، كما سنرى ، بعض الموافقة الزمنية للاحداث التي روينها آنفاً ، أسند ليغل دو مو ، ظهره في تكاسل الى مدخل مقهى الموزين . كانت تبدو عليه سجا « كارياتيد » * في إجازة . إنه ما كان يُقَلَّ شيئاً غير هواجسه وأحلامه . كان ينظر الى ساحة سانت ميشيل . والواقع أن إسناد الظهر الى باب او جدار ضرب من الاضطجاع الواقف لا يكرهه الحالمون البتة . وإنما كان ليغل دو مو يفكر ، في غير كتابة ، بمصيبة صغيرة ألت به أمس الأول في مدرسة الحقوق ، وعدلت خطط مستقبله الشخصية ، وهي خطط كانت ، في الأصل ، غير محدّدة ولا واضحة .

والاستغراق في التفكير لا يمنع عُجَيْلَة من المرور ، ولا يحول بين الحالم وبين رؤية العجيلة . وهكذا لاحظ ليغل دو مو التائه العيين في ضرب من التسكع المُسَهَّب -- لاحظ من خلال تلك التبدلة ** - عُجَيْلَة ذات دولابين تنعطف نحو الساحة ، وتمضي في مثل سرعة الخطو وكأنها مترودة متحيرة . ما الذي كانت تريد تلك العجيلة ؟ لم كانت تمشي في مثل سرعة الخطو ؟ ونظر ليغل اليها . كان في داخلها ، الى جانب السائق ، شاب ، وكان أمام الشاب كيس أمتعة ضخم . وكان ذلك الكيس يُبدي لأعين عابري السبيل هذا الاسم : مارويوس بونغيرمي مكتوباً بأحرف سوداء على بطاقة مخططة فوق القماش .

* الكارياتيد cariatides تماثيل على هيئة امرأة او رجل كان الاغريق يتخذون منها دعائم للافاريز في مبانيهم وهياكلهم .

** التبدلة : المتي اثناء القوم ، وهو ما يعرف في اللغات الاجنبية بـ *Somnambulisme*

وغَيرَ هذا الاسم وضعَ ليغل . لقد تصدّر وألقى بهذا السؤال
المفاجيء في وجه الشاب الذي في العجيلة :

- « مسيو ماريوس بونغيرمي ؟ »

ووقفت العجيلة التي 'وجهَ إليها السؤال .

ورفع الشاب ، الذي بدا مستغرقاً في التفكير أيضاً ، عينيه وقال :

- « نعم ؟ »

- « أَلستَ مسيو ماريوس بونغيرمي ؟ »

- « من غير شك . »

وأضاف ليغل دو مو :

- « كنتُ ابحثُ عنك . »

- « كيف هذا ؟ » كذلك تساءل ماريوس ، إذ كان هو في

الواقع قد فارق منزل جده ، وكان أمامه وجه رآه للمرة الاولى .

« انا لا أعرفك . »

فاجابه ليغل :

- « وانا ايضاً لست أعرفك . »

وحسب ماريوس انه قد التقى بـ 'مزا'ح ، وان تلك بدايةً لمخالفةٍ

ساخرة على قارعة الطريق . ولم يكن على مزاجٍ رائق في تلك اللحظة

عينها . فزوى ما بين حاجبيه .

وتابع ليغل دو مو رابططَ الجأش :

- « أنت لم تكن في المدرسة امس الأول ؟ »

- « ذلك جائز . »

- « هذا مؤكد . »

فسأله ماريوس :

- « هل أنت تلميذ ؟ »

-- « نعم ، ياسيدي . مثلك . امس الأول ، اتفق ان ذهبتُ

الى المدرسة . تدري ، إن مثل هذه الافكار تراود المرء في بعض الاحيان . وكان الاستاذ على وشك ان يدعو كل طالب باسمه . وانت لا تجهل انهم يكونون مضحكين جداً في تلك اللحظة . فاذا لم تلب النداء في المرة الثالثة حذفوا اسمك . ستون فرنكاً تذهب مع الريح . وبدأ ماريوس يصفي . وقابع ليغل كلامه :

- « كان بلوندو يتلو الاسماء . انت تعرف بلوندو . إن له أنفأ محدداً جداً ، خبيثاً جداً ؛ ولانه ليبتهج حين يشتم رائحة الغائبين من الطلاب . لقد بدأ ، في مداراة ، بالحرف ط . ولم أكن أصفي ، لانني ما كنت لأعنى بذلك الحرف . وسأت عملية المناداة سيواً حسناً . ولم يُمنحَ أيما امم . كان للكون كله حاضراً ، وكان بلوندو محزوناً ، وقلت في ذات نفسي : بلوندو ، يا حبيبي ، إنك لن توفقي إلى اصدار أصغر حكم من أحكام الاعداء اليوم . وفجأةً ، نادى بلوندو : ماريوس بوغيوسي ؟ ولم يُجب أحد . وغمر الأمل قلب بلوندو فكرو في صوت أقوى : ماريوس بوغيوسي . وأمسك بريشته . سيدي ، إن فؤادي عامر بالحب . وسرعان ما قلت في نفسي : هو ذا فتى شجاع سوف يُمحي اسمه . إننبه . انه شاب مرح حقاً لا يعرف الدقة في المواعيد . إنه ليس غلاماً صالحاً . إنه ليس سوسة كتب ؛ تلميذاً يدرس ؛ مدعيّاً غراً من مدعي العلم الاغرار ؛ قوياً في العلوم ، والآداب ، واللاهوت ، والحكمة ؛ واحداً من تلك الجماجم البلهاء الشديدة التألق حتى لكانها مشدودة بأربعة دبائيس ؛ لكل مقدوة دبوس . كان كسولاً شريفاً يتسكع ؛ يجب ان يصطاف ؛ يواظب على معاشرمة العائلات ذوات الفنج والدلال ؛ يتزلف إلى الحسان ؛ ولعله ان يكون في هذه اللحظة ذاتها عند خليلتي . فلننقذه . الموت لبلوندو ! وفي تلك اللحظة غمس بلوندو ريشته ، السوداء من أثر المحو ، في الحبر ، وأجال حدقته الصهباء في القاعة ، وكرّر للمرة الثالثة : ماريوس بوغيوسي ! واجبت : حاضر ! وهكذا لم يُمنح اسمك . »

فقال ماريوس :

« سيدي ! ... »

واضاف ليغل دو مو :

« و'بحي اسمي أنا . »

فقال ماريوس :

« أنا لا أفهمك . »

واستأنف ليغل كلامه :

« ليس ما هو اسهل من ذلك . لقد كنتُ قريباً من الكرسي ،

لكي أجيب ، وقريباً من الباب لكي أفرّ . كان الاستاذ ينظر الي
في شيء من التركيز . وفجأة وثب بلوندو - الذي ينبغي ان يكون
الأنتف الماكر الذي تحدث عنه برالو - الى الحرف L . والحرف L هو

حرفي . أنا من « مو » واسمي هو ليسغل . »

فقاطعه ماريوس :

« ليغل ! ياله من اسم جميل ! »

« سيدي ، لقد وصل بلوندو الى هذا الاسم الجميل وصاح :

« ليغل ! » فأجبت : حاضر ! وعندئذ نظر بلوندو اليّ في وقعة النمر ،

وابتسم ، وقال : « اذا كنتُ بونغيرمي ، فلستَ ليغل . » وهي عبارة

قد لا تسرك ، ولكنها لم تكن مأثمة إلا بالنسبة اليّ . فما إن قال

ذلك حتى عا اسمي . »

فهتف ماريوس :

« سيدي ، لقد أحزنتني ... »

فقاطعه ليغل :

« قبل كل شيء ، ألتبس أن احتط بلوندو بيبضع كلمات من

الرثاء الصادق القوي . أنا أحسبه ميتاً . ولن يكون ثمة كثير مما ينبغي

أن يُغيّر في نحوه ، وشعوبه ، وپرودنه ، وتوتره ، ورائحته . وأنا

أقول *Erudimini qui judicatis terram* هنا يرقد بلوندو ، بلوندو الأنف ،
بلوندو نازيكا * ، ثور النظام ، *bos disciplinae* ، كلب الاوامر الحارس ،
ملاك المنادة على اسماء الطلاب ، الذي كان مستقيماً ، مرتبطاً ، دقيقاً ،
قاسياً ، أميناً ، سمجاً . لقد محاه الله كما محاني .

وأردف ماريوس :

— « أنا آسف جداً ... »

فقال ليغل دو مو :

— « أيها الفتى ، ليكن ذلك درساً لك . في المستقبل ، كن دقيقاً
في مواعيدك . »

— « الحقّ ان عليّ ان أقدم اليك ألف عذر . »

— « حذار ان تعرض نفسك لأن تكون سبباً في محو اسم جارك ،
مرةً اخرى . »

— « أنا آسف جداً . »

وانفجر ليغل ضاحكاً .

— « وأنا في طربٍ بالغ . لقد كانت قدمي على وشك أن تزلّ في

منحدر الحمامة . فجاء هذا الشطب فأنقذني . وإني اتخلى عن انتصارات

الحمامة . أنا لن ادافع عن الارملة ، ولن اهاجم اليتيم . لا «روب»

بعد اليوم ، ولا فترة تدرّج . ها قد تمّ شطب اسمي . وإني لمدين

لك بذلك ، يا مسيو بونغيرمي . أنا اعتزم أن ازورك ، في كثير

من الوقار ، وارفع اليك آيات شكري . ابن تسكن ؟ »

فقال ماريوس :

— « في هذه العُجيلة . »

فأجاب ليغل في هدوء :

— « ذلك دليل سمعة وثروة . اهتُك . إن عندك هناك بيتاً تبلغ

* من كلمة *basus* اللاتينية ، وتعني الأنف .

أجرته تسعة آلاف فرنك سنوياً . ،
وفي تلك اللحظة خرج كورفيراك من المقهى .
وابتسم ماريوس في كتابة .
- « كنت في ذلك البيت منذ ساعتين ، وإني لأتمنى ان أغادره .
ولكنها القصة المعتادة ، أنا لا أدري الى أين أذهب . »
فقال كورفيراك :
- « ايها السيد ، تعال الى منزلي . »
فلاحظ ليفل :
- « كان ينبغي ان يكون لي حق الاولوية ، ولكنني لا منزل لي . »
فأجاب كورفيراك :
- « اسكت ، يا بوسوويه ! »
فقال ماريوس :
- « بوسوويه ، ولكنني ظننت انك تدعو نفسك ليفل . »
فأجاب ليفل :
« ليفل دو مو . وفي المجاز ، بوسوويه . »
ودخل كورفيراك العجيلة .
وقال :
- « الى اوتيل دو لا بورت سان جاك ، ايها السائق . »
وفي ذلك المساء نزل ماريوس في غرفة من غرف اوتيل دو لا بورت
سان جاك ، جنباً الى جنب مع كورفيراك .

٣

دهش ماريوس

ولم تنقُض بضعة ايام حتى أمسى ماريوس صديق كورفيراك .

فالشباب هو موسم الامزجة * اللاحقة ، والالتزامات السريعة . وتنفس ماريوس ، وهو في جوار كورفيراك ، في حرية - وهو شيء جديد بالنسبة اليه . ولم يوجه كورفيراك اليه أيما سؤال . بل إنه لم يفكر في ذلك البتة . ففي تلك المرحلة من العمر يُفصح المحتيا عن كل شيء في الحال . إن الكلام لا غناء فيه . وهناك بعض الشباب الذين نستطيع ان نقول ان وجوههم ثائرة . ينظر احدهم الى الآخر ، فيمرف احدهم الآخر .

ومع ذلك فقد وجه اليه كورفيراك هذا السؤال ، ذات صباح ، على نحو مفاجيء :

- « بالنسبة ، هل لك رأي سياسي ؟ »

فقال ماريوس وقد غاظه السؤال أو كاد :

- « ماذا تعني ؟ »

- « ما أنت ؟ »

- « ديموقراطي بونابوتي . »

فقال كورفيراك :

- « ظلُّ أشهب اللون فأرة مطمئنة . »

وفي اليوم التالي قدّم كورفيراك ماريوس الى مقهى الموزين . ثم همس في أذنه مبتسماً : « يجب ان افتح لك باب الثورة . » وقاده الى حجرة « أصدقاء الالفباء » ، حيث قدّمه الى سائر الاعضاء قائلاً في صوت كالهمس هذه الكلمة البسيطة التي لم يفهمها ماريوس : « تلميذ . » كان ماريوس قد وقع في وكرٍ عقليّ . ومع انه كان صموتاً آخذاً بأسباب الجدّ ، فإنه لم يكن اوهنهم جناحاً ولا أقلهم سلاحاً .

وإذ كان ماريوس ، حتى ذلك الحين ، متوحداً نزوعاً الى مناجاة النفس

* الامزجة ، هنا ، جمع مزاج ، وهو ما يُمزَج به .

وتوجيه الخطاب الى الذات بسائق العادة والذوق ، فقد اخذه شيء من
الذهول لدن رؤيته هذه الجماعة من الشبان حوله . لقد هاجته هذه
المبادرات المختلفة ، في آن معاً ، وأربكته . إن الحركة الدائمة الصاخبة
التي تكشفت عنها هذه العقول المتحررة العاملة قد أثارت افكاره وعصفت
بها . وفي غمرة من الاختلاط ، بعض الاحيان ، كانت تلك الأفكار
تنأى عنه الى حد يجعل من المسير عليه ان يعثر عليها ككرة اخرى .
كان يسمع أحاديث في الفلسفة ، والادب ، والفن ، والتاريخ ،
والدين ، في اسلوب غير منتظر . لقد لمح مظاهر غريبة ؛ وإذا لم يكن
يتوقعها فما كان واثقاً من ان ما يراه ليس مجرد تشوش . لقد ظن ،
حين تخلى عن معتقدات جده ليعتنق معتقدات أبيه أنه قد نعم
بالاستقرار . ولكنه حسب الآن ، في قلق ، ومن غير ان يعترف
بهذا أمام نفسه ، أنه لم يكن كذلك . كانت الزوايا ، التي يرى جميع
الاشياء منها ، قد شرعت تتغير ككرة ثانية . لقد أثارت ذبذبة ما آفاق
دماغه كلها . بلبلة باطنية غريبة . وآذاه ذلك أو كاد .

لقد بدا وكأن هؤلاء الفتيان لم يكن لديهم « أشياء مقدسة . »
ففي كل موضوع من الموضوعات ، سمع ماريوس لغة فريدة مزعجة لعقله
الذي ما يزال هيباً .

وبرز امامهم إعلان من اعلانات المسرح مزدان بعنوان تراجيديا من
القائمة القديمة المسماة كلاسيكية . فصاح باهوريل : « فلنسط التراجيديا
العزيزة على قلب البورجوازي ! » وسمع ماريوس كومبوفير يجيب :
« انت مخطيء ، يا باهوريل . ان البورجوازية تحب التراجيديا ،
وفي هذه النقطة يجب ان ندع البورجوازية وشأنها . إن للتراجيديا ذات
اللة المستعارة مبرر وجودها ، وأنا لست واحداً من اولئك الذين
ينكرون عليها ، باسم أشيلوس ، الحق في الحياة . إن في الطبيعة
رسوماً أولية . وإن في البرايا تحريفات جاهزة . منقار ليس من المناقير

في شيء ، اجنحة ليست من الاجنحة في شيء ، زعانف ليست من الزعانف في شيء ، مخالب ليست من المخالب في شيء ، وصيعة فاجعة تغرينا بالضحك - تلك هي البطة . والآن ، ما دام الطائر الداجن يحيا جنباً الى جنب مع العصفور ، فلست ارى لماذا لا ينبغي للتراجيديا الكلاسيكية ان توجد في وجه التراجيديا العتيقة . »

وفي مرة اخرى اتفق ان كان ماريوس يجتاز شارع جان جاك روسو بين آنجولراس وكورفيراك .
وامسك كورفيراك بذراعه :

- « انتبه . هذا شارع بلاتيرير ، المسمى اليوم شارع جان جاك روسو بسبب من أسرة غريبة عاشت فيه لستين عاماً خلت . كانت مؤلفة من جان جاك وتيريز . وبين الفينة والفينة كانت كائنات صغيرة تولد هناك . كانت تيريز تجميهم ، وكان جان جاك يُعدهم . »
فأجابه آنجولراس في قسوة :

- « لزم الصمت أمام جان جاك ! أنا عظيم الاعجاب بذلك الرجل . لقد أنكر أولاده ؛ حسنٌ جداً ، ولكنه نبئى الشعب . »
ولم ينطق ايّ من اولئك الفتيان بهذه اللفظة : الامبراطور . كان جان بروفير وحده يقول في بعض الاحيان : نابوليون . أما سائر الجماعة فكانوا يقولون : بوناپرت . وكان آنجولراس يلفظها هكذا : بونُونابرت .

ودهش ماريوس والتبس عليه الامر . * *Initium Sapientiae*

* في اللاتينية ، ومعناها : اول الحكمة : اورأس الحكمة .

الحجرة الخلفية في مقهى الموزين

ومن بين الاحاديث التي دارت بين هؤلاء الفتيان ، على مسمع من ماريوس ، والتي شارك هو فيها بعض الاحيان ، حديثُ أصابه بهزة عنيفة .

دار ذلك الحديث في الحجرة الخلفية من مقهى الموزين . وكانت « اصدقاء الالفباء » كلهم مجتمعين ذلك المساء . وأضيء المصباح الكبير في احتفال . وتحدثوا في موضوعات مختلفات ، من غير ما انفعال ، وفي ضجة . وباستثناء آنجولراس وماريوس ، اللذين لزموا الصمت ، ألقى كل منهم ، كيفما اتفق ، خطاباً صغيراً . ان محاورات الرفاق 'تنتج في بعض الاحيان هذا الصخب الدمث . كان لعباً وفوضى بقدر ما كان حديثاً . وكان الواحد منهم يقذف بكلماتٍ ما يلبث الآخر ان يثقلها . لقد تحدثوا في كل من الزوايا الاربع .

ولم يكن يجاز لأي من النساء ان تدخل الى هذه الحجرة الخلفية ، ما خلا لوزون غاسلة الاطباق في المقهى ، التي كانت تجتازها بين الفينة والفينة لكي تمضي من المفصل الى « المختبر » .

وكان غرانتير ، وقد تمتعه السكر ، يُصمّ الزاوية التي بسط سلطانه عليها . كان يتحدث بأعلى صوته حديثاً بعضه معقول وبعضه هراء . لقد صاح :

« انا ظمىء . اها الفانون ، لقد حلت حلاً : أن دنّ هايدلبرغ قد أصيب بالسكتة ، واني دزينة العلاقات التي اصطنعت في علاجه . أنا ابتغي الشراب ، انا اريد ان انسى الحياة . ان الحياة اختراع بشع لست ادري

صاحبه . إنها لا تدوم ، وهي لا تساوي شيئاً . وكل من يدق عنقه لكي يعيش . الحياة مشهد تمثيلي ليس فيه غير قليل من محتمل الوقوع . والسعادة إطار عتيق دهن من جانب واحد . يقول « سفر الجامعة » : كل شيء باطل . انا اتفق مع هذا الرجل الصالح الجائز ان لا يكون قد « وجد قط » . إن الصفر ، وقد رغب عن العري الكامل ، قد ألبس نفسه رداء الباطل . اوه ، ايها الباطل ! ترقيع كل شيء بالكلمات الضخمة ! المطبخ مختبر ، والراقص استاذ ، والمشعوذ محترف رياضة بدنية ، والملاكم ملاكم ، والصيدلي كيميائي ، والحلاق فنان ، والمتوكل معمار ، وفارس السباق رياضي ، وقتل الحشب « ظفر غصني » . والباطل له قفا وله وجه ، فالوجه أحق ، إنه الزنجي مجرّمه . واللقا أبله ! إنه الفيلسوف بأسماله البالية . انا أرثي لأحدهما . وأضحك من الآخر . وما يدعونه المراتب والمناصب ، وحتى العزّة والعظمة هي عادة « ذهب زائف » . إن الملوك يتخذون من الكبرياء الانسانية لعبة يعشون بها . فـ « فليةولا » * عيّن أحد الجياد قنصلاً . وشارل الثاني جعل قطعة من لحم « صلب البقر فارساً » . فيروا في نظام عسكري بين القنصل إينستاتوس ، والبارونة شرمجة لحم البقر . أما قيمة الناس الذاتية فلم تعد بعد موضع الاحترام . اسمعوا الى المدائح التي يتبادلها الجيوان . إن البياض قاسر على البياض . ولو كان للزنبقة ان تتكلم عن الحامة إذن لسلقتها بألسنة حداد ! إن المرأة المتطرفة في الورع ، التي تطلق القيل والقال عن امرأة تقية ، هي أشد سماً من الصلّ والافعى الزرقاء . من المؤسف اني جاهل ، اذ كان يجدر بي ان اقدم اليكم كثيراً من الشواهد ، ولكفي لا أعرف شيئاً . لقد كنت ، مثلاً ، متوقد الذكاء دائماً . فعين كنت تلميذاً عند « غرو » ، كان من

* Caligula امبراطور روماني تولى العرش ما بين عامي ٣٧ و ٤١ م وقد بلغ من احتقاره للشعب ان عيّن فرسه ، إينستاتوس ، قنصلاً . ولقد قال ذات يوم في كلام له عن رعاياه : « فليعضوني ، ولكن فليهابوني ! » *Oderint dum metuant*

دأبى أن أنفق الوقت في مرقعة التفاح بدلاً من انفاقه في خربشة الصور . ولا غرابة ، فالتميز في التصوير (rapin) هو مذكر الاغتصاب (rapine) * وفي هذا المقدار من الكلام عن نفسي كفاية . أما أنتم فلا تقلون عني شيئاً . إني اهزأ من كالاتكم ، وفضائلكم ، وسجاياكم . فكل سجية تنقلب الى نقيصة . المقتصد مجاذي البخيل ، والكرم يتاخم المبتذر ، والشجاع يسير جنباً الى جنب مع المتظاهر بالشجاعة ، ومن يقول : ووع جداً ، يقول : متكلف في التقوى . إن في الفضيلة من الرذائل مثل ما في رداء ذبوجين من النقوب . بمن تعجبون : بالقتيل ام بالقاتل ، بقبصر ام ببروتوس ؟ إن الناس على العموم يصفقون للقاتل . مرحى لبروتوس ! لقد قتل . تلك هي الفضيلة . فضيلة ؟ لا بأس ، ولكنها حماقة ايضاً . إن على هؤلاء الرجال العظام لطخاتٍ عجيبة . قال «بروتوس» الذي قتل قيصر كان مغرمًا بشمال صبي صغير . وكان ذلك التمثال من صنع النحات الاغريقي سترونجيليون ، الذي صنع ايضاً قتال تلك الفارسة الباسلة المسماة ذات الساق الجميلة ، Eucnemos ، الذي كان نيروث يصطحبه في رحلاته . ولم يختلف سترونجيليون هذا غير قتالين أقاما التناغم ما بين بروتوس ونيرون . كان بروتوس يحب واحداً منها ، وكان نيرون يحب الآخر . وما التاريخ كله غير تكرار طويل . إن كل قرن من الزمان ينتحل كلام قرن آخر . لقد حدث معركة مارانغو حذو معركة « بيدنا » ** . إن توليالك *** كلوفيس وأوستولتيز

* يقصد ان التصوير والاغتصاب من جذر لفوي واحد ، وان في الامكان ان يحلّ احدهما محل الآخر . وفي هذا الكلام تلاعب لفظي واضح .

** Pydna احدي مدن مقدونية حيث غلب بولس اميل القائد الروماني ، بيرسيه آخر ملوك مقدونية عام ١٦٨ ق . م

*** Tolpiae مدينة في غالة (فرنسا) القديمة حيث انتصر كلوفيس الاول - ملك الفرنجة - على اتحاد القبائل الجرمانية المعروف بالـ « آلمان » Alamanni عام

٤٩٦ م .

نابوليون تتشابهان مثل قطرتين من دم . انا لا أقيم كبير وزن للنصر .
فليس شيء أشد حماقة من الفتح والغلبة . المجد الحقيقي هو الاقناع .
ولكن حاولوا الان ان تقيموا الدليل على شيء ! انتم تقنعون بالنجاح
وبالها من حقارة ! وبالغلبة والنصر ، وباله من سقاء ! وأسفاه ،
عبث وجبن في كل مكان . كل شيء يخضع للنجاح ، حتى النحوي
* *Si volet usus* ، كذلك يقول هوراس . انا أحتقر ، اذث ، الجنس
البشري . أتريدون ان نهبط من الكل الى الجزء ؟ أتريدون ان اشرع
في الاعجاب بالشعوب ؟ اي شعب ، من فضلكم ؟ اليونان ؟ إن الاثينيين ،
باريسي العصور القديمة ، قتلوا فوسيون ** ، كما لو قلنا كوليني *** مثلاً ،
وتملقت الطغاة الى درجة جعلت آتاسيفوراس يقول عن بيزيستراتوس **** :
إن بوله يجذب النحل . وطوال خمسين عاماً كان اقدر رجل في بلاد
الاغريق هو النحوي فيلوئاس الذي كان ضئيل الجسم مهزولاً الى حد
اضطره الى ان يدغم حذاه بالرصاص لكي لا تذروه الرياح . ولقد
كان في ساحة كورنث الكبيرة تمثال فخته سيلانيوس ، وقيد بليني *****
في جداوله . وكان هذا التمثال تمثال أيبستات . وما الذي فعله أيبستات ؟
لقد اخترع الشغزية ***** . هذه خلاصة لبلاد الاغريق والمجد . ولننتقل

* في اللاتينية ، ومعناها : لان الاستمالة يريد .

** Phocion جنرال وخطيب اثيني (حوالي ٤٠٠ - ٣١٧ ق م) اشتهر
بنزاهته ، ولقد حكم عليه ظلاماً بأن يشرب الشوكران السام ، بعد ان اتهم
بالخيانة .

*** Coligny كان احد زعماء البروتستانت اثناء الحروب الدينية ولقد مات
مسموماً بتعريض من كاترين دو مديشي . (١٥٣١ - ١٥٦٩)

**** Pisistrate طاغية أثيني معاصر لصولون ، وقد توفي عام ٥٢٧ ق.م .

***** Plinio او Pliny ، المؤلف الروماني الشهير (حوالي ٦٢ م - ١٢٠ م)

***** الشغزية والشغرية اعتقال المصارع رجله برجل مصارعه وصرعه اياه بهذه الحيلة

وهو ما يعرف في الفرنسية بـ *Groc - en - jambe*

الى موطن آخر . أعجب بانكلترة ؟ أعجب بفرنسة ؟ فرنسة ؟ لماذا ؟
 من اجل باريس ؟ لقد أبدت اللحظة رأيي في اثينا . انكلترة ؟ لماذا ؟
 من اجل لندن ؟ انا اكره قرطاج . ثم ان لندن ، عاصمة الترف ، هي
 حاضرة البؤس . ففي ابرشية « تشيرنغ كروس » وحدها يموت مئة انسان
 جوعاً ، كل عام . تلك هي آليون * . وأضيف كنتكمة ، اني رأيت
 في يوم من الايام فتاة انكليزية ترقص وعلى رأسها تاج من الزهور ،
 وعلى عينيها نظارتان زرقاوان . فلتنتعب اذن على انكلترة .
 أنا لا أعجب بـ « جون بول » ** فهل ينبغي لي ان أعجب بالاخ
 جوناتان *** اذن ؟ أنا لا أستسيغ هذا الشعب ذا العبيد الارقاء إلا
 قليلاً . ضموا « الوقت من ذهب » جانباً فإذا يبقى من انكلترة ؟
 ضموا « القطن ملك » جانباً فإذا يبقى من اميركة ؟ إن المانية هي
 السائل اللسفاوي . **** وإن ايطالية هي الصفراء التي تفرزها
 الكبد . ***** هل نسمح للوجود بأن يستبدّ بنا إكباراً للروسيا ؟
 لقد أعجب فولتير بها . ولقد أعجب بالصين ايضاً . انا أقرّ بان للروسيا
 جمالها ، ومن بين تلك الجمالات حكم استبدادي قوي . ولكنني أرتي
 للمستبددين . إنهم لهم صحة رقيقة جداً . لقد قطع رأس ألكسيوس ،
 وطعن بطرس بخنجر ، وخنق بولس ، ومُحَقّق بولس آخر بضرباتٍ

* Albion هو الاسم الذي أطلقه القدماء على انكلترة ، ولعل مرد ذلك الى
 بياض صخورها العالية المشرفة على شاطئ البحر (من كلمة *albus* في اللاتينية وتعني الابيض)
 ** John Bull (أو حنا الثور) لقب يطلق على الشعب الانكليزي لإظهاراً لعدم
 أناقته ولعناده .

*** Jonathan لقب يطلق على شعب الولايات المتحدة . ويقال انه دعي كذلك على
 اسم جوناتان ترومبول Trumbull حاكم كونكتيكوت ، وكان صديقاً ومشاراً
 لواشنطن .

**** يقصد أنها تمثل المزاج الكسول في التفكير والعمل على اعتبار ان القدماء
 كانوا يرجعون ذلك الى وجود هذا السائل بكثرة في الدم .
 ***** يقصد انها تمثل المزاج النكد المتبرّم .

بعقب حذاء عالي الساق ، وُذبح عدد من حملوا اسم ايفان ، وُسِّم كثير من حملوا اسم نيقولا وباسيل ، وكل هذا يدلّ على أن قصر أباطرة روسيا هو في حال من الوبال فظيعة . إن جميع الشعوب المتدنية تقدّم إلى إعجاب المفكر هذه الواقعة : الحرب . ولكن الحرب ، الحرب المتدنية ، تستنفد وتختصر كل شكل من اشكال اللصوصية ، ابتداء من قطع الطريق الذي قام به الـ « ترابوكير » في شعاب جبل جاكسا الى سلب الجنود الذي قام به الـ « كومانش » الهنود في « مجاز الشك » . آه ، سوف تقولون لي ان اوروبة هي برغم ذلك أفضل من آسية ؟ أنا اعترف بأن آسية مضحكة ؛ ولكني لا أرى جيداً بأي حقّ تضعكون على « اللاما الكبير » * ، انتم يا شعوب الغرب الذين ضمتم الى أزيائكم وأناقاتكم جميع اوساخ العظمة المعقدة ، من قبص الملكة ايزابيلا القدر ، الى كرسيّ وليّ عهد فرنسا الملقب *** . ايها السادة الانسانيون ، اني اقول لكم : خاب ظنكم ! ففي بروكسل لا في غيرها يُستهلك أعظم قدر من الجعة ، وفي ستوكهولم لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من العرق ، وفي مدريد لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من الشوكولا ، وفي أمستردام لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من شراب الـ « جن » ، أو ربّ العرعر ، وفي لندن لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من الخمر ، وفي القسطنطينية لا في غيرها يستهلك اعظم قدر من القهوة ، وفي باريس لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من الأفسنتين *** . تلك هي جميع المعلومات المفيدة . وباريس

* Grand Lama الرئيس الاعلى للديانة البوذية ، ويعتقد اتباعه أن بوذا متجسد فيه .

** الكرسي المثقوب ، chaise percée ، كرسي مثقوب يستخدمه المريض لبول او التبوّط .

*** absinthe مسكر قويّ ، مرير ، اخضر اللون ينطوي على ٦٨ بالمئة من الكحول ، يصنع من الافستين وغيره من الاعشاب .

تنتزع قصب السبق من منافساتها كلها . ففي باريس نجد ان ملتقطي الحرق انفسهم شهوانيون . ولو قد خُير ديوجين اذن لآثر ان يكون ملتقط خرق في ساحة موبير لا فيلسوفاً في بيروس . تعلموا هذا ايضاً : ان سخارات ملتقطي الحرق تدعى *bibines* ، وإن اعظمها شهرة تدعى « القدر ذات المقبض » ، و « المسلخ » . وإذن ، فبايتها الحارات ، والمطاعم ، والحانات ، والبارات ، والمسارح الوضيعة ، ومحال بيع الخمر بالجملة ، والمراقص ، والمواخير ، وسخارات ملتقطي الحرق ، وخانات القوافل الشرقية ، أنا أشهدك على اني خليع شهواني . اني اتناول الطعام عند « ريشار » بأربعين سو للشخص الواحد ، واني محتاج الى سجاد فارس لكي ادحرج كليوباترة عارية . أين كليوباترة ؟ آه ! إنها انت ، يا لويزون . صباح الخير !

وهكذا أفاض غرانتير ، وكان أكثر من ثمل ، في الحديث ، متعلقاً بفاسلة الاطباق وهي تمر به ، في الزاوية التي احتلها من حجرة مقهى الموزين الخلفية .

وبسط بوسويوه ذراعه نحوه محاولاً ان يفرض عليه الصمت ، فاستأنف غرانتير حديثه على نحو أروع :

- « فلنسقط برائتك ، يا ايغل * دو مو ! انت لا تأثير لك في بايمائك هذه التي تشبه ايماءة أبقراط وهو يأبى عقايره على أرتحشتا ** . وإنني أعفك من تهدئي . وإلى هذا ، فأنا حزين . أي شيء تريدون ان اقول لكم ؟ الانسان شرير ؛ الانسان قبيح . لقد انتصرت الفراشة ، وكبا زئد الانسان . لقد خان الرب هذا الحيوان . والحشود لا تقدم اليك إلا بشاعات مختارة . وأول شخص تقع عليه عينك سافل وغد . إن « المرأة » (*femme*) تتناغم تناغم القافية مع « الفاضح »

* واضح ان لفظ *aigle* وهو اسم « ليغل » مجرداً من لام التعريف يعني النسر .
** احد ملوك الفرس القدماء .

او « المرذول » (infâme) . أجل ، إني أعاني السأم ، مضافةً اليه
 الكتابة ، مع الحنين الى الوطن الأول ، الى جانب السوداء * . إني
 لأغتاظ ، إني لأثور ، إني لانتأب ، إني لأنبؤم ، وإني لمرهق ،
 وإني لشديد الضجر ! ليذهب الربُّ الى الشيطان ! ،

— « اسكت ايها الرءاء الكبيرة ! » ** كذلك صاح بوسوويه من
 جديد وكان يناقش نقطة قانونية على حدة ، وكان غارقاً الى أبعد من
 خصره في سلسلة من عبارات اللغة القضائية ، هذه خاتمتها :

« ... أما أنا ، فبرغم اني لا أكاد أعدّ فقيهاً الا بشقّ النفس ،
 وبرغم اني في أحسن احوالي محامٍ هارٍ ، فأقرر ما يلي : انه بموجب
 أحكام العرف السائد في نورمانديا ، في عيد القديس ميشيل ، ومرةً
 كل عام ، يجب ان يدفع كل منهم ضريبة الى السيد الاقطاعي — مع
 الاحتفاظ بحقوق الآخرين — يتنون في ذلك جميعاً ، سواء أكانوا
 اصحاب أملاك أم مَدِينِي مِراث ، وهذا في جميع عقود الایجار البعيدة
 الأجل ، صكوك الكراء ، والاراضي الحرة ، وعقود الاملاك الخاصة
 والعامة ، والمرتمَن عنده ، والراهن ... »

فدندنَ غرانتير :

— « أصداء ، ابنتها العرائس الناثحات ! ،

وعلى مقربة دانية من غرانتير ، وعلى مائدة تكاد تكون صامتة ،
 أعلنت ورقةً ، ومحبوبةً ، وريشة انتصبت بين قدحي خمر أن الخطوط
 الكبرى لرواية صغيرة ملحّنة كانت قَيَدَ الوضع . وكان القارئ
 بهذه المهمة الضخمة يتحدثان في صوت خفيض ، وقد تماسَّ رأساهما اثناء

* hypocondrie *

** « R majuscule » يلمد غرانتير ، على اعتبار المجاورة اللفظية بين اسمه Grantaire
 وبين Grand R كما رأينا من قبل .

العمل :

« فلنبداً بالبحث عن الاسماء . اذ ما نكاد نعثر على الاسماء حتى نعثر على الموضوع . »

« هذا صحيح . أملر عليّ . سوف اكتب . »

« مسيو دوريمون . »

« غنيّ ؟ »

« من غير شك . »

« ابنته سيليستين . »

« ... تين . ثم ماذا ؟ »

« الكولونيل سينفال . »

« سينفال اسم مبتذل . أفضل فالسين . »

والى جانب هذين المسرحيين الناشئين ، كانت حلقة اخرى استفادت هي ايضاً من القوضى فراحت تتحدث في ممس ، وتناقش في مبارزة من المبارزات . كان شيخ - في الثلاثين من العمر - ينصح شاباً - في الثامنة عشرة - ويصور له حقيقة الحصم الذي سينازله :

« يا للشيطان ! 'خذ' حذرك . إنه سيف جميل . إن لعبه 'نظيف' . إنه يهجم في غير مداراة ، وإن له معصماً رشيقياً ، ونفساً محتدمة ، وبرقاً خاطفاً ، وخطوة دقيقة ، وضربات لا تخطيء . يا سلام ! وهو اعسر ايضاً ! »

وفي الزاوية المقابلة لغرانتير كان جولي وباهوريل يلعبان الدومينو ، ويتحدثان عن الحب .

قال جولي :

« وإنك محظوظ . إن لك خلية لا تكفّ عن الضحك . »

فأجاب باهوريل :

« هذا خطأ ترتكبه هي . إن خلية المرء تخطيء إذ تضحك . »

ذلك أن الضحك يشجعك على خداعها . فمجرد رؤيتك إياها مبتهجة يضع حداً لوخز الضمير . أما إذا رأيتها محزونة فعندئذ يقلقك ضميرك ،

— « يا لك من فاكِر للجميل ! المرأة الضاحكة شيء حسن ! أنت لن تتشاجر معها أبداً ! »

— « ذلك جزء من المعاهدة التي وقعتها . فحين عقدنا » حلفنا المقدس « الصغير عيِّنا لكل واحد منا حدوده التي لا يحق له تخطيها البتة . فما هو واقعُ الى الشمال ملكُ لـ « فود » ، وما هو واقع الى الجنوب ملكُ لـ « جيكس » . ومن هنا السلام الذي ننعِم به . »

— « وأنت ، يا جوليلي ، الى اين وصلت في خصامك مع الآنسة ... انت تعرف من اعني ؟ »

— « إنها تبترّم مني في صبر وحشي . »

— « وهكذا فانت عاشقٌ يُبلِن القلوب بهزاله . »

— « وأسفاه ! »

— « لو كنتُ مكانك لتخلصتُ منها . »

— « هذا شيء يسهل قوله . »

— « وعملُهُ . أليست تسمي نفسها موشيشيتا ؟ »

— « نعم . آه ، يا باهوريل المسكين ، إنها فتاة بالغة الجمال ، ذات

نزعة أدبية ، ورجلين صغيرتين ، ويدين صغيرتين ، حسنة البزّة ، بيضاء ، بدينة ، ولها عينان مثل عيني قارئة البخت . انا مجنون بها . »

— « اذن فيجب أن تُرضيها ، يا صديقي العزيز . كن أنيقاً .

عرّضْ ساقينك للابصار . اِشترِ من محل « ستوب » بنطلوناً من جلد الظبية . إن ذلك يساعد . »

فصاح غرانتير :

- « بكم يباع ؟ »

وكانت الزاوية الثالثة مستغرقة في مناقشة شعرية . كانت الميثولوجيا الوثنية تتصارع مع الميثولوجيا المسيحية . وكان الموضوع هو الأولومب الذي أيده جان بروفير بروح هي الرومانسية نفسها . إن بروفير لم يكن حياً إلا في فترات السكينة فما إن يُستثار حتى يتفجّر . كان ضرب من البهجة يميز حماسه ، وكان ضاحكاً وغنائياً في وقت معاً .

وقال :

- « لا تُهينوا الآلهة . فلعل الآلهة لم تفارقنا . إني لا أرى أمارات الموت على وجه جوبيتير . الآلهة اضغات أحلام . هكذا تقولون . حسناً ؛ ولكن حتى في الطبيعة - كما هي الآن ، بعد انقضاء تلك الأحلام - نجد جميع الأساطير الوثنية القديمة الرفيعة الذرى . فهذا الجبل ، ذو الصورة الجانبية الشبيهة بمحصن ، ولنقل إنه ال « فينجال » * مثلاً ، لا يزال في نظري غطاء لرأس سيبييل ** . ولم يبق الدليل بعد على ان « بان » *** لا يَفِدُ ليلًا لينفخ في جذوع الصفصاف الجوفاء ساداً ثوبها باصابعه ، ثقباً بعد آخر . ولقد اعتقدت ، وما أزال ، ان « ايبو » **** لها علاقة ما بشلال بيسفاس . »

وفي الزاوية الاخيرة ، كانت السياسة موضوع الحديث . كانوا يطعنون على دستور لويس الثامن عشر . ودافع كومبوفير عنه في فتور .

* Vignemale جبل من جبال البيرينه (البرانس) يبلغ ارتفاعه ٣٢٩٨ متراً .

** Cybèle ابنة السماء ، والاهة الارض والزراعة ، زوجة ساتورن ، وأم

جوبيتير وبتون وبلوتون الخ .

*** Pan ابن هرمس ، وكان له قرنان كقرني التيس ورجلان مثل رجله

ايضاً ، وكان يروّع الناس بظهوره المفاجيء أمامهم ، وقد اخترع قيثارة كان يعزف بها لمرائس الغابات الرافعات .

**** Io ابنة ايناخوس ، وقد أحبا زيوس ومسخها هيرا النور الى عجة

وجعلتها تحت حراسة آرغوس ، العملاق ذي المائة عين .

وشنّ كورفيراك عليه هجوماً لا هوادة فيه . وكانت على المائدة نسخة
صيّئة الحظ من دستور توكيه الشهير . وأمسك كورفيراك به وهزّه ،
مازجاً ارتعاش تلك الورقة بمحبّجه .

— واولاً ، أنا لا أريد أيّاماً ملك . لا أريد ، ولو من وجهة
النظر الاقتصادية فحسب . الملوك متطفلون ونحن لا نفوز بهم مجاناً . اسمع
الى هذا : غلاء الملوك . عند وفاة فرنيس الاول كان دين فرنسا
العام ثلاثين ألف ليرة سنوياً . وعند وفاة لويس الرابع عشر كان الدين
وستمئة مليون ليرة وكان المارك * يعدل ثمانى وعشرين ليرة ، وهو
مبلغ كان يساوي عام ١٧٦٠ ، وفقاً لرأى دوماربه ** ، اربعة
آلاف وخمسة مليون ليرة ، ويساوي اليوم اثني عشر ألف مليون
ليرة . ثانياً : وارجو ان لا يثير ذلك غضب كومبوفير ، ان الدستور
الذي 'يمنح' منحا وسيلة رديئة من وسائل الحضارة . فاجتناب الطفرة ،
وتهميد السبيل ، والتخفيف من حدة الصدمة ، والانتقال بالامة وريداً
وريداً من الملكية الى الديمقراطية بممارسة الاوهام الدستورية - هذه
كلها صحيح بغية . لا ! لا ! إياك وأن تقدّم الى الشعب نوراً زائفاً .
إن المباديء لتدوى وتشعب في كهفك الدستوري . لا انصاف
حلول ؛ لا تسويات ؛ لا منحة من الملك الى الشعب . ففي جميع هذه
المنح توجد المادة ١٤ . والى جانب اليد التي تعطي نجد البرثن الذي
يستردّ . أنا ارفض دستورك رفضاً صريحاً . الدستور الممنوح هو قناع ؛
ان الكذب يكمن وراءه . والشعب الذي يقبل دستوراً ممنوحاً يقتازل
عن سيادته . والحق لا يكون حقاً إلا اذا كان كلاً غير متجزى .

* المارك هنا عملة فضية او ذهبية قديمة كانت تستعمل في بلدان مختلفة من اوروبة ،
وبقيم متفاوتة .

** Desmarets مراقب المالية العام من سنة ١٧٠٨ الى سنة ١٧١٥ وقد اخترع
ضريبة العُشر لكي يتجنب افلاس الدولة .

لا ! لا دستور ! »

كان الفصل شتاء . وكانت قطعتان من الحطب كبيرتان تشتعلان في الموقد . وكان ذلك مغريباً ، ولم يستطع كورفيراك ان يقاوم . فسحقَ دستور توكيه المسكين بيده ، وألقاه في النار . والتهمت الورقة . ونظر كومبوفير ، على نحو فلسفي ، الى رائحة لويس الثامن عشر تحترق ، فاكتفى بالقول :

— « هو ذا الدستور يتحول ، باللهب ، الى خلقة اخرى . »

ولم يكن من السخریات ، والنكات ، والجناسات المستبحة ، وهذا الشيء الفرنسي الذي ندعوه الحيوية المبتهجة ، وهذا الشيء الانكليزي الذي ندعوه الظرف ، والذوق السليم والذوق الفاسد ، والحجج القوية والحجج الضعيفة ، وجميع حماقات الحوار المختلطة — لم يكن من هذه كلها إلا ان برزت دفعة واحدة منطلقة من أطراف القاعة جميعاً ، لتحدث فوق الرؤوس ضرباً من القصف المدفعي المرح .

٥

توسيع الافق

إن لتصادم العقول الشابة هذه الحاسة الرائعة وهي ان المرء لا يستطيع أن يتكهن بالشر او يتنبأ بالبرق . اي شيء يمكن ان ينبثق في تلك اللحظة ؟ لا أحد يدري . إن موجة من الضحك تتبع مشهداً من الرقة والخنو . وفي اللحظة المازلة ، 'يطلع' الجِدُّ رأسه . والحوافر رهنٌ بكلمة عابرة . وقريحة كل امرئ مطلقة السلطان . ونكتة واحدة كافية لأن تفتح الباب لغير المتوقع . ولقد كانت اجتماعاتهم ذوات منعطفات حادة تتغير فيها أبعاد المنظر على نحو مفاجيء . ان المصادفة

هي التي تدير هذه الاحاديث .

وفجأة انبثقت من حليل بعض الكلمات ، وعلى نحو غريب ، فكرة صارمة ، واجتازت فوضى الكلام التي تصارع في غرتها غرائس ، وباهوريل ، وبروفير ، وبوسويه ، وكومبوفير ، وكورفيراك تصارعاً مشوشاً .

كيف تتخذ عبارة " ما سبيلها الى حوار ما ؟ ما الذي يجعلها تفرض نفسها ، "فجأة" ، على انتباه اولئك الذين يسمعونها ؟ لقد قلنا منذ لحظة : لا أحد يدري . ففي غمرة الاصوات الصاخبة ختم بوسويه ، على نحو مفاجيء ، كلاماً كان يوجهه الى كومبوفير ، بالتاريخ التالي :

- « ١٨ حزيران ، ١٨١٥ : واترلو . »

ولم يكده ماريوس - الذي كان منكثراً على احدى الطاولات ، قرب كأس ماء - يسمع هذا الاسم ، واترلو ، حتى نزع معصمه من تحت ذقنه ، وأنشأ يحدق الى الجماعة تحديقاً موصولاً .

وصاح كورفيراك :

- « وحق الاله *pardieu* (كانت *parbleu* * قد بدأت تبطل في ذلك العهد) إن هذا الرقم ، ١٨ ، لغريب ، وإنه ليذهلني . إنه رقم نابوليون المشؤوم . ضع « لويس » في المقدمة ، و « برومير » في المؤخرة تقع على قدر الانسان كله ، مع هذه الحاصة المعبرة ، وهي أن النهاية تطارد البداية مطاردة عنيفة . »

وهنا قطع آنجولراس حبل الصمت ، وكان أبكم حتى ذلك الحين ، وخاطب كورفيراك قائلاً :

- « تريد ان تقول إن التكفير يطارد الجريمة . »

وتجاوزت هذه الكلمة ، الجريئة ، حدود احتمال ماريوس ، وكان قد استنير بتلك الاشارة المفاجئة الى واترلو .

* وهي تعريب لـ *pardieu* .

ونفض ، ومشى في تودة نحو خريطة فرنسة المنشورة على الجدار ، وكانت تبدو في أدها جزيرة طوّقت باطار منعزل . ووضع اصبعه على هذا الاطار وقال :

« كورسيكة . جزيرة صغيرة جعلت فرنسة دولة عظيمة حقاً . »
كانت تلك هبة من هواء مثلوج . وكانوا كلهم صامتين . واستشعروا ان شيئاً ما ، على وشك ان يبدأ .

وكان باهوريل - الرادّ على بوسوييه في سرعة واحدة - على أهبة اتخاذ وضع كوضع التايل النصفية كان يحرس عليه . ولكنه تحلى عن ذلك لكي يصغي .

ولم يكن من آنجولراس - الذي كانت عينه السوداء غير مركزة على احد ، والذي بدا وكأنه يتأمل الفراغ - إلا ان أجاب من غير ان ينظر الى ماريوس :

« ان فرنسة لا تحتاج الى شيء مثل كورسيكة لكي تكون عظيمة . إن فرنسة عظيمة لانها فرنسة . * *Quia nominor leo* »
ولم يستشعر ماريوس ايما رغبة في النكوص . لقد التفت الى آنجولراس ، وجلجل صوته في ارتجاج ناشيء عن ارتعاش اعصابه :

« لست انتقص من قدر فرنسة ، لا سمح الله ! ولكن إدغام نابوليون بها لا ينتقص من ذلك القدر ، البتة . تعال ، دعنا نتحدث اذن . أنا وافد جديد عليكم ، ولكني اعترف انكم توقعون الدهش في نفسي . اين نحن ؟ من نحن ؟ فلنوضح آراءنا في الامبراطور . اني اسمعكم تقولون بُوُونابرت مشددين على الواو مثل الملكيين . وفي استطاعتي ان اقول لكم ان جدي يفوقكم في ذلك ايضاً ؛ إنه يلفظها بُوُونابرتة .

* في اللاتينية ، ومعناها : « لاني ادعى الأسد » . وهي كلمة منزعجة من أحد امثال الشاعر اللاتيني « فيدر » حيث يقدم الاسد هذه الحجة على حقه في الفوز بالقسم الاعظم من الغنيمة ...

لقد حسبتُ انكم شباب . اين حماستكم اذن ، وما الذي تفعلونه بها ؟
 هم 'تعجبون' ، اذا كنتم لا 'تعجبون' بالامبراطور ؟ وهل تطمعون في
 اكثر من ذلك ؟ واذا لم تتمنوا مثل هذا الرجل العظيم فأني رجل
 تتمنون ؟ كان كل شيء . كان كاملاً . كان في دماغه مكتب
 الكفايات الانسانية . لقد وضع القوانين مثل جوستينيانوس ؛ وأملى
 ارادته مثل بوليوس قيصر ؛ وجمعت احاديثه برقّ باسكال الى رعد
 تاسيتوس ؛ لقد صنع التاريخ وكتبه ؛ إن بياناته الرسمية هي الياذات ؛
 لقد مزج ارقام نيوتن باستعارات محمد وبجازاته ؛ وخلف وراءه في
 المشرق اقوالاً عظيمة كالاهرام . في نيلسيت علم الاباطرة الجلال ؛
 وفي اكاديمية العلوم ردت على لابلاس * ؛ وفي مجلس الدولة قاوم
 ميرلين ** ؛ لقد اضى روحاً على هندسة هؤلاء وبماحكات اولئك ؛
 كان فقيهاً مع رجال القانون وعالمًا بالنجوم مع رجال الفلك . ومثل
 كرومويل الذي كان يطفىء شمعاً حين تضاء اثنتان ، كان يذهب الى
 « تامل » ليساوم البائع في ثمن شرابة من شراريب السجف ؛ لقد رأى
 كل شيء ؛ لقد عرف كل شيء ؛ وهو ما لم يمنعه من ان يضحك
 ضحكة رجل ساذج أمام مهد طفله الصغير . وفجأة ، أصغت اوروبا
 المشدوهة ، وزحفت جيوش ، ودارت حظائر المدافع ، وامتدت جسور
 من المراكب فوق الأنهار ، وانطلقت سحائب من الحبال وسط
 الأعصار ، وضع الكون بالصيحات ، والأبواق ، وارتجافات العروش ،
 وتذبذبت تخوم الممالك على الحارطة ، وسمع صليل 'حسام' سوبرماني ينبثق
 من الكُور ، ورآه الناس ، وأوه هو ، ينتصب واقفاً عند الاق ، وفي
 يديه برق ، وفي عينيه ضياء ، ناشرًا في الرعد جناحيه الاثنين ، الجيش
 العظيم والحرس القديم ، وكأنه ملاك الحرب الأكبر .

* Laplace رياضي وفلكي فرنسي شهير . (١٧٤٩ - ١٨٢٧)

** Merlin سياسي فرنسي (١٧٥٤ - ١٨٣٨) شارك في اسقاط روبسبير .

واعتصم الجمع كلهم بالصمت ، وخفض آنجلولاس رأسه . وللمصمت دائماً شيء من وقنع القبول ، او وقنع ضرب من الدفع الى الجدار . ومن غير ان يأخذ نفساً ، تقريباً ، تابع ماريوس كلامه في فضل حماسة :

- « لنكن عادلين ، ايها الاصدقاء . اي قدر هيّ ذلك الذي يجعل الأمة امبراطورية لمثل هذا الامبراطور ، حين تكون تلك الأمة هي فرنسا ، وحين تضيف عبقريتها الى عبقرية رجل كهذا ! فلأن تبرز وتلي العرش ؛ ولأن تزحف وتنتصر ؛ ولأن تتخذ من كل عاصمة من العواصم محطة لك ؛ ولأن تختار رماة قنابلك وتجعل منهم ملوكاً ؛ ولأن تصدر امرك بأسقاط السلالات المالكة ؛ ولأن تسو بأوروبا في مثل سرعة الزحف العسكري بحيث يشعر الناس ، حين تهدد ، انك تضع يدك على قائم سيف الله ؛ ولأن تتبع - في رجل واحد - هنيئلاً ويوليوس قيصر وشارلمان ؛ ولأن تكون شعباً لإنسان يمزج بكل صباح من أصباحك ايذاناً مجيداً بأن معركة قد كُسيبت ؛ ولأن توقظ مع الفجر بمدافع الانفاليد ؛ ولأن تقذف في لجج من النور كلمات جبارة تلتهب الى الابد : مارانغو ، آر كولا ، اوسترلitz ، بينا ، واغرام ! ولأن 'تطلع كل' لحظة في سمّت القرون ابراجاً من الانتصارات ، ولأن تجعل الامبراطورية الفرنسية خليفة الامبراطورية الرومانية ؛ ولأن تكون الشعب العظيم وتنشئ الجيش العظيم ؛ ولأن تحمل فرقك على الطيرات فوق الارض برمتها كما يبعث الجبل بنسوره الى كل ناحية ؛ ولأن تقهر ، وتحكم ، وتُنزل الصواعق ، وتكون في اوروبا ضرباً من الشعب المذهب بتواتر المجد وتعاضله ؛ ولأن تبوق من خلال التاريخ بألحان الجباورة ؛ ولأن تفتح العالم مرتين ، بالفتح العسكري وبالبحر * إن ذلك شيء جليل ، واي شيء يمكن ان يكون اعظم

* جبروت المين جبراً : لم يُعبر في الشمس .

من هذا ؟

فقال كومبوفير :

« أن نكون أحراراً . »

وخفض ماريوس ، بدوره ، رأسه . كانت هذه الكلمات الباردة البسيطة قد شقت تدفقه الملحمي مثل شفرة من فولاذ ، فاستشعر ان هذا التدفق قد تلاشى في قرارة نفسه . وحين رفع عينيه ، لم يكن كومبوفير هناك . ولعله ان يكون قد أحسّ بالارتياح لردّه على ذلك التآليه ، ففادر المكان وتبعه الجمع كلهم ما عدا آنجولراس . كانت الحجرة خالية . وانشأ آنجولراس ينظر الى ماريوس في جدّ بعد أن لم يبق غيرهما في تلك الحجرة . وفي غضون ذلك كان ماريوس قد لمّ شتات افكاره فهو لا يعتبر نفسه مهزوماً . كان فيه بقية من ثورة كانت ، من غير شك ، على وشك أن تجد تعبيرها في أقبيسة منطقية موجهة ضد آنجولراس عندها ممعا ، فجأة ، شخصاً يغني فيما هو يهبط السلم . كان ذلك الشخص هو كومبوفير ، وكان ينشد الابيات التالية :

« اذا منحنى قيصر ،

المجد والحرب ،

واذا تعين علي ان اتخلى

عن حب أمي ،

فمئذئذ اقول للقيصر العظيم ،

استرجع صولجانك ومركبتك الحربية

انا افضل أمي ،

انا افضل أمي ا »

وكان في النبوة العذبة الضاربة التي اصطنعها كومبوفير في انشاده ما خلع على هذه المقطوعة عظمة غريبة . وعلى نحو آليّ كرر ماريوس ، وقد استغرق في التفكير ، وسدد بصره الى السقف : « أمي ؟ »

وفي تلك اللحظة أحسّ بيد آنجولراس على كتفه .
وقال آنجولراس له :

« أيها المواطن ، إن امي هي الجمهورية . »

٦

موارد مهزولة

قضى ماريوس تلك الليلة في احتياج عميق ، وفي قتام نفسي كتيب .
كان يعاني ما قد تعانيه الارض لحظة نشقها بالحديد لكي تودعها حبة
القمح . إنها لا تستشعر غير ألم الجرح . أما اختلاجة البذرة ، وابتهاج
الثمرة فلن يُلمتا بها إلا في ما بعد .

كان ماريوس مغموماً . لقد اعتنق - وما كاد - عقيدة جديدة .
فهل يستطيع ان يطرحها بمثل هذه السرعة ؟ وفي ما بينه وبين نفسه
قرّر أنه لا يستطيع . لقد أعلن لنفسه انه لن يشك ، ولكنه شرع
يشك بالرغم منه . ولأن يكون المرء بين دينين لمّا يهجر بعد أحدهما ولمّا
يتبنّ بعد الآخر ، شيء لا يطاق ؛ والفسق ليس يحلو إلا للنفوس الخفافيشية .
كان ماريوس عيناً مفتوحة وكان في حاجة الى النور الحقيقي . اما غسق
الشك فكان يؤذيه . وعلى الرغم من رغبته القوية في ان يقف حيث هو
وان يصمد هناك ، فقد اضطر ، على نحو لا يقاوم ، الى أن يستمر ، ويتقدم ،
ويدرس ، ويفكر ، ويمضي الى أمام . الى ابن سيقوده ذلك ؟ لقد خشى ،
بعد ان خطا هذه الخطوات كلها ، التي قرّبت به الى أبيه ، ان يقوم الان
بأي خطوة تبعده عنه . وكان ضيقه النفسي يتعاظم مع كل فكرة تخطر
له . وارتفعت من حوله صخور سامقة شديدة التحدر . إنه لم يكن على
وثام لا مع جده ، ولا مع اصدقائه . كان متهوراً مع الاول ، وكانت

متخلفاً عن الآخرين . ولقد استشعر انه يجيىء في عزلة مضاعفة ، عن
الشيخوخة من ناحية ، وعن الشباب من ناحية ثانية ، ولم يعاود الذهاب
الى مقهى الموزين .

وفي غمرة من هذا القلق الذي ألمّ به لم يفكر ببعض وجوه الوجود
الجدية إلا قليلاً . إن حقائق الحياة لا تسمح لنفسها بأن تُنسى .
وفجأة ، وفدت عليه وراحت تنكز ذاكرته بمرقها .

وذات صباح ، دخل مدير الخدم غرفة ماريوس ، وقال له :

« إن مسيو كورفيراك قد تعهد بأن يدفع دينك . »

« نعم . »

« ولكنني في حاجة الى المال . »

فقال ماريوس :

« سأل كورفيراك ان يأتي ويتحدث معي . »

وأقبل كورفيراك . وفارقها مدير النزل . وقصّ عليه ماريوس ما لم

يفكر في أن يرويه له من قبل ، وهو انه - اذا جاز التعبير - كان
وحيداً في هذا العالم ، وأن ليس له أنساب البتة .

فقال كورفيراك :

« ما الذي سيحلّ بك ؟ »

فأجاب ماريوس :

« لست ادري شيئاً من ذلك . »

« ما الذي سوف تفعله ؟ »

« لست ادري شيئاً من ذلك . »

« هل عندك مال ؟ »

« خمسة عشر فرنكاً . »

« اتريد ان اقترضك شيئاً من المال ؟ »

« لا ، مطلقاً . »

- « هل عندك ثياب ؟ »
- « عندي هذه . »
- « هل عندك حلية ما ؟ »
- « عندي ساعة . »
- « ساعة فضية ؟ »
- « ذهبية . ها هي ذى . »
- « انا اعرف متاجراً بالملابس مستعداً لأن يأخذ ستوتك الطويلة وبنطلوناً واحداً . »
- « وأحذيتي . »
- « ماذا ؟ انك لن تمشي حافياً ؟ يا لها من رفاهة ! »
- « هذا سوف يكفيني . »
- « وأنا اعرف ساعاتياً مستعداً لأن يشتري ساعتك . »
- « ذلك حسن . »
- « لا . إنه غير حسن . ما الذي ستفعله في ما بعد ؟ »
- « كل ما يتعين عليّ . أيا عمل شريف على الاقل . »
- « أتعرف الانكليزية ؟ »
- « لا . »
- « هذا مؤسف . »
- « لماذا ، »
- « لأن لي صديقاً ، صاحب مكتبة ، يُعِدّ ضرباً من الموسوعة . ولقد كان في امكانك ان تترجم له بعض المقالات الالمانية او الانكليزية لو كنتَ تعرف احدي هاتين اللغتين . إنه يدفع تعويضاً ضئيلاً جداً ، ولكنه يُقيم الأود . »
- « سوف اتعلم الانكليزية والالمانية . »
- « وفي انتظار ذلك ؟ »

- « في انتظار ذلك سوف آكل ملابسي وساعتي . »
وأرسل في طلب تاجر الملابس ، فاشتري الثياب البالية بعشرين فرنكاً .
وقصدا الى الساعاتي ، فاشتري الساعة بخمسة واربعين فرنكاً .
وقال ماريوس لكورفيراك وهما عائدان الى الفندق :
- « هذا مبلغ لا بأس به . واذا اضفت اليه الخمسة عشر فرنكاً
التي معي يصبح المجموع ثمانين فرنكاً . »
فلاحظ كورفيراك :
- « وفاتورة الفندق ؟ »
فقال ماريوس :
- « اوه ، لقد نسيتها . »
فقال كورفيراك :
- « يا للشيطان ! سوف يكون عندك خمسة فرنكات لتأكل بها بينا
تتعلم الانكليزية ، وخمسة فرنكات بينا تتعلم الالمانية . ومعنى ذلك ابتلاع
لغة في مرعة بالغة ، او ابتلاع قطعة نقدية من ذات المئة « سو » في
بطء بالغ . »
وفي غضون ذلك كانت الحالة جيلنورمان ، ذات الجوهر الكريم
حقاً في الظروف العصيبة ، قد انتهت الى اكتشاف المكان الذي أوى
اليه ماريوس .
وذات صباح ، فيما كان ماريوس عائداً من المدرسة ، وجد رسالة
من خالته و « الستين بيستولاً » ، يعني ستمئة فرنك ذهبي ، في علبة
مخنومة .
واعاد ماريوس الليرات الذهبية الثلاثين الى خالته مع رسالة موقرة
أعلن فيها ان لديه بعض اسباب الرزق ، فهو قادرٌ منذ اليوم على أن
يسد حاجاته جميعاً . ولم يكن قد بقي لديه ، في تلك اللحظة ، غير
ثلاثة فرنكات .

ولم تعلم الحالة جدّ ماريوس بهذا الرفض خشية أن تشير سخطه .
ومن ناحية ثانية ، لم يكن قد قال لها : « حذارِ ان يحدثني احدٌ بعد
اليوم عن شارب الدماء هذا ! »
وغادر ماريوس اوتيل دو لا بورت سان جاك ، غيرَ راغب في أن
يحمل نفسه ايّ دَين .

الكتاب الخامس

فضل الشقاء

ماريوس مُعندماً

وغدت الحياة قاسية على ماريوس . إن أكله ملابسة وساعته لم يكن شيئاً . فقد مضى ذلك الشيء الذي يتمتع على التعبير والذي ندعوه « جرة * المارة » . شيء رهيب يشمل أياماً من غير خبز ، وليالي من غير نوم ، وأماسي من غير شمع ، وموقداً من غير نار ، واساييع من غير عمل ، ومستقبلاً من غير أمل ، وسترة مثقوبة عند المرفقين ، وقبعة عتيقة تغري الفتيات الصغيرات بالضحك ، والباب الذي

* الجرة ، بكرم الجيم ، ما تعيد مضغه الحيوانات المجترة .

يوجد في وجهك ليلاً لأنك لم تدفع قيمة الايجار المستحقة ، وغطرسة البواب وصاحب الفندق ، وسخرجات الجيران ، وضروب الاهانات ، والكرامة مكبوحه الجراح ، والرضا بالكدر في اعمال حقيرة ، والتقزز ، والغم ، والضي . لقد تعلمت ماريوس كيف يبتلع المرء كل ذلك ، وكيف تكون هذه الاشياء ، في كثير من الاحيان ، كل ما تقدمه الالام الى افواه الناس . وفي تلك المرحلة من الحياة ، حين يحتاج المرء الى الصلف لأنه في حاجة الى الحب ، استشعر أنه موضع الهزء لأنه كان رث الثياب ، وموضع السخرية لأنه كان فقيراً . وفي ذلك العمر ، حين يُفعم الصبا قلب المرء بخيلاء قصيرة ، خفض بصره ، غير مرة ، الى حذائه البالي فعرف خجل الشقاء الجائر وما يشيعه في الوجه من حمرة ممضة . تجربة رائعة وفظيعة يخرج منها الضعفاء مردولين مهتوكي السر ، ويخرج منها الاقوياء أجلة عظاماً . بوتقة يقذف القدر فيها برجل من الرجال كلما رغب في ان يضع جرواً او نصف الة .

ذلك بأن معارك الحياة الصغيرة طافحة بالاعمال المجيدة . ان ثمة شجاعة عنيدة ، وان تكن غير ملحوظة ، تدافع عن نفسها وويداً في الظلام ، ضد الغزوات المهلكة التي تشنها ضرورات الحياة وخباثتها . انتصارات نبيلة خفية لا تراها عين ، ولا تكافئها شهرة ، ولا تحييها ابواق النصر . ان الحياة ، والتعاسة ، والتوحد ، والتخلي ، والفقر ساحات قتال لها أبطالها ؛ أبطال مغرورون هم في بعض الاحيان اعظم عظمة من الابطال المشاهير .

وهكذا تخلق طبائع وطيدة ونادرة . إن الشقاء ، وهو دائماً تقريباً امرأة اب ، قد يكون في بعض الاحيان أمماً . فالحرمان يولد قوة نفس والعقل . والشدة مرضعة احترام الذات . والشقاء لبن صالح لانشاء النفوس العظيمة .

وانقضت فترة في حياة ماريوس كنس فيها غرفته بنفسه ، واشترى

من بائعة الحُضَرِ والثَّارِ ما ثمنه فلس واحد من جِبْنِ « بُري » ، وانتظر فيها هبوط الليل ليتخذ سبيله الى الحِجاز فيشتري رغيفاً يحمله خلسة الى عليته وكأنه قد سرقه . وفي بعض الاحيان ، كان القوم يرون فتى ينسلّ - وسط الطاهيات الساخرات اللواتي كنّ يدفعنه بمرافقهن - الى دكان الجزار الذي في الزاوية ، فتى مرتبكاً متأبطاً بعض الكتب وقد بدت على وجهه صيا حية مروعة يدخل الى ذلك الدكان ، وينزع قبعته عن جبينه الناضح منه العرق ، وينحنى انحناءة يسيرة للجزار الدهش ، وانحناءة اخرى لصبي الجزار ، ويسأل عن قطعة من ضلع الضأن ، ويدفع ستة « سو » او سبعة « سو » ثمناً لها ، ويلقها في ورقة ، ويضعها تحت ذراعه بين كتابين ، ويمضي لسيله . كان ذلك الفتى هو ماريوس . وعلى تلك القطعة من ضلع الضأن ، التي كان يطبخها بنفسه ، كان يجيا ثلاثة أيام .

ففي اليوم الاول كان يأكل اللحم ، وفي اليوم الثاني كان يأكل الدهن ، وفي اليوم الثالث كان يقرض العظم .

وفي مناسبات عديدة كانت الحالة جيلنورمان تقوم ببعض المحاولات فتبعث اليه بالسّتين يستولاً . ولكن ماريوس كان يردّها اليها دائماً قائلاً انه في غير ما حاجة الى شيء .

وكان لا يزال في حداد على أبيه عندما اندلعت تلك الثورة في تحدثنا عنها وعصفت بعقله . ومن ذلك الحين لم يفارق الملابس السوداء قط . بيد ان ملابسه فارقت . فقد أطلّ عليه ، آخر الأمر ، يوم لم يبق لديه فيه ثوب ما . وبليّ بنظولونه ايضاً . فما الذي يستطيع ان يعمل ؟ وأعطاه كورفيراك ، وكان قد أسدى هو بدوره بعض الخدمات اليه ، بذلة عتيقة . ودفع ماريوس تلك البذلة الى احد البوابين ، فأعادها اليه جديدة مقابل ثلاثين « سو » . ولكن تلك البذلة كانت خضراء . وعندئذ لم يعد ماريوس يغادر مأواه الا بعد ان يهبط الليل . فكان ذلك يجعل بذلته سوداء . واذ كان يرغب دائماً في أن لا ينزع ثوب الحداد ، فقد خلع على جسمه قطعة

من الليل .

ومن خلال هذا شق سبيله الى صفوف المحامين . وكان الناس يحسبون انه يقطن غرفة كورفيراك النظيفة ، حيث كانت بضعة من كتب الحقوق ، تردفها وتتمها بضعة اخرى من الروايات الفريدة تؤلف المكتبة التي تقتضيها الانظمة . وكان يطلب الى الناس ان يوجهوا اليه رسائلهم على عنوان كورفيراك .

وحين أمسى ماريوس محامياً اعلم جده بذلك في رسالة باردة ولكنها حافلة بالخضوع والاحترام . وتلقى مسيو جيلنورمان تلك الرسالة بيدين راجفتين ، وقراها ، وطرحها بمزقة إرباً في سلة المهملات . وبعد يومين او ثلاثة ايام سمعت الانسة جيلنورمان أباه ، الذي كان خالياً الى نفسه في غرفته ، يتحدث في صوت عال . وأنصت . كان الرجل المعجوز يقول : « لو لم تكن أبله ، لعرفت ان المرء لا يستطيع ان يكون باروناً ومحامياً في آن معاً . »

٢

ماريوس فقيراً

والبؤس شأنه كشأن كل شيء آخر . إنه يمسي ، تدريجياً ، شيئاً محتملاً . إنه ينتهي الى ان يتخذ شكلاً ثابتاً . ان المرء ليحيا حياة بائسة مغمورة ، يعني انك تنمو على نحو مهزول ما ، ولكنه كافٍ للحياة . وهذا هو النحو الذي جرت عليه حياة ماريوس بوغيرمي :

كان قد غادر الموطن الاضيقي . لقد اتسعت الثغرة ، أمامه ، بعض الشيء . وبقوة الكدح ، والشجاعة ، والمثابرة ، والارادة وفقى الى ان يكسب من عمله نحو سبعة فرنك كل عام . كان قد تعلّم الالمانية

والانكليزية . وبفضل كورفيواك الذي قدمه الى صديقه الكُتبيّ ، نهض ماريوس ، في الدائرة الأدبية من تلك المكتبة ، بدور صفاو الممثلين المفيد . كان يُعدّ مراجعاتٍ للكتب ، ويترجم مقالات من الصحف ، ويعلق الحواشي على الطبعات الجديدة ، ويجمع سير الأعلام الخ . نتاجٌ صافي ثابت يبلغ ، سواء أخصّب العام أم أحل ، سبعة فرنك . لقد عاش على ذلك . لا بأس . كيف ؟ سوف نفصل القول في هذا .

لقد احتلّ ماريوس ، لقاء أجر سنوي مقداره ثلاثون فرنكاً ، غرفة حقيرة صغيرة من غير موقد ، غرفة يدعونها حُجيرةً ، لم يكن فيها من الاثاث غير الضروري الذي لا يتغنى عنه . وكان ذلك الاثاث ملكاً له . ولقد أعطى ثلاثة فرنكات شهرياً الى امرأة عجوز كانت تتولى امر العناية بالبناء لكي تكنس غرفته ، وتحمل اليه كل صباح قليلاً من الماء الحار وبيضة طازجة ورغيفاً من فلس واحد . وعلى هذا الرغيف وهذه البيضة كان يُفطر . وكانت نفقات فطوره تراوح ما بين فلسين واربعة فلوس تبعاً لرخص البيض أو غلاته . وفي الساعة السادسة مساء كان يحبط الى شارع سان جاك لكي يتعشى في مطعم روسو ، تجاه محلّ « باسيه » ، تاجر الصور المطبوعة على الخشب ، عند زاوية شارع الماتورين . ولم يكن يطعمُ حاء ما ، مجتزئاً بطبق من اللحم بستة فلوس ، ونصف طبق من الحضر بثلاثة فلوس ، وطبق من الفاكهة او الحلوى بثلاثة فلوس . وكان يقدم اليه ، بثلاثة فلوس ، اي مقدار من الحبز يشاء . اما خمره فكانت الماء . حتى اذا نهض ليلسد حسابه عند المنضدة ، حيث تجلس مدام روسو في عظمة ، وكانت ما تزال في تلك الحقبة بمدينة ناضرة البشرية ، أعطى النادل فلساً ، واعطته مدام روسو ابتسامة . لقد فاز ، مقابل ستة عشر فلساً بابتسامة وعشاء .

أما مطعم روسو هذا - حيث يُفرّغ قليل من القناني وكثير من

الاباريق - فكان مُسَكَّنًا أكثر منه مطعمًا . إنه لم يعد قائماً ، اليوم .
وكان لصاحبه لقب بديع ؛ كانوا يدعونه ووسو المائي .

وهكذا : فطور باربعة فلوس ، وعشاء بستة عشر فلساً . كان
طعامه يكلفه عشرين فلساً في اليوم ، يعني ثلاثئة وخمة ستين فرنكاً
في العام . أضاف الى هذا ، الثلاثين فرنكاً وهي اجرة غرفته ، والستة
والثلاثين فرنكاً وهي أجر المرأة العجوز ، وبعض النفقات الاخرى
الضئيلة نجد ان ماريوس كان يأكل ويبيت ويُخدم لقاء اربعمئة وخسين
فرنكاً . وكلفته بذلته مئة فرنك ، وملابسه الداخلية خمين فرنكاً ،
وغسل تلك الملابس خمين . وكذلك لم تتجاوز نفقاته كلها ستمئة
وخمين فرنكاً . وهذا ما ابقى له خمين فرنكاً . كان غنياً . وبين
الفينة والفينة كان يُعير صديقاً من أصدقائه عشرة فرنكات . وذات
مرة استعار كورفيراك ستين فرنكاً منه . أما التدفئة - ولم يكن في
غرفته موقد - فكان ماريوس قد « بسّطها » .

وكانت عند ماريوس دائماً بذلتان كاملتان ، احدهما عتيقة « للايام
جميعاً » ، والاخرى بالغة الجِدَّة ، للناسبات الخاصة . وكانت كلتاهما
سوداء . ولم يكن عنده غير ثلاثة قمصان ، احدها على بدنه ، والاخر
في الدرج ، والثالث عند الغسالة . وكان يجدّدها كلما بليت . وكانت
رثة في الاغلب ، وهكذا جرت عادته بأن يزور سترته حتى الذقن .
ولم يبلغ ماريوس هذه الحالة الزاهرة إلا بعد صبر دام سنوات طويلة .
سنوات شاقة ، عسيرة ؛ بعضها لكي يشق طريقه ، وبعضها لكي يصعد
في جدّ . ولم يعرف ماريوس اليأس يوماً واحداً . لقد تحمل كل شيء
في مجال الحرمان . ولقد حمل كل شيء ما خلا التردّي في الدين . لقد
تغدّح بهذه المأثرة ، وهي أنه لم يكن في يوم من الايام مديناً لأحد
بفلس واحد . فقد كان الدين ، في اعتقاده ، اول العبودية . بل لقد
استشعر ان الدائن شرٌّ من السيد . ذلك بأن السيّد لا يملك إلا

شخصك ، أما الدائن فيملك كرامتك ، وفي استطاعته أن يصفعها .
وبدلاً من أن يستدين ، كان يمتنع عن الطعام . لقد عرف أيام صوم
كثيرة . واذا أحسّ بأن جميع الأطراف القصوى تلتقي ، واننا اذا لم
تتخذ حذرنا فمن الجائز ان يؤدي انخفاض الحظ الى انحطاط النفس ،
فقد سهر في كثير من الغيرة على شهامته . كانت هذه العادة او تلك
المشبة وغيرهما (مما بدا له في جميع الاحوال الاخرى ناضجاً بالاحترام)
تبدو له راسخة بالاحتقار ، فهو ينأى بنفسه عنها . إنه لم يخاطر بشيء اذ
كان غير راغب في النكوص على عقبيه . كان يعلو وجهه ضرب صارم
من حمرة الحجل . فقد كان حياً حتى الفظاظة .

وفي جميع محله استشعر ان قوة خفية باطنية تشجعه بل وتحرقه
في بعض الاحيان . إن النفس تعين الجسد ، وفي بعض الاحيان ترفعه .
لأنها الطائر الوحيد الذي يحمل قفصه .

والى جانب اسم ابيه كان اسم آخر منقوشاً على قلب ماريوس ،
هو اسم تيناردييه . كان ماريوس ، بطبيعته الحماسية والجدية ، قد
طوّق بضرب من الهالة ذلك الرجل الذي كان مديناً له - كما توهم -
بحياة والده ، ذلك الرقيب الذي اتقذ الكولونيل وسط قذائف واترلو
وقنابلها . إنه لم يفصل في يوم من الايام ذكرى هذا الرجل عن ذكرى
أبيه ، ولقد كان يجمع ما بينهما في إجلاله . كان ذلك الاجلال ضرباً
من العبادة على درجتين ، فالمذبح الكبير للكولونيل ، والمذبح الصغير
لتيناردييه . وكان بما كثف عرفانه للجميل إدراكه أن تيناردييه قد
سقط في مهاوي الفاقة فكادت تبتلعه . فقد علم ماريوس من ابنائه
مونفيرماي بأفلاس الفندق التمس . ومنذ ذلك الحين وهو يبذل جهوداً
لم يُسمع بمثلاً لكي يتعقب أثره ، ويجاول العثور عليه في هوة البؤس
المظلمة التي اختفى فيها . وكان ماريوس قد جاب البلاد كلها من أجل
ذلك . لقد شخص الى شيل ، الى بوندي ، الى غورثاي ، الى نوجان ،

الى لاني . وطوال ثلاث سنوات وقف نفسه لهذا الغرض ، منفقاً في تنقيباته هذه كل ما وفره من مال ضئيل . بيد أنه لم يجد من يزوده بالمال نأ عن تيناردييه . لقد اعتقد القوم بأنه هاجر الى بلد أجنبي . وكان دائئوه قد مجشوا عنه ايضاً ، في حبّ أقل من حبّ ماريوس ، ولكن في عناد مثل عناده ، فلم يوفقوا الى وضع يدهم عليه . ولام ماريوس نفسه ، بل لقد كاد ييغضها ، لاختفائه في مباحثه . كان ذلك هو الدين الأوحده الذي تركه الكولونيل له ، واقد حسب ماريوس أن في دفعه شرفاً له وكرامة . وفكر في ما بينه وبين نفسه : « عجيب ! عندما كان والدي يلفظ أنفاسه الاخيرة في ساحة القتال عرف تيناردييه كيف يجده وسط الدخان وقذائف المدافع ويرجع به وقد حملة على منكبيه ، ومع ذلك فلم يكن مديناً له بشيء . في حين اني انا ، المدين لتيناردييه بشيء كثير ، أعجز عن الوصول اليه في تلك الظلمة التي يعاني وسطها مكبرات الموت ، وأعيده بدوري من الموت الى الحياة ! اوه ! سوف أجده ! ، والواقع ان ماريوس كان مستعداً لأن يقدم إحدى ذراعيه ثمناً للعثور على تيناردييه ، وأن يبذل دمه كله ثمناً لانقاذه من الشقاء . فلأن يرى تيناردييه ، ولأن يسدي خدمة ما الى تيناردييه ، ولأن يقول له : « انت لا تعرفني ، ولكنني اعرفك . ها أنا ذا ! اني نحت نصرحك ! » - ذلك كان اعذب أحلام ماريوس وأبهاها .

٣

ماريوس رجلاً

كان ماريوس قد بلغ ، في تلك الفترة ، العشرين من عمره . لقد انقضت ثلاث سنوات على فراقه جدّه . وكان كل منهما قد لزم موقفه ،

فلم يحاولوا إصلاح ذات البين ولم يسموا الى اللقاء . وما جدوى اللقاء ، في الواقع ؟ ألكي يتصادما ؟ ومن الذي سوف يستخلص حقه من الآخر ؟ لقد كان ماريوس زهرية من نحاس أصفر ، ولكن مسيو جيلنورمان كان إناءً من حديد .

ولنقل هنا إن ماريوس أخطأ في فهمه لقلب جدته . لقد تخيل أن مسيو جيلنورمان لم يحبه في يوم من الايام ، وأن هذا الرجل العجوز الجاف القاسي الضاحك الذي كان يحدف ، ويصيح ، ويعصف ، ويرفع عصاه لم يكن يستشعر نحوه على الكثير غير تلك المودة الحقة الصارمة معاً ، التي يتكشف عنها عجائز الكوميديا . لقد خدع ماريوس . إن ثمة آباء لا يحبون اولادهم . ولكن ليس ثمة جد لا يهيم بحفيده . والحق انا قلنا من قبل إن مسيو جيلنورمان كان يعبد ماريوس . لقد عبده بطريقته الخاصة ، على انغام الكلام اللاذع ، بل على انغام الصفعات . ولكن ما إن ذهب الفلام حتى احس بفراغ أسود في فؤاده . لقد أصدر أمره بأن لا يحدثه احدٌ حديثه منذ اليوم ، آسفاً في ما بينه وبين نفسه لأن يكون أمره قد أطبع على هذا النحو الدقيق . وفي هادي الأمر ، كان يرجو أن ينكص هذا البؤس البؤس ، هذا اليعقوبي ، هذا الارهابي ، هذا الأيلولي* ، على عقبه . ولكن الاسابيع انقضت ، والاشهر تصرمت ، والسنين حالت ، من غير ان يعود شارب الدماء - وبا لبأس مسيو جيلنورمان ! - الى الخطيرة . « ولكني ما كنت قادراً على أن أفعل شيئاً غير طرده . » كذلك قال الجد بينه وبين نفسه ، ثم تساءل : « لو ان ذلك الحادث قد تكرر فهل أعاود الاقدام على ما أقدمت عليه ؟ » وعلى الفور ، أجابت كبرياؤه أن نعم ، ولكن رأسه العجوز الذي هزه في صمت اجاب في حزن ان لا . كانت له

* الابلوليون Septembriseurs هم الذين شاركوا في المذبحة التي ذهب ضحيتها المستقلون السياسيون في سجون باريس من ٢ - ٦ ايلول عام ١٧٩٢ .

ساعات خَوَرِهِ . وافترق ماريوس . فالعجائز يحتاجون الى المودّات حاجتهم الى أشعة الشمس . إنها دفء . وبرغم الصلابة التي تميزت بها طبيعته ، كان غياب ماريوس قد غير شيئاً في ذات نفسه . وما كان خليقاً به ان يخطو خطوة واحدة نحو « الوغد الصغير » بأي ثمن ؛ ولكنه تألم . ولم يستطلع نبأه قط ، ولكنه فكر فيه تفكيراً موصولاً . كان يسكن ، معتزلاً المجتمع اكثر فأكثر ، في الد « ماريه » . وكان لا يزال ، شأنه من قبل ، مرحاً عفيفاً ، ولكن مرحه كان يتسم بقساوة متشعبة فكأنها تنطوي على وجع وغضب ، وانفجارات عنفه كانت تنتهي دائماً بضرب من الضنى العذب القاتم . كان يقول في بعض الاحيان : « أوه ، ايّ صفة سوف أصفّعه لو قدّر له ان يعود ! » اما الحالة فكان تفكيرها أندر من ان يحملها تحب حباً جماً . إن ماريوس لم يعد عندها غير ضرب من الصورة المظلمة أسود غامض ؛ ولقد انتهت آخر الأمر الى ان تشغل نفسها به اقل بكثير مما شغلتها بالهرة أو بالبيغاء التي كانت عندها في اغلب الظن .

وكان بما ضاعف الآلام الخفية التي عاناها جيلنورمان الأب أنه احتبس تلك الآلام في ذات نفسه ولم يدع ابنته تشعر بشيء من ذلك . كان فمه مثل تلك الافران المتحرّعة حديثاً والتي « تحرق دخانها » . وقد يتفق احياناً ان يحدثه بعض الاشخاص ، النزّاعين الى الخير المعترّضين للبلايا ، حديث ماريوس ويسأله قائلًا : « ايّ شيء يفعله حفيدك ؟ » أو « ما الذي حلّ بحفيدك ؟ » فيجيبه البورجوازي المعجوز ، وهو يتنهد ، اذا كان محزوناً اكثر مما ينبغي ، أو وهو يخفق بسببائه الحليّة التي توتّر طرف رُودن قميصه ، اذا كان يبتغي ان يبدو مبتهجاً : « إن السيد البارون بوغيرمي يترافع في بعض القضايا الحظيرة في زاوية من الزوايا . »

وفيا المعجوز بأسف ، كان ماريوس يتهلل . لقد محّا الشقاء ، شأنه

مع ذوي القلوب الطيبة ، كربة ومرارته . كان لا يفكر في مسير جيلنورمان إلا في دماثة ، ولكنه كان قد وطن العزم على ان لا يتلقى شيئاً اضافياً من الرجل الذي كان شديد القسوة على أبيه . كان ذلك ، الآن ، هو التعبير الملطف لسخطه القديم . وإلى هذا ، فقد كان سعيداً بأنه قاسى الآلام ، وبأنه ما يزال يقاسيها . كان ذلك من اجل أبيه . لقد أرضته قوة الحياة ، ولقد مرتته . كان يقول لنفسه في ضرب من البهجة ان هذا أقل ما ينبغي له ، وان ذلك كان تكفيراً ، وأنه لولا هذا اذن لعوقب على نحو آخر وفي موعد آجل بسبب من لا مبالاته الملعدة بأبيه ، واميّ أب ! وانه ليس من العدل ان يكون ابوه قد قاسى تلك الآلام كلها وان لا يتحمل هو ألماً ما ، وعلى اية حال فما جهوده وما إملاقه اذا قيسا بحياة الكولونيل البطولية ؟ وإن وسيلته الوحيدة للاقتراب من والده والتشبّه به هي ان يكون بأسلاً في وجه العوز كما كان هو شجاعاً في وجه العدو ؛ وإن ذلك كان ما عناء الكولونيل ، من غير شك ، بقوله : « ولسوف يكون جديراً به » . كلمات كان ماريوس ما يفناً يحملها ، لا فوق صدره ، بعد ان اختفت وصية الكولونيل ، ولكن في فؤاده .

وفوق هذا ، فقد كان مجرد طفل حين طرده جده ، اما الآن فقد أمسى رجلاً . لقد احسّ بذلك . لقد اسدى اليه البؤس - وينبغي ان نصرّ على هذا - خدمةً صالحة . فللفاقه في الشباب - حين ينجح - هذه الحاسة الرائعة ، وهي ان توجه الارادة كلها نحو العمل ، والنفس كلها نحو السمو . إن الفقر يعرّي الحياة المادية في الحال ، ويجعلها بشعة ، ومن هنا تنشأ ضروب من التوق الى الحياة المثالية لا سبيل الى التعبير عنها . إن للفني مئة من التسليّات المشرقة والفظّة : سباق الخيل ، والقنص ، والكلاب ، والتبغ ، والقمار ، والمآدب ، وأضرابها ؛ شغلّ للاجزاء الدنيا من النفس على حساب الاجزاء الرفيعة الرقيقة . إن

على الشاب الفقير ان يعمل كسباً لحبزه . إنه يأكل . حتى اذا أكل لم يبقَ له غير الاستغراق في التفكير الحالم . إنه يشهد ، بالبحان ، المسرحية التي يقدمها الله . إنه يتأمل السماء ، والمدى ، والنجوم ، والازهار ، والاطفال ، والانسانية التي يتألم فيها ، والخلقة التي يتألق فيها . إنه يسرف في النظر الى الانسانية حتى ليرى الروح ، وإنه يسرف في النظر الى الخلقة حتى ليرى الله . هو يحلم ؛ هو يشعر بأنه عظيم ؛ وهو يحلم كرة أخرى ؛ وهو يشعر بأنه رقيق القلب . ومن أنانية الرجل الذي يتألم ، ينتقل الى حناث الرجل الذي يتألم ، إن عاطفة رائعة لتتفجر في ذات نفسه : نسيان النفس ، والرحمة للجميع . إنه اذ يفكر في المسمّات غير المحدودة التي تقدمها الطبيعة وتمنحها وتسفوها للنفوس المنفتحة وتأبأها على النفوس المغلقة ينتهي - هو ، مليونير الذكاء - الى ان يرثي للمليونيرى المال . ويفارق البفض كله فؤاده بقدر ما يتسرّب النور كله الى عقله . وبعد ، أهو تمس ؟ لا . إن بؤس شاب من الشبان ليس بانساً ابداً . إن اول فتى تقع عليه عينك ، مهما يكن فقيراً ، خليق بأن يثير - بصحته ، وقوته ، وخطوته الرشيقة ، وعينه اللامعتين ، ودمه الذي يجري حاراً ، وغداؤه السوداء ، ووجنيه النضرتين ، وشفتيه الورديتين ، واسنانه البيضاء ، ونفسه الطاهر - حَسَدَ الاباطرة العجائز دائماً . ثم إنه ينطلق كل صباح سعياً وراء الحبز ؛ وفيما تكسب يدها الرغيف يكسب عموده الفقري شهامة ، ويكسب دماغه افكاراً . حتى اذا أتم عمله ، انقلب الى النشوات الروحية التي تمتنع على التصوير ، الى التأمل ، الى الجذل . إنه يرى قدميه في المصاعب ، في العقبات ، على بلاط الشارع ، في العُلّيق ، وأحياناً في الوحل ؛ ويرى رأسه في النور . إنه مكين ، بشوش ، رقيق الحاشية ، سهل الخلقة ، يقظ ، رصين ، يقنع بالقليل ، عار القلب بالعطف . وهو يحمد الله لأنه منحه هذين الكنزين اللذين يُغوزان كثيراً

من الاغنياء : العمل ، الذي 'يُسَبِّغُ عليه الحرية ؛ والفكر ، الذي 'يُلبسه رداء النبل .

ذلك ما جرى في ذات نفس ماريوس . بل لقد ذهب - اذا اردنا ان نقول كل شيء - الى أبعد ، قليلاً ، مما ينبغي ، في حقل التأمل . فما إن بلغ المرحلة التي اطمأن فيها ، او كاد ، الى كسب رزقه ، حتى وقف هناك ، 'مؤثراً ان يكون فقيراً ، مقتصداً في العمل لكي ينصرف الى التفكير . يعني أنه كان ينفق احياناً اياماً بكاملها في التفكير ، غارقاً مثل اصحاب الرؤى والاحلام في المباحج الخرساء التي تتيحها النشوة الروحية والسنى الباطني . كان قد طرح مشكلة حياته على هذا النحو : أن يعمل أقلّ قدرٍ مستطاع في ميدان العمل الملموس ، ليعمل اكبر قدر مستطاع في ميدان العمل غير الملموس . وبكلمة اخرى أن يعطي الحياة الواقعية بضع ساعات ويقذف بسايرها الى اللانهاية . إنه لم يفتن - وقد حسب أن شيئاً ما لا يُعوّزه - الى أن التأمل الذي يفهم المرء على هذا النحو ينتهي الى ان يصبح شكلاً من أشكال الكسل ، ولم يدرك انه كان قانعاً بقهْر ضرورات الحياة الأولية ، وأنه كان يستريح بأبكر مما ينبغي .

* كان واضحاً ان هذا لا يمكن ان يكون - بالنسبة الى طبيعته الهامة النجيبة - غير حالة عابرة ، وان ماريوس سوف يستيقظ عند أول اصطدام بتعقيدات القدر التي لا مفرّ منها .

وفي غضون ذلك ، وبرغم كونه محامياً ، وآياً ما كانت الافكار التي راودت جيلنورمان الجدة ، فانه لم يكن يترافع ، بل لم يكن يتولى الدفاع في بعض القضايا الحفيرة . كان الاستغراق في التأمل قد صرفه عن القانون . كان الاختلاط بالمحامين ، والتروّد الى قصر العدل ، وتصيد القضايا ، شيئاً يبعث على الضجر . وما حاجته الى ذلك ؟ إنه لم يرَ سبباً يدعو الى تغيير مرتزقه . فقد قدّمت اليه تجارة

الكتب هذه ، الرخيصة ' الحاملة ' ، عملاً أكيداً ، عملاً لا يقتضيه غير قليل من الجهد كان يكفي ، كما شرحنا من قبل .

وكان احد الكتّيبين الذين عمل في خدمتهم ، وهو مسيو ماجيميل في ما أعتقد ، قد عرض عليه ان يُنزله في بيته ، ويقدم اليه غرفة جيدة ، ويزوّده بعمل نظامي ، ويدفع اليه ألفاً وخمسة فرنك كل عام . أن تكون له غرفة جيدة ؟ ألف وخمسة فرنك ! حسن جداً ! ولكن أيتخلى عن حريته ؟ أصبح شبه موظف يعمل من اجل الراتب ؟ ضرباً من الأديب المستخدّم في مكتب ؟ كانت قبول ذلك ، في نظر ماريوس ، يحسّن وضعه ويجعله اسوأ في آن معاً . كان خليقاً بأن يُكسبه شيئاً من الرفاهية ، وبأن يُفقد شيئاً من الكرامة . لقد كان يقتضيه ان يتخلى عن شقاء كامل عذب في سبيل عُسرٍ بشعٍ مضحك . إنه شيء أشبه بالأعشى يفوز بعين واحدة . ورفض .

وعاش ماريوس في عزلة . وكان قد قرّر ان لا يدخل الجماعة التي يرئسها آنجولراس ، وذلك بسبب من نزعة الى الابتعاد عن كل شيء ، وبسبب من غلو تلك الجماعة وتطرفها . لقد ظلّ صديقين مخلصين . وكانا مستعدين لأن يساعد احدهما الآخر ، اذا قضت الحاجة ، بمختلف الطرق الممكنة ، ولكن ليس أكثر من ذلك . كان لماريوس صديقان ، شاب هو كورفيراك ، وعجوز هو مسيو مابوف ، وكان أميل الى الصديق العجوز . كان قبل كل شيء مديناً له بالثورة التي اندلعت في نفسه ؛ كان مديناً له بمعرفته أباه وحبّه له . وكان يقول : « لقد أجورى لي جواحة ظلام العدسة البلورية . »

حقاً ، لقد كان وكيل الكنيسة هذا حامماً .

بيد ان مسيو مابوف لم يكن في تلك المناسبة شيئاً أكثر من رسول هادي ، مطواع من رسل العناية الالهية . كان قد نورّ ماريوس مصادفةً ومن غير ان يكون له بذلك علم ، كما تفعل شمعة يحملها شخص

ما . لقد كان هو تلك الشعة لا ذلك الشخص .
 أما ثورة ماريوس السياسية الباطنية فقد كان مسيو مابوف عاجزاً كل
 العجز عن فهمها ، أو الرغبة فيها ، أو توجيهها .
 واذ كنا سنلتقي مسيو مابوف في ما بعد ، فإن من المفيد ان نقول
 بضع كلمات فيه .

٤

مسيو مابوف

يوم قال مسيو مابوف لماريوس : « أنا اقروا اعتناق الآراء السياسية
 من غير شك » كان يعبر عن وضعه الفكري الحقيقي . كانت جميع
 الآراء السياسية سواءً عنده ، وكان يقرها جميعاً من غير تمييز ، شرط ان
 لا تعكر عليه هدوءه ، كما كان الاغريق يدعون آلهة الجحيم « الحسان ،
 الحيرات ، الفاتنات » ، * Les Euménides . كان رأي مسيو مابوف السياسي
 يتلخص بالهيام بالنباتات ، وبالهيام على نحو أخص بالكتب . كان له شأن
 سائر الناس ياه نسبتِه الدالة على المذهبية ، والتي ما كان في ميسور أحد
 ان يحيا بدونها في تلك الايام . ولكنه لم يكن لا ملكياً ، ولا بوناوتياً ،
 ولا دستورياً ، ولا اورليانياً ** ولا فوضوياً . كان كتيباً متاجراً
 بالكتب القديمة .

انه لم يفهم كيف يشغل الناس انفسهم بالتباغض من اجل اشياء باطلة
 مثل الدستور ، والديموقراطية ، والشرعية ، والملكية ، والجمهورية الخ . في

* وتعني المطوفات اللطافات ، وهو اسم الثيمن الذي كان الاغريق يخلعون على آلهة
 الجحيم (Erinyes او Furies)

** نسبة الى دوق اورليان (١٨١٠ - ١٨٤٢) ابن لويس فيليب .

حين يحفل هذا العالم بمختلف ضروب الطحالب ، والاعشاب ، والشجيرات التي يستطيعون النظر اليها ، وبركام من الكتب من قطع نصف الطلحية بل ومن قطع واحد على اثنين وثلاثين من الطلحية يستطيعون تصفُّحها . ولقد بذل عناية كبيرة لكي لا يكون قليل الغناء . إن امتلاكه الكتب لم يمنعه من المطالعة ، وان كونه عالماً بالنبات لم يمنعه من ان يكون بستانياً . وحين عرف بونيرسي ، نشأت بينه وبين الكولونيل هذه المشاركة الوجدانية وهي ان ما فعله الكولونيل من اجل الازهار ، فعله هو من أجل الاثمار . وكان مسيو مابوف قد وُفق الى إنتاج إحصاء يُزَرَع بذراً لا يقلّ نكهة عن إحصاء سان جيرمان . وانما ندين لأحدى تركيباته ، في ما يظهر ، بنحوخ او كتوبر الصغير الاصفر ، الذي أمسى اليوم شهيراً ، والذي لا يقل عطرية عن نظيره من خوخ الصيف . وكان يشهد القداس بدافع من الدماعة اكثر مما كان يشهد بدافع من العبادة ، ولأنه كان يحبّ محبة الرجال ولكنه يكره صخبهم ، وما كان ليحدم مجتمعين صامتين الا في الكنيسة . وإذا كان يشعر أن عليه أن يكون شيئاً في الدولة فقد اختار وظيفة وكيل كنيسة . وأخيراً فإنه لم يوفق قط الى ان يحب أياً امرأة حباً لبصلة من بصلات الحزامي ، أو أياً رجل حباً لكتاب من مطبوعات أسرة « ايلزيفير » . * وكان قد تجاوز سنه الثين منذ فترة غير قصيرة عندما سأله شخص ما ، ذات يوم : « ألم تتزوج قط ؟ » فأجابته : « لقد نسيت ! » وحين يتفق له في بعض الاحيان - ومن ذا الذي لا يتفق له ذلك ؟ - أن يقول : « اوه ، لو كنت غنياً ! » فإنه ما كان ليقولها وهو ينظر من طرف خفي الى فتاة حسنة ، مثل مسيو

* Elzévir أسرة شهيرة من الطابعين امتدت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في لايدن ، ولاهاي ، واورخت ، وآمستردام . وكان اقدم المرادها لويس ايلزيفير . وكانت مطبوعاتها تتميز بأحرفها النحيلة .

جيانورمان ، ولكن لدن رؤيته كتاباً قديماً . لقد عاش وحده ، مع مربية عجوز . كان مصاباً بنقرس الايدي بعض الشيء ، حتى اذا نام تشبّثت اصابعه الهرمة ، المتصلبة بالروماتزم ، بنباتات الشرسف . وكانت قد ألف ونشر « نباتات ضواحي كوتيفريتز » المزين بالرسوم الملونة ، وهو مصنف جليل كان يحتفظ بالواحه النحاسية ، وكان يبيعه بنفسه . وكان الناس يقبلون مرتين أو ثلاث مرات في اليوم فيقرعون جرسه ، في شارع ميزيير ، التماساً لذلك الكتاب . وكان يجني من ورائه الفي فرنك كاملة كل عام ، وكان ذلك كل دخله تقريباً . وبرغم فقره ، وفق الى ان يلم - بالصبر ، والحرمان ، والوقت - شتات مجموعة نفيسة من النسخ النادرة ، في كل موضوع . انه لم يغادر منزله قط ، يوماً ، إلا وهو متأبط كتاباً ، وكثيراً ما كان ينقلب اليه حاملاً كتابين . وكان الزخرف الوحيد الذي يزين غرف الدور الارضي ذات الحديقة الصغيرة التي تؤلف بيته ، بعض مجموعات النباتات المؤطرة * المحفوظة للدرس ، وبعض النقوش من عمل الفنانين القدماء . كان مشهد سيف ما ، او بندقية ما ، يوقع الشعريرة في جسه . فطوال حياته ، لم يقف قرب مدفع ما ، حتى في الانقلابيد . كان له معدة لا بأس بها ، وأخ كاهن ، وشعر اُشيب كلّه ، ولم يكن قد بقي من اسنانه شيء ، لا في فمه ولا في عقله ؛ وكانت له ارتعاشة تلف جسده كله ، ولهجة بيكاردية ، وضحكة طفلية ، وأعصاب واهنة ، وسياه خروف عجوز . ومع هذا كله ، لم يكن له اي صديق أو صاحب حميم بين الأحياء غير كتيّ عجوز في شارع « دو لا بورت سان جاك » ، يدعى رويول . كان حلم حياته أن يجعل العِظْلِم ** نباتاً وطنياً في فرنسا .

* الحاطة بأطر .

** العظلم : نبات « النيل » الذي يتخرج منه الصبغ الازرق المعروف بهذا الاسم .

وكانت خادمتها هي الاخرى ، ضرباً مخصوصاً من البراءة . كانت تلك العجوز الفقيرة الصالحة عذراء . وكان هرها ، «سلطان» ، الذي كان قادراً على ان يموء بزمور آليغري * في كنيسة سبستين ، قد ملأ فؤادها وسدّ حاجة ذلك القدر الذي كانت تملكه من العاطفة . إن اياً من أحلامها لم يذهب بها الى تخوم رجل ما . وهي لم تجتز في يوم من الايام حدود هرها ذاك . لقد كان لها ، مثله ، شاربان . وكان يجدها في قلائسها ، الناصعة البياض دائماً . وكانت تنفق وقتها يوم الاحد بعد القداس ، في عدّ ملابسها الداخلية في صندوق امتعتها ، وفي نشر فساتينها التي ما تزال قطع قماش ، تلك الفساتين التي اشترتها ولكنها لم تخطها قط . كانت تعرف القراءة . وكان مسيو مابوف قد اطلق عليها امم الأم بلوتارك **

ووقع ماريوس موقفاً حسناً عند مسيو مابوف ، لأن ماريوس ، الغضّ الاهاب العذب الروح ، أسغ الدفء على شيخوخته من غير أن 'يحفل' خوفه . إن الشباب ، مصحوباً بالعذوبة ، ليختلف في نفوس الشيوخ مثل أثر اشعة الشمس من غير رباح . وحين أشبع ماريوس بالجهد العسكري ، بالبارود ، وبزحف الجيوش ، وبزحفها في اتجاه معاكس لاتجاهها السابق ، وبجميع تلك المعارك الأعجوبية التي أعطى فيها أبوه وتلقى ضربات سيف ضخمة جداً ، ذهب ليرى مسيو مابوف ، فعدّته مسيو مابوف عن البطل من وجهة النظر الراحينية .

وحوالى عام ١٨٣٠ ، توفي اخوه الكاهن . وبعد ذلك مباشرة تقريباً ، كالذي يقع عندما يهبط الليل ، أظلم أفق مسيو مابوف كله . لقد خسر ، بأفلاس كاتب من الكتاب العدول ، عشرة آلاف فرنك

* Allegri مؤلف موسيقي ايطالي (١٥٨٢ - ١٦٥٢) وضع لحناً مزموياً شهيراً .
 ** بلوتارك هو المؤرخ الاغريقي الكبير صاحب كتاب « سير مشاهير اليونان ورومة » .

كانت كل ما يملكه من مال باسم اخيه وباسمه . وأدت ثورة تموز * الى أزمة في بيع الكتب . ففي أيام الحرج يصيب الكساد ، اول ما يصيب ، الكتب الخاصة بنباتات بلد من البلدان . وتوقف رواج « نباتات ضواحي كوتيرتيز » فجأة . فتصرمت أسابيع من غير أن يفد من يشتريه . وفي بعض الاحيان كان مسيو مابوف يشب طرباً عند سماعه رنين الجرس ، فتقول له الأم بلوتارك ، محزونة : « إنه السقاء . » وبالاختصار ، فقد غادر مسيو مابوف شارع ميزير ذات يوم ، وتخلّى عن مهام وكيل الكنيسة ، وهجر سان سوليس ، وباع جزءاً - لا من كتبه ، ولكن من صور المطبوعة على الخشب ، وكان اقل تعلقاً بها منه بمجموعة كتبه - وأقام في بيت صغير بجادة مونبارناس ، حيث استقر ثلاثة اشهر ليس غير ، لسببين اثنين : أولهما أن الدور الارضي والحديقة كلفاه ثلاثة فرنك وما كان يجرؤ على ان يدفع اكثر من مثلي فرنك أجراً لمنزله . وثانيهما أنه ، وقد نزل على مقربة من مرمى النار المعروف بمرسى « فاتو » ، كان يسمع طوال النهار طلقات المسدسات ، وهو امر لم يكن في وسعه ان يحتمله .

وحمل مصنفه النباتي ، والواحه النحاسية ، ومجموعاته النباتية المحفوظة للدرس ، ومحافظه ، وكتبه ، واستقر قرب ال « سالييتريو » في شبه كوخ بقرية اوستوليتز حيث استأجر ثلاث غرف ، وحديقة مطوقة بسياج من النبات الشائك ، وبثراً ، لقاء خمسين ريالاً في العام . ولقد أفاد من هذه النقلة فباع اثاثه كله تقريباً . ويوم دخل الى هذا المأوى الجديد استشعر ابتهاجاً بالغاً ، وراح يدق المسامير بنفسه ليعلق عليها النقوش والمجموعات النباتية المحفوظة . وأنفق بقية النهار في حفر حديقته ، حتى اذا هبط الليل ورأى انطباعة قائمة متفكرة ترين على وجه الأم بلوتارك ، ربت على

** هي الثورة التي أطاحت بشارل العاشر (تموز ١٨٣٠) ورفعت لويس فيليب الى عرش فرنسا .

كتفها وقال وهو يتسم : « آه ، إن عندنا نبات النيل ! »
كان زائران اثنان ليس غير ، كشي^٤ « لا بورت سان جاك » وماريوس ،
يُستقبلان في كورخه بأوسترلitz ، وهو اممٌ صاحبٌ كان - اذا اردنا ان
نقول الحقيقة - بغيضاً جداً الى نفسه .

بيد ان العقول المستفرقة في الحكمة ، او في الحماقة ، أو في الحكمة
والحماقة في آن معاً كما يتفق في كثير من الاحيان ، لا تنفذ اليها شؤون
الحياة ، كما اشترنا من قبل ، الا نفاذاً بطيئاً . ان قدرها بعيد عنها . وانما
ينشأ عن هذا التركيز العقلي انفعالية خليقة بها ، اذا كانت قياسية ، ان
تشبه الفلسفة . إننا نتعرف ، إننا نهبط ، إننا نسقط ، بل اننا ننهار ، ولا
نلاحظ ذلك الا بشق النفس . صحيح ان هذا ينتهي دائماً ، بيقظة ،
ولكنها بيقظة متأخرة . وفي غضون ذلك يبدو وكأننا نقف موقفاً عادياً
من تلك المباراة الجارية ما بين سعادتنا وشقائنا . ان مصيرنا نحن لمرهون
بتلك المعركة ، ومع ذلك فنحن نتابع وقائعها في لا مبالاة .

وهكذا احتفظ مسيو مابوف بطلاقة وجهه ، على نحو طفلي بعض
الشيء ، ولكن في كثير من النفاذ ، وسط هذه الظلمة التي كانت تتجمع
حوله ، وقد انطفأت آماله أملاً بعد أمل . لقد عرفت عاداته العقلية مثل
ذبذبة رقاص الساعة ، الدائمة . انه وقد عيى بالوم مرة ظل منطلقاً فترة
طويلة حتى بعد ان زايله ذلك الوم . فالساعة لا تقف فجأة لحظة
نضيع المفتاح .

وكانت لمسيو مابوف بعض المباهج البريئة . وكانت تلك المباهج رخيصة
وغير مرتقبة ، اذ كانت اقل^٥ المصادفات تتيحها له . فذات يوم ، كانت الأم
بلوتارك تقرأ رواية في زاوية الغرفة ، وكانت تقرأ بصوت مرتفع واجدة
ان ذلك يساعدها على حسن الفهم . إن قراءة المرء بصوت مرتفع تؤكد
له ما يقرأه . وثمة أناس يقرأون بصوت مرتفع جداً ، وقد بدت على
بحيام سببا من يقسم لنفسه بين الشرف على صحة ما يقرأه .

بمثل تلك الطاقة كانت الأم بلوتارك تقرأ الرواية التي امكت بها
بيدها . وسمع مسيو مابوف ، ولكنه لم يصغ .
وفيا هي تقرأ انتهت الأم بلوتارك الى هذه العبارة . كانت تتحدث
عن ضابط في سلاح التناين وإحدى الحسان :
- « إن الحساء قد أبدت استياءها *bouda* وإن التنين ... »
وكفت هنا عن التلاوة لكي تسمع نظارتها .
فقال مسيو مابوف في صوت كالمس :
- « بوذا (*Bouddha*) والثنين . اجل ، هذا صحيح . لقد كانت
هناك تنين أطلق شدقه اللهب ، من اعماق غاره ، فأضرم النار في السماء .
ولقد احترقت عدة نجوم ، بسبب من هذا الوحش الذي كانت له برائن
نَمِيرٍ ايضاً . فما كان من بوذا إلا ان مضى الى الغار ، ووفتق الى هداية
الثنين . إن هذا الكتاب الذي تقرأينه ، ايها الأم بلوتارك ، كتاب جيد .
ليس ثمة اسطورة اجل من هذه الاسطورة . »
واستغرق مسيو مابوف في تفكير حالم عذب .

٥

الفقر ، جار طيب للشقاء

ومالت نفس ماريوس الى هذا العجوز الابيض القلب ، الذي راي
الى العوز يستبد به شيئاً بعد شيء ، والذي انتهى الى ان يأخذه
الدهش لذلك شيئاً بعد شيء ، ولكن من غير ان يلم به الحزن على
الاطلاق . وكان ماريوس يلتقي كورفيراك ويمضيان لزيارة مسيو مابوف .
بيد أن هذه الزيارات كانت نادرة جداً . مرة او مرتين ، كل شهر ،
على الأكثر .

وكان يبهج قلب ماريوس ان يتمشى وحده مسافات طويلة ، في الجادات الخارجية ، او في الـ « شان دو مارس » ، أو في ممرات اللوكسومبورغ الضيقة التي كان الناس قليلاً ما يسلكونها . وكان ينفق ، في بعض الاحيان ، نصف نهار ناظراً الى بستان خضر ، والى المربعات المزروعة بالنباتات التي 'تعمل' منها السلطة ، والى الدجاج فوق المزابيل ، والى الحصان يدير دولاب الناعورة . وكان عابرو السبيل ينظرون اليه في دهش ؛ وظن بعضهم أن له مظهرأ مريباً وسياء مشؤومة . إنه لم يكن غير شاب فقير ، يحلم من غير ما مأرب .

وفي احدى تزهاته هذه ، اكتشف بيت غوربو العتيق . وإذا جذبه انغزال ذلك البيت ورخصه ، فقد استأجر غرفةً من غرفه . وعرفه القوم هناك باسم مسيو ماريوس ليس غير .

ودعا بعض الجنرالات المتقاعدين وبعض رفاق ابيه القدماء ، حين عرفوه ، الى زيارتهم . ولم يرفض ماريوس الدعوة قط . كانت تلك مناسبات للكلام عن ابيه . وهكذا كان يزور بين الفينة والفينة الكونت باجول ، والجنرال بيلافين ، والجنرال فريريون في الأنفاليد . وهناك كانوا يعزفون الموسيقى ، وهناك كانوا يرقصون . وفي تلك الامسيات كان ماريوس يرتدي بذلته الجديدة . ولكنه ما كان يقصد لا الى تلك السهرات ولا الى تلك الحفلات الراقصة إلا حين بصيب الارض صقيع شديد ، اذ لم يكن قادراً على ان يدفع أجر عربة ما ، وكان عظيم الرغبة في ان يصل وحذاؤه لامع كالمرآة .

وكان يقول في بعض الاحيان ، ولكن من غير اكتئاب :

— « لقد رُكِّب الرجال على نحو يميز لهم ان يكونوا في صالون من الصالونات ، ملوثين بالطين كل التلوث ، ولكن لا يميز لاحذيتهم ان تكون ملوثة . انهم لا يسألونك هناك ، لكي يحسنوا استقبالك ، غير شيء واحد ينبغي ان يكون خلواً من العيب . أهو الضير ؟ لا . الحذاء ! »

وجميع الاهواء ، ما عدا هوى الفؤاد ، تنقشع في التفكير الحالم . لقد انحصرت مُحَيَّات ماريوس السياسية . وكان في ثورة ١٨٣٠ التي أرضتها وهدأتها ما ساعد على ذلك . لقد ظل هو هو ، باستثناء اندفاعه وانفعاليته ؛ وظلت آراؤه هي هي ، ولكنها كانت قد لَطَّفت . وبكلمة أدق ، انه لم يعد صاحب آراء ؛ لقد أمسى صاحب مشاركات وجدانية . الى أي حزب كان ينتمي ؟ الى حزب الانسانية . ومن بين الانسانية اختار فرنة ، ومن بين الدولة اختار الشعب ، ومن بين الشعب اختار المرأة . فاليها قبل كل شيء انصرفت شففته . لقد غدا الان ، يؤثر الفكرة على الواقعة ، والشاعر على البطْل ؛ وأعجب بكتاب مثل سفر ايوب اكثر من اعجابه بمحدث مثل مارانغو . وفوق هذا ، فعين كان يرجع مساءً - بعد يوم من التأمل - مجتازاً الجادات ، ويرى من خلال اغصان الاشجار المدى الذي لا يُسبر غوره ، والانوار التي لا اسم لها ، والاحماق ، والظلمات ، وامرار الكون ، كان كل ما هو بشريّ يبدو صغيراً جداً في عينه .

وظنّ ماريوس انه وصل - ولعله ان يكرن قد وصل فعلاً - الى جوهر الحياة والفلسفة الانسانية . وانتهى آخر الامر الى ان لا ينظر بعد ، الا نادراً ، الى غير السماء ، وهي الشيء الوحيد الذي تستطيع الحقيقة ان تراه من اعماق بئرها .

ولم يمنعه ذلك من مضاعفة الخطط ، والتدابير ، والاستعدادات ، والتصاميم الموضوعية للمستقبل . ولو ان عيناً استطاعت ان تنظر ، في هذه الحالة من التفكير الحالم ، الى مريوة ماريوس اذن لبهرها صفاء تلك النفس . والواقع انه لو قدر لاعيننا التي من لحم ودم ان تنفذ الى ضمائر الناس لكان في ميسورتنا ان نحكم على المرء من خلال ما يحلم به بأوثق جداً مما نحكم عليه من خلال ما يفكر فيه . ان في الفكرة ارادة ، اما في الحلم فليس من ارادة البتة . والحلم الذي هو تلقائيّ كلّهُ ، يتخذ ويحفظ - حتى في العظيم والمثل الاعلى - صورة عقلنا . ان شيئاً ما ، لا ينبثق من اعماق

نفوسنا على نحو أكثر مباشرة وأشدّ إخلاصاً ، من اشواقنا التي لم نفكر بها والتي لا حد لها الى أنجاد القدر . في هذه الاشواق نستطيع ان نجد شخصية الانسان - كل انسان - الحقيقة أكثر جداً مما نجدها في الافكار المركّبة ، القياسية ، المتسقة . ان أوهامنا هي أكثر الاشياء شبيهاً بنا . وكل امرئ يحلم بالمجهول وبالمستحيل وفقاً لطبيعته .

وحوالى منتصف تلك السنة ، ١٨٣١ ، علم ماريوس من المعجوز التي نخدمه أن جيرانه ، أميرة جوندريت البائسة ، سوف يقذف بهم الى الشارع . والحق ان ماريوس ، الذي قضى ايامه كلها تقريباً خارج غرفته ، لم يكن يدري ، أو لم يكده ، أن له جيراناً .

وقال :

- « ولماذا يخرجونهم من بينهم ؟ »

- « لأنهم لا يدفعون الأجرة . لقد تأخروا عن دفع قسطين

اثنين . »

- « وما مبلغ ذلك ؟ »

فقلت المعجوز :

- « عشرون فرنكاً . »

وكان ماريوس يحتفظ بثلاثين فرنكاً في احد الادراج .

وقال المعجوز :

- « خذي . هذه خمسة وعشرون فرنكاً . ادفعي الاجرة عن هذه

الاميرة البائسة ، وقدمي اليها خمسة فرنكات ، ولا تقولي ان هذا المبلغ مني . »

٦ البدل

واففق ان الكتيبة التي كان الملازم الأول تيبودول منضوياً تحت
لوائها عسكرت في باريس . وكانت هذه مناسبةً خطرت فيها للخاله
جيلنورمان فكرة جديدة . لقد فكرت ، في المرة الاولى ، ان 'تخضع
ماريوس لرقابة تيبودول . أما الآن فقد ائتمرت لكي تجعل تيبودول
يخلف ماريوس .

وأياً ما كان ، وفي حال شعور الجد بحاجة غامضة الى وجهٍ فنيٍّ
في المنزل - ذلك أن اشعة الفجر هذه لتُبهج الحرائب أحياناً - فقد
كان من الملائم ان يُبحث عن ماريوس آخر . وفكرت : « أجل ، إنها
مجرد غلطة مطبعة كالتي اراها في الكتب ؛ إقرأ تيبودول بدلاً من
ماريوس . »

ان ابنَ ابنِ الأخ هو حفيدٌ او يكاد . وعندما لا يجد المرء محامياً
يستعيز عنه برمّاح .

وذاث صباح ، فيما كان مسيو جيلنورمان يقرأ شيئاً مثل صحيفة
« لا كوتيديين » ، دخلت ابنته عليه ، وقالت بصوتها الأكثر رقة ،
اذ كانت المسألة تتصل بالشخص الأثير لديها :

- « اي ، تيبودول سوف يأتي هذا الصباح ليقدم اليك احترامه . »

- « من هذا ، تيبودول ؟ »

- « ابنُ ابنِ اخيك . »

فقال الجد :

- « آه ! »

ثم استأنف قراءته ، ولم يفكر بعدُ بابنِ ابنِ اخيه الذي ما كان

غير تيودول * ما ؛ ومرعان ما غلب عليه الاحتياج ، شأنه كلما طالع شيئاً ، تقريباً . لقد اعلنت الصحيفة التي يقرأها - وكانت ملكية الهوى حقاً ، فهذه مسألة غنية عن البيان - وكان إعلانها ذاك خلواً من كل تلطيف ، أن يوم غد سيشهد أحد أحداث باريس اليومية الصغرى آنذاك ؛ أعني أن طلاب مدرستي الحقوق والطب سوف يجتمعون في البانتيون ظهراً ، للتداول والمذاكرة . وكان الموضوع يدور حول قضية من قضايا الساعة : مدفعية الحرس الوطني ، والخلاف بين وزارة الحرب و « ميليشيا المواطنين » حول مسألة المدافع المنصوبة في ساحة اللوفر . كان الطلاب يعترضون « المذاكرة » في أمر ذلك . وكان هذا كافياً ، وحده ، لاثارة مسيو جيلنورمان .

وفكر في ماريوس الذي كان طالباً ، والذي كان من الراجع ان يذهب ، مثل غيره ، « للمذاكرة ، ظهراً ، في ساحة البانتيون . » وفيما هو مستغرق في هذا التفكير الألم دخل الملازم الأول تيودول ، مرتدياً ملابسه المدنية - وكان ذلك بارعاً - فقدّمته الآنسة جيلنورمان في حذر . وقال الرماح في ما بينه وبين نفسه : « إن الكاهن الغالي العجوز لم يضع كل شيء وضعاً نهائياً ، مدى الحياة . وهذا الأمر يستأهل أن يقنع المرء نفسه ، بين الفينة والفينة ، بنسيج حريري موسى . » وفي صوت مرتفع ، قالت الآنسة جيلنورمان لأبيها :

- « تيودول ، ابنُ ابنِ أخيك . »

وفي همس ، قالت للملازم الأول :

- « أقر كل شيء . »

وانسحبت .

ولم يكن الملازم الأول متعوداً هذه اللقاءات الموقرة جداً ، فتلجلج

* التنوين هنا تنوين التكثير ، أي أنه كان مثل أي رجل آخر يحمل اسم تيودول .

في شيء من الحياء : « صباح الخير ، يا عماء ! » وانحنى انحناءة مختلطة ، تتألف من الخطوط الكبرى للتحية العسكرية ، اللارادية الميكانيكية ، 'منجزة' بتحية مدنية .
فقال الرجل العجوز :

— « آه ! هذا انت ! حسن جداً . اجلس ! »

وبعد ذلك ، نسي الرماح نياناً كاملاً .

وجلس فيودول ، ونهض مسيو جيلنومان .

وشرع مسيو جيلنورمان بذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، واضعاً يديه في جيبيه ، متحدثاً بصوت مرتفع ، فاركاً بأصابعه العصبية الهرمة الساعتين اللتين كان يحملها في جيبي صدرته .

— « هذه الكومة من الغلمان الاغرار ! إنهم يجتمعون في ساحة

البانتيون ! وحقاً عاهرتي ! صبيان كانوا أمس في سن الرضاع ! ولو

أن أمراء عصر انوفهم ، اذن جرى اللبن منها ! ول سوف يتذاكرون

ظهر غد ! الى اين نحن صائرون ؟ الى اين نحن صائرون ؟ واضحاً انا

صائرون الى الهاوية ! فالى هناك تسوقنا جماعة اللاقمعان ! مدفعية المواطنين !

يتذاكرون في امر مدفعية المواطنين ! يخرجون ويثرثرون في الهواء الطلق

عن ضراط الحرس الوطني المتواصل ! ومع من سوف يجدون انفسهم

هناك ؟ انظر قليلاً الى اين تقودنا العقوبية . إني اراهن على ما نشاء ،

على مليون مقابل قشة ، أنه لن يجتمع هناك غير سجناء سابقين وأشغالين

مطلق السراح . إن الجمهوريين والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لينسجمون

مثل انفٍ ومنديل . قال كارنو * : « الى اين تريد ان اذهب ، ايها

الحائن ؟ » فأجابه فوشيه ** : « حيث تريد ، ايها الأبله ! » هؤلاء

* Carnot سياسي وعالم رياضي فرنسي (١٧٥٣ - ١٨٢٣) كان عضواً في

لجنة السلامة الوطنية ، وانشأ جيش الجمهورية الرابع عشر ، فلقب بـ « منظم النصر . »

فلما رجع آل بوربون الى العرش نفى من البلاد .

** Fouché سياسي فرنسي (١٧٥٩ - ١٨٢٠) عمل في خدمة نابليون ،

ثم غلى عنه بعد « الايام المثة » واحتفظ بمنصبه الوزاري في العهد البوربوني الجديد .

هم الجمهوريون . »

فقال تيبودول :

- « هذا صحيح . »

والثفت مسيو جيلنورمان نصف التفاته ، فرأى تيبودول ، و اضاف :
-- « حسبك ان تفكر ان هذا الحقير كان شريراً الى درجة جعلته
يصبح كاربونارياً * . لماذا تركت بيبي ؟ لكي تذهب وتعتنق المذهب
الجمهوري ! بش ! قبل كل شيء ، الناس لا يريدون جمهوريتك ؛
انهم لا يريدونها ؛ انهم عاقلون . انهم يعرفون جيداً انه كان ثمة ملوك
دائماً وانه سوف يكون ثمة ملوك دائماً ؛ وهم يعرفون جيداً ان الشعب
على اية حال هو الشعب ، انهم يسخرون من جمهوريتك ، اسماع
انت ، ايها المعتوه ؟ اليس هذا الهوى فظيماً ؟ لقد أغرموا بالاب
دوشين ، وسددوا نظرات ولهى الى المقصلة ، وانشدوا الاغاني المؤثرة ،
وعزفوا « الفيتار » تحت شرفة عام ٩٣ ؛ يجب ان نبصق على
هؤلاء الشباب كلهم ، فما اشد حماقتهم ! انهم جميعاً في كومة واحدة .
وليس ثمة واحد خارجها . يكفي ان يتنفسوا الهواء الذي يهب في الشارع
حتى يصابوا بالحبل . القرن التاسع عشر سم . ان اي داعر منهم يرسل
لحينه التيسية ، وبحسب نفسه بالغ البراعة ، ويتخلى عن انسابه العجائز .
ذلك جمهوري ! ذلك رومانتيكي ! ما المقصود بالرومانتيكي ؟ تلطف
واخبرني ما معنى ذلك . جميع الحماقات الممكنة . منذ عام ، ذهبت
لتشهد هيرناني ** . اريد ان اعرف ، هيرناني ! تناقضات ! خبائث لم
تكتب حتى باللغة الفرنسية . وبعد ذلك يريدون ان ينصبوا المدافع في فناء

* نسبة الى الجمعية السرية الايطالية المعروفة بالكاربوناري . وقد انشئت في ايطاليا ،
مطلع القرن التاسع عشر ، وامتدت الى فرنسا بعد عودة آل بوربون الى العرش .
وكان هدفها الرئيسي لإشاعة الافكار التحررية ، ونوحيد ايطالية .

** Hernani مسرحية فيكتور هيجو الشهيرة التي مثلت اول مرة عام ١٨٣٠
فأضفت على مؤلفها شهرة عريضة وجعلته زعيماً للمدرسة الرومانتيكية .

الوفور . تلك هي لصوصية هذا العصر المسلحة .

فقال تيبودول :

- « انت على صواب ، يا عمّاه .

واستأنف مسيو جيلنورمان كلامه :

- « مدافع في قِفاء المتحف ! لماذا ؟ ايها المدفع ، اي شيء تريد ؟
أتريد ان تصرع أبولو بيلفيدير * ؟ وأي شأن لقتائف المدفع بفينوس
آل مديتشي ** ؟ أوه ، إن شباب هذا الجيل كلهم لصوص مسلحون !
وما أحقر شأن صاحبهم بنجامان كونستان ! وغير المجرمين منهم
حمقى معتوهون ! إنهم يبذلون غاية جهدهم لكي يكونوا بشعين . إنهم
يرتدون ثياباً رثة . إنهم يخافون النساء . إن لهم حول صاحبات اللتانير
سبا شعاذين تُعزّي خادِمات الفنادق الشرسات ، بعض الشيء ، بأن
ينفجرون بالضحك . وأقسم بشرقي إن المرء خَلِيق به أن يقول إن الفتيان
المساكين مخجولون من الحب . إنهم بشعون ، وهم يُكلمون انفسهم
بالبلاهة . إنهم يكرّرون نكات « تيوسيلين » و « بونيه » الجناسية . وإن
لهم سترات قصيرة فضفاضة ، وصدّرات كصدّرات « سواس الحيل » وقصائناً
من قطن غليظ ، وبنطلونات من جوخ غليظ ، واحذية طويلة من جلد غليظ .
إن الرسوم المشجرة التي تزين ملابسهم تشبه ريشهم . وفي استطاعة المرء ان
يُفيد من رطانتهم فيجدّد بها نعال احذيتهم العتيقة . ولجميع هؤلاء الصّبيّة
الحمقى آراء سياسية . إنهم ينشئون الانظمة ؛ إنهم يصلحون المجتمع ؛ إنهم
يقوّضون الملكية ؛ إنهم يُبطلون جميع القوانين ؛ إنهم يضعون العلّية
على القبو ، وبواب بيتي محلّ الملك ؛ إنهم يقلّبون اوروبة رأساً على
عقب ؛ إنهم يُعيدون بناء العالم ، وما حظوتهم غير النظر من طرف

* أبولو بيلفيدير من اروع التماثيل لأبولو ، لآله الشمس عند الاغريق . وبيلفيدير
متحف رومة الشهير ، في الفاتيكان .

** اشهر تماثيل من تماثيل فينوس ، وهو محفوظ بمتحف فلورنسة .

خفيّ الى سيقان الغسّالات وهن يصعدن الى عرباتهم ! آه ! ساربوس !
 آه ! ايها الشحاذا ! انت ذاهب لتصبح في ساحة عامة ! لتناقش ،
 وتجادل ، وتتخذ إجراءات ! إنهم يدعون ذلك اجراءات ، أيتها الآلهة
 العادلة ! إن البلبلة لتتكشم وتصبح حقاً . لقد رأيت الفوضى ، وإني
 لأرى التشوّش . طلاب يتذاكرون في موضوع الحرس الوطني - هذا
 ما لا تقع عليه عند الأوجيبواس * أو عند الكادوداش ** ! إن
 المتوحشين الذين يمشون عراةً غاماً ، وقد بدت رؤوسهم الضخمة مثل
 الفلبينة المرائنة التي يلعب بها الاولاد ، وشككت دبابيس في أرجلهم ،
 هم أقلّ توحشاً من حملة البكالوريا هؤلاء ! قرودٌ لا تساوي أكثر من
 اربعة فلوس ! قرود بحسبها الناس مثقفين وأكفاء ! إنهم يتداولون
 ويعملون الفكر إعمالاً سيئاً ! تلك هي نهاية العالم ! ومن الواضح أنها
 نهاية هذه الكرة البائسة المؤلف نصفها من اليابسة ونصفها من الماء .
 كانت في حاجة الى شهقة اخيرة ، وها هي فرسة تطلق تلك الشهقة .
 تداولوا ، ايها الاوغاد ! مثل هذه الاشياء سوف تحدث ما داموا
 يقرأون الصحف تحت أقواس الأوديون *** . ان ذاك يكلفهم فلساً واحداً ،
 وحصافتهم ، وذكاءهم ، وقلوبهم ، ونفوسهم ، وعقولهم . انهم يرجعون من
 هناك حاملين الحرب الى أسرهم . كل هذه الصحف طواعين . كلها ، حتى
 « الراية البيضاء » ! إن مارتينفيل **** كان في امحاقه يعقوبياً . أوه ، يا

* Ogtbwas قبيلة كبيرة من هنود اميركة الشمالية وهي موزعة بين كندا
 والولايات المتحدة .

** Cadodaches من القبائل الهندية في اميركة الشمالية أيضاً .

*** Odéon اثر أثيني مشهور كانت تجري فيه مباريات في الموسيقى والشعر . وقد خلع
 هذا الاسم على « المسرح الفرنسي الثاني » في باريس ، وقد اسس عام ١٧٩٧

**** Martainville صحفي وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٧٦ - ١٨٣٠) . كان ملكياً
 متحمساً ، وقد انشأ عام ١٨١٨ صحيفة « الراية البيضاء » Drapeau Blanc

للسماء ! في استطاعتك ان تفخر بأنك ادخلت اليأس على قلب جدك ،
اجل في استطاعتك !

فقال تيودول :

.. « هذا واضح . »

وافاد الرماح من تحمل مسيو جيلنورمان وأخذوه نقلاً فأضاف في
نبوة جازمة :

— « يجب ان لا يكون ثمة غير صحيفة واحدة هي الـ « مونيتر » ،
وغير كتاب واحد هو « الحولية العسكرية » *Annuaire Militaire* .

وتابع مسيو جيلنورمان حديثه :

— « انه مثل سيبس * قاتلُ ملكٍ ينتهي الى ان يصبح عضواً في
مجلس الشيوخ ! تلك هي الطريق التي ينتهون اليها دائماً . انهم يجلدون
أنفسهم بضيق المفرد وبلفظة « مواطن » لكي يصلوا آخر الامر الى ان
يدعوا الناس السيد الكونت ، السيد الكونت بطول ذراعي !
يا لسقاحي ايلول هؤلاء ! الفيلسوف سيبس ! انا سعيد بأن اقول اني
لم اكن في يوم من الايام لفلسفات هؤلاء الفلاسفة جميعاً اكثر مما
اكن في نظارتي مهرج التريفولي . لقد رأيت أعضاء مجلس الشيوخ
يجتازون ذات يوم الـ « كي مالاكيه » وقد ارتدوا معاطف من مخمل
بنفسجي مذرور بالنحل واعتمروا بقبعات من طراز هنري الرابع .
كانوا فظيعين . ولقد كان في استطاعة المرء ان يقول انهم قروء بلاط
النمر . ايها المواطنون ، اني اقول لكم ان تقدمكم جنون ، وان

* Sieyès راهب وسياسي فرنسي (١٧٤٨ - ١٨٣٦) كان مؤسس « نادي
العباقرة » ، وقد لعب دوراً بارزاً في السياسة الفرنسية ، فكان عضواً في « الجمعية
التأسيسية » ، ثم في « المؤتمر الوطني » ، ثم في « مجلس الخمسة » ، ثم وزيراً في حكومة
الادارة ، ثم قنصلاً .

انسانيتكم حلم ، وان ثورتكم جريمة ، وان جمهوريتكم هولة * ، وان
فرنساكم الفتاة منبثقة من الماخور ! اني اؤكد ذلك لكم جميعاً ، سواء
أكنتم صحافيين ، أم علماء اقتصاد ، أم فقهاء ، أم كنتم جهابذة في
الحرية والمساواة ، والاخاء ، اكثر من ساطور المقصلة ! اقول لكم
ذلك ، ايها الرجال الطيبون !

فصاح الملازم الاول :

- « وحق الالة ! هذا صحيح على نحو رائع . »
وعدل مسيو جيلنورمان عن ايماءة كان قد بدأ بها ، واستدار ،
وحدق الى ما بين عيني تيودول الرماح ، وقال :
- « انت معنوه ! »

* الهولة : الشيء الغريب البشع الخيف في آن مما . وقد عبرنا بها عن كلمة
monstre في الفرنسية والانكليزية .

الكتاب السادس

اللقاء ونجسين

١

اللقب : كيف تنشأ أسماء الاسر

في تلك الحلقة ، كان ماريوس شاباً جميلاً ، رُبْعَةً ، ذا شعر كثيف فاحم ، وجبين عالٍ ذكيّ ، ومنخرين واسعين حميين ، وسياء مغلصة هادئة ، وكان يطفو على بحياه كله شيء لا سبيل الى وصفه ، شيء شاهق ، متفكّر ، بريء . كانت صورته الجانيبة - ذات الخطوط المدوّرة ولكن من غير ان تفقد صلابتها - تتمتع بتلك العذوبة الجرمانية التي اتخذت سبيلها الى السّحنة الفرنسية من خلال الالزاس واللورين ، وبانعدام الزوايا ذاك الذي جعل من السير جداً على المرء ان

يعرف السيكامبريين * بين الرومان ، والذي يميز العرق الأسدي عن العرق الذري . كان في تلك السن التي تكون فيها عقول المفكرين من الناس مؤلفة ، بنسبة متساوية تقريباً ، من العمق والسذاجة . إنه قد يتكشف ، في بعض مواقف الحرج ، عن جميع مقومات الحماقة . ولكن أدير اللولب دورة أخرى يصبح عظيماً جليلاً . كانت متحفظاً ، بارداً ، مصقول الحاشية ، قليل المصارحة . ولكن لما كان فمه فاتناً ، وكانت شفتاه امتد الشفاه احمراراً واسنانه أنصع الاسنان بياضاً ، فقد صححت ابتسامته صرامة سياه . وفي بعض اللحظات ، كان ثمة تغاير غريب بين هذا الجبين العفيف وهذه الابتسامة الشهوية . كانت عيناه صغيرتين ، وكانت نظراته عظيمة .

وفي الفترات التي انتهت فيها الى الذك الأسفل من الفقر لاحظ ان الفتيات كنّ يُشعن عنه بوجوههن حين يمرّ ، فكان يفرّ أو يجتنبه . وفي صدره شعورٌ قاتل . كان يحسب أنهن ينظرن اليه بسبب من ملابسه البالية ، وأنهن كنّ يسخرن منه . والواقع انهن نظرن اليه بسبب من ملاحظته ، وأنهن استهين .

وكان سوء التفاهم الأبكم هذا ، بينه وبين عابرات السبيل المليحات ، قد أورثه نفرةً من المجتمع . إنه لم يختر أياً منهن ، لسبب وجيه هو أنه كان يفرّ من وجوههن جميعاً . وهكذا عاش من غير هدف - على نحو هيسي ، كما قال كوزفيراك . وقال له كوزفيراك أيضاً :

- د لا تطمع الى ان تكون حكيماً (كانا يتخاطبان بضير المفرد . والاتزلاق الى ضمير المفرد من خصائص الصداقات الشابة) . يا صديقي العزيز ، دونك هذه النصيحة . لا تقرأ كثيراً في الكتب ،

* Sicambres احد شعوب بلاد الجرمان القديمة ، وقد فهرم دروسوس فاخناطوا بالفرجة .

وانظر اكثر قليلاً الى بنات الهوى . إن في الساقطات خيراً لك ،
يا ماريوس ! فبالفرار الموصول ، واحمرار الوجه دائماً ، سوف
تصاب بالحبل .

وفي مناسبة اخرى لقيه كورفيراك فقال له :

- « مرحباً ، ايها السيد الراهب . »

وكان ماريوس - كلما سمع ملاحظة مثل هذه من كورفيراك ،
يفالي في اجتناب النسوة ، طوال اسبوع ، سواء اكنّ شابات أو
عجائز ، ويمتنع بمخافة أشباح كورفيراك .

بيد أنه كانت ثمة من بين خلق الله جميعاً ، امرأتان لم يفرّ ماريوس
منها قط ، ولم يمتنهما على الاطلاق . والحق انه كان جديراً بأن يغلب
عليه الدهش لو ان احداً قال له انها امرأتان . فأما اولاهما فالعجوز
ذات اللحية التي كانت تكنس غرفته وتحمل كورفيراك على القول :
« لما كانت خادمة ماريوس تطلق لحيتها فإنه لا يطلق لحينه . »
وأما الاخرى فكانت فتاة صغيرة كان كثيراً ما يراها ولكنه لم ينظر
اليها قط .

فمنذ اكثر من عام ، لاحظ ماريوس في مجاز منعزل من حديقة
اللوكسومبوغ ، المجاز الذي مجاذي حاجز الـ « بيينيير » ، رجلاً وفتاة
صغيرة جداً كانا يجلسان جنباً الى جنب ، دائماً تقريباً ، على المقعد نفسه
في طرف المجاز الاقصى ، قرب « شارع الغرب » . وكلما قادت
المصادقة التي تسيطر على نزعات اولئك القوم المتلفتة اعينهم الى الداخل -
نقول كلما قادت تلك المصادقة ماريوس الى هذا المجاز ، وكان ذلك كل
يوم تقريباً ، وجد هذين الخلقين هناك . كان الرجل في نحو الستين ،
وكان يبدو محزوناً رصيناً . وكان شخصه كله يذكر المرء بالسياء
الشديدة ولكن المجهود التي تطفو على وجوه الجنود المسرّحين من الخدمة
العسكرية . ولو قد كان يزين صدره بوسام ما ، اذن لقال ماريوس :

« انه ضابط قديم » . كانت ملامح وجهه تؤذن بالطَّيبة ، ولكنها غير مغربة بالاقتراب منه ؛ وما كان يدع عينه تقع على عين امرئ ما . كان يرتدي بنطلوناً أزرق ، وسترة طويلة زرقاء ، وقبعة عريضة الحاشية بدت جديدة دائماً ، وعقدة عنق سوداء ، وقميصاً من قمصان الاصحاب الكويكرين * ، يعني قميصاً ابيضَ ناصعاً ولكنه مخيط من قماش غليظ . ولقد مرت به ، ذات يوم ، عاملة مغناجة فقالت : « هوذا أورمل ممتاز . » كان شعره أشيب كله .

وأول مرة جلست فيها الفتاة الصغيرة التي رافقته على المقعد الذي بدا وكأنها قد تنبَّاه ظهرت احبه بفتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، مهزولة حتى البشاعة تقريباً ، خرقاء ، لا شأن لها ، ومع ذلك فقد كانت تُعَدُّ في اغلب الظن بأن تنعم في المستقبل بعينين ساحرتين . ولكن عينها هاتين كانتا تنظران حولها ، دائماً ، في طابأينة بغيضة . كانت ترتدي ثوباً عجائزياً وأطفالياً في آن معاً ، كذلك الذي تلبسه الفتيات في مدرسة الدير ، ثوباً رديء التفصيل مصنوعاً من صوف الضأن المربني** الأسود الغليظ . كانت تبدو عليهما سياء أب وابنة .

وطوال يومين أو ثلاثة ايام ، تأمل ماربوس هذا الرجل العجوز الذي لم يصبح بعدُ هرمأ ، وهذه الفتاة الصغيرة التي لم تبلغ بعدُ مبلغ المرأة ، ثم لم يلتق اليها بالآ بعد ذلك قط . أما هما فقد بدا وكأنهما لم يرياها ولو مجرد رؤية . كانا يئساران في وداعة ولا مبالاة . وكانت الطفلة تؤثر في غير انقطاع ، وفي ابتهاج ، أما الرجل العجوز فكان يتكلم قليلاً ، ويتطلع اليها بين الفينة والفينة بعينين مفعمتين بأبوة لا سبيل الى وصفها :

* وهم طائفة الفرندز (الاصحاب او الاصدقاء) البروتستانتية المعروفين بتقواهم وزهدهم في الدنيا وزخارفها . وانما عرفوا بالكويكرز ، اي المرتشين ، لان مؤسس الفرقة قال لاتباعه : « ارتمشوا امام سيف الرب . »

** mérinos نسبة الى ضأن بني مرين في الاندلس .

وكان ماريوس قد اكتسب ضرباً من عادة ميكانيكية نحمله على التنزه في ذلك المجالز . وكان يجدهما دائماً هناك .
ودونك كيف كان ذلك :

كان من دأب ماريوس ان يُقبل من طرف المجالز الذي يواجهه مقعدهما ، فيتمشى على طول ذلك المجالز ، ماراً امامهما ، ثم يرتد الى الطرف الاقصى الذي اقبل منه ، وهكذا . كان يقوم بحركة الذهاب والاياب هذه خمس مرات او ست مرات في كل نزهة من نزهاته ، وكان يقوم بكل نزهة من نزهاته تلك خمس مرات او ست مرات في الاسبوع ولكن من غير ان يتبادل ، هو وهذين الخلوقين ، ناحية ما . وكان طبعياً - برغم ما بدا من ان هذا الرجل وتلك الفتاة الصغيرة كانا يجتنبان النظرات ، ولربما بسبب من ذلك نفسه - ان يثيرا انتباه اولئك الطلاب الخمسة أو الستة الذين كانوا يتنزهون بين الفينة والفينة في محاذاة الـ « بيبيير » ، فاما المجتهدون منهم فتحصيلاً لدروسهم ، وأما الآخرون فالتاساً للبيارد يتنافسون في لعبه . ولاحظها كورفيراك - وكان من الطائفة الثانية - في وقت ما ، ولكنه سارع الى اجتنابها ، في كثير من العناية ، بعد أن وجد الفتاة قبيحة . لقد فرّ مثل رجل من البارثين * راشقاً ايأهما بقلب . واذا بدّعه ، في المحل الاول ، ثوب الفتاة الصغيرة وشعر الرجل العجوز فقد سمى البنت مدموزيل لونواو (السوداء) وسمى الأب ميسو لوبلان (الابيض) . وهكذا - ولما كان ايّ منهم لا يعرفها باسم آخر ، لعدم وجود ذلك الاسم - فقد فرض هذا اللقب نفسه وكأنه القانون . وقال الطلاب : « آه ، ميسو

* كان البارثيون القدماء - الذين انشأوا عام ٢٥٠ ق. م مملكة في ايران - يجيئون على صهوات الحبل دائماً . واذا كانوا يتظاهرون بالفرار فقد كانوا يسددون السهام ، من تحت اكتافهم ، الى من يتعقبهم . وقد ادت هذه الحيلة القائلة الى نشوء المثل : رشقه بهم من سهام البارثيين ، يعني سدد اليه وهو ينسحب سهماً او كلمة جارحة .

لوبلان جالس على مقعده ! « ووجد ماريوس - شأنَ زملائه - أن من الملائم ان يدعو هذا الرجل المجهول مسيو لوبلان .
ولسوف نفعل مثلما فعلوا فنقول مسيو لوبلان حرصاً على السهولة في هذه القصة .

وهكذا رآهما ماريوس ، كل يوم تقريباً ، وفي الساعة نفسها ، خلال العام الأول . لقد وقع الرجل في نفسه موقعاً حسناً ، ولكنه وجد الفتاة بغيضةً بعض الشيء .

٢

« وكان نور »

وفي السنة الثانية ، عند مطلع هذا التاريخ الذي بلغه القاري تماماً ، اتفق أن أقلع ماريوس عما ألفه من عادة الذهاب الى حديقة اللوكسمبورغ ، من غير أن يدري هو نفسه سبباً لذلك ، فانقضت ستة أشهر تقريباً لم تطأ قدماء في خلالها مجازة ذاك . وأخيراً انقلب الى هناك ، ذات يوم ، كرةً أخرى . وانما كان ذلك في صباح يوم صاح من أيام الصيف ، وكان ماريوس فبتج النفس شأنَ المرء حين يكوثر الجو رائقاً . لقد بدا له وكأن في قلبه جميع أناشيد الطيور التي سمعها ، وجميع أفلاذ السماء الزرقاء التي رآها من خلال الاشجار .

ومضى الى « مجازة » مباشرة . ولم يكسد يبلغه حتى رأى ، على المقعد نفسه أيضاً ، هذين المخلوقين المعروفين . حتى اذا اقترب منها وجد أن الرجل كان هو نفسه من غير شك ، على حين بدا له ان الفتاة لم تعد تلك التي كانت نصحه من قبل . كانت الفتاة التي رآها الآن مخلوقة كريمة جميلة تستمع بجميع ملامح المرأة الاكثر فتنة ، في تلك اللحظة

التي تكون فيها هذه الملامح متصلة ، ما تزال ، بكامل جمال الطفل ، - تلك اللحظة العابرة الطاهرة التي لا تُترجم إلا بهذه الكلمات : الخامسة عشرة من العمر . شعره كستنائي جميل تظله عروق من الذهب ، وجبين بدا وكأنه منحوت من رخام ، ووجنتان بدتا وكأنهما مصنوعتان من ورد ، ولون ارجواني شاحب ، وياض مُشرب بالاحمرار ، وفم رائع تنبثق منه ابتسامة كالضياء ، وصوت كالموسيقى ، ورأس كان خليقاً برافايل أن يقدمه الى مريم على جيد كان خليقاً بجان غوجون * أن يقدمه الى فينوس . واخيراً لكي لا يُعوز شيء هذا الوجه الفاتن فإن الانف لم يكن جميلاً ولكنه كان مليحاً . إنه لم يكن مستقيماً ، ولم يكن معقوفاً ؛ لم يكن ايطالياً ولم يكن اغريقياً ؛ كان انفاً باريسياً ، يعني شيئاً بهيجاً ، لطيفاً ، شاذاً ، صافياً ، شيئاً يُؤنس الرسامين ، ويفتح الشعراء .

وحين مرّ ماريوس على مقربة منها ، لم يستطع ان يرى عينيها اللتين كانتا مطرقتين دائماً . انه لم ير غير اهدابها الكستنائية الطويلة الراشحة بالظلال والحياء .

ولكن ذلك لم يمنع الطفلة الجميلة من الابتسام فيما أصغت الى الرجل الاشيب الذي كان يتحدث اليها . ولم يكن ثمة شيء أشد سحراً من هذه الابتسامة الطريئة بعينين مطرقتين .

وحسبها ماريوس ، للوهلة الاولى ، بنشاً ثانية للرجل نفسه ، اختاً لا ريب فيها للفتاة التي رآها من قبل . ولكن حين قادته نزواته المعتادة في لا تتغير الى قريب من مقعدها ، مرة ثانية ، ونظر اليها في انتباه ، أدرك انها تلك الفتاة عينا . ففي مدى ستة اشهر امست الفتاة الصغيرة شابة

* Goujon مثال فرنسي شهير (حوالى ١٥١٠ - حوالى ١٥٦٨) تحت « حوض الابرياء » في باريس وشارك في زخرفة اللوفر .

فتية ؛ ذلك كل ما هنالك . وليس شيء اكثر شيوعاً من هذه الظاهرة .
فئة لحظة تتفتح فيها اكمام الفتيات في طرفة عين ويصبحن وروداً على
نحو مفاجئ . لقد تركناهن أمس اطفالاً ، وإنا لنجدهن اليوم شاغلاتٍ للبال .
ولم تكن تلك الفتاة قد كبرت فحسب ؛ كانت قد غدت مثالية
ايضاً . وكما ان ثلاثة أيام من نيسان كافية لأن تلبس بعض الاشجار حلة
من الازهار فكذلك كانت ستة اشهر كافية لأن ترتدي تلك الفتاة رداء
من الجمال . كان نيساننا قد اقبل .

اننا نرى في بعض الاحيان اناساً ، فقراء حقيرين ، يبدون وكأنهم
يستيقظون ، وينتقلون فجأة من العوز الى الترف ، وينفقون الاموال ذات
اليين وذات الشمال ، ويصبحون بغتة لامعين ، مبذرين ، ذوي أبهة . وانما
ينشأ ذلك عن دخلٍ تلقَّوه ؛ كان أمس يوم الدفع . لقد قبضت الفتاة
الشابة راتبها نصف السنوي .

ثم انها لم تعد تلك الطالبة الداخلية بقبعتها المصنوعة من نسيج ذي
وبر ، وثوب المحيط من صوف الضأن المربني ، وحذاءها التلذي ، ويديها
الحرارين . كان الذوق قد وفد عليها مع الجمال . وكانت قد أمت فتاة
حسنة البزة تربتها اناقة بسيطة غزيرة ، خلوت من التكلف . كانت ترتدي
ثوباً من دمعس أسود ، وصدرة من النسيج نفسه ، وقبعة من « كريب »
أبيض . وكان قفازاها الابيضان يكشفان عن نعومة يدها العابئة بمقبض
مظلتها المصنوع من العاج الصيني ، وكان حذاؤها الحريري العالي ينم عن
صغر قدمها ، وكانت زينتها كلها تنفخ بأريج الشباب النافذ ، كلما مرَّ
المرء على مقربة منها .

اما الرجل فكان هو هو لم يتغير البتة .

وحين انتهى ماريوس الى قريب منها ، للمرة الثانية ، رفعت الفتاة
الشابة جفניה . كانت عيناها ذواتسي زرقه سماوية عميقة ، ولكن لم يكن
في ذلك اللازورد المحجَّب غير نظرة طفل . لقد نظرت الى ماريوس في

لا مبالاة كما كان خليقاً بها ان تنظر الى القرّيد الذي يعدو تحت
شجرات الجيز، او الى الزهرية الرخامية التي تلقي ظلها على المقعد .
وواصل ماريوس ، بدّوره ، نزّهته وهو يفكر في شيء آخر .
ومرّ اربع مرات أو خمس مرات اخرى على مقربة من المقعد الذي
جلست عليه الفتاة الشابة ، ولكن من غير ان يدير عينه نحوه مجرد
إدارة .

وفي الايام التالية وفد كعادته على حديقة اللوكسومبورغ ، فوجد
فيها كعادته ايضاً « الاب والبنات » ولكنه لم يلق اليها بالآ . انه لم
يعد يفكر في هذه الفتاة وقد امتست جميلة بأكثر مما سبق له ان فكر
فيها يوم كانت قبيحة . كان يمر دائماً بجذاء مقعدها لأن عادته جرت
بذلك .

٣

أثرُ الربيع

وذات يوم ، كان الهواء معتدلاً ، وكانت حديقة اللوكسومبورغ
مغمورة بأشعة الشمس وبالظلال ، وكانت السماء صافية وكان الملائكة
قد غلّتها في الصباح ، وغردت عصافير الدوري في اوراق شجرات
الكستناء ، وكان ماريوس قد فتح روحه كلها للطبيعة ، ولم يعد يفكر
في شيء . لقد عاش وتنفس ، ولقد مرّ بجذاء ذلك المقعد ، فرفعت
الفتاة الشابة عينها نحوه ، فالتقى نظراهما .

ولكن اي شيء كان في نظرة الفتاة الشابة ؟ لقد عبّز ماريوس عن
الاجابة . لم يكن ثمة شيء ، وكان ثمة كل شيء . لقد كان ذلك ضياء
غريباً .

وغضت من بصرها ، وواصل هو سبيله .
إن ما رآه لم يكن عين طفل ساذجة سليمة الطوية . كان هاوية
محاطة بالاسرار ، هاوية فتحت فهاها نصف فتحة ثم اغلقتها فجأة .
قشة فترة تنظر فيها كل فتاة شابة مثل هذه النظرة . والويل
لمن يتفق ان يكون هناك !

إن تلك النظرة الاولى التي تددها نفس لما تعرف بعد ذاتها
أشبه بارتقاع الضمى في السماء . إنها يقظة شيء مشع مجهول . وليس
هناك ما يستطيع التعبير عن الفتنة الخطرة الكامنة في هذا الوميض غير
المرقب الذي يُنير فجأة ، وعلى نحو غامض ، ظلمات حبيبة ، والذي
يتألف من براءة الحاضر كلها ، واهواء المستقبل كلها . انها ضرب من
الحنان الحائر الذي تم المصادفة عنه ، والذي ينتظر . انها شرك تنصبه
البراءة من غير وعي ، وتتصيد به القلوب من غير ان تقصد الى ذلك ،
ومن غير ان تدري ذلك . انها عذراء تنظر كما تنظر المرأة .

ومن النادر أن لا ينشأ عن هذه النظرة ، حيناً وقعت ، استغراق
في تفكير حالم عميق . ان كل ما هو طاهر وكل ما هو متوهج ليتركزان
في هذه النظرة السماوية القاتلة التي تتميز بقدرتها السحرية - اكثر من
غمزات الفتيات المغناجات الأشد إحكاماً - على ان تفتح فجأة ، في
اعماق القلب ، تلك الزهرة القاتلة ، المفعمة بالاطياب والسوم ، والتي
ندعوها الحب .

وفي المساء ، عندما رجع ماريوس الى عليته ، الى نظرة على
ملابسه . ولأول مرة ادرك بأية قذارة ، وقلة لياقة ، وبلاهة لم يُسمع
بمثلها ، كان يتنزه في حديقة اللوكسومبورغ مرتدياً « بذلته اليومية »
تلك ، وقبعة محطّسة قرب العروة ، وحذاء غليظاً من احذية سائقي
العربات ، وينطلوناً اسود تلتصع ركبتاه ، وسترة سوداء شحبت
خيوط مرفقيها .

بدء اعتلال عظيم

وفي اليوم التالي ، في الساعة المعتادة ، أخرج ماريوس من خزانته ستورته الجديدة ، وبطلونه الجديد ، وقبعته الجديدة ، وحذاءه الجديد ، وتسلّح بهذه المجموعة الكاملة من الملابس ، ولبس قفازيه - ترف - مسرف - ومضى الى حديقة اللوكسومبورغ .

وفيا هو في بعض الطريق ، التقى بكورفيراك وتظاهر بأنه لم يره . حتى اذا انقلب كورفيراك الى غرفته قال لاصدقائه :

- « لقد التقيت اللحظة بقبعة ماريوس الجديدة وستورته الجديدة ، وماريوس في داخلهما . وليس من شك في انه كان ذاهباً الى امتحان . لقد بدت على وجهه سياء بلاهة كاملة . »

حتى اذا وصل الى حديقة اللوكسومبورغ دار دورة حول الحوض ونظر الى الأوز السابح فيه . ثم لبث فترة طويلة مستغرقاً في التأمل أمام تمثال أسود من العفن 'تغوزه احدى وركبته . وعلى مقربة من الحوض ، كان بورجوازي في الاربعين ضخم الكرش يمسك بيد صبي صغير في الحامسة ويقول له : « حذار من التطرف . ابتعد عن الاستبداد ابتعادك عن الفوضوية . » واصفى ماريوس الى هذا البورجوازي الطيب . ثم دار دورة اخرى حول الحوض . واخيراً مضى الى «مجازة» ، في أناة ، وكأنما يمضي اليه في أسف . ولقد كان خليقاً بالناظر اليه ان يقول إنه كان 'مكرهاً على المضي' ومنوعاً عن المضي في آن معاً . كان لا يعي شيئاً من ذلك كله ، ولقد حسب أنه يسلك مسلكه اليومي عنه .

حتى اذا انتهى الى المجاز رأى مسيو لوبلان والفتاة الشابة جالسين ،

في الطرف الآخر ، « على مقعدهما » . وزرر سترته ، وشدها الى
أدنى لكي يزيل ما قد يشينها من تفضن ، وتأمل في شيء من العُجب
رونق بنطلونه وبهاؤه ، وزحف الى المقعد . كان في ذلك التقدم شيء
من المجهوم ، وكان فيه من غير شك رغبة في الفتح . إني اقول اذن :
« وزحف الى المقعد » ، كما اقول : « زحف هنيئيل الى رومة . »
وفي ما عدا هذا لم يكن ثمة شيء غير ميكانيكي في حركاته جميعاً ، ولم
يعترض بأية حال شواغل عقله وعمله المعتادة . كان يفكر في تلك اللحظة
في ان « المختصر في البكالوريا » كتاب أبله ، وانه لا شك من عمل
معتوهين يعز نظيرهم ، وإلا فكيف يقدم عند تحليله لروائع العقل البشري
ثلاثاً من مآسي راسين وواحدة ليس غير من ملاهي مولير ؟! وأحسن
بشبه صغير حاذ في أذنه . وفيما هو يتقدم الى المقعد ملئ تفضنات سترته
وامتقرت عيناه على الطفلة الشابة . لقد بدت ، في نظره ، وكأنها تملاً
جانب المجاز كله بضياء ازرق شاحب .

وكلما ازداد من المقعد قريباً ازدادت خطوته تباطؤاً . حتى اذا انتهى
الى مسافة ما من المقعد ، وقبل ان يصل الى اقصى المجاز بكثير ، كفّ عن
المسير ، ونكص على عقبيه من غير ان يدري هو نفسه كيف اتفق له
ذلك . بل انه لم يقل لنفسه إنه لن يذهب الى نهاية المجاز . وليس من
ريب في انه كان من العسير على الفتاة الشابة ان تلمحه من بعيد وترى
هيئته البديعة في سترته الجديدة . وإباً ما كان ، فقد وقف منتصب القامة
لكي يبدو حسن السميت اذا ما اتفق لأحدٍ خلفه ان يرى اليه .

وبلغ الطرف المقابل ثم رجع . وهذه المرة اقترب ، اكثر بعض الشيء ،
من مقعدها . بل لقد انتهى الى نقطة تقع على مسافة ثلاث شجرات منه ،
ولكنه استشعر هناك بمعجز عن مواصلة التقدم لا سبيل الى وصفه ، فتردد .
لقد خيل اليه ان وجه الفتاة الشابة انحنى نحوه . ومع ذلك فقد بذل
جهداً رجولياً عظيماً ، ففهر تردده ، وواصل تقدمه . وبعد بضع ثوان مرّ

أمام المقعد ، مستقيماً راسخ القدم ، عمره الوجه حتى الاذنين ، من غير ان يجرؤ على ان يلقي نظرة ما الى اليمين او الى الشمال ، واضعاً يده في سترته مثل رجل من رجال الدولة . ولحظة مر - تحت مدافع القلعة - خفق قلبه خفقاناً مروّعاً . وكانت ترتدي - شأنها في اليوم السابق - ثوبها الدمقسي وقبعتها المصنوعة من الكريب . وسمع صوتاً يمتنع على الوصف كان « صوتها » من غير ريب . كانت تتحدث في سكونية . وكانت بارعة الجمال . لقد استشعر ذلك ، برغم انه لم يحاول ان يراها . وقال في ذات نفسه : « انها لا تستطيع ، على اية حال ، إلا أن تكن لي اجلاً واحتراماً اذا ما عرفت اني المؤلف الحقيقي للدراسة الموضوعية عن ماركو اوبريفون دو لا روند التي قدم بها مسيو فرانسوا دو نوفشاتو ، وكأنها من قلمه ، لطبعته الخاصة لرواية « جيل بلا » * .

واجتاز بالمقعد ، ومضى الى اقصى المجاز الذي كان بالغ القرب ، ثم استدار ومرّ كرة اخرى امام الفتاة الجميلة . وهذه المرة كان شديد الشحوب . والواقع انه لم يكن يستشعر شيئاً ليس يبغيض جداً . فابتعد عن المقعد وعن الفتاة الشابة . وبرغم انه أولاها ظهره فقد تخيل انها كانت تنظر اليه ، وهذا ما جعل الارتباك يغلب عليه .

ولم يقم بأيما محاولة جديدة للاقتراب من المقعد ؛ لقد وقف عند منتصف المجاز تقريباً ، وجلس هناك - وهو شيء لم يفعله قط من قبل - ملقياً كثيراً من النظرات الجانبية ، ومفكراً في اعماق عقله الاكثر ضباية ان من العسير على اية حال ان تكون الفتاة ذات القبة البيضاء والثوب الاسود - تلك الفتاة التي أعجب بها - خالية الذهن على نحو كلي من بنطلونه الثقيل وسترته الجديدة .

وبعد ربع ساعة ، نهض وكأنما يريد ان يستأنف سيره نحو ذلك

* Gil Blas de Santillane احدى روايات الكاب الفرنسي لوساج Lesage (١٦٦٨ -

١٧٤٧) الشهيرة .

المقعد المطوّق بهالة . بيد أنه ظل واقفاً لا يتحرك . وللمرة الاولى منذ خمسة عشر شهراً ، قال في ذات نفسه ان هذا السيد المتعود ان يجلس هناك مع ابنته كل يوم قد لاحظته ، هو ايضاً ، من غير شك ، ولعله قد وجد في مواظبته شيئاً غريباً .

وللمرة الاولى ايضاً استشعر بعض الأزرار في الاشارة الى هذا الرجل المجهول ، ولو في سريره ، بذلك اللقب الذي 'خلع' عليه : مسيو لوبلان .

وظل هكذا بضع دقائق مطرق الرأس ، راسماً بعض الاشكال على التراب ، بواسطة عصا صغيرة كانت في يده .

ثم انه استدأر فجأة واعرض بجانبه عن المقعد مبتعداً عن مسيو لوبلان ، وعن ابنته ، وانقلب الى غرفته .

وذلك اليوم نسي ان يتناول عشاءه . وفي الساعة الثامنة مساء ، اكتشف هذه الواقعة . واذا كان أوان الذهاب الى شارع سانت جاك قد فات ، فقد قال في ذات نفسه : « لا بأس ! » وأكل قطعة من خبز .

ولم يأوِ الى فراشه الا بعد ان فرش سترته جيداً وطواها في عناية .

٥

صواعق شتى تنقض

على رأس « مام بوغون »

وفي اليوم التالي لاحظت « مام بوغون » * - « هكذا سمى

* اي مدام بوغون ، أو السيدة الكثيرة التذمر والدمدمة .

كورفيراك العجوز البوابة الموكول اليها أمر العناية ببيت غوربو العتيق ، وكان اسمها في الحقيقة مدام بورغون كما ذكرنا من قبل ، ولكن كورفيراك الفطيع هذا لم يكن يحترم شيئاً - نقول لاحظت « مدام بورغون » ، في انشداه ، أن ميو ماريوس غادر غرفته ككرة أخرى وهو لابس بذلته الجديدة .

لقد مضى كرة ثانية الى حديقة اللوكسومبورغ ، ولكنه لم يذهب الى أبعد من مقعده القائم عند منتصف المجاز . وجلس هناك ، كما جلس أمس ، منعماً النظر من بعيد ، لاجأً على نحو واضح القبعة البيضاء ، والثوب الاسود ، وبخاصة الضياء الازرق . ولم يتحرك من مجلسه ذاك ، ولم ينقلب الى غرفته الا بعد أن أوصدت ابواب اللوكسومبورغ . إنه لم ير ميو لوبلان وابنته ينصرفان . فاستنتج من هنا انها غادرا الحديقة من الباب المؤدي الى « شارع الغرب » . وبعد بضعة اسابيع ، عندما فكّر في ذلك ، لم يستطع ان يتذكر أين تناول طعام العشاء تلك الليلة .

وفي اليوم التالي ، وكان ذلك للمرة الثالثة ، صعدت « مدام بورغون » ايضاً . لقد خرج ماريوس وهو لابس بذلته الجديدة . وصاحت :
- « ثلاثة ايام على التعاقب ! »

وحاولت أن تلتحق به ، ولكن ماريوس مشى برشاقة وفي خطى واسعة جداً . كانت اشبه بفرس الماء يحاول أن يطارد شجوة * . وماهما الا دقيقتان حتى اقلت من نظرها ، فارتدت لاهثة ، ساخطة ، يكاد الربو أن يخنقها . ودمدمت :

- « لست ادري ، ما اذا كان من الحكمة ان يرتدي ملابسه الجديدة كل يوم ويحمل الناس على أن يجرؤوا خلفه على هذه الصورة ! »
كان ماريوس قد ذهب الى حديقة اللوكسومبورغ .

* الشجوة chamois ضرب من الغزلان .

وكانت الفتاة الشابة هناك مع مسيو لوبلان . واقترب ماريوس ما استطاع الى الاقتراب سبيلًا ، وقد بدا وكأنه يقرأ كتابًا ، ولكنه ظلّ بعيداً جداً ؛ ثم إنه رجع وجلس على مقعده حيث انفق اربع ساعات وهو يراقب عصافير الدوري الصغيرة البيضاء الفؤاد فيما هي تثب في المجالز . لقد بدت تلك العصافير وهي تسخر منه .

وانقضى اسبوعان على هذا النحو . ولم يعد ماريوس يقصد الى اللوكسومبورغ ابتغاء التزهة ، ولكن ليجلس في المكان نفسه دائماً ، ومن غير أن يدري لماذا . فما ان يصل الى هناك حتى يمتنع عن الحركة . وكان يرتدي بذلته الجديدة كل صباح ، لكي لا يلفت الانظار ، ثم يستأنف ذلك في اليوم التالي .

كانت على جمال باهر حقاً . والملاحظة الوحيدة التي كان في ميسور المرء ان يبديها ، والتي تشبه النقد ، هي أن ذلك التناقض بين نظرتها ، وهي نظرة محزونة ، وبين بسمتها ، وهي مبتهجة ، أضفى على عيّاها مسحةً " شاردة " بعض الشيء . مما جعل هذا الهيا العذب يبدو غريباً ، في بعض الاحيان ، ولكن من غير ان يفقد شيئاً من قننته .

٦

في قبضة الاسر

وفي اواخر الاسبوع الثاني ، كان ماريوس جالساً كالعادة على مقعده ، مسكاً بيده كتاباً لم يقلب صفحة من صفحاته منذ ساعتين . وفجأة ، سرت في اوصاله رعدة . كان حدث خطير قد وقع في أقصى المجالز . لقد غادر مسيو لوبلان وابنته مقعدهما ، بعد أن اخذت البنت بذراع

الاب ، ومضيا في أناة نحو منتصف الهجاز حيث جلس ماريوس . واغلق ماريوس كتابه ، ثم أعاد فتحه ، ثم حاول ان يقرأ . وارتعد . كانت الحالة تتقدم نحوه مباشرة . وقال في ذات نفسه : « آه يا السهي ! لن يكون لديّ متسع من الوقت لكي أتخذ موقفاً » . وفي غضون ذلك كان الرجل الأشيب والفتاة الشابة يتقدّمان . لقد بدا له أن هذا سوف يستمرّ قرناً من الزمان وان هذا لم يكن غير ثانية واحدة . وسأل نفسه : « ما الذي حملها على المجيء الى هنا ؟ كيف ؟ إنها سوف تمرّ من هنا . إن قدمها سوف تطآن هذا التراب ، في هذا الهجاز ، على بُعد خطوتين مني ليس غير ! » واضطرب اضطراباً شديداً ، وغنى لو كان وسيماً جداً ، ولو كان يحمل صليب جوقة الشرف . لقد سمع وقع خطواتها الرفيقة الموزونة يقترب . لقد تخيل ان مسيو لوبلان يقذفه بنظرات غصبي . وقال في ذات نفسه : « أيعتزم هذا السيد ان يتحدث اليّ ؟ » وحنى رأسه . وحين رفعه كافا على مقربة دانية منه . ومرت الفتاة الشابة ، ونظرت اليه فيما هي تمرّ . لقد نظرت اليه نظراً موصولاً ، وفي عذوبة متفكرة جعلت ماريوس يرتجف من قمة رأسه الى اخص قدميه . لقد بدا له وكأنها تؤنبه لتخلّفه هذه المدة كلها عن المجيء اليها وأنها قالت : « اني انا القادمة . » وظل ماريوس مشدوهاً بهاتين العينين الحافلتين بالاشعة والحب .

واستشمر وكان دماغه يغلي على نار . كانت قد اقبلت نحوه . يا للسعادة ! وبعد ، فما كان أروع نظرتها اليه ! لقد بدت أجمل بما بدت في ايما وقت من الاوقات ، وكان جمالها من ذلك الضرب الانثوي الملائكي في آن معاً ، والجدير بان يغري بتوارك بالغناء ، ودانتي بالركوع . واستشمر وكأنما كان يسبح في سماء حميقة زرقاء . وفي الوقت نفسه ، غلب عليه امتياح مروّع لأن بعض الغبار كانت يعلو حذاءه .

لقد اعتقد اعتقاداً جازماً بأنها رأَتْ حذاءه أيضاً .
وأَتبعَها بصره حتى غابت عن النظر ، ثم شرع يمشي في حديقة
اللوكسومبورغ مثل رجلٍ معنوه . واغلب الظن أنه أنشأ بضحك في
بعض الأحيان ، متوحدّاً ، ويتحدث في صوت مرتفع . وكان موزّع
الفكر ، أمام جماعة من مربيّات الاطفال ، الى درجة جعلت كلاً
منهنّ تعتقد أنه متيمٌ بها .

وغادر الحديقة ليجث عنها في شارع من الشوارع .
والتقى بكورفيراك تحت قناطر الأوديون وقال له : « هيا نتناول العشاء
معاً . » ومضيا الى مطعم روسو ، وأنفقا ستة فرنكات . لقد أكل
ماريوس مثل غول . وأعطى النادل ستة فلوس . وحين جيء بالحلوى
قال لكورفيراك : « هل قرأت الجريدة ؟ أيّ خطاب رائع ألقاه
آندري دو بورافو ! »
لقد نَبّه العشق .

وبعد العشاء قال لكورفيراك : « سوف ادفع عنك رسم الدخول
الى المسرح . » ومضيا الى « بورت سان مارشان » ليريا فريدريك في
مسرحية « فندق آدربه » . وُسّر ماريوس بالرواية سروراً عظيماً .
وفي الوقت نفسه ، أمسى أكثر غرابيةً وتوحشاً . فحين غادرا المسرح
رفض ان ينظر الى رباط ساق احدى صانعات القبعات الفاتية وهي
تخطو فوق ساقية . وحين قال كورفيراك : « لا مانع عندي في أن
أضع هذه المرأة في مجموعتي ! » استبدّ به الذعر او كاد .

ودعاه كورفيراك الى تناول طعام الفطور معه في اليوم التالي في
مقهى فولتير . وذهب ماريوس وأكل في شهوة دونها شهوته في الليلة
الباوحة نفسها . كان مستغرقاً في التفكير ، كثير الابتهاج . ولقد كان
في ميسور المرء ان يقول إنه عهد الى تصيّد جميع المناسبات الممكنة
لينفجر بالضحك . لقد عانق في حنانٍ كلَّ من قدّم اليه من أبناء

الريف ، كائناً من كان . وكانت حلقة من الطلاب قد تشكلت حول
احدى الموائد ، ودارت حديث عن ثروات تنفق عليها الدولة وتجدها
سوقاً رائجة في السوربون ؛ ثم تطرق الحديث الى الاخطاء والفجوات
التي تحفل بها معاجم كويشيرا * وكتبه العروضية . واعترض ماريوس
المناقشة صائحاً : « على اية حال ، فأنا من المستعجب ان يفوز المرء
بالوسام ! »

فهمس كورفيراك في اذن جان بروفير :

— « هو ذا شيء مضحك ! »

فأجابه جان بروفير :

-- « لا . إنه شيء جدي . »

وكان ذلك جدياً في الحق . فقد كان ماريوس يجتاز تلك اللحظات
الغنيمة الفاتنة ، الأولى ، التي تنصدّر ضروب الهيام العظيم .
كانت نظرة واحدة قد فعلت ذلك كله .

فحين يكون الظم مشحوناً ، ويكون عود الثياب مستعداً ، فلن
تقع على ما هو ايسر واسهل . إن النظرة شرارة .
وقضي الأمر . لقد احب ماريوس امرأة . كان قدره يتخذ سبيله
نحو المجهول .

إن نظرات النساء اشبه شيء ببعض الماكينات الوديفة في ظاهرها ،
الرهيبة في حقيقتها . انك تمر بها كل يوم مرآ هادئاً لا ينطوي على
ضرب ما ، ولا يدعو الى ريبة ما . وتعبرك بك لحظة تنسى فيها مجرد
وجود تلك الاشياء هناك . لآنك لتروح ، وانك لتجيه . انك لتعلم ،
وانك لتتكلم ، وانك لتضحك . وفجأة تحس بأنك وقعت في الأسر !
انتهى كل شيء . لقد امسكت الدواليب بك ، لقد امرتك النظرة .

* Quicherat لغوي فرنسي (١٧٩٩ - ١٨٨٤) وضع معجماً لائياً فرنسياً
مروفاً ، وكتابين في العروض الفرنسي والعروض اللاتيني .

استولت عليك - ولا تسلّ أين وكيف - بجزء ما من اجزاء تفكيرك
 كان يجرّ نفسه متباطئاً ، بذهول كان مستحوذاً عليك . ويُلمّ بك
 الهلاك . وتُسحبُ الى هناك بكاملك . إن سلسلة من القوى العجيبة
 لتستحوذ عليك . وتناضل على غير طائل . وليس ثمة سبيلٌ الى نجدة
 بشرية ما . انك سوف تتدحرج من دولاب الى دولاب ، من ألم نفسي
 مرير الى ألم نفسي مرير ، من نكال الى نكال ؛ أنت ، وعقلك ،
 وقدرك ، ومستقبلك ، وروحك . ولن تخرج من بين براثن تلك الآلة
 الفظيعة إلا بعد أن يشوّك العار أو يخلّلك الحب خلقاً أسمى - تبعاً
 لشخصية من تقع تحت سلطانه ، وما اذا كان مخلوقاً شريراً او قلباً
 نبيلاً .

٧

مغامرات الحرف v وقد أسلم

الى الحدس والظن

كانت العزلة ، والانفصال عن كل شيء ، والعُجب ، والاستقلال ،
 وحب الطبيعة ، وفقدان النشاط اليومي والمادي ، والانطواء على النفس ،
 ونضالات العفة الحقة ، والنشوة الروحية الحيرة تجاه الكون كله -
 كانت هذه جميعاً قد أعدت ماريوس لذلك المسّ الذي ندعوه العشق .
 كان تقدسه لأبيه قد أسمى ديناً أو يكاد ، وكان قد ارتدّ شأن كل
 دين الى أعماق القلب . لقد احتاج الى شيء فوق ذلك . وهنا أقبل
 الحب .

وتصرّم شهرٌ كامل قصد ماريوس ، خلاله ، الى حديقة

الوكسومبورغ كل يوم . فما إن تحين تلك الساعة حتى يعجز كل شيء عن إبقائه بعيداً عن ذلك المكان . وكان كورفيراك يقول : « لقد آن وقت خدمته العسكرية » . وكان ماريوس يجا في جذل . ومن الثابت أن الفتاة الشابة قد نظرت إليه .

وكان قد أمسى أكثر جراءة ، فهو يقترب من المقعد أكثر من ذي قبل . بيد أنه لم يمرّ بذلك المقعد بعد ، على الإطلاق ، مطيعاً في آن معاً غريزة الخوف وغريزة الفطنة اللتين يسمّيز بها العشاق . لقد قدّر أن من الخير له أن لا يلفت « انتباه الأب » . لقد نظّم محطّاته خلف الأشجار وقواعد التنايل في ميكافيلية صميمة بحيث تستطيع الفتاة الشابة أن تراه أكثر ما يكون ، وبحيث يستطيع الرجل المعجوز أن يراه أقل ما يكون . وفي بعض الأحيان ، كان يقف جامداً ، طوال نصف ساعة ، خلف قتال ل « ليونيداس » * أو ل « سبارتاكوس » ** أو غيرها ، وفي يده كتاب كانت عيناه ترتفعان من فوقه على مهل ، وتبعثان عن الفتاة الجميلة ، فيما كانت هي بدورها تدير نحوه جانباً من وجهها الفاتح ، في ابتسامة غامضة . وفيما هي تتحدث بأكثر ما يكون من الطبعية والسكينة مع الرجل ذي الشعر الأشيب ، سدّدت إلى ماريوس عيناً عذراء مفرمة مستترقة في الاحلام . وإذ إنه لفنّ عتيق سابق كل تاريخ - فنّ عرفته حواء منذ اليوم الأول من أيام العالم ، وتعرفه كل امرأة منذ اليوم الأول من حياتها ! كان لسانها يجيب أحدهما ، وكانت عينها تجيب الآخر .

ويجب أن نفترض ، مع ذلك ، أن ميو لوبلان أدرك شيئاً من

* Léonidas الأول ، ملك اسبارطة من عام ٤٩٠ الى عام ٤٨٠ قبل المسيح ، وقد قضى في ميدان المركة ، مع ثلاثة من الاسبارطيين ، وهو يقاوم الجيوش الفارسية .

** Spartacus هو زعيم العبيد الثائرين في وجه القوات الرومانية ، وقد قُتل عام ٧١ بعد أن صمد في وجه الرومان ستين . وبلغ عدد المنضوين تحت لوائه في وقت من الاوقات سبعين الف رجل .

هذا آخر الامر ، اذ كان ينهض في كثير من الاحيان ويتمشى حالماً
 بجيء ماريوس . كان قد ترك مكانها المألوف ، واتخذ المقعد القائم عند
 الطرف الآخر من المجاز ، قرب تمثال د المقاتل ، وكأنما كان يريد ان
 يرى آيتبعه ماريوس أم لا . ولم يفهم ماريوس شيئاً من هذا ،
 وارتكب تلك الغلطة . وأمسى د الاب ، اقل محافظة على المواعيد ،
 ولم يعد يصطحب د ابنته ، كل يوم . كان يفد في بعض الاحيات
 وحده . وفي مثل هذه الحال ، كان ماريوس يسارع الى مغادرة
 الحديقة . غلطة اخرى .

ولم يحترس ماريوس من هذه الاعراض قط . كان قد انتقل من
 مرحلة الخوف - وهو تقدم طبيعي - محتوم - الى مرحلة العسى . كان
 حبه قد نما . لقد امسى يراها كل يوم في ما يرى النائم . والى ذلك ،
 فقد آلت به سعادة غير مرتقبة ، فكان هذا اشبه بالزيت 'صب' على
 النار ، ومن ثم ضربت على بصره غشاوة مزدوجة . فذات مساء ،
 عند الفسق ، وجد على المقعد الذي فارقه د ميرو لوبلان وابنته ،
 منذ لحظة ، منديلاً - منديلاً بسيطاً غير مطرز ، ولكنه ابيض ،
 رقيق ، بدا لماريوس وكأنه يتنفس بأطياب تمتنع عن الوصف . وأمسك به
 في تهلل . وكان ذلك المنديل مُعلماً بحرفي U.F ؛ ولم يكن ماريوس يعرف
 شيئاً عن هذه الطفلة الجميلة ، لم يكن يعرف اسرتها ، او اسمها ، او بيتها .
 كان هذان الحرفان اول شيء عثر عليه ماريوس منها ، وكانا حرفين
 أولين من اسم معبود ، شرع يشيد فوقهما قصره . كان واضحاً ان اسمها
 الصغير يبدأ بـ U . وقال في ذات نفسه : د أورسول ، ياله من
 اسم حلو ! ، وقبل المنديل ، وشم اريجيه ، ووضعه فوق قلبه ، وعلى
 جسده في ساعات النهار ، وكان لا ينام ليلاً الا وقد وضعه على سفتيه .
 وصاح :

- د إني أستشعر روحها كلها فيه ! -

وكان ذلك المنديل للرجل المعجوز الذي تركه يسقط ، بكل بساطة ،
من جيبه .

وفي الايام التي عقت عثوره على هذه اللقبة لم يظهر في اللوكسمبورغ
قط إلا مقبلاً هذا المنديل ، واضعاً اياه على فؤاده . ولم تفهم الطلقة
الجليلة شيئاً من هذا ، وأعلمته بذلك بايماءاتٍ لم يرها .

وقال ماريوس :

- « يا للحياء ! »

٨

حتى مشوهو الحرب يمكن ان يكونوا محظوظين

وما دمنّا قد لفظنا كلمة « حياء » ، وما دمنّا لا نخفي شيئاً ،
فيتعين علينا أن نقول إن « أورشول » تلك ، قد انزات به ذات
يوم - من خلال نشوته الروحية كلها - اذىً خطيراً . وكان ذلك يوم
حلت مسيو لوبلان على مفادرة المقعد والقيام بنزهة في مجاز الحديقة .
وهبت ربيع شمالية عنيفة ونحت أعالي شجرات الدلب . وكان الاب
وابنته قد اجتازا ، منذ لحظة ، بقعد ماريوس . فما كان منه إلا أن
نهض خلفهما ، وأتبعهما بصرة ، وهو امرٌ طبيعي في مثل هذه الحال
من الوله والهيام .

وفجأةً هبت من جانب المغرس ربيعٌ اشدّ بأساً من سابقتها
- ولعلها كانت مكلفةً القيامَ بمهامّ الربيع الصغرى - واندفعت نحو
المجاز فطوّقت الفتاة الشابة بارتماشة فاتنة جديرة بعرائس الماء عند

فرجيل ، وآلهات الاحراج عند تيوقريط * ، ورفعت تنورتها ، تلك التنورة المقدسة اكثر من تنورة إيزيس ، الى مستوى رباط الساق تقريباً . لقد كشفت تلك الربيع عن ساق ذات قالب رائع . ولقد رأى ماريوس تلك الساق ، فاستبد به الحنق والسخط .

وكانت الفتاة الشابة قد سارعت الى خفض التنورة في حركة بحفلة على نحو رائع ، ولكن ذلك لم يخفف من سخطة البتة . لقد كان وحده في ذلك المجاز ، هذا صحيح . ولكن كان من الجائز ان يكون هناك شخص ما . ولو قد كان شخص ما هناك ! يستطيع المرء ان يفهم شيئاً مثل هذا ؟ إنه لفظيح هذا الذي اقدمت عليه ! وأسفاه ! إن الطفلة المسكينة تفعل شيئاً . فلم يكن ثمة غير مذهب واحد : الربيع . ومع ذلك ، فإن ماريوس - الذي ارتجف في ذات نفسه ، على نحو مبهم ، بارتولو * * ذاك الذي يمكن أن ينطوي عليه ملاك من الملائكة الكرويين - كان مصمماً على أن يكون ساخطاً ، وكان غيوراً من خياله . ذلك بأنه على هذه الصورة تستيقظ غيرة الجسد المريرة والمعجية ، في القلب البشري وتفرض نفسها على الانسان ، ولو من غير حق . والى هذا ، وبصرف النظر عن هذه الغيرة ، فانه لم يجد شيئاً مستعجباً في مشهد تلك الساق الجميلة ؛ كان الجورب الابيض الذي تلبسه ابناً امرأة اخرى خليقاً بأن يوقع في فؤاده سروراً أعظم .

وحين رجعت « أورشول » - هي ومسيو لوبلان ، بعد أن بلغت أقصى المجاز - ومرت بالمقعد الذي عاود ماريوس الجلوس عليه ،

* Théocrite شاعر إغريقي (ولد حوالي ٣١٠ أو ٣٠٠ قبل الميلاد) وكان يمتاز بشدة حساسيته ، وبعد خياله ، وقوة ملاحظته الواقعية . ويعتبر مخترع الشعر الذي يصف حياة الرعاة .

* Bartholo احدى شخصيات « حلاق اشيلية » لبومارشيه ، وهو لا يزال الى اليوم نموذجاً للوصي القبور الكثير الشكوك .

رشفها ماريوس بنظرة فظة ضاربة . وتصدّرت الفتاة الشابة ، بعض الشيء ، ورفعت اجفانها على ذلك النحو الذي يقول : « حسن ، ما الذي أصابه ؟ »

كان ذلك هو « خصامها الأول » .

ولم يكد ماريوس ينتهي من ذلك التوبيخ الذي وجهه اليها بعينه حتى عبرَ الجاز شخص ما . وكان ذلك الشخص مشوّهاً من مشوهي الحرب ، محدودب الظهر احديداً كاملاً ، مفضّن البشرة شديد الشحوب الى حد بعيد . وكانت يرتدي بذلة عسكرية من طراز لويس الخامس عشر ، ويضع على صدره تلك الرقعة البيضاء المصنوعة من جوخ احمر والمرسوم عليها سيفان متقاطعان ، وسام القديس لويس الخاص بالجند . وكانت ذلك المشوّه يزّدان ايضاً برؤن متركبة ليس في داخلها ذراع ، وبذقن فضية ، وساق خشبية . وحسب ماريوس أنه رأى سباً من الارتياح البالغ تطفو على وجه ذلك المخلوق . بل لقد بدا له ان ذلك المعجوز الوقع وجهه اليه فيما هو يعرج على مقربة منه عرجاً خفيفاً ، غمزة أخوية جدّاً ، مبتهجة جدّاً ، وكأنها تواطأ بمصادفة ما ، على أمر ، واستنمعا معاً بسعادة غير مرتقبة . أي شيء رآه فضلة « مارس » * هذا حتى يغلب عليه السرور ؟ ما الذي جرى بين هذه الساق الخشبية وبين تلك الساق ؟ لقد عصفت بماريوس عاصفة من الغيرة . وقال في ذات نفسه : « لعله كان على مقربة منها ! لعله قد رآها ! » وتغنى لو يستطيع أن يبيد ذلك المشوّه .

وبمعونة الزمن ، يتثلثم كل حدّ قاطع . وهكذا فان غضب ماريوس على أورسول ، مهما يكن عادلاً ومشروعاً ، لم يلبث ان زال . وغفر لها آخر الأمر ، ولكن ذلك اقتضاه جهداً كبيراً . لقد أظهر لها استيائه ثلاثة أيام .

* الة الحرب . وهو يقصد بـ « فضلة مارس » مشوّه الحرب ذاك .

وفي غضون ذلك ، وبرغم هذا كله ، بل بسبب من هذا كله ، كان
هيامه يتعاضم ، ويفدو مجنوناً .

٩

خسوف

لقد رأينا كيف اكتشف ماريوس ، او اعتقد انه اكتشف ، ان
اسمها كان أورسول .

ان الجوع يشي مع الحب جنباً الى جنب . لقد كانت معرفته لاسمها
شيئاً ذا شأن ، ولكنها لم تكن كافية . ففي مدى ثلاثة اسابيع او اربعة
اسابيع ، التهم ماريوس هذه السعادة . ومن ثم كان في حاجة الى سعادة
اخرى . لقد اراد ان يعرف أين تسكن .

كان قد ارتكب خطيئة الوقوع في شرك المقعد المجاور لتمثال
« المقاتل » . وكان قد ارتكب خطأ آخر عندما احجم عن البقاء في
حديقة اللوكسومبورغ كلما أقبل مسيو لوبلان وحده اليها . ولقد ارتكب
الآن خطأ ثالثاً ، خطأ هائلاً : لقد سار على آثار أورسول .

كانت تسكن في « شارع الغرب » ، بل في جزئه الأشد انعزالاً ،
في منزل جديد متواضع المظهر مؤلف من ثلاثة ادوار .

ومن ذلك الحين اضاف ماريوس الى سعادته برؤيتها في حديقة
اللوكسومبورغ سعادة السير خلفها حتى منزلها .

وتعاضم جوعه . لقد عرف اسمها ، اسمها الاول على الاقل ، ذلك
الاسم الفاتن ، ذلك الاسم الانثوي الحقيقي . ولقد عرف اين
تسكن . فهو يريد الآن ان يعرف من هي .

وذات ليلة ، بعد ان تبعها حتى المنزل ، وراهما يتواريان خلف باب

العربات ، دخل على آثارهما وسأل البواب في شجاعة :

- « أياكون هذا السيد الذي دخل اللعظة هو سيد الدور الأول ؟ »
فأجابه البواب :

- « لا . إنه سيد الدور الثالث . »

وكانت تلك خطوة أخرى مشاها في طريق المعرفة . وضاعف هذا النجاح جرأة ماريوس .

وسأل البواب :

- « من الجهة الامامية ؟ »
فأجابه :

- « يا للساء ! إن البيت ليس مبنياً إلا على الشارع . »

-- « ومن هو هذا السيد ؟ »

- « إنه صاحب دخل . رجل طيب جداً كثير الاحسان الى الفقراء على الرغم من انه ليس غنياً . »

فأردف ماريوس :

- « وما اسمه ؟ »

فرفع البواب رأسه ، وقال :

- « أياكون سيدي رجلاً من رجال المباحث ؟ »

وانصرف ماريوس ، وقد غلب عليه الحجل ، ولكنه ما يزال في نشوة عارمة . وتقدم ، وهو يقول في ما بينه وبين نفسه :

- « حسن . انا اعرف أن اسمها اورسول ، وانها ابنة رجل ذي دخل ، وانها تسكن هناك ، في شارع الغرب ، وفي الدور الثالث . »

وفي اليوم التالي لم يقض مسيو لوبلان وابنته في حديقة اللوكسمبورغ غير برهة قصيرة . لقد انصرفا في وضع النهار . وتبعها ماريوس الى « شارع الغرب » جرياً على عادته . حتى اذا انتهيا الى باب العربات ، ادخل مسيو لوبلان ابنته امامه ، ثم توقف قبل ان يجتاز العتبة ، واستدار وحدق

الى ماريوس تحديقاً موصولاً

وفي اليوم الذي تلا، لم يذهب الى حديقة اللوكسومبورغ . لقد انتظره ماريوس هناك طوال النهار ، ولكن من غير طائل . حتى اذا هبط الليل شخص الى شارع الغرب ، فرأى نوراً ينبعث من نوافذ الدور الثالث . وتمشى تحت هذه النوافذ حتى أطفئ النور . وفي اليوم التالي لم يجيء احد الى اللوكسومبورغ . لقد انتظر ماريوس طوال النهار ، ثم مضى ليقوم بواجبه الليلي تحت النوافذ . ولقد شغله ذلك حتى الساعة العاشرة مساء . ولم يتناول طعام العشاء . إن الحمى تقيت المحوم ، وكذلك بقيت الحب الحب .

وسلخ اسبوعاً على هذا النحو . ولم يعاود مسيو لوبلان وابنته الظهور في حديقة اللوكسومبورغ . وراودت ماريوس ظنون كثيفة . ولم يجرؤ على مراقبة باب العربات في اثناء النهار . فاجتزأ بالذهاب ليلاً ليتأمل ضوء زجاج النوافذ الضارب الى الحمرة . وبين الفينة والفينة ، كان يرى ظلالاً تروح ونجيه ، فيخفق فؤاده خفقاناً شديداً .

وفي اليوم الثامن لم يجد ، حين وصل الى المنزل ، ايما ضوء منبعث من النوافذ . وقال :

« ماذا ؟ المصباح لما يُشعل بعد . ومع ذلك فالدنيا ليل ، أم انها قد خرجا الى مكان ما ؟ »

وانتظر . انتظر حتى الساعة العاشرة . حتى منتصف الليل . حتى الواحدة صباحاً . ولكن ضوءاً ما ، لم ينبعث من نوافذ الدور الثالث . ولكن شخصاً ما ، لم يدخل الى المنزل . وانصرف متجهماً كاسف البال . وفي غدير - إذ انتهى الى ان يعيش من غد الى غد ؛ فلم يعد ثمة لديه اذا جاز التعبير ، شيء اسمه « اليوم » - لم يجد احداً في حديقة اللوكسومبورغ . وانتظر . حتى اذا هبط الليل مضى الى المنزل . لم يكن ثمة نور منبعث من النوافذ ، وكانت المصاريع الخارجية موصدة .

كان الدور الثالث مظلماً بالكلية .

وقرع ماريوس باب العربات ، ودخل وقال للبواب :

– « السيد النازل في الدور الثالث ؟ »

فأجابه البواب :

– « لقد انتقل . »

وترنح ماريوس ، وقال في وهن :

– « متى ؟ »

– « أمس . »

– « أين يسكن الآن ؟ »

– « لست ادري شيئاً من ذلك . »

– « اذن ، فهو لم يترك عنوانه الجديد ؟ »

– « لا . »

ورفع البواب أنفه ، فعرف ماريوس .

وقال :

– « ماذا ؟ هذا انت ! ولكنك من غير شك مفوض شرطة

اذن ! »

الكتاب السابع

المعالم مينية

الالغام واللاغمون

إن للمجتمعات الانسانية كلها ما ندعوه في المسارح « الدور التحقي »
 الثالث . والتربة الاجتماعية مزروعة بالالغام في كل مكان ، ابتغاء
 الحير حيناً ، وابتغاء الشر حيناً . وهذه الالغام طبقات بعضها فوق
 بعض . فهناك الالغام العليا ، والالغام السفلى . وهناك قمة وقعر في
 هذه الطبقة تحت الارضية ، المظلمة ، التي تتلف تحت المدينة ، والتي
 تطأها لامبالتنا وإهمالنا بأقدامهما . فالانسيكلوبيديا ، في القرن الماضي ،
 كانت لغماً مزروعاً على سطح الارض ، أو يكاد . والكهوف المظلمة ،

تلك الحاضنات الكالحات الوجوه التي حمت النصرانية البدائية ، كانت تنتظر اول فرصة لكي تنفجر تحت القياصرة ، وتُفرق الجنس البشري بالضياء . ذلك بأن في هذه الدياجير المقدسة نوراً كامناً . فالبراكين ملأى بظلمة قادرة على السطوع والالتماع . وجميع اللحم تبدأ في التكون ليلاً . إن الدياميس * ، التي تلي فيها القداس الأول ، لم تكن غاراً رومة فحسب ، بل كانت كهف العالم .

إن تحت البنية الاجتماعية - هذه الآية المعقدة يتكشف عنها بيت عتيق - لحرراً من كل نوع . فهناك اللغم الديني ، وهناك اللغم الفلسفي ، وهناك اللغم السياسي ، وهناك اللغم الاقتصادي ، وهناك اللغم الثوري . فهذا معولٌ مع فكرة ، وذاك معولٌ مع رقم ، وذلك معولٌ مع انتقام . إنها تتداعى وتتجاوب من كهف الى كهف . وإن المدت الفاضلة تتقدم وتبدأ ، تحت الارض ، في تلك المسالك . إنها تتشعب في كل اتجاه . وهي تلتقي هناك في بعض الاحيان وتتأخى . فجان جاك يعير ديوجين معوله ، وديوجين يعير جان جاك مصباحه . وهي تتقاتل في بعض الاحيان . فكالفين * يأخذ بشعر سوسينيوس **. ولكن شيئاً لا يوقف او يعترض سعي هذه الطاقات كلها نحو غايتها ، والنشاط الضخم المصاحب الذي يروح ويحيى ، ويصعد ، ويهبط ، ويعاود الصعود في هذه الارزاء المظلمة ، والذي يسمو بالاعلى بواسطة الادنى ، والخارجي بواسطة الباطني . تجمهرٌ هائل مجهول . والمجتمع لا يكاد يرقاب بعملية

* الدياميس ، جمع ديماس ، وهي الكهوف التي كان قدماء المسيحيين يختلفون اليها للتعبد سرّاً ، ولدفن موتاهم .

* Calvin المصلح البروتستانتي المشهور الذي نادى بفكرته الإصلاحية في فرنسا وسويسرة ، والذي انشأ جمهورية بروتستانتية في جنيف (١٥٠٩ - ١٥٦٤)

* Socin بروتستانتي ايطالي اسس مذهباً خاصاً يُنب اليه عرف بالمذهب السوسينيوسي (١٥٢٥ - ١٥٦٢)

النفس هذه التي تغير جوهره من غير ان تمس سطحه . أدوار دهليزية كثيرة جداً ، واعمال متفاوتة كثيرة جداً ، وحفر شتى كثيرة جداً . فما الذي ينبثق من هذه التجاريف العميقة كلها ؟ المستقبل . وكلما اعمتنا في الغوص وجدنا القائمين بالعمل هناك اكثر خفاء وغموضاً . فحتى درجة تستطيع الفلسفة الاجتماعية ان تعترف بها ، يكون العمل صالحاً . فاذا تعدت تلك الدرجة أمسى مريباً مشوباً . اما بعد ذلك فيغدو فظيماً . وعند عمق بعينه تصبح الحفرة كتوماً لا تنفذ اليها روح الحضارة ، ويُخطئ مجال الانسان التنفسي . عندئذ يصبح وجود المَوَل مكنأ .

والسلم الهابطة غريبة حقاً . إن كلاً من درجاتها توافق موطناً تستطيع الفلسفة أن تضع قدمها عليه ، موطناً نعتز فيه على احد هؤلاء العمال ، الالهيين حيناً ، البشعيين حيناً آخر . فتحت جان هُسن * نجد لوثر ؛ وتحت لوثر نجد ديكارت ؛ وتحت ديكارت نجد فولتير ؛ وتحت فولتير ؛ نجد كوندورسيه ؛ وتحت كوندورسيه نجد روبسبير ؛ وتحت روبسبير نجد مارا ؛ وتحت مارا نجد بابوف *** . وهكذا دواليك . فاذا غُصنا الى أبعد من ذلك ، وسط الاختلاط والتشوش ، وبلغنا الحد الفاصل ما بين غير الواضح وغير المنظور ، لحنا في الظلمة رجالاً آخرين ، لعله لم يبقَ لهم اليوم وجود . إن رجال الأمم أشباح . وإن رجال الغد يرقانات . إن عمل المستقبل الجنيني إحدى رؤى الفيلسوف .

عالم جنيني في السدوم . أية صورة مظلمة رائعة !

* Husa مصلح ديني تشيكي حكم عليه بالموت حرقاً (١٣٦٩ - ١٤١٥)
 ** Babeuf ثوري فرنسي (١٧٦٠ - ١٧٩٧) تأمر ضد حكومة الادارة ، وانتحر طاعناً نفسه بالخنجر قبل أن يصمد الى المشقة . ويعرف مذهبه ، الذي كان ضرباً من الشيوعية ، بالبابوفية . Babouvisme

وسان سيمون ، وأووين ، وفورييه هم هناك ايضاً ، في حُفَر جانبية .

وعلى الرغم من أن سلسلة السّهيّة غير منظورة تربط هؤلاء الرواد الدهليزيين الذين يعتقدون دائماً تقريباً انهم منعزلون ومع هذا فهم ليسوا كذلك ، فان ألوان نشاطهم تختلف جداً ، وان ضياء بعضهم ليتغير مع لهيب بعضهم الآخر . بعضهم فردوسيون ، وبعضهم مأساتيون . ومع ذلك ، وأياً ما كان التغير الذي بينهم ، فان قاسماً مشتركاً يجمع ما بين هؤلاء العاملين جميعاً ، من أسماهم الى أقتهم ، ومن اكثرهم حكمة الى اشدّهم حماقة ، وهو النزاهة . ان مارا ، مثل يسوع ، لينسى نفسه . انهما يطرحان نفسيهما جانباً ؛ انهما يُغفلان نفسيهما ؛ انهما لا يفكران بنفسيهما البتة . انهما يريان شيئاً آخر غير نفسيهما . ان في اعينهما نوراً ، وهذا النور يبعث ابدأ عن المطلق . اما الأول فالسواء كلها منظوية في عينيه . وأما الآخر فيبدو تحت حاجبيه ، برغم لُغزيتّه كلها ، ضياء اللانهاية الشاحب . فلنقدّس كل من يحمل هذه العلامة ، « الحديقة النجم » ، كائناً من كان . إن « الحديقة الظلمة » هي العلامة الاخرى .

بها يبدأ الشرّ . وأمام من لا نور في عينه يتعين عليك ان تفكر وترتجف . إنّ للنظام الاجتماعي لاغيه السود .

هناك نقطة ينتهي زرع الالغام فيها الى ان يصبح دفناً ، وينطفئ عندھا الضياء .

وتحت جميع هذه الالغام التي اشرنا اليها ، تحت جميع هذه الدهاليز ، تحت مجموعة العروق الهائلة المحجوبة ، عروق التقدم والمدينة الفاضلة ، وعند نقطة أعمق في باطن الارض ، في موقع ادنى من موقع مارا ، وادنى من موقع بابوف ، اجل ادنى ، أدنى بكثير ، ومن غير ان تكون بينها وبين الدهاليز العليا صلة ما ، تقع الحفرة الاخيرة . مكانٌ رهيب . ذلك ما دعونا « الدور التحفّي » الثالث ، . إنه قبر الظلمات .

إنه كهف العيان . Inferi *
وهو متصل بالهوى . **

٢

الدرك الأسفل

هناك تتلاشى النزاهة . إن الشيطان ليرتسم على نحو غامض ؛ وكل
يعمل من أجل ذاته . إن « أنا » العياء تعوي ، وتبحث ، وتتجسس
طريقها في الظلام ، وتقرض . إن « اوغولينو » *** الاجتماعى لفي
هذه المهوة .

إن الصور الشرسة المظلمة التي تطوّف في هذا القبر ، شبيهة بالبهائم
شبيهة بالأطياف ، لا تُعنى بالتقدم الكلي . إنها تُنكر الفكرة والكلمة ؛
وليس لها من همٍّ غير إرواء غليلها الفردي . إنها تكاد أن تكون
لاواعية ، وإن فيها لضرباً من الاندثار الرهيب . إن لها أميين ، كلتاهما
امرأة أب ، الجهل والبؤس . وإن لها هادياً هو الحاجة . والشكل
الأوحد الذي تعرفه ، من أشكال الارتياح ، هو الشهوة الى الطعام .
إنها نهمة على نحو بهيمي ، يعني أنها ضارية ، لا على طريقة الطاغية
ولكن على طريقة التبر . ومن المحنة تنتقل هذه البرقانات الى الجريمة .
بنوة محتومة . تناسل يوقع الدثوار في الرأس ، منطق الظلام . وإن
ذلك الذي يدب في « الدور التحتي » الثالث ، هذا ، لم يعد البحث

* باللاتينية ، وتني جهنم او الجحيم .
** الهوى : جمع هوة .

*** Ugolin Della Cherardesca طاغية يبرأ الرهيب وند حبه اعداؤه في احد
الابراج ليموت جوعاً (القرن الثالث عشر للميلاد) .

المكظوم عن المطلق ؛ إنه احتجاج المادة . إن الانسان هناك ليصبح
تنبأ . والجوع والظلم هما نقطة الانطلاق . والشيطان هو نقطة
الوصول . من هذا الكهف ينبثق لاسينير * .

لقد رأينا في الكتاب الرابع ، منذ لحظة ، إحدى طبقات اللغم
الاعلى : اللغم السيامي ، الثوري ، الفلسفي الكبير . هناك ، كما قلنا ،
كل شيء نبيل ، طاهر ، جليل ، فاضل . صحيح أن المرء ، هناك ، قد
يُخدع ، وأنه ليُخدع ، ولكن الخطأ هناك مدعاة للاحترام لما ينطوي
عليه من بطولة بالغة . وليس لجماع العمل الذي يتم هناك غير اسم
واحد ، هو التقدم .

ولقد آن لنا ان نلقي نظرة على أعماق أخرى ، أعماق الرعب .
ان تحت المجتمع - ونحن نصرّ على ذلك ، كهفاً ضخماً هو كهف
الشر ، ولسوف يظلّ هذا الكهف قائماً تحت المجتمع الى يوم يزول
الجلل .

وانما يقع هذا الكهف تحت ذلك كله ، وأنه لعدوّ لذلك كله . انه
البغض الذي لا يقبّده استثناء . وهذا الكهف لا يعرف فلاسفة البتة .
ان مديته لم تبرّ يراعة ما ، في يوم من الأيام . فليس لسواده ايما
صلة بسراد المحبرة السني . ان اصابع الليل المتشنجة تحت هذا السقف
الخائى لم يُقدّر لها ان قلبت صفحات كتاب ، او بسطت جريدة قط .
ان بابوف محتال في نظر كارتوش ، وان مارا اريستوقراطي في نظر
شيندروهان . ان لذلك الكهف هدفاً ، هو انهيار كل شيء .

اجل كل شيء . حتى الألغام العليا التي يُبغضها . إنه لا ينسف ،
في ديبه الخيف ، نظام العصر الاجتماعي فحسب ، بل إنه ينسف الفلسفة ،
إنه ينسف العلم ، إنه ينسف القانون ، انه ينسف الفكر الانساني ،
انه ينسف الحضارة ، انه ينسف الثورة ، انه ينسف التقدم

* Lacenaire مجرم سفاح أعدم في باريس (١٨٠٠ - ١٨٣٦)

ايضاً . وهو يسمّى ، بكل بساطة ، اللصوصية ، والبغاء ، والقتل ، والاعتقال . انه مظلم ، وهو محبّ الفوضى . ان قنطورته مصنوعة من الجهل .

والطبقات الأخرى التي تعلوه ليس لها كلها غير غرض واحد : أن تقضي عليه . ومن اجل هذا الغرض تعمل الفلسفة والتقدم بوسائلها جميعاً في آنٍ معاً ، باصلاح الواقع وإنعام النظر الى المطلق على حدّ سواء . دمّروا الكهف المسمّى الجهل ، تقتلوا الحُلْدَ المسمّى الجريمة . ولسوف نكتفّ في بضع كلمات جزءاً بما قلناه اللحظة . ان الخطر الاجتماعي الأوحده هو الظلام .

الانسانية هي وحدة الذات . فالتناس كلهم مجبولون من طين واحد . لا فرق ، هنا في هذا العالم على الاقل ، في القضاء والقدر . الظلمة نفسها قبل الحياة ، والجد نفسه في اثنائها ، والرفات نفسه بعدها . ولكن الجهل ، بمتزجاً بالجليلة الانسانية ، يسودها . وهذا السواد الذي لا يُبرء منه يستحوذ على قلب الانسان ، ويتحوّل هناك الى الشر .

٣

بابيه ، غولوميه ، كلاكسو ، ومونبارناس

كان رباعيّ من قطاع الطرق - كلاكسو ، غولوميه ، بابيه ، ومونبارناس - يهيمن على دور باريس التحتيّ الثالث من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٣٥ .

كان غولوميه جباراً مُبْعِداً عن ميدانه الطبيعيّ . وكان جُحْرُهُ بِالْوَعَةِ « آرش ماريون » . كان طوله يبلغ ستة اقدام ، وكان ذا صدر وخاميّ ، وعضلات نحاسية ، ورثتين كهفيتين ، وجذع مثال فائق

الضخامة ، وجبهة عصفور . ويحفل اليك اذ تراه انك ترى الى فارنيز * الجبار لابساً بنطلوناً من نسيج كتاني مشدود ، وصدره من نخل قطني . وكان في استطاعة غولوميه ، وقد انشبه على هذا النحو النقشي ، أن يقرر الموكل ، ولكنه وجد أن من الأسير عليه أن يصبح هو واحداً منهم . جبين منخفض ، صدغان عريضان ، وسنّ دون الاربعين ، وقدم اوزة ، وشعر قصير خشن ، وخذّ سائب ، ولحية خنزيرية برية ، ومن خلال هذا كنت ترى الرجل . كانت عضلاته تلتصق بالعمل ، ولكن حماقة لم تكن راغبة في شيء من ذلك . كان قوة هائلة كسولاً . كان مفتاحاً بالتناقل والتواني . ولقد كان الناس يحسبونه من مواليد المستعمرات . واغلب الظن انه كان في بُرديه شيء من المارشال برون ** ، اذ كان بواباً في آفينيون عام ١٨١٥ . ومنذ تلك الفترة امسى قاطع طريق .

وكانت شفافية « بابيه » تتغير تغيراً واضحاً مع لمانية غولوميه . كان بابيه نحيلاً حاذقاً . وكان شفافاً . ولكنه مُغلق لا ينفذ المرء الى سريره . كان في ميسورك ان ترى النور من خلال عظامه ، ولكن لم يكن في ميسورك ان ترى شيئاً من خلال عينيه . كان يدعي انه كيميائي . ولقد عمل مشعوذاً عند بوبيش ، ومهرجاً عند بوبينو . وكان قد مثل بعض ادوار الفودفيل في سان ميهيل . كان رجلاً متكافئاً ، ومحدثاً بارعاً ، يضع خطأ تحت ابتساماته ويقيد ايماءاته بمزدوجين . كانت تجارته بيع رسوم « رئيس الدولة » وتماثيله النصفية المصنوعة من الجبس ، في الشوارع . وفق هذا ، فقد مارس خلع الاضراس . كان

* Farnèse رجل حرب وسياسة (١٥٤٥ - ١٥٩٢) ولد في رومة وتولى الحكم في « الاراضي المنخفضة » ، وقد وجهه فيليب الثاني الى فرنسا لتجدة الكاثوليك .

** Brune مارشال فرنسا (١٧٦٣ - ١٨١٥) وقد لمع نجمه خلال حملتي هولندا واطالية ، ولقي حتفه في آفينيون خلال الارهاب الابيض (١٨١٥) .

قد عرض بعض الفرائب في الاسواق الموسمية ، وكان له دكان خشبي ذو بوق وهذه اللفتة : « بابيه ، فتان في طب الاسنان ، عضو في الجامعات العلمية ، يجري تجارب فيزيائية على المعادن واشباه المعادن ، يقتلع الاسنان ، ويستأصل جذورها المكسورة التي خلفها اطباء الاسنان الآخرون . التعرقة : سنّ واحدة ، فرنك وخمسون سنتياً . ستان ، فرنكان . ثلاث اسنان ، فرنكان وخمسون سنتياً . اغتنموا الفرصة » (وكانت عبارته « اغتنموا الفرصة » هذه تعني اقلعوا اكبر عدد ممكن من اسنانكم .) وكان قد تزوج ، وكان قد انجب اولاداً . اما ما حلّ بزوجه واولاده فذلك شيء لم يكن يدريه . لقد اضاعهم كما يضع المرء منديله . وكان بابيه يقرأ الصحف ، وهي ظاهرة فريدة في العالم المظلم الذي ينتمي اليه . وذات يوم ، حين كانت امرته معه في دكانه النقتال ، قرأ في جريدة « الرسول » ان امرأة وضعت طفلاً تبدو عليه قابلية الحياة ذا وجه كوجه العجل ، فصاح : « هذا حظ عظيم ! إن زوجتي ليس عندها من الذوق ما يحملها على ان تلد لي طفلاً كهذا . » ومن ذلك الحين ترك كل شيء لكي « يهيم على باريس » ، كما عبّر هو نفسه .

اي شيء كان كلاكو ؟ كان الليل . فقبل ان يبرز للناس كانت ينتظر حتى تتسبخ السماء بالسواد . وعند المساء ، كان يخرج من جُحره ليعاود دخوله قبل ان يرتفع الضحى . اين كان ذلك الجحر ؟ ان احداً لم يعرف ذلك . وفي الظلمة الأشد حلكة ، لم يكن يخاطب شركاه في الجريمة الا مولياً ايام ظهره . أكان اسمه كلاكو ؟ لا . كانت يقول : اسمي « لا شيء » على الاطلاق . وكان اذا ما جيء بشمعة لبس قناعاً . وكان يتكلم وكان صوته يخرج من بطنه . واقصد قال بابيه : « كلاكو طائر ليّ ذو صوتين . » كان كلاكو قلقاً ، تائهاً ، فظيماً . وليس من الراهن أنه كان له اسم ، فكلاكو ليس

غير لقب . وليس من الراهن أنه كان له صوت ، اذ كان بطنه هو الذي يتكلم في أغلب الاحيان لا فيه . وليس من الراهن انه كان له وجه ، اذ لم يقدّر لأحد ان يرى شيئاً قط غير قناعه . كانت يختفي وكأنه قد تلاشى . وكان ظهوره انبثاقاً من الارض .

أما مونبارناس فكان مخلوقاً فاجعاً . كان مونبارناس طفلاً ، فهو لما يبلغ العشرين بعد ، وكان وسيماً ذا شفتين اشبه شيء بجستي الكرز ، وغدائر فاتنة سوداء ، يلتصع في عينيه ضياء الربيع . لقد جمع الرذائل كلها ، وطمح الى الجرائم كلها . فقد كان هضم الرديء يحرك شهوته الى ما هو اردأ . كان هو المتشرد متحولاً الى زقاقى داعر ، ولقد أمسى الزقاقى سفاحاً . كان لطيفاً ، غشياً ، أنيقاً ، قوياً ، رخصاً ، ضارباً . وكان يعتمر بقبعته مائلة الى اليسار لكي يفسح المجال لحصاة الشعر وفقاً لزيّ عام ١٨٢٩ . لقد عاش باللصوصية . وكانت ستوته مفصلة على أجل موضة ، ولكنها رثة متقطعة الحياوط . والحق ان مونبارناس كان رجلاً مثالي الاناقة يحيا في بؤس ، ويرتكب جرائم القتل . وكان السبب الذي من اجله ارتكب هذا المراهق تلك الجرائم كلها رغبته في ان يكون حسن البزة . كانت اول عاملة مغناجة قالت له : « أنت جميل ، قد ألفت أدران الظلمة في فؤاده ، وجعلت من « هابيل » هذا « قاييناً » * آخر . واذا خيل اليه أنه جميل المحيّا ، فقد أراد ان يكون أنيقاً . واول الاناقة البطالة ، وبطالة الفقير هي الجريمة . ان قليلاً من المطوفين في الليل التماساً للفريسة كانوا مرهوبي الجانب مثل مونبارناس . كان قد خلف وواءه ، وهو بعد في الثامنة عشرة ، عدداً وافراً من الجثث . وكان اكثر من عابر سبيل واحد يرقد ، في ظلمة هذا البائس ، مبسوط الذراعين ، غارقاً وجهه في بركة من الدم . فتيّ

* واضح ان التنوين هنا هو تنوين التنكير ، والمقصود رجلاً قاتلاً مثل قايين الوارد ذكره في الكتب المقدسة .

جعد الشعر ، مطيب براهيم الرأس الخاصة ، ذو جذع كجذع ضابط
بروسي ، تحيط به وشوشات الاعجاب الصادرة عن فتيات الجادة ، وقد
عقد رباط عنقه في دراية بالغة ، ووضع في جيبه عصا قصيرة رصاصية
الطرف ، وعلّق في عروته زهرة - كذلك كان فتي القبور ذاك ،
المعجب بنفسه .

٤

تكوّن الشرذمة

وشكّل قطاع الطرق الاربعة هؤلاء شبه « بروتيه » * فهم يلقون
من حول الشرطة ، ويحاولون اجتناب نظرات « فيدوك » ** الفضولية
تحت اشكال مختلفة : « شجرة ، او شعلة ، او ينبوع » ، ويستعير بعضهم
اسماء بعض وحيتهم ، متوارين في ظلالهم ، ويجعل كل منهم نفسه مخبأ
وملجأ للآخرين ، مطّرحين شخصياتهم كما ينزع المرء انفه الزائف في حفلة
رقص مقنعة ، مبسّطين أنفسهم في بعض الاحيان حتى ليصبحوا شخصاً
واحداً ليس غير ، مضاعفين انفسهم في بعضها الآخر حتى ليحسبهم « كوكو
لاكور » نفسه حشداً غفيراً .

وهؤلاء الرجال الاربعة لم يكونوا رجالاً اربعة . كانوا ضرباً من
لص عجيب ذي اربعة رؤوس يعيث فساداً ، على نطاق واسع ، في

* Protée في الميثولوجيا ، الاله بحري منحه أبوه ، نبؤون ، القدرة على
النبؤ ، ولكنه كان يرفض الكلام في كثير من الاحيان ، فكان يغير شكله حيناً
بعد حين تخاصاً من الخاج السائلين .

** Vidocq مغامر فرنسي (١٧٧٥ - ١٨٥٧) شغل مديرية الشرطة بعد ان
كان شريراً محكوماً عليه بالاشغال الشاقة .

باريس . كانوا أخطبوط الشر المروّع ، ساكناً في مرداب المجتمع .
وبفضل فروعهم المتشعبة وشبكة صلاتهم الخفية ، سيطر بابه ، وغولوميه ،
وكلاكسو ، ومونبارناس على صناعة المكائيد العمامة في مديرية السين .
كان مبتدعو الافكار في هذا الحقل ، وهم رجال اصحاب خيال ظلامي ،
يفدون اليهم التماساً للتنفيذ . كانوا يزودون الاوغاد الاربعة بالخطوة المفردة
فينهضون بعبة ، إخراجها الفني . كانوا يعملون على أساس تصميم موضوع ،
وكانوا دائماً على استعداد لأن يقدموا جماعة تتناسب مع ايما محاولة للاغتيال
تحتاج الى مساعدة ، وتنطوي على كسب . وإنهم يقدمون الى كل جريمة
يعوزها العצל من يشارك فيها . ان عندهم شرذمة من يمني الظلمة تحت
تصرف كل مأساة من مآمي المغاور .

وكانوا يجتمعون عادة حين يهبط الليل ، وهي ساعة استيقاظهم ،
في الارض البور المجاورة لـ « لاساليتريير » . هناك كانوا يتذكرون .
كانت الاثنتا عشرة الساعة المظلمة امامهم ، فهم يوزعون العمل وينظمونه .
المعلم مينيت - ذلك هو الاسم الذي أطلق في المجتمع تحت الأرضي -
على هؤلاء الرجال الاربعة مجتمعين . وفي اللغة الشعبية الغريبة العتيقة ،
التي تندثر يوماً بعد يوم ، يفيد قولهم « المعلم مينيت » الصباح ، كما يعني
قولهم « بين الكلب والذئب » المساء . وأغلب الظن أن هذا اللقب ،
المعلم مينيت ، ناشيء عن الساعة التي ينتهي بها عملهم ، اذ كان الفجر هو
ميعاد اختفاء الاشباح وتفرق اللصوص . لقد عرف هؤلاء الاربعة بهذا
اللقب . وحين زار رئيس محكمة الجنايات السفاح لاسينير في سجنه
استجوبه عن جريمة انكرها لاسينير ، فسأله : « من الذي ارتكبها ؟ »
فاجابه لاسينير بهذا الجواب الذي كان ملفزاً عند القاضي ، ولكنه واضح
عند الشرطة : « لعله المعلم مينيت » .

إن في استطاعة المرء ، احبائاً ، ان يتخيل المسرحية من مجرد
الاطلاع على اسماء أبطالها . وكذلك نستطيع ايضاً ان ندرك على نحو

تقريباً ماهية عصابة ما من مجرد الاطلاع على لائحة لوصفها المسلحين .
وها نحن نقدم ههنا الألقاب التي كان مساعدو المعلم مينيت الرئيسيون
يستجيبون لها ، فهذه الاسماء محفوظة في الوثائق :

بانشو ، المسمى بـ « برينتانبيه » وبـ « بيغروناي » .
بروجون . (كان ثمة سلالة من الـ « بروجون » سنتحدث عنها في
ما بعد .)

بولاتروويل ، معبد الطرق الذي سبقت الإشارة اليه .
لافوف .

فينستير .

هومير هورغو ، وهو زنجي .

مارديسوار .

دييش .

فونتوروا ، المسمى بوكوتير .

غلوريو ، وهو أشغالي مطلق السراح .

باركاروس ، المسمى ميو دوبون .

ليبلاناد دو سود .

بوساغريف .

كارمانويله .

كرويدونيه ، المسمى بـ « بيزارو » .

مانجودانتيل .

ليبيه آن لير .

دومي ليار ، المسمى دو ميّار .

النخ .

ولقد ضربنا صفحاً عن بعضها ، وليس ذلك الذي أهملناه بالأسوأ .
ولهذه الاسماء وجوه . إنها لا تعبر عن كائنات فحسب ، بل عن أنواع

من الكائنات . إن كلاً من هذه الاسماء يطابق فئة من فئات الفطر
الشائنة تلك ، النامية في سراديب الحضارة .

وتلك الكائنات ، التي لا تسخو بوجودها الا قليلاً ، لم تكن من
تلك التي نمر بها في الشوارع . ففي النهار ، بعد ان تكون لياليها
الضارية قد أنصبتها ، تستسلم الرقاد ، في افران الجلس حيناً ، وفي مقالع
مونغارتر او مونروج المهجورة حيناً ، وفي البواليع حيناً . إنهم يختبئون
في اجحار .

ما الذي حلّ هؤلاء الرجال ؟ إنهم لا يزالون على قيد الحياة .
ولقد كانوا دائماً على قيد الحياة . ان هوراس قد قال فيهم
Ambubaiarum collegia, pharmacopolae, mendici, mimae وما دام المجتمع كما هو ،
فلسوف يظنون كما هم . فتحت سقف كهفهم المظلم ، ما يفتأ هؤلاء
القوم ينشأون من جديد نتيجة للارتشاح الاجتماعي . انهم يعاودون الظهور
اسباحاً ، شأنهم دائماً . ولكنهم لا يحملون الاسماء نفسها . لقد خلعوا
جلدهم القديم ، وبرزوا بجلد جديد .

الافراد قد أيدوا ، ولكن القبيلة ما تزال باقية .

ان لهم مواهبهم نفسها دائماً . ومن الشحاذ الى المتلصص في جوف
الليل يحتفظ العيرق بنقاء دمه . انهم يتكهنون بمحافظات النقود في
الجيوب ، ويستروحون الساعات في 'جيببات الصدّرات' . ان للذهب
والفضة رائحة في انوفهم . وهناك بورجوازيون 'سذج' يستطيع المرء ان
يقول ان على وجوههم سباً تؤذن بأن في الامكان سرقتهم . ان
اولئك الرجال يتعقبون هؤلاء البورجوازيين في أناة . فما ان يمرّ على
مقربة منهم غريب عن البلد او وافد من الريف حتى تعثرهم ارتعاشة
كارتعاشة العنكبوت .

ومثل هؤلاء القوم يوقعون الرعب في الفؤاد حين يلتقيهم المرء او
يلمحهم من بعيد - حوالى منتصف الليل - في جادة مقفرة .

إنهم لا يبدوون رجالاً ، ولكن اشكلاً 'صنعت من الظلمة الحية . في استطاعتك ان تقول إنهم على العموم جزء لا يتجزأ من الظلمة ؛ إنهم لا يختلفون عنها ، إنهم لا روح لهم غير الدجّة ، وإنهم لا ينسلخون عن الليل إلا آنيّاً ولكي يحبوا بضع دقائق حياة "مضادة" للطبيعة .

إلام نحتاج لكي نجعل اليرقانات تسقط مغشياً عليها ؟ الى النور . الى فيض من النور . فليس من خفاش يستطيع ان يقاوم الفجر . أنيروا أعماق المجتمع السفلى .

الكتاب الثامن

الفقير الشرير

ماريوس ، الباحث عن فتاة ذات قبعة يلتقي برجل ذي قلنسوة

وانقضى الصيف ، ثم انتفى الحريف ، وأقبل الشتاء . ولم يظأ لا
مسيو لوبلان ولا الفتاة الشابة ارض اللوكومبورغ . وسيطرت على
ماريوس فكرة واحدة ليس غير : ان يرى ذلك المحيّا الحلو المعبود ،
مرةً اخرى . وبجث على نحوه موصول ، وبجث في كل مكان ، فلم يجد
شيئاً . إنه لم يعد ماريوس الحالم المتحمّس ، والرجل الحازم ، المتقدم

الرصين ، ومتحدتي القدر الجريء ، والعقل الذي يصمم ويبنى مستقبلاً فوق مستقبل ، والقلب الرخص المليء بالخطط ، والمشاريع ، والحيلاء ، والافكار ، والارادات . كان كلباً ضائعاً . لقد سقط في جلة كآبة سوداء . وقضي الامر . امسى العمل ينغصه ، والسير يتعبه ، والوحدة تضجره ، وأمت الطبيعة الواسعة - التي كانت من قبل حافلة بالاشكال ، والأضواء ، والأصوات ، والآراء ، والمناظر ، والآفاق ، والدروس - خاوية أمامه . لقد بدا له أن كل شيء قد اختفى .

كان لا يزال مفعماً بالافكار ، إذ لم يكن في ميسوره ان يكون غير ذلك ؛ ولكنه ما عاد يجد متعة في افكاره . وجواباً على كل ما عرضه عليه في صمت وفي إلحاح كان يقول : « وما الفائدة ؟ »

وعنف نفسه مرة . لماذا تبعتها ؟ لقد كنت سعيداً جداً بمجرد رؤيتها ! ولقد نظرت اليّ ، ألم يكن ذلك شيئاً عظيماً ؟ كان عيّاها يؤذن بأنها تحبني ، ألم يكن ذلك كل شيء ؟ ايّ شيء كنت أطمع في ان أنال ؟ ليس ثمة شيء وراء ذلك . لقد كنت احمق ، إنها غلطتي ، الخ . والحق ان كورفيراك الذي لم يُفصر ماريوس اليه بشيء - فقد كانت هذه هي طبيعته - والذي حزر برغم ذلك كل شيء تقريباً - فقد كانت تلك هي طبيعته أيضاً - نقول : الحق ان كورفيراك كان قد بدأ حينئذٍ بالحب الذي استبدّ به ، ويعجب مع هذا لذلك . حتى اذا رأى ماريوس يتودى في تلك الكآبة ، انتهى آخر الأمر الى ان يقول له : « ارى انك لم تكن إلا حيواناً . هيّا ، تعال الى الكوخ ! »

وذات يوم ، وقد ركن الى شمس ايلول الجميلة ، ارتضى أن يأخذه كورفيراك ، وبوسوويه ، وغرانتيير ، الى « مرقص سو » راجياً ، ويا له حلم ! ان يجدها هناك . ولسنا في حاجة الى القول إنه لم يجد هناك الفتاة التي التمسها . « ومع هذا ، فهبنا يستطيع المرء ان يعثر على جميع النسوة الضائعات » ، كذلك غمغم غرانتيير . وترك ماريوس اصدقاءه في المرقص ،

وانقلب ماشياً وحده ، على القدمين ، مجهداً ، محموراً ، قلق العينين محزونهما في الظلام ، دهشاً بضجة العربات المرحة وبغبارها ، تلك العربات الحافلة بالجماعات المنشدة الراجعة من العيد ، فيما كان يتنشق ، مخيَّب الأمل ، روائح شجرات الجوز الحريفة القائلة على جانبي الطريق لكي يعيد الى رأسه الصفاء .

واستغرق من جديد ، وعلى نحو متعاضم ، في العيش المتوحد ، التائه ، المثقل ، فهو يتجرع آلامه الباطنية المريعة ، وهو يروح ويحيى متحملاً وجعه مثل ذئب في قفص ، باحثاً عن ضالته ، في كل مكان ، محبلاً بالحب .

وفي مناسبة اخرى ، تركت احدى المصادفات أثراً فريداً في نفسه . ففي احد الشوارع الصغيرة المجاورة لـ « جادة الانفاليد » التقى رجلاً مرتدياً ثياب العمل ، ومعتزلاً بقلنسوة ذات حافة عريضة كانت تبدي بضع ذوائب من شعر ناصع البياض . وتأثر ماريوس بجمال هذا الشعر الاشيب ، وتأمل هذا الرجل الذي كان يمشي في خطى وثيدة ، وكأنه مستغرق في تفكير موجد . ومن عجب ان قد بدا له أنه تبين في ذلك الرجل مسيولوبلان . كان الشعر شعره ، والصورة الجانبية صورته — بقدر ما ساعدته القلنسوة على الرؤية — والمشي مشيته ولكنها أحفل بالحزن . ولكن لم يرتدي ثياب العمال هذه ؟ ما معنى ذلك ؟ علام يدل هذا التقنع ؟ وغلب الانشده على ماريوس ، حتى اذا تاب الى نفسه كان أول ما فعله ان لحق بذلك الرجل . فمن يدري ، لعله اهتدى آخر الامر الى الاثر الذي يبحث عنه ؟ وعلى اية حال ، فينبغي ان يرى الرجل كرة اخرى ، عن كسب ، وبجل تلك الاحجية . ولكن هذه الفكرة لم تخطر له إلا بعد فوات الاوان ؛ كان الرجل قد مضى الان لسبيله . كان قد سلك زقاقاً جانبياً ما ، فلم يعثر له ماريوس على اثر . وشغلت هذه المصادفة تفكيره بضعة أيام ، ثم تَدَثَّرَتْ . وقال في ذات نفسه :

— « لعله ، على اية حال ، مجرد شبه ليس غير . »

٢

لقية

كان ماريوس لا يزال يسكن في بيت غوربو العتيق . ولم يلقِ بالاً الى احد هناك .

والواقع أنه لم يكن قد بقي ، في تلك الفترة ، احدٌ من سكان ذلك البيت غيره وغير اسرة جوندريت التي دفع عنها ، ذات مرة ، اجرة السكنى ، من غير ان يتحدث في يوم من الايام الى الأب ، او الى الأم ، أو الى ابيّ من البنين . كان المستأجرون الآخرون قد انتقلوا أو ماتوا ، أو أُخرجوا لتختلفهم عن دفع الاجرة .

وذات يوم ، من ايام ذلك الشتاء ، تجلّت الشمس قليلاً ، عند الاصيل ، ولكنه كان اليوم الثاني من شباط ، عيدَ تقدمة يسوع في الهيكل ، ذلك العيد القديم الذي اوحى شمس الغادرة ، المبشرة بسمّة اسابييع من البرد ، الى ماثيو لينزيبرغ هذين البيتين اللذين أمسيا ، بحق ، من الادب الكلاسيكي :

« دعها تطعم أو ترسل أشعة واهنة

إن الدبّ يرجع الى وجاره . »

وكان ماريوس قد غادر وجاره منذ لحظة . كان الليل قد هبط . وكانت الساعة ساعة عشاءه ، ذ كان لا يزال مضطراً الى ان يمضي لتناول عشاءه ، وأسفاه ! آه ، يا لعجز العشق المثالي !

وكان قد اجتاز ، وما كاد ، عتبة بابه التي كانت « مام بوغون »
تكنسها في تلك اللحظة مدممة في الوقت نفسه بهذه المناجاة الخالدة :
- « وما الشيء الرخيص اليوم ؟ كل شيء غال . ليس من شيء
رخيص غير آلام الناس . إن آلام الناس مجانية ! »
وصعد ماريوس في الجادة ، بخطى وثيدة ، متجهاً نحو باب المدينة
لسي ينتهي الى شارع سان جاك . كان يمشي شارد البال ، مطرقاً
برأسه الى الارض .

وفجأة ، أحسّ بمن يدفعه بمرفقه ، في الغسق . والتفت ، فرأى
فتاتين سابيتين في اصمال بالية - الأولى طويلة مهزولة ، والاخرى أقصر منها
بقليل - تمرّان به على عجل ، لاهتين ، مروّعتين ، وقد بدت على
وجهيهما سيما الفرار . لقد التقتا به من غير أن تراه ، ولقد صدمتهما في
اندفاعهما . وتبين ماريوس ، في الغسق ، وجهيهما البالي الشحوب ،
وغداثرهما المنفوشة المتطايّرة ، وقبعتيهما الرهيبتين ، وتنورتيهما الممزقتين ،
وأقدامهما الخافية . كانتا تتبادلان الحديث وهما راكضتان . وقالت
أطولهما قائمةً ، في صوت خفيض جداً :

- « لقد اقبل رجال الشرطة . ولقد اخطأوا الامساك بي عند
منتصف الدائرة . »

فأجابت الاخرى :

- « لقد رأيتهم . ولقد ركضت ، وركضت ، وركضت ! »
وفهم ماريوس ، من خلال هذه اللهجة العامية المشوومة ، ان الدرك
او شرطة المدينة ، لم يوفقوا الى القاء القبض على هاتين الطفلتين ، وان
الطفلتين قد ولّتا فراراً .

واندفعتا تحت اشجار الجادة من خلفه ، فأحدثتا في الظلمة ضرباً من
البياض القاتم ، ما لبث ان تلاشى بعد بضع ثوان .
ووقف ماريوس لحظة .

وكان على وشك ان يستأنف سيره حين لمح رزمة صغيرة ضارباً لونها الى الرماديّ ملقاةً عند قدميه . وانحنى والتقطها . كانت شبه ظرف بدا وكأنه يحتوي بعض الاوراق .

وقال :

- « حسن . لا شك في ان هذه قد سقطت من هاتين المخلوقتين

البائستين » !

وارتدت على آثاره ، وناداهما ، فلم يهتدي اليهما . واستنتج من هذا أنهما قد انتهتا الى مكان بعيد ، فوضع الرزمة في جيبه ، ومضى لتناول طعام العشاء .

وفي بعض الطريق رأى في زقاق من شوارع موفتارد تابوت طفل مغطى بقطعة من الجوخ الأسود وقد وُضع على ثلاثة كراسي وأُضيء بشمعة . وهنا تذكر فتاتي الغسق .

وفكر :

- « يا للامهات البائسات ! ان شيئاً واحداً هو ادعى الى حزنهن من رؤية اولادهن يموتون . وما ذلك غير رؤيتهن يحيون حياة الشر . » ثم إن هذه الظلال التي ادخلت على حزنه عنصراً جديداً ما لبثت ان فارقت تفكيره ، فاستغرق في تأملاته المعتادة . لقد شرع يفكر في أشهر الحب الستة التي نعيم بها ، والسعادة التي تمت له في الهواء الطلق وفي وضع النهار ، تحت شجرات اللوكسمبورغ الجميلة .

وقال في ذات نفسه :

- « كم قد أصبحت حياتي مظلمة ! إن الفتيات الشابات لا يزلن يبرزن أمامي . مع فارق واحد ، هو أنهن كنّ من قبل ملائكة ، أما اليوم فهن غيلان . »

أنصاب ذات أربعة وجوه

وفي الماء ، فيما كان ينزع ملابسه ليأوي الى الفراش ، وقعت يده في جيب سترته على الرزمة التي التقطها في الطريق . كان قد نسيها . وخطر له ان من المفيد ان يفضّها ، وان تلك الرزمة قد تحتوي على عنوان تبنك الفتاتين الشابتين ، اذا كانت رزمتها حقاً . وإياً ما كان ، فقد تحتوي على المعلومات الضرورية لاعادتها الى من فقدها .

وفتح الظرف .
كان غير مختوم . وكان يحتوي على أربع رسائل غير مختومة أيضاً . كانت العناوين مدونة عليها .
وفاحت منها جميعاً رائحة تبغ فظيعة .

وكانت الرسالة الاولى معنونة هكذا : الى سيدتي ، السيدة المركيزة دو غروشيراى ، الساحة المقابلة لمجلس النواب ، رقم
وقال ماريوس في ذات نفسه إنه سوف يجد .. على الأرجح - في هذه الرسالة ، المعلومات التي كان يبحث عنها . وفوق ذلك ، فما دامت الرسالة غير مختومة فأغلب الظن ان لا يكون في قراءتها بأس .
كانت تنطوي على هذه الكلمات :

« سيدتي المركيزة :

« إن فضيلة الحنان والشفقة هي التي توحد المجتمع اكثر ما يكون التوحيد . ايقظي عاطفتك المسيحية ، وألقي نظرة رافة الى هذا

الاسباني البائس الذي ذهب ضحية * الولاء والتعلق بقضية « الشرعية » المقدسة التي بذل من أجلها دمه ، ووقف في سبيلها ثروته كلها ، والذي يجد نفسه اليوم في أقصى حالات الفاقة والعوز . وهو لا يشك في ان نفسك النبيلة سوف «تمد» بالعون لكي تحتفظ بوجودي بالغ الأيلام لجندي ذو * ثقافة وشرف ، مفعم بالجراح ، جندي يعتمد مقدماً على الانسانية التي تعمر فؤادك وعلى الاهتمام الذي تبديه سيدتي المرموقة نحو أمة بائسة الى هذا الحد . إن صلاتهم لن تذهب سدى وان ذاكرتهم سوف تحتفظ بذكرها الفاتنة . »

« واقبلي عواطف إجلالي التي اتشرف معها ان اكون ،

« سيدتي ،

« دون ألفاريز ، كاييتن اسباني في سلاح الفرسان ، ملكي لاجيء في فرنسة ، يجد نفسه مسافراً من اجل وطنه ، ولكن موارده لا تمكنه من مواصلة رحلاته . »

ولم يُضَفَ ايما عنوان الى الامضاء . ورجا ماريوس أن يجد العنوان في الرسالة الثانية المكتوب على ظاهرها : الى سيدتي ، السيدة الكونتيس دو مونفيرنيه ، شارع كاسيت ، رقم ٩ . وقرأ ماريوس ما يلي :

« سيدتي الكونتيس ،

« هذه أمّ بائسة لأسرة مؤلفة من ستة أطفال آخرهم لا يزيد عمره

* وردت في هذه الرسائل كما أثبتنا الاصل الفرنسي عدة اخطاء املائية ونحوية قصد المؤلف من ورائها الى اظهار جهالة كاتبها . وقد حاولنا أن نحافظ على هذا النقص فرسمنا بعض الكلمات على غير صورتها الصحيحة وعدلنا ببعضها عن حكمها الاعرائي كما يلاحظ القاري .

على غاني * اشهر . انا مريضة منذ أن وضعتُ ولدي الأخير ، هجري زوجي منذ خمسة اشهر ، وليس لي أية * مورد في العالم ، فأنا أعاني اسدّ الفقر .

« وعلى املها بالسيدة الكونتيس ، يشرفها ان تكون ، يا سيدي ، في احترام صيق ،

« الأم باليزارد ،

وانتقل ماريوس الى الرسالة الثالثة ، التي كانت ، مثل الرسالتين السابقتين ، عريضة تستدرّ العطف .
وقد جاء فيها :

« ميسو بابورجو ، فاختب ، تاجر قبعات بالجملة ،
شارع سان دونيس ، عند زاوية « رو أو فير . »

« إني اسمح لنفسي بأن اوجه اليك هذه الرسالة لأرجوك ان تسبغ عطفك الثمين وأثير اهتمامك في رجل من رجال الادب رسل ، منذ لحظة ، مسرحية الى « المسرح الفرنسي » . إن الموضوع تاريخي ، والحوادث تجري في اوفيرني في عهد الامبراطوريت * . والاسلوب ، على ما أعتقد ، طبعي ، مختصر ، ولعله يفوز ببعض الاعتبار . إن فيها ابياتاً من الشعر يجب ان 'تنشد في اربع * مواضع . إن المضحك ، والجلدي ، وغير المتوقع ، تترج كلها مع شخصيات الرواية المتنوعة ، وبمسحة من الرومانس ، تنتشر في رقة فوق كامل العقدة الروائية التي تتقدّم في شكل خفي ، وبنحولات مؤثرة ، الى الحل وسط مجموعة

* راجع الحاشية السابقة .

من المفاجآت المسرحية الرائعة .

« إن غايتي الرئيسية هي إشباع الرغبة التي تسيطر شيئاً فشيئاً على الرجل في عصرنا هذا ، أعني « الموضة » ، أو دوارة الهواء ، الغريبة الكثيرة التقلب ، التي تتغير مع كل ربح تقريباً .

« وعلى الرغم من هذه المزايا فإن عندي سبب * يجعلني أخاف ان يؤدي حد المؤلفين المستعنين بالخطوة وانانيتهم الى ابعادي عن المسرح ، ذلك لأنني لا أجعل التقزز الذي يتجرعون به الوافدين الجدد .

« سيدي بابورجو ، إن شهرتك الحقة كحامٍ مستنير لأهل الأدب تشجعني على ان ابعث اليك بابنتي ، التي ستشرح لك مبلغ فقرنا ، وحاجتنا الى الحبز والنار في موسم الشتا * هذا . وانا اقول لك اني ارجوك ان توافق على ما ارجب فيه من رفع هذه الرواية وجميع الرواية * التي سوف أألفها * اليك ، وذلك لكي ابرهن لك عن مدى أهلي في التشرف بأن اضع نفسي تحت رعايتك ، وان أزين كتاباتي باسمك . فاذا تنازلت وشرفتنني بهذه المقدمة الاشد تواضعاً ، فسوف انصرف في الحال الى عمل مقطوعة من الشعر تكون عربوناً على اعترافي بجميلك . وهذه المقطوعة التي سأحاول ان اجعلها كاملةً جهد الامكان ، سوف ترسل اليك قبل ان 'تدرج' في مقدمة الرواية وتلقى على المسرح .

« والى سيدي ،

« ومدام بابورجو ،

« تحياتي المثقلة بالاحترام

« جينفلو ، رجل أدب .

* راجع الحاشية السابقة .

« حاشية . ولو لم تكن غير أربعين سو .

« اعذرني لارسالي ابنتي اليك وعدم ذهابي بنفسي ، ولكن دوافع حزينة تتعلق بالملابس تمنعني ، وأأسفاه ! ، من الخروج »

وفتح ماريوس ، آخر الامر ، الرسالة الرابعة . كانت مكتوباً على ظاهرها : « الى سيدي الغيور رجل كنيسة سان جاك دو هو با » . وكانت تنطوي على هذه الاسطر القليلة :

« أيها الرجل الحبيب

« اذا تنازلت ، ورافقت ابنتي ، فسوف ترى بليّة قاسمة * للظهر ، وسوف أريك شهاداتي .

« وحين ترى هذه الكتابات فإن نفسك السخية سوف تتحرك بعاطفة حيّة من حب الاحسان ، ذلك لان الفلاسفة الحقيقيين يحسّون دائماً بانفعالات غنيّة .

« اعترف* ، أيها الرجل الرؤوف ، أن على الرجل ان يتحمل اقسى الفقر ، وهو شيء مؤلم جداً ، لكي يحصل على الاسعاف ، وان يحمل السلطة على ان تشهد أنه فقير ، كأننا لسنا احراراً في ان نتألم ، وغوت جوعاً ريثما يأتي من ينقذنا من شقاؤنا * . إن الاقدار قاسية اكثر بما يجب على بعض الناس ، مدارية اكثر بما يجب لبعضهم الآخر مبذرة معهم .

« اني انتظر حضورك ، او تقدمتك ، اذا تنازلت ووافقت على ذلك ، واني اتوسل اليك أن تتكرم فتقبل عواطفني الموقرة التي اعتزّ

* راجع الحاشية السابقة .

معها بأن اكون ،

» أيها الرجل الشهم حقاً ،
» خادمك الاكثر حقارة ،
» والاكثر انقياداً ،

ب . فابانتو ، فنان مسرحي . .

ولم يستشر ماريوس ، بعد قراءة هذه الرسائل الأربع ، أنه
ازداد علماً .

إن أياً من موقعي تلك الرسائل لم يذكر عنوانه .

ثم إنها بدت وكأنها صادرة عن اربعة افراد مختلفين :
دون ألفاريز ؛ الأم باليزارد ؛ الشاعر جينفلو ؛ الفئات المسرحي
فابانتو . ولكن العجيب في الأمر ان هذه الرسائل كلها كانت مكتوبة
بخط يد واحدة .

فما الذي يُستنتج من هذا غير أنها صادرة عن شخص واحد ؟
وفوق ذلك ، وهذا ما جعل الحدس اقرب الى الاحتمال ، فان
الورق الذي خُطَّت عليه الرسائل - وهو خشن أصفر - كان واحداً
في الرسائل الاربع ، ورائحة التبغ كانت هي هي ؛ وعلى الرغم من
انه كانت ثمة محاولة واضحة لتغيير الاسلوب فان الاخطاء الاملائية نفسها
تكررت في هدوء عميق ، فلم يكن جينفلو ، الكاتب الاديب ، اقل
تدبيراً في مهاوينا من الكابيتين الاسباني .

وكانت كل محاولة للكشف عن سرّ هذه المسألة عملاً لا طائل تحته .
ولو لم تكن لقية ، اذن لبدت وكأنها مخاللة ساخرة . وكان ماريوس
من الحزن بحيث لا يتقبل المزاح ، حتى ولو كان صادراً عن المصادفة ،

بقبول حسن ، او يرتضي اللعبة التي بدا وكأن حصباء الطريق رغبت في ان تلعبها معه . لقد تراءى له انه اشبه برجل معصوب العينين بين هذه الرسائل الاربعة ، التي كانت تهزأ به .

وعلى اية حال ، فلم يكن ثمة ما يؤذن بان هذه الرسائل قد سقطت من الفتاتين اللتين لقيهما ماريوس في الجادة . وهكذا فأنها كانت مجرد اوراق ليس لها ايما فائدة او قيمة .

وأعادها ماريوس الى اللزف ، وقذف بها الى احدى الزوايا ، وأوى الى مضجعه .

وحوالى الساعة السابعة صباحاً ، كان قد نهض من فراشه وتناول طعام الفطور ، وشرع في العمل عندما قُرع باب غرفته قرعاً رقيقاً . واذا لم يكن يملك شيئاً ، فانه ما كان ليفلق باب غرفته ، الا في بعض الاحيان - وهي نادرة جداً - حين يكون منصرفاً الى عمل مُلح . والواقع انه كان ، حتى في الاحوال التي يغادر فيها غرفته ، يترك مفتاحها في القفل . وقالت له مام بوغون ذات مرة : « سوف يسرقك اللصوص . » فأجابها : « وهل عندي ما يُسرق ؟ » ومع ذلك ، فقد سرق احدهم حذاءً عتيقاً عالي الساق ، من غرفته ، فكان ذلك نصراً مؤزراً لـ « مام بوغون » .

وقُرع الباب ككرة ثانية ، وفي رفق بالغ ، كالمرّة الأولى .

فقال ماريوس :

— « أدخلي ! »

وفتح الباب .

— « ماذا تريدن ، يا « مام بوغون ؟ » كذلك تسأل ماريوس

من غير ان يرفع عينيه عن الكتب والاوراق التي كانت على طاولته .

واجابه صوت ، لم يكن صوت « مام بوغون » :

— « أَلْتَمَسَ عَفْوُكَ ، يَا سَيِّدِي »
كَانَ صَوْتًا غَائِرًا ، مَرْتَعِشًا ، مَحْتَقًا ، مَبْجُوحًا ؛ صَوْتُ رَجُلٍ عَجُوزٍ
أَصْدَانِهِ الْحُمْرَ وَالْعَرَقَ .
وَاسْتَدَارَ مَارِيُوسَ فِي سُرْعَةٍ ، فَرَأَى فَتَاةً شَابَةً .

وردة في الشقاء

كانت فتاة في ريعان الصبا واقفةً بالباب نصف المفتوح . وكانت الكوة التي ينفذ النور من خلالها الى العلية قائمةً تجاه الباب غامماً ، فانارت هذا الوجه بضوء باهت . كانت مخلوقةً شاحبةً ، ضعيفة البنية ، شديدة الهزال ؛ ليس يستر عريها المرتجف المثلج غير قميص وتنورة . خيط من القنب يطوق الحصر ، وخيط آخر يصفف الشعر ، وكتفان محدتان ناتئتان من القميص ، وشحوب أشقر لبفاوي ، وترقوتات وسختان ، وبدان حراوان ، وفم فاغر غائر ، وبضع اسنان مفقودة ، وعينان خامدتان وقحتان ، ذابلتان ، وشكل كشكل فتاة شابة غير ناضجة ، ونظرة كنظرة عجوز فاجرة . خمسون عاماً بمتزجة بخمسة عشر عاماً . احدى تلك المخلوقات الضعيفة الخيفة في آن معاً ، والتي توقع الرعدة في اوصال من لا تسيل الدمع من أعينهم .

ونمض ماريوس ، وحدق في ضرب من الدهش الى هذه المخلوقة الشبيهة ، تقريباً ، بتلك الأشكال الشبيهة التي تنبذنى لنا في المنام . وأوجع ما في الأمر ان هذه الفتاة لم تجيء الى هذا العالم لتكون بشعة . بل إن الذي يبدو أنها كانت في طفولتها الأولى جميلة . كان جمال صباها لا يزال يصارع الشيخوخة القبيحة التي عجّلت بها الدعارة والفقر . وكانت بقية من جمال تموت على هذا الوجه ذي الستة عشر ربيعاً مثل شمس شاحبة تحمدها سحب مروعة فجر يوم من ايام الشتاء .

ولم يكن الوجه مجهولاً عند ماريوس بالمرّة . لقد بدا له أنه رآه في مكان ما .

وسألها :

— « ماذا تريدن ، ابنتها الآتسة ؟ »

فأجابته الفتاة الشابة بصوتها الذي يشبه صوت عبد ثملٍ من عبيد الأشغال الشاقة :

— « هذه رسالة اليك ، يا مسيو ماريوس . »

لقد نادى ماريوس باسمه . فلم يكن في وسعه ان يرتاب في أنها تعنيه . ولكن من هذه الفتاة ؟ كيف عرفت اسمه ؟

ودخلت من غير ان تنتظر دعوة . دخلت في جسارة ، ناظرة الى الغرفة كلها والى السرير المحطم في ضرب من الثقة توقع الشعريرة في القلب . كانت حافية القدمين . وكانت ثقوب واسعة في تنورتها تكشف عن ساقها الطويلتين ، وركبتيها الممزولتين . لقد ارتجفت .

وكانت تمسك بيدها ، في الحق ، رسالة قدّمتها الى ماريوس .

واذّ فضّ ماريوس هذه الرسالة لاحظ أن برشامة الحتم الكبيرة الى حدّ هائل كانت لا تزال رطبة . ومن هنا ادرك ان الرسالة لم تأت من مكان بعيد .
وقرأ :

« جاري المحبوب ، أيها الرجل الشاب !

« لقد عرفتُ بما أظهرته نحوي من كرم نفس ، وانك دفعت عني اجرة الغرفة منذ ستة اشهر . وفي ابائكك ، أيها الشاب . إن ابنتي الكبيرة سوف تخبرك أنه ليس عندنا منذ يومين كسرة خبز : اربعة اشخاص ، وزوجتي طريح الفراش . واذا لم يكذبني الظن فأظن أن»
في استطاعتي ان ارجو ان يرق قلبك الكريم لهذا الشرح ، فتسارع الى

الاحسان اليّ بأن تنازل وتنفعني بمطية خفيفة .
« في بالاحترام العظيم الذي يستحقه محسنو الانسانية ،

« جوندريت .

حاشية : ابنتي تنتظر اوامرك ، أيها السيد ماريوس العزيز . »

وهذه الرسالة ، في غمرة الحادثة الغامضة التي شغلت ذهن ماريوس منذ الليلة البارحة ، كانت اشبه بشمعة في كهف . لقد أمسى كل شيء واضحا على نحو مفاجئ .

لقد صدرت تلك الرسالة من حيث صدرت الرسائل الاربع الاخرى . كان خط هذه هو خط تلك ، واسلوب هذه هو اسلوب تلك ، واخطاء هذه هي اخطاء تلك ، وورق هذه هو ورق تلك ، ورائحة التبغ المنبعثة من هذه هي رائحة التبغ المنبعثة من تلك .

كانت ثمة خمس رسائل ، وخمس قصص ، وخمسة اسماء ، وخمسة توقعات ، وموقع واحد . كان الكابيتين الاسباني دون آلفاريز ، والأم باليزارد المسكينة ، والشاعر المسرحي جينفلو ، ومؤلف التمثيليات العجوز فابانتو - كانت هذه الاربعة كلها تدعى جوندريت ، هذا اذا كان اسم جوندريت نفسه هو جوندريت حقاً .

فخلال الفترة الطويلة التي قدّر لماريوس ان يقطن في اثناها ذلك المنزل العتيق لم نسمع ، كما قلنا من قبل ، غير فرص قليلة مكنته من ان يرى ، بل مكنته من ان يلمح حيوانه المدمين . كان عقله في مكان آخر ، وحيث يكون العقل تنجّه العيان . ولا ريب في انه قد لالتقى افراداً من امرة جوندريت في الرواق أو على السلم ، ولكنهم لم يكونوا عنده غير ظلال قائمة . كان قليل الالتفات اليهم الى درجة جعلته يصطدم بالبارحة ، بابنتي جوندريت في الجادة من غير ان يعرفها ؛

ذلك بأنهما كانتا بنتي جوندريت من غير ريب ؛ وفي كثير من العسر كانت هذه الفتاة التي دخلت اللحظة الى غرفته قد ايقظت في ذات نفسه ، من خلال الاشتزاز والشفقة ، ذكرى غامضة بأن قد سبق له ان التقاها في مكان آخر .

لقد رأى الآن كل شيء ، في وضوح . لقد فهم ان صناعة جاره جوندريت ، في محنته تلك ، هي استدرار عطف المحسنين ؛ وانه قد حصل على عناوينهم ؛ وانه كان يحرّر ، باسماء مصطنعة ، رسائل يوجهها الى أولئك الناس الذين قدّر انهم اغنياء تعمر الرأفة قلوبهم ، فتحملها بنتاه اليهم معروضتين نفسيهما للمخاطر ؛ ذلك ان هذا الاب لم يكن ليتورع عن المغامرة بينتيه ؛ كان يقامر مع القدر ، ولقد قامر عليهما . ورجّح ماريوس - على اساس من فرارهما في موهن من الليل ، ولهاثها ، وذعرهما ، والكلمات العامة التي طرقت اذنه - ان هاتين البائستين كانتا تمارسان ايضاً بعض صناعات الظلام السرية ، وانه قد نشأ عن هذا كله ، وسط المجتمع الانساني في حالته الحاضرة ، مخلوقتان تعسنان لم تكونا لا طفلتين ولا فتاتين ولا امرأتين ، ولكن شبه هولتين غير طاهرتين ، وإن كانتا بريئتين ، من عمل الشقاء .

كائنتان كئيبتان من غير اسم ، ومن غير عمر ، ومن غير جنس* ، كائنتان لم يعد اي من الخير أو الشر ممكناً عندهما ، ولم يبق لدهيها في هذا العالم - وقد فارقتا الطفولة - اي شيء على الاطلاق ، لا حرية ، ولا فضيلة ، ولا مسؤولية . كنفسان تفتحتا امس ، وذبلتا اليوم ، مثل تلك الرياحين التي تسقط في الشارع فيندبلها الوحل ريثما يسحقها دولاب من الدواليب .

وفي غصون ذلك ، وفيما كان ماريوس يسمّر عليها نظرة دهيّة متألمة ، انشأت الفتاة تذرّع العلية جيئة وذهاباً ، في وقاحة شبح .

* المقصود هنا بالجنس sexe اي الذكورة او الانوثة .

كانت تروح ونجىء من غير ان تفكّر في عريها . وفي بعض الاحيان ، كان قبضها الممزق ، غير المشدود يسقط حتى خصرها . لقد نقلت الكرامى ، من مكان الى مكان ، وبعثت ادوات الزينة الموضوعة على الخزانة ذات الادراج ، وجست ملابس ماريوس ، وفتشت ما كان في الروايا .

وقالت :

-- و آه ! عندك مرآة ! ،

وهممت ، وكأنها كانت منفردة ، بمقطعات من بعض الروايات الملحّنة ، ربلازمات غنائية مرحة كان صوتها الحلقيّ الاجشّ يجعلها مأثمة . وتحت هذه الوقاحة كان في ميسور المرء ان يلحظ شيئاً من القسّس ، والقلق ، والضراعة لا سبيل الى وصفه . إن القصة عار . ولم يكن ثمة ما هو أدعى الى الحزن من رؤيتها تلهو ، واذا جاز التعبير ، ترفرف حول الغرفة بمثل حركات عصفور ذهب النور بصوابه ، او عصفور كسير واحد من جناحيه . ولقد كان في ميسور الناظر اليها آنذاك ان يدرك ان مسلك هذه الفتاة الشابة ، المرح الحرّ ، كان خليقاً بأن يكون شيئاً عذّباً وفاتناً لو كُتب لها ان تنشأ في ظروف من التربية مختلفة ، وفي ظلّ قدر غير قدرها ذاك . والحق أن الكاش الذي ولد ليكون حمامة لا يمكن ان يتحوّل بحالٍ من الاحوال الى عقاب بحرية ، في عالم الحيوان . ذلك شيء لا يقع إلا في عالم الانسان .

وفكّر ماريوس ، وتركها تسترسل في عيها .

ومضت الى الطاولة .

وقالت :

-- و آه ! كُتِب ! ،

واخترق شعاع عينيها شبه الزجاجية . واردفت ، وقد افصحت

لمجتها عن تلك السعادة التي نستشعرها ونحن نقبأه بشيء ما ، والتي تتساوى فيها جميعاً من غير استثناء .

« انا استطيع أن اقرأ . انا استطيع . »

وفي نشاط ، أمسكت بالكتاب المفتوح على الطاولة ، وقرأت بكثير من الطلاقة :

« ... وتلقى الجنرال بودوين الأمر بأن يقود خمسة افواج من لوائه ويستولي على قلعة هوغومونت القائمة وسط سهل واترلو » وكفتت عن القراءة ، قائلة :

« آه ، واترلو ! انا أعرفها . إنها معركة وقعت في العصور القديمة . كان ابي هناك . لقد خدم ابي في الجيوش . نحن بونايرتون الى حد بعيد ، في بيتنا . واترلو تعني ضد الانكليز . »

ووضعت الكتاب على الطاولة ، وأمسكت بريشة ، وصاحت :

« وانا اعرف الكتابة ايضاً ! »

وغمت الريشة في الحبر ، والتفتت نحو ماريوس قائلة :

« هل تحب ان ترى ؟ انظر ، سوف اكتب كلمة لأثبت لك ذلك . »

وقبل ان يجد منسماً من الوقت للاجابة ، كتبت على ورقة بيضاء كانت في منتصف الطاولة :

« لقد اقبلت الشرطة . »

ثم طرحت الريشة ، وقالت :

« ليس هناك اخطاء املائية . في استطاعتك ان ترى . لقد تلقينا مقداراً من الثقافة ، اخي وانا . انا لم نكن دائماً كما نحن اليوم . انا لم نخلق »

وهنا صمتت ، وسدّدت عينها الباهتة الى ماريوس ، وانفجرت بالضحك ، قائلةً في نبرة انطوت على ألم نفسي مرير كامل ، تخنقه

وقاحة كاملة :

— « باه ! »

وشرعت تدندن بهذه الكلمات ، في نغمة مرحة :

« أنا جائعة ، يا أبي
لا لحم مقلباً عندي .
أنا مقرورة ، يا أمي
لا نسبيج مروداً على جسدي .
النح . النح . »

ولم تكذب تمّ هذه المقطوعة حتى صاحت :

— « هل تذهب في بعض الاحيان الى المسرح ، يا مسيو ماريوس ؟
أنا اذهب . إن لي اخاً صغيراً تربطه ببعض الفنانين صداقة ، فهو
يعطيني بطاقات احبائاً . فمثلاً ، انا لا احب مقاعد الشرفة . ان
المشاهدين يزدهمون هناك ، وانك لا تعرف معنى الراحة . وقد يكون
هناك قوم أجلاف في بعض الاحيان . وهناك اقوام تفوح منهم روائح
كريمة . »

ثم نظرت الى ماريوس ، وغلبت على وجهها سماء غريبة ،
وقالت له :

— « اندري ، يا مسيو ماريوس ، انك فتى جميل جداً ؟
وخطرت فكرة واحدة لكلٍ منها ، في آنٍ معاً - فكرة جعلتها
تبسم . وجعلته يحمرّ خجلاً .

وتقدّمت نحوه ، ووضعت يدها على كتفه وقالت :

— « انت لا تلتفت اليّ ، ولكنني أعرفك ، يا مسيو ماريوس .
انا ألتقي بك هنا على السلم ، ثم أراك تزور في بعض الاحيان رجلاً
يدعى الاب مابوف يقطن في اوسترلitz ، حين يتفق لي ان أتزّره في تلك

الناحية . إن شعرك المنفوش هذا يناسبك تماماً . »
لقد حاول صوتها ان يكون رقيقاً جداً ، ولكنه 'وفتق' الى ان
يكون منخفضاً جداً ، ليس غير . وضاعت بعض كلماتها في طريقها من
الحنجرة الى الشفتين وكأنما انطلقت من لوحة بيان تعوزها بعض العلامات
الموسيقية .

وكان ماريوس قد ارتدّ الى الوراء في هدوء .
وقال في رصانة باردة :

— « ايها الآنسة ، عندي هنا رزمة اظنها لك . فاسمعي لي بأن
اعيدها اليك . »

وقدّم اليها الظرف ، الذي كان ينطوي على الرسائل الاربع .
وشبكت يديها وصاحت :

— « لقد بحثنا عنه في كل مكان ! »

ثم اخنطفت الرزمة ، وفتحت الظرف قائلة :

— « يا السّهي ! يا السّهي ! كم بحثنا أنا وأختي عنه ! ثم كنت
أنت الذي وجدته ! في الجادة ، اليس كذلك ؟ لا بدّ انك وجدته في
الجادة ؟ ترى ، ان هذه الرزمة سقطت منا ونحن نركض . إن أختي
الطفلة هي التي ارتكبت هذه الحماقة . وحين رجعنا الى البيت لم نوفّق
الى العثور عليه . وإذا لم نكن راغبتيّن في ان 'نضرب' ، ما دام ذلك
غير مفيد ، غير مفيد بالمرّة ، غير مفيد على الإطلاق ، فقد قلنا لأهلنا
إننا أوصلنا الرسائل الى اصحابها ، وإنهم أجابونا : على الله ! والآن ،
ها هي ذي ، تلك الرسائل المسكينة . ولكن كيف عرفت أنها لنا ؟
آه ، نعم : من الخطّ ! واذن ، فقد كنت أنت الذي اصطدمنا به
البارحة . نحن لم نرك ، حقاً . ولقد قلت لأختي : « أهذا سيد ؟ »
فقلت أختي : « أظن انه سيد ! »

وكانت قد نشرت ، في غضون ذلك ، الرسالة المعنونة : « الى سيدي

الخبير ، رجل كنيسة سان جان دو هو با .
وقالت :

- « هاها . هذه هي الرسالة الخاصة بذلك الرجل العجوز الذي
يذهب الى القديس . وفي الحق ، لقد حان الوقت . سوف أمضي واحملها
اليه . ولعله ان يعطينا شيئاً نأكل به طعام الصباح . »
ثم شرعت تضحك ، وأضافت :

- « أندري ما الذي سيحصل اذا تناولنا طعام الصباح اليوم ؟
الذي سيحصل أننا سوف نتناول فطور أمس الاول ، وعشاء أمس
الأول ، وفطور أمس ، وعشاء أمس - كلها سوف نتناولها دفعةً
واحدة هذا الصباح . أجل ! وحقّ الاله ! واذا لم تكونوا راضين ،
فانقزروا ايها الكلاب ! »

وكان في هذا ما ذكر ماريوس بالذي من اجله اقبلت الفتاة المسكينة
الى غرفته .

وبحت في صدرته ، فلم يجد ثمة شيئاً .
وتابعت الفتاة كلامها ، وكأنها لم تعد تعي ان ماريوس كان هناك .
- « في بعض الاحيان أنطلق ليلاً . وفي بعض الاحيان لا أعود
الى الغرفة . وقبل ان نجيء الى هذا المكان ، في الشتاء الماضي ،
عشنا تحت قناطر الجسور . كان بعضنا يلتصق ببعضنا الآخر حتى لا تجمد
أطرافنا من الصقيع . وبكت اختي الصغيرة . ما أبرد الماء ! وحين
فكرتُ بأغراق نفسي ، قلت : « لا ، الماء بارد اكثر مما ينبغي . »
إني أنطلق منفردة حين ارغب في ذلك . إني اثم في الحنادق ، في
بعض الاحيان . أندري ؟ اني في الليل ، حين أمشي على الجادة ،
أرى الاشجار مثل المذارى ، وأرى بيوتاً سوداء ضخمة كلها مثل أبراج
نوتردام ، واتخيل ان الجدران البيض هي النهر ، فأقول لنفسي :
« هنا ! يوجد ماء ، هنا ! » والنجوم اشبه بمصابيح الاضاءة حتى ليخيل

الى المرء ان الدخان ينبعث منها وان الريح تطفئها . وبصبيبي الذهول ،
وكان خيلاً تتنفس في أذني ؛ وعلى الرغم من هبوط الليل ، اسمع
أراغناً يدوية صغيرة ، وماكينات الغزل ، وأشياء لا ادري ما هي .
ويتواهى لي ان شخصاً من الاشخاص يقذفني بالحجارة ، فأركض من
غير ان ادري ، وليس ذلك كله غير دوار ، أجل دوار . فحين
يكون المرء جائعاً ، يحسّ بأشياء مضحكة حقاً .
ونظرت اليه بعين شاردة .

وبعد ان كاد ماريوس يثقب جيوبه بحثاً وتنقيباً وفتق آخر الأمر
الى ان يجمع خمسة فرنكات وستة عشر « سو » . وكان ذلك كل ما
ملكه في تلك اللحظة . وقال في ذات نفسه : « هذا مبلغ يكفي
لعشائي الليلة . وغداً سنرى . » واخذ الستة عشر « سو » ، وقدم
الحزمة فرنكات الى الفتاة .

وأخذت القطعة النقدية في لهفة .
وقالت :

— « حسن . هناك شيء من نور الشمس . »
وكانما حملت تلك الشمس على إذابة كتل اللسان العامي الثلجية ،
في ذهنها ، فتأملت :

« خمسة فرنكات ! كوكب نثير ! ملك من الملوك ! في هذا
المنزل ! انت طفل صغير طيب . انا اعطيك قلبي . مرحى ! يومان من
الخمر ! سوف تأكل أكلاً ممتازاً ! وحساءً لذيذاً ! »

ورفعت قميصها الى أعلى ، فوق كتفها ، وانحنت لماريوس المنحناه
عميقة ، ثم لوّحت له بيدها ، ومضت نحو الباب قائلة :

— « طاب صباحك ، يا سيدي . كل الامور سواء . سوف اذهب
لأبحث عن الرجل العجوز . »

وفي طريقها ، رأت على الحزانة ذات الأدراج كسرة خبز يابسة كان

العفن قد علاها وسط الغبار . فوثبت عليها ، وقضمتها متممة :
- « هذا حسن ! إنها قاسية ! إنها تحطم اسناني ! »
ثم خرجت .

٥

يوضاس : العناية الالهية

كان ماريوس قد عاش ، طوال خمس سنوات ، في الفقر ، في الحرمان ، والضيق ، ولكنه أدرك أنه لم يعرف البؤس الحقيقي في يوم من الأيام . إن البؤس الحقيقي ما قد رآه اللحظة . إنه تلك اليقظة التي مرت تحت ناظره الآن . والحق ، ان الذي لم يرى غير بؤس الرجل لم يرى شيئاً ؛ يجب ان يرى بؤس المرأة . ومن لم يرى غير بؤس المرأة لم يرى شيئاً ؛ يجب ان يرى بؤس الطفل .

وحين ينتهي المرء الى الطرف الاقصى ينتهي ، في الوقت نفسه ، الى آخر السبل والوسائل . والويل للمخلوقات العاجزة التي تحيط به . إن العمل ، والأجر ، والخبز ، والنار ، والشجاعة ، والرغبة في الخير كلها 'نعوزة دفعة واحدة . وهكذا يبدو نور النهار وكأنه ينطفيء في الخارج ، ويبدو النور الاخلاقي وكأنه ينطفيء في الباطن . في هذه الدجّة يلتقي الناس ضعف المرأة والطفل ، فيخضعونها عنوة للغزي والعار . وعندئذ تصبح الأهوال كلها ممكنة . إن اليأس محاطٌ بجواجز واهنة تؤدي كلها إما الى الرذيلة وإما الى الجريمة .

فالصحة ، والشباب ، والشرف ، ولطافات الجسد الرخص المقدسة الفظة ، والقلب ، والبتولية ، والعفة ، بشرة الروح تلك - كل هذه

* هو احد تلامذة المسيح الاثني عشر وقد خانه وأسلمه الى طالبيه .

يتخلى عنها على نحو مشؤوم ذلك التمسُّ الأعمى الذي يبحث عن العون ،
والذى يلتقي الحزى ، والذي يقنع به . إن الآباء ، والامهات ،
والاولاد ، والاخوة ، والاخوات ، والرجال ، والنساء ، والفتيات ،
لنثبت بعضهم ببعض ، وَيَنْتُونُ معاً ، تقريباً ، مثلَ تشكُّلٍ معدني ،
في اختلاط الجنسين ، والقرابات ، والاعمار ، والفواحش ، والبراءات
اختلاطاً مظلماً . إنهم يجلسون القرفصاء ، وقد ولى بعضهم ظهره
بعضهم الآخر ، في ضرب من « القَدَر الكوخ » . إنهم يتبادلون
النظرات في كآبة . اوه ، يا لهم من مساكين ! ما أشدَّ شحوبهم !
ما أقرسَ البرد الذي يعصف بهم ! لكانهم يعيشون على ظهر كوكب
أبعد عن الشمس من كوكبنا - أبعد بكثير .

كانت هذه الفتاة الشابة ، عند ماريوس ، رسولاً من كَدُنِ الظلمات .

لقد كشفت له عن مظهر كامل مخيف من مظاهر الليل .

وكادَ ماريوس يعتف نفسه لأن استغراقه المطلق في الاحلام والاهواء
أدى به الى ان لا يُلقى ، حتى الآن ، نظرةً واحدة الى جيرانه .
كان دفعه أجرة السكنى عنهم مجرد حركة ميكانيكية ، ولقد كان
خليقاً بأنما امرئ آخر ان يقوم بتلك الحركة . ولكن كان عليه - هو
ماريوس - أن يفعل شيئاً أفضل . ماذا ؟ لقد فصله مجرد جدارٍ عن
هذه المخلوقات المهملّة التي تعيش بالانطلاق ليلاً تتحسّس سبيلها في الظلام ،
بعيداً عن سائر الأحياء ؛ لقد اصطدم بها ، وكان بمعنى من المعاني
آخر حلقة من حلقات الجنس البشري لمستها أيديها ؛ لقد سمعها تعيش بل
تنفس الى جانبه ، ولكنه لم ينتبه اليها ! وكل يوم ، وكل لحظة ،
سمعها - من خلال الجدار - تمشي وتروح ، وتجيء ، وتحدث ، ولم
يعرها أذنه ! وفي تلك الاحاديث كانت أنثى ، ولكنه لم يسمعها !
كانت افكاره في مكان آخر ، كانت مستغرقة في الأحلام ، في
الأياماضات المستحيلة ، في ضروب من الحب غير المعقول ، في الحماقات .

بينا كان نفرٌ من المخلوقات البشرية - إخوته في يسوع المسيح ، اخوته
 في الشعب - يعالجون سكرات الموت في جواره ! يعالجون سكرات
 الموت على غير طائل ! بل لقد سبّب هو جزءاً من شقايمهم ، وضاعفَهُ .
 إذ لو كان لهم جارٌ غيره ، جارٌ أقلّ تعلقاً بالآوهام ، وأقوى ملاحظةً ،
 رجلٌ عاديٍّ ومحسن ، اذن للاحظ فقرهم ، ولرأى أمارات شقايمهم ،
 واذن لكان من الممكن أن يحظوا بالفوٹ ويتمتعوا بالنجاة منذ عهد
 بعيد ! لقد بدّوا من غير ريب فاسدين جدّاً ، داعرين جدّاً ، دنشين
 جدّاً ، بغيضين جدّاً ، ولكن قليلون هم أولئك الذين يفكرون من غير
 أن يذبلوا . وإلى هذا ، فهناك نقطة يلتقي عندها منكودو الحظ
 ومهتوكو الستور ويخلط ما بينهم بكلمة واحدة ، كلمة مشؤومة :
 اليأس . من المسؤول عن هذه الخطيئة ؟ وفوق ذلك ، اليس صحيحاً
 انه حين يكون السقوط أعمق يتعين أن يكون الاحسان أعظم ؟
 وفيما هو يعظ نفسه على هذا النحو - إذ كانت ثمة اوقات كانت
 ماريوس فيها ، مثل جميع القلوب المخلصة ، مرشداً نفسه المعترف لها
 باكثر مما تستحق - نظر الى الجدار الذي يفصله عن امرأة جوندريت ،
 وكأنما كان يستطيع ان يرسل نظره المفعمة بالرافة ، من خلال ذلك
 الجدار ، الى أولئك القوم التعاء . وكان الجدار طبقة رقيقة من جص
 مدعومة بألواح وعوارض خشبية كان في إمكان المرء أن يسمع من
 خلالها - كما ذكرنا من قبل - مختلف الكلمات والاصوات سماعاً واضحاً
 جدّاً . والواقع ان المرء ينبغي ان يكون ماريوس الحالم حتى لا ينتبه
 لهذا كله . لم يكن ثمة ورق ملصق على هذا الجدار ، لا من ناحية
 امرأة جوندريت ، ولا من ناحية ماريوس ؛ فكان تكوينه الجافي عارياً
 في نظر العين . وعلى نحو غير واعٍ تقريباً درس ماريوس هذا الجدار ؛
 فالتأمل الحالم يفحص في بعض الاحيان ويلاحظ ويتحرى ، شأن الفكر

سواء بسواء . وفجأة نهض ؛ لقد لمح في القسم الاعلى من الحجرة ،
قرب السقف ، ثقباً مستطيلاً ناشئاً عن ثلاثة الواح خشبية تركت في ما
بينها فجوة . كان الجبين الذي سُدَّت به تلك الفجوة في يوم من الايام
قد سقط ؛ وبامتطاء متن الحزانة ذات الادراج كان في ميسوره ان يرى
من كخلل هذا الثقب ، الى عليّة جوندريت . إن للشفقة ، وينبغي ان
يكون لها ، فضولها . فقد كان هذا الثقب أشبه بيوضاس . وانه لمن
المباح ان ينظر المرء ، الى الشقاء مثل خائن من الحونة ، من أجل
العمل على التخفيف من وطأته . وفكّر ماريوس : « فلنوّ قليلاً من هم
هؤلاء القوم ، والى أين قد صاروا . »
وتسلّق الحزانة ذات الادراج ، وأدنى حديقته من الثغرة ، ونظر .

٦

الرجل الضاري في مأواه

إن للمدن ، مثلما للغابات ، اوكارها التي يختبئ فيها كل مُرغِّل في
الشرّ وفي الفظاعة . مع فارق واحد ، هو ان من يختبئ في اوكار
المدن شرس ، قذو ، حقير ، يعني أنه بشع . في حين ان ما يختبئ
في اوكار الغابات شرس ، وحشيّ ، وجليل ، يعني أنه جميل . اوكار
مقابل اوكار ، ولكن اوكار البهائم مفضّلة على اوكار البشر . إن
المغاور خيرٌ من اكرواخ البشر القذرة .
لقد كان ما رآه ماريوس كوخاً قذراً .

كان ماريوس فقيراً ، وكان أثاث غرفته حقيراً ، ولكن كما كانت
فقره نبيلاً كانت عليّته نظيفة . أما الوكر الذي سدّد النظر اليه اللحظة
فكان زريباً ، قذراً ، منقناً ، عفناً ، مظلماً ، دنساً . وكان كل ما

فيه من الأثاث كرسياً من قش ، وطاولة كسيحة ، وبضعة صحن
عتيقة مهشمة ، وفراشَين حقيرين لا سبيل الى وصفها منطرحين في
زاويتين من زواياها . وكان النور لا يتسرب اليه إلا من نافذة ذات اربعة
ألواح زجاجية تجلها أنسجة المنكبوت . ولم يزد الضوء المنسرب من
تلك النافذة على ذلك المقدار الكافي لأن يجعل وجه الانسان يبدو وكأنه
وجه شبح . كانت ترين على الجدران سجا جذماء ، وكانت تعلوها التخاريم
والندوب مثل محيّا شوهه مرض رهيب ما . وكانت تنضح منها رطوبة
عفنة . وكان في ميسور المرء ان يتبين على صفحتها صوراً بذيقة رُسمت
بالفحم على نحو يُعوّزه الاتقان .

كانت الغرفة التي احتلها ماريوس مفروشةً بأرضية آجرية محطمة .
أما هذه فلم تكن لا مبلّطة ولا مخشّبة . كانوا يمشون مباشرة على
جصّ المنزل القديم الذي أمسى أسود تحت أقدامهم . وعلى هذه التربة
غير المستوية التي تبدّئ الفبار وكأنما قد اكتسب فوقها قشرة حجرية ،
والتي لم تكن بكرّاً إلا من حيث امتناعها على المكينة ، نقول على
هذه التربة اجتمعت كيفما اتفق ابراج من الاحذية القماشية العتيقة ،
والنعال البالية ، والخرق الرهيبة . بيد ان تلك الغرفة كانت تنطوي
على موقد ، ومن أجل هذا كانت أجرتها السنوية اربعين فرنكاً . وفي
الموقد كان شيء من كل شيء : كان كانون ، ومرجل ، والواح خشبية
مهشمة ، وأسماط تتدلى من المسامير ، وقصص عصفور ، وبعض الرماد ،
بل وفارٌ ضئيلة ايضاً . كانت جمرتان ترسلان الدخان في كآبة .

وزاد اتساع تلك العلية في مظهرها الرابع . كانت ذات نتوءات ،
وزوايا ، وحفر سوداء ، وتضاريس تحت السقف ، وخلجان صغيرة ،
وآكام مرتفعة . ووراء ذلك كانت زوايا فظيعة لا يسر غورها - زوايا
بدت وكأنها حافلة بالعناكب التي في حجم 'جمع اليد' ، وأمات الاربع
والاربعين التي في حجم القَدَم ، ولربما ببعض الكائنات البشرية

الرهبة ايضاً .

كان أحد الفراشين قرب الباب ، والآخر قرب النافذة . وكان طرف كلٍّ منها يلامس الموقد ، ويواجه ماريوس .
وفي زاوية قريبة من الفجوة التي كان ماريوس ينظر منها كان يتدلى على الجدار ، ضمن إطار من خشب أسود ، نقشٌ ملوّن مكتوب في أدناه بأحرف ضخام : الحُلم . وكان ذلك النقش يمثل امرأة نائمة وفي حجرها طفل نائم ، ونسراً وسطَ سحابة حاملاً بمنسره تاجاً ، وقد اخذت المرأة تبعد التاج عن رأس طفلها ، ولكن من غير ان تتيقظ . وفي خلفية الرسم بدا نابوليون وسط هالة ، مستنداً الى عمود ازرق ضخم ذي تاج أصفر مزدان بهذه الكلمات :

مارانفو

أوسترلitz

بيننا

واغرام

ابلو

وتحت هذا الاطار كان ضربٌ من لوح خشبي ماطور يزيد طوله على عرضه ، وقد أوقف على ارض العلية وأسند الى الجدار مشكلاً زاوية ما . كان يبدو أشبه بلوحة فنية مقلوبة وجهاً لظهر ، أو إطار منسخ في أغلب الظن من الناحية الثانية ، أو مرآة بين نافذتين أزيلت عن الجدار ثم نسي القوم أن يعلقوها من جديد .
والى الطاولة - التي رأى ماريوس فوقها ريشةً ، وحبراً ، وورقاً - كان يجلس رجلٌ في نحو الستين ، ضئيل الجسم ، هزيل ، شديد الشعوب ، شرس تبدو عليه سبى الدهاء ، والوحشية ، والقلق ، نذلٌ شنيع .

ولو قد 'قدّر لـ' « لافانير » ان يدرس هذا الوجه اذن لوجد فيه مزيجاً من العقاب والمحامي الصغير . وقد تتم كل من الطائر المفتوس والرجل المحتال الاخر وبشعته ، إذ جعل الرجل المحتال الطائر المفتوس خبيثاً ، وجعل الطائر المفتوس الرجل المحتال رهيباً .

وكانت لذلك الرجل حية طويلة شائبة . وكان يرتدي قميصاً نسائياً يكشف عن صدره الاشعث ، وذراعيه العاريتين الشائكتين بالشعر الاشيب . وتعت هذا القميص كان في ميسور المرء ان يرى بنطلوناً لونه الوحل ، وحذاءً عالي الساق برزت منه أصابع قدمي الرجل . كان واضعاً في فمه غليوناً ، وكان يدخن . لم يكن في الوكر بقية من خبز ، ولكن كان فيه بقية من التبغ .

كان يكتب ؛ وأغلب الظن ان ما كتبه كان رسائل مثل تلك التي قرأها ماريوس .

وعلى احدى زوايا الطاولة كانت مجلد عتيق فريد ضارب لونه الى الحمرة . وكان قطعه ، وهو قطع الواحد على اثني عشر من الطلحبة الذي طبعت به سلاسل الكتب القديمة ، يتم عن أنه رواية . وعلى الغلاف ، كان هذا العنوان مطبوعاً بأحرف كبيرة ضخمة :

الله ، الملك ، الشرف ، والسيدات ، بقلم دو كراي دومنيل ،

. ١٨١٤

وتكلم الرجل بصوت عالٍ فيما كان يكتب . وسمع ماريوس كلماته :
- « ما أصعب ان يفكر الانسان بأنه ليس ثمة مساواة حتى بعد الموت ! انظر قليلاً الى « الاب لوشيز » * ! ان الكبار ، اولئك الذين

* Lavater فيلسوف وشاعر سويسري (١٧٤١ - ١٨٠١) كانت له براءة

فائدة في علم القراءة .

* مقبرة باريس الرئيسية .

هم اغنياء ، يرقدون في الجزء الاعلى ، في مجاز الآكاسيا ، المعبد .
إن في استطاعتهم أن يذهبوا الى هناك في عربة . اما الصغار ، الفقراء ،
التعساء ، فهؤلاء يضعونهم في القسم الأدنى - حيث يرتفع الوحل حتى
الركب - في الحفر ، في الرطوبة . إنهم يضعونهم هناك لكي تقـد
جثثهم بصورة أسرع ! انك لا تستطيع ان تذهب لتراهم من غير ان
تغوص في الأرض .

وهنا سكت ، وضرب الطاولة بجمع كفه ، ثم اضاف وهو يصرف
بأسنانه :

- « اوه ! في استطاعتي ان آكل العالم . »

وكانت امرأة ضخمة ، قد يكون عمرها اربعين وقد يكون عمرها مئة ،
جالسة القرفصاء ، قرب الموقد ، على قدميها الحافيتين .

كانت هي ايضاً لا ترتدي غير قميص وتنورة مسرودة مرقعة بقطع
من الجوخ العتيق . وكان مئزر من قماش غليظ يغطي نصف تنورتها .
وعلى الرغم من ان تلك المرأة كانت محدودة منكمشة فقد كان في
إمكان الناظر اليها ان يلح انها فارعة الطول . كانت شبه عملاقة
الى جانب زوجها . كان لها شعر رهيب ، أحمر فاتح وخطه الشيب ،
كانت تزد الى الراء بين الفينة والفينة بيديها الضخمتين اللامعتين
المسطحة الاظافر .

والى جانبها كان ملقى على الارض ، مفتوحاً على مصراعيه ،
مجلد في مثل حجم المجلد الآخر ، ولعله ان يكون جزءاً من الرواية
نفسها .

وعلى إحدى الحشيتين لمح ماريوس شبه فتاة صغيرة مهزولة شديدة
الشحوب وقد جلست ، عارية تقريباً ، وتدلّت قدميها ، من غير ان
يبدو على محياها ما يؤذن بأنها تسمع ، او ترى ، او تحيا .

كانت من غير ريب الاخت الصغرى لتلك الفتاة التي وفدت على

عليه .

لقد بدت وكأنها في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر . حتى اذا أنعم النظر اليها تبين أنها في الخامسة عشرة . وليس من شك في انها هي الطفلة التي قالت ، البارحة ، على الجادة : « لقد ركضت !
وركضت ! وركضت ! »

كانت من ذلك الضرب المعتل الصحة الذي بظلّ متغلفاً فترة طويلة ، ثم ينطلق في سرعة وعلى نحو مفاجئ . إنما العوز هو الذي يُطلع هذه النباتات البشرية الكثيرة . فهذه المخلوقات لبس لها طفولة ولا مراهقة . انها في الخامسة عشرة تبدو وكأنها في الثانية عشرة ، وفي السادسة عشرة تبدو وكأنها في العشرين . وإنك لتراهن اليوم فتيات صغيرات ، وإنك لتراهن غداً نسوة ناضجات . وفي استطاعة المرء ان يقول انهن يتخطين الحياة وثباً لكي يتخلصن منها في مدة أقصر .

في تلك اللحظة كانت تطفو على حيا هذه المخلوقة سيما الاطفال .
والى هذا ، فلم يكن ثمة ما يؤذن بأن عملاً من الاعمال كان يتم في تلك الغرفة . فلا تَوَلّ ، ولا دولاب ، ولا أداة . وكانت في احدى الزوايا بضع قطع حديدية ذات مظهر مريب . وعلى الجلمة ، فقد كان يرين على العلوية ذلك الكسل القائم الذي يعقب اليأس ، والذي يسبق سكرات الموت .

ونظر ماربوس ، طوال فترة ما ، الى تلك الغرفة المائتية التي كانت ادعى الى الذعر من جوف قبر ، إذ كانت المرء يستشعر هنا اضطراب النفس البشرية ، وخفقان الحياة .

إن العلوية ، والتقبو ، والحفرة السفلى ، حيث يدبّ بعض المعوزين في قعر الصرح الاجتماعي . ليست القبر نفسه . إنما غرفة الانتظار المؤدية اليه . ولكن ، كما يعرض اولئك الاغنياء اعظم ما يقدرّون عليه من أهبة عند مدخل قصرهم ، كذلك يبدو الموت ، الجاثم

على مقربة دانية ، وكأنه يعرض أقصى ما عنده من تعاسة في هذا الرواق .

وصمت الرجل ؛ ولم تتكلم المرأة ؛ ولم يبدُ أن الفتاة الشابة تنفّس . كان في استطاعة ماريوس أن يسمع الريشة تخدش الورق في جريها .

وغغم الرجل من غير أن يكفّ عن الكتابة :

« سافل ! سافل ! كل شيء سافل ! »

وكان في هذا التعريف لكلمة سلفيان المأثورة ما انتزع زفرة من صدر المرأة .

وقالت :

« الزم الهدوء ، يا صديقي الصغير . لا تؤذ نفسك يا عزيزي .

جميل منك جداً أن تكتب الى هؤلاء القوم كلهم ، يا صاحبي ! »

في الفقر تتلاصق الاجسام ، شأنها في البرد ، ولكن القلوب تتباعد .

كانت كل المظاهر تشير الى ان هذه المرأة كانت خليقةً بأثّ تحبّ

زوجها بكامل ما تقدر عليه من حب . ولكن هذا الحب انتهى الى

ان يخمد ، في اغلب الظن ، نتيجةً لتكرّر التويخ المتبادل الناشئ

عن الشقاء المروّع الذي رزحت تحته الجماعة كلها . ومن هنا لم يبق

في قلبها نحو ذلك الزوج غير رماد المحبة . ومع ذلك ، فإنّ تعابير

التعجب ، وهو ما يقع دائماً ، لم تمت على لسانها . كانت تقول له :

يا عزيزي ، يا صديقي الصغير ، يا صاحبي الخ ، . بشفتيها ، على حين

يظلّ قلبها صامتاً .

وعاود الرجل الكتابة .

ستراتيجية وتكتية *

وكان ماريوس على وشك ان يبط ، موجع القلب ، من شبه المرصد
ذاك الذي ارتجله ، عندما لفتت انتباهه ضجة ما ، وأغرته بالبقاء
حيث هو .

وفتح باب العلبة على نحو مفاجئ .

وبرزت الفتاة الكبرى عند العتبة .

كانت تنتعل حذاءً رجالياً ضخماً يملوه الرجل المتناثر حتى كعبيها
الأحمرين ، وكانت تتسربل برداء فضفاض عتيق لم يره ماريوس على جسدها
قبل ساعة ، ولعلها ان تكون قد تركته عند بابه لتستدرّ شفقتة اقصى
ما يكون الاستدرا ، ثم عاودت لبسه حين خروجها ، من غير شك .
ودخلت ، ودفعت الباب خلفها ، ووقفت لكي تأخذ نفساً ،
فقد كانت تلهث لهاثاً شديداً ، ثم صاحت وقد كطفت على حياها سيما
النصر والبهجة :

— « إنه آتٍ ! »

وأدار الأب عينيه ، وأدارت المرأة رأسها ، ولم تتحرك الاخت
الصغرى .

وتساءل الأب :

— « من ؟ »

— « الرجل ! »

— « المحسن ؟ »

* تريب اصطفاة للفظه tactique في القنات الاجنبية وتني فن الحرب وتنظيم
المقاتلين .

- « نعم . »
- « محسن كنيسة سان جاك ؟ »
- « نعم . »
- « ذلك الرجل العجوز ؟ »
- « نعم . »
- « سوف يأتي ؟ »
- « لقد مشى على اثري . »
- « أواثقة أنت ؟ »
- « انا واثقة . »
- « ولكن ، اهو قادمٌ حقاً ؟ »
- « إنه آتٍ في عربة اجرة . »
- « في عربة اجرة . هذا روتشيلد ! »
- ونفض الأب .

- « كيف تقولين انك واثقة ؟ اذا كان قادمًا في عربة اجرة فكيف جاز ان تصلي قبله ؟ هل أعطيته عنوان البيت على الاقل ؟ هل قلت له جيداً : آخر باب في اقصى الرواق الى اليمين ؟ شرط ان لا يرتكب خطأ ما ! لقد وجدته في الكنيسة ، اذن ؟ هل قرأت رسالتي ، ماذا قال لك ؟ »

فقالت الفتاة :

- « تا ، تا ، تا ! كيف تعدو خبيثاً ، ايها الرجل الساذج ! سوف أقول لك : لقد ذهبتُ الى الكنيسة ؛ كان في مكانه المعتاد ؛ وحنيت له رأسي احتراماً ؛ وقدّمت اليه الرسالة ، فقرأها وقال لي : « ابن تسكنين ، يا طفلي ؟ » فقلت : « سيدي ، سوف اقودك اليه . » فقال لي : « لا ، أعطيني عنوانك . إن ابنتي تريد ان تشتري بعض الحاجات ، وسوف آخذ عربة ، فأصل الى منزلك حاملاً تصلين . »

واعطينه العنوان . وحين ذكرت اسم البيت ، بدا وكأنه دُهِش ، وتردد لحظة ، ثم قال : « سيان ، سوف اذهب . » وعندما انتهى القداس ، رأيت يغادر الكنيسة مع ابنته . لقد رأيتهما يركبان العربى . ولقد قلت له فى وضوح : آخر باب فى اقصى الرواق الى اليمين . »

— « وكيف تعرفين انه سوف يأتي ؟ »
— « لقد رأيت العربى ، منذ لحظة ، وقد وصلت الى شارع بيتي بانكيبه . » وذلك ما جعلني اركض .
— « وكيف تعرفين انها العربى نفسها ؟ »
— « لأني راقت رقبها . »
— « وما هو هذا الرقم ؟ »
— « اربعمئة واربعون . »
— « حسن . انت فتاة ذكية . »
فتظرت الفتاة الى ابيها ، فى جسارة ، وقالت وهي تشير الى الحذاء الذي انتعلته :

— « فتاة ذكية ، هذا جائز . ولكني اقول لك اني لن ألبس هذا الحذاء بعد اليوم ، واني لم أعد اريده ، من اجل الصحة ، اولاً ، ومن اجل النظافة ثانياً . انا لا اعرف ما هو ازعيج من النعال التي كُتِصِرَتْ : زي ، زي ، زي ، طول الطريق . اني افضل ان امشي حافية . »

فأجابها الاب فى نبرة رقيقة تغايرت تغايراً واضحاً مع خشونة الفتاة الشابة :

— « أنتِ على صواب . ولكن اذا مشيت حافية فعندئذ لا يسمحون لك بالدخول الى الكنيسة . إن على الفقراء ان يلبسوا أحذية . »

قال ذلك ، و اضاف في مرارة :
 - « ان الناس لا يذهبون الى بيت الله حفاة ! »
 ثم رجع الى الموضوع الذي يشغل تفكيره :
 - « ولكن ، هل انت واثقة من انه آت ؟ »
 فقالت :
 - « إنه قادمٌ على اثري . »
 ووثب الرجل . كان يطفو على وجهه شبه الهام .
 وصاح :
 - « ايها الزوجة ! اسمعين ؟ هوذا الحسن . أطفئي النار . »
 ولم تتحرك الأم المشدوعة .
 وفي رشاقة مشعوذ أمسك الأب بأفاه مكسور كان على الموقد ،
 وقذف الجمرات بشيء من الماء .
 ثم التفت الى ابنته الكبرى وقال :
 - « أنتِ ! أزيلِي قشَّ الكرسي ! »
 ولم تفهم ابنته قط .
 فأمسك بالكرسي ، ورفضها رفسةً أنلقها بها . لقد نفذت ساقه من
 خلالها .
 وفيما هو يسحب ساقه ، سأل ابنته :
 - « الجو بارد ؟ »
 - « بارد جداً . الثلج ينساقط . »
 واستدار الأب نحو الفتاة الصغرى التي كانت على الحشبة القريبة من
 النافذة ، وصاح في صوت راعد :
 - « عجلي ! اخرجي من الفراش ، يا من لا تصلح لشيء ! ألن
 تفعلي شيئاً على الإطلاق ؟ اكسري لوح زجاج ! »
 ووثبت الفتاة الصغيرة من الفراش وهي ترتعد .

وقال كرهة اخرى :

- « اكسري لوحاً من ألواح الزجاج ! »

وظلت الفتاة معتصمة بالصمت .

وكرر الأب :

- « أسمعين ما أقول ؟ أقول لك اكسري لوحاً زجاجياً ! »

وفي ضرب من الخضوع المذعور ، انتصبت الطفلة على رؤوس أصابعها وضربت احد ألواح النافذة الزجاجية بمجْتمع كفها . وانكسر اللوح ، وسقط محدثاً ضجة كبيرة .

فقال الأب :

- « حسن . »

كان رصيناً ورشيقاً . وفي سرعة ، طافت عينه يزوايا العلية جميعاً . ولو قد رأيتَهُ اذن لقلت انه جنرال يتخذ الاستعدادات النهائية لحظة اوشكت المعركة ان تنشب .

ونمضت الأم - ولم تكن قد نطقت بكلمة ما حتى الان - وسألت في صوت بطيء مخنوق ، وقد بدت كلماتها وكأنها تنطلق متجمدة :

- « ما الذي تريد ان تصنعه ، يا عزيزي ؟ »

فأجابها الرجل :

- « عودي الى فراشك ! »

كانت لهجته حاسمة لا تحتمل جدالاً . فأذعنت الأم ، وانطرحت في ثقل فوق احدى الحشيتين .

وفي غضون ذلك سمعت زفرة في زاوية ما .

فصاح الأب :

- « ما هذا ؟ »

ومن غير ان تخرج من الظلام الذي انكمشت فيه ، أبرزت الفتاة الصغرى 'جمع' كفها الدامي . لقد 'جرحت' عند كسرها زجاج النافذة .

كانت قد ذهبت الى فراش أمها ، وكانت تبكي في صمت . وهنا جاء دور الأم في الانتصاب والصبح :

- « انت ترى جيداً ! أبة حماقات هذه التي ترتكبها ! لقد جرحت نفسها لكي تكسر لوحك الزجاجي ! »
فقال الرجل :

- « هذا خير ! لقد كنت أعرف أنها سوف تجرح نفسها . »
فاستأنفت المرأة الكلام :

- « كيف ؟ تقول إن هذا خير ؟ »
فأجابها الأب :

- « الصمت ! إني أكتب حرية الصحافة ! »
ثم إنه مزق القميص الذي كان يرتديه ، واتخذ منه ضمادة سارع الى ربط رصغ ابنته الصغرى الدامي ، بها .
حتى اذا أتم ذلك ، وقعت عيناه على القميص الممزق في اوتياح ، وقال :

- « والقميص ايضاً . إن لهذا كاه مظهرأ حسناً . »
وصفرت ربيع مشلوجة عند النافذة ، ودخلت الى الغرفة . وتسرب الضباب من الخارج ، وانتشر في جنباتها مثل قطن مندوف ضارب لونه الى البياض تفرقه اصابع غير منظورة . ومن خلال اللوح الزجاجي المكسور رُئي الثلج يتساقط . كان البود المرتقب قبل يوم من عيد تقديم يسوع في الهيكل قد أقبل فعلاً .

وأجال الأب نظره في ما حوله وكأنما كان يريد أن يتأكد من أنه لم ينس شيئاً . لقد أمسك بمجرفة عتيقة ، ونشر الرماد فوق الجمرات المبللة على نحو يخفيها إخفاءً كاملاً .

ثم استقام وأسند ظهره الى الموقد .
وقال :

- « الان ، نستطيع أن نستقبل رَجُلَ الاحسان ! »

٨

الشعاع في البيت الحقيق

ومضت الفتاة الكبرى الى أبيها ، ووضعت يدها على يده .
وقالت :

« أنظر كم أنا بردانة ! »
فأجابها الاب :

- « هه ! أنا بردان اكثر منك بكثير . »
وصاحت الأم في حدة :

- « إنك تجد كل ما عندك خيراً بما عند غيرك ، حتى الألم ! »
فقال الرجل :

- « إخفصي صوتك ! »

وبعد أن سدّد الرجل الى زوجه نظرةً خاصة ، لزمّت السكوت .
وعبرت بالوكر لحظة صمت . كانت البنت الكبرى تزيد الوحل ،
في سماء لا مبالية ، عن الجزء الأدنى من رداثها ، وكانت الاخت
الصغرى تواصل تنهّدها ، وقد طوّقت الأم رأسها بيديها الاثنتين
وغمرتها بالقبلات ، قائلة لها في صوت خفيض :

- « أتوسل اليك ، يا كنزي ! إن هذا الجرح سوف يندمل في
الحال . لا تبكي . إن ذلك يغضب والدك . »
فصاح الاب :

- « لا ! على العكس ! انتحي ! انتحي ! هذا يترك أثراً دائماً . »
ثم ارتدّ الى ابنته الكبرى ، وقال :

- و آه ، ولكنه لم يأتِ ! إذا كان لا يعتزم الهبيء ، فعندئذ
اكون قد اطفأت ناري ، ونزعتُ القسم الاسفل من كرميتي ، ومنزقت
قميصي ، وكسرت لوح زجاجي من غير فائدة ! ،
فدمدمت الام :

-- و جرحتُ الطفلة الصغيرة ! ،
ثم استأنف الاب حديثه قائلاً :

- و أتعرفين أن هذه العلية الشيطانية باردة كالكلب ؟ أما إذا لم
يأتِ هذا الرجل ! أوه ! هو ذاك ! إنه يحملنا على انتظاره ! إنه
يقول في ذات نفسه : و حسناً ، إنهم ينتظرونني ! ذلك ما خلَقُوا من
أجله ! ، أوه ! كم أكرههم ، وما أجدرني بأن اخنقهم في تهليل ،
وبهجة ، وحماسة ، وارتياح - أولئك الاغنياء ! جميع أولئك الاغنياء !
أولئك الذين ينظاهرون بأنهم رجالٌ محسنون ، والذين هم شديداً
التقوى ، والذين يذهبون الى القداس ، والذين يصدقون رجال الدين
المرددين معاني خطبهم على نحو مضحك ، ويصدقون الكهان ، والذين
يحسبون انفسهم اسمى منا ، والذين يجيئون لكي يُبدِّلُونَا ، ويحملوا إلينا
الملابس ! كما يدعونها ! خرقٌ لا تساوي اربعة فلوس ، وشيء من
الحبز ! ليس هذا ما أريده من أولئك السفلة ! انا اريد مالاً ! آه ،
ولكنهم لا يقدمون إلينا مالاً البتة ! لانهم يقولون إننا نذهب ونشرب
الحمر به ، وإننا سكبرون لا نصلح لشيء ! وحضراتهم ! أي شيء هم
اذن ، وأي شيء كانوا في زمانهم ؟ لصوص ! ولولا ذلك لما كانت
في استطاعتهم ان يصبحوا أغنياء ! أوه ! يجب ان يُمسِكَ احدنا بالجمتمع
من زوايا السباط الأربع ويقذف به في الهواء . سوف ينكسر كل شيء ،
هذا جائز ، ولكن احداً لن يملك شيئاً على الاقل ، وهذا في ذات
نفسه ربيع ! ولكن ، ما الذي يفعله ، الان ، صاحبك المحسن الغليظ ؟
هل سيأتي ؟ لعل ذلك الحيوان قد نسي العنوان ! أراهن ان ذلك

المعتوه المعجوز ... ،

في تلك اللحظة ، 'قرع الباب قرعاً وقيقاً ؛ واندفع الرجل الى
أمام وفتحته هاتفاً منحنيّاً عدة مرات انحناءً خفيضاً ، ومرحلاً ابتسامات
الاعجاب والتقدير :

— « أدخل ، ياسيدي ! تنازل وادخل ، يا محسنى للنيل ، وأدخل
معك آنستك الفاتنة ! »

وبرز لدى باب العليّة رجلٌ كهل ، وفتاة شابة .
ولم يكن ماريوس قد فارق مكانه . لقد استشعر في تلك اللحظة ما
تعجز اللغة الانسانية عن وصفه .
كانت هي .

وكل من أحبّ ، يعرف كاملَ المعنى المشعّ الذي ينطوي عليه حرفاً
هذه الكلمة : هي .

كانت هي حقاً . وإنما نبّتها ماريوس ، في كثير من العسر ، من
خلال البخار الساطع الذي انتشر فجأة فوق عينيه . كانت ذلك الكائن
العذب الداهل ، ذلك النجم الذي كان نورَه طوالَ ستة اشهر ، تلك
الحدقة ، ذلك الجبين ، ذلك الفم ، ذلك الهيّا الجميل الذي احتّى ،
والذي خلّف وراءه ظلاماً دامساً . كانت الرؤيا قد اعتراها الكسوف ،
وها هي ذي الآن تعاود الظهور !

لقد عاودت الظهور في هذه الظلمة ، في هذه العليّة ، في هذا
الوكر الشائه ، في هذا الهول !

وارتعد ماريوس ارتعاداً عنيفاً . ماذا ؟ إنها هي ! وكان في خفقان
قلبه ما أوقع الاضطراب في بصره . لقد استشعر ان
عينيه على وشك أن تغورقاً بالدموع . ماذا ! لقد رآها من جديد ،
آخر الأمر ، بعد ان بحث عنها دهرآ طويلاً ! وبداء له وكأنما كان قد
أضاع نفسه ثم اهتدى اللحظة اليها .

كانت لا تزال هي هي ، ولكنها شاحبة بعض الشيء . كان وجهها الدقيق مطوّقاً بقبعة مخملية بنفسجية ، وكانت قامتها محجوبة تحت رداء حريري أسود مبطن بالفرو . ولقد لمع تحت فستانها الطويل قدّمها الصغيرة "مقحمة" في حذاء حريري عالٍ ذي رباط .
كان ميسو لوبلان لا يفارقها ، جرباً على مألوف عاداته .
كانت قد تقدمت بضع خطوات في الغرفة ، ووضعت رزمة كبيرة على الطاولة .
وكانت البنت الكبرى قد ارتدت خلف الباب وانشأت تنظر ، في حسد ، الى تلك القبعة المخملية ، وذلك الرداء الحريري ، وهذه الطلعة المستهجة الفاتنة .

٩

جوندريت يكاد ييكي

كانت العلية من الاظلام بحيث استشعر الوافدون اليها من الخارج أنهم يلبجون كهفاً من الكهوف . وهكذا تقدّم الوافدان الجديدان ، في شيء من التردد ، وهما لا يكادان يتبينان الوجوه الباهتة من حولهما ، على حين كان سكان العلية الذين تعودت أعينهم هذا الغسق يرونهما في وضوح ويدرسونها في عناية .
واقترّب ميسو لوبلان ، بإيمانه الكريمة الكثيبة ، وقال للأب :
- « سيدي ، سوف تجد في هذه الصرة بعض الملابس الجديدة ، وبعض الجوارب والبطانيات الصوفية . »
فقال جوندريت ، منحنياً حتى الارض :
- « إن محنتنا الملائكي يغمرنا بنعمه . »

ثم مالَ على أذن ابنته الكبرى ، فيما كان الزائران يفحصان هذا
المسكن المبكي ، وأضاف في سرعة وفي صوت خفيض :
- « هه ؟ ماذا قلت لك ؟ خرقَ بالية ! لا مال ! إنهم جميعاً
سواء ! أخبريني ، أيّ إمضاء كان يذيل الرسالة الموجهة الى هذا الأب
العجوز ؟ »

فأجابته الفتاة :

- « فابانتو . »

- « الفنان المسرحي . حسن ! »

وكان ذلك من حسن حظ جوندريت ، إذ في تلك اللحظة التفت
لوبيلان نحوه ، وقال له وقد بدت على وجهه سباً من يحاول ان يتذكر
اسماً :

- « ارى انك تستحق الشفقة حقاً ، يا ميسو ... »

فسارع جوندريت الى القول :

- « فابانتو . »

- « ميسو فابانتو . أجل ، ذلك هو . لقد تذكرت . »

- « فنان مسرحي ، يا سيدي ، وُفق في ما مضى الى نجاح
كثير . »

وهنا حسب جوندريت من غريب أن لحظة الاستعواذ على مشاعر
« محسنه » قد أزفت . فهتف في جرس حافل بزهو مشعور في
الاسواق الموسمية ومذلة شحاذ في الطريق العام ، في آنٍ معاً :

- « تلميذ من تلاميذ تالما * ، يا سيدي ! انا تلميذ من تلاميذ
تالما ! لقد ابتسم لي الحظ في وقت من الاوقات . وأسفاه ! الآن
جاء دور الشقاء . أنظر يا سيدي المحسن : لا خبز ، لا فار ! إن

* ممثل فرنسي شهير ، وقد سبق التعريف به .

اطفالي الصغار لا تار عندهم . أنظر الى هذا الكرسي الوحيد الذي
تقطع قشهُ ! والى هذا الزجاج المكسور ! وفي مثل هذا الجو العاصف !
إن زوجتي في الفراش ! انها مريضة ! »

فقال مسيو لوبلان :

« - مسكينة ! »

فأضاف جوندريت :

« - وابنتي جريجة ! »

وكانت الطفلة - التي أذهلها وصول الزائرين الغريبين - تحدق الى
« الآنسة الصغيرة » ، وكانت قد كفت عن الانتحاب .

وقال لها جوندريت ، في همس :

« - لماذا لا تبكين ؟ لماذا لا تصرخين ؟ »

وفي الوقت نفسه قرص يدها الجريجة . كل ذلك في براعة مشعوذ
من المشعوذين .

وأطلقت الصغيرة صرخات عالية .

وسارعت نحوها الفتاة الشابة الباردة الجمال التي دعاها ماريوس في سريرة
نفسه « أوسولته » .

وقالت :

« - ايها الطفلة العزيزة ، المسكينة ! »

وتابع جوندريت حديثه :

« - انظري ، يا آنستي الجميلة ، الى رسمها الدامي ! ذلك حادث

أصابها وهي تعمل بواسطة احدى الماكينات لكي تجني ستة فلوس في
اليوم . وقد 'نظرت' في المستقبل الى ان نبت ذراعها . »

فقال السيد العجوز مذعوراً :

« - حقاً ؟ »

وإذ أخذت الفتاة الصغيرة هذا الكلام أخذت جدياً فقد استأنفت
الانتحاب على نحو أجل .

وأجاب الأب :

- « نعم ، وأسفاه ، يا محسني ! »

كان جوندريت يتأمل « المحسن » ، منذ بضع لحظات ، تأملاً
غريباً . لقد بدا ، حتى وهو يتكلم ، وكأنما كان يفحصه فحصاً دقيقاً ،
شأن من يحاول ان يسترجع ذكرى معينة . وفجأة - وقد أفاد من
الاحظة التي انصرف فيها الزائران الى سؤال الفتاة الصغرى ، في لفظة ،
عن يدها الجريح - تقدم نحو امرأته المنطرحة في فراشها ، وقد بدت
عليها سيما الاجهاد والبلاهة ، وقال لها في سرعة وفي صوت خفيض جداً :

- « تأملي هذا الرجل ! »

ثم استدار نحو ميسو لوبلان ، وتابع شكواه الناثخة :

- « انظر يا سيدي ! كل ما على جسدي من الثياب قميص من
قمصان زوجتي ! وهو قميص ممزق تمزيقاً كاملاً ! وفي قلب الشتاء ! أنا
لا أستطيع الخروج من هذا المكان ، لاني لا أملك بذلة . ولو كان
عندي بذلة منها تكن حقيرة اذن لذهبت وزرت الآنسة مارس التي
تعرفني والتي تحبني كثيراً . إنها لا تزال تسكن في شارع « لا تور
دي دام » ، اليس كذلك ؟ أتدري ، يا سيدي ؟ لقد مثلنا معاً في
الأرياف . لقد قاسمتها اكاليل الغار التي توجت بها . إن سبيلين *
جديرة بأن تأتي الى نجدتي ، يا سيدي ! إن ايلير ** خليقة بأن تصدق

* Célimène إحدى شخصيات مولير في رواية « مبغض البشر » Misanthrope
وهي قتل المرأة الشابة ، الجيلة ، المفضاة ، النامة .

** Elmire زوجة اورغون في رواية « طرطوف » لمولير ، وهي تمثل المرأة
المخلص من غير مبالاة في تكلف اللفة .

على بيليزاريوس * ! ولكن لا ، لا شيء ! ليس في منزلي فلس واحد ! إن زوجتي مريضة ، وليس من فلس ! إن ابنتي جريح على نحو خطر ، وليس من فلس ! إن زوجتي تصاب بنوبات اختناقية . فهي في سن الشيخوخة ؛ ثم إن للجهاز العصبي صلةً بذلك أيضاً . إنها في حاجة الى مساعدة ، وكذلك ابنتي ! ولكن الطبيب ! ولكن الصيدلي ! كيف أستطيع أن ادفع ما يطلبانه ؟ ليس في جيبى فلس ! اني جدير بأن أركع على ركبتي أمام فلس واحد ، يا سيدي ! أنت ترى كيف انهارت الفنون ! وهل تعرفين ! أنت يا آنستي الفاتنة ، وانت يا نصيري الكريم ، هل تعلم ، أنت الذي يعبق بالفضيلة والطيبة والذي تعطر الكنيسة التي تراك فيها ابنتي كل يوم عندما تذهب للصلاة ؟ ذلك أني أنشيء بنتي على الدين ، يا سيدي . انا لم اسمح لها ان تميل الى المسرح . آه ، يا لعاكرتين ! لو رأيتها تولُّ بها القدم ! أنا لا أهزل ، أنا ! اني أحصتها بمواعظ عن الشرف ، عن الاخلاق ، عن الفضيلة ! إسألها ! ان عليها ان تسلكا مسلكاً قويمًا . ان لهما أباً . انها ليستا من اولئك التعمسات اللواتي يبدأن بأن لا تكون لهن أسرة ، واللواتي ينتهين بالزواج من الجمهور ! ان الواحدة منهن تكون « مدموزيل لا أحد » ، ثم تصبح « مدام كل انسان » ! شكراً للسما ! ليس ثمة شيء من ذلك في أسرة فابانتو ! أنا أعزم ان اثقفها على اساس من الفضيلة ، وأن اساعدها على ان تكونا طاهرتي الذيل ، وان تكونا لطيفتين ، وأن تؤمنا بالله ! جل اسمي ! حسناً ، يا سيدي ، يا سيدي الجليل ، هل تعلم ما الذي سيقع غداً ؟ غداً هو

* Béliastre جنرال بيزنطي (حوال ٤٩٤ - ٥٦٥) فهو ، في عهد جوستنيان ، القوات الفارسية والفندالية ، وصدت جماعات الهون . وتذهب بعض الروايات التاريخية الى أنه فقد بصره في اواخر حياته وأمسى شجاعاً . ومن هنا فقد أسمى اسم بيليزاريوس يرمز الى الفقير الاعمى الذي تنطوي نفسه على شيء من النبيل والحلق الرقيق .

الرابع من شباط ، اليوم المشؤوم ، المهلة الأخيرة التي أعطاني اياها مؤجري . فاذا لم ادفع اليه الاجرة هذا المساء فان ابنتي الكبرى ، وأنا ، وزوجتي وحماتها ، وطفلتي وجرحها سوف 'نطرد' غداً ، نحن الاربعة ، من هنا ، ونطرح الى الخارج ، الى الشارع ، الى الجادة ، من غير ملجأ ، وتحت المطر ، وتحت الثلج . تلك هي المسألة ، يا سيدي . أنا مدينٌ لصاحب البيت بأربعة اقساط . بأجرة سنة ! يعني ستين فرنكاً . لقد كذب جوندريت . إن الاقساط الاربعة لا يزيد مجموعها على اربعين فرنكاً ، ولم يكن من المعقول ان يكون مديناً بأربعة اقساط اذ لمّا تنقضى ستة اشهر على دفع ماريوس قيسة فلسطين عنه .

واخرج مسيو لوبلان خمسة فرنكات من جيبه ، وطرحها على الطاولة . ووجد جوندريت متسماً من الوقت ليدمد في أذن ابنته الكبرى : - « النذل ! اي شيء يريد مني ان افعله بفرنكاته الخمسة ؟ إن هذا لا يكفي لاصلاح كرمبي ونافذتي ! يجب ان استرجع نفقاتي ! » وفي غضون ذلك ، كان مسيو لوبلان قد نزع سترة طويلة واسعة سمراء ارتداها فوق سترة الطويلة الزرقاء ، وكان قد طرحها على ظهر الكرسي . وقال :

- « مسيو فابانتو ، لستُ أحمل غير خمسة فرنكات . ولكني سوف أرجع بابنتي الى البيت ، ثم اعود هذا المساء . لست مضطراً في هذا المساء الى الدفع ؟ »

وأشرق وجه جوندريت بتعبير غريب . واجاب في سرعة : - « نعم ، يا سيدي المحترم . في الساعة الثامنة يجب ان اكون عند صاحب البيت . »

- « سوف ارجع الى هنا في الساعة السادسة ، ولسوف احمل اليك للفرنكات الستين . »

فصاح جوندريت في انفعال شديد :

- « يا محسنى ! »

واضاف في صوت كالهمس :

- « تأمليه جيداً ، ايتها الزوجة ! »

وكان ميسو لوبلان قد أمسك بذراع ابنته الجميلة الشابة واستدار نحو الباب .

وقال :

- « الى هذا المساء ، ايها الاصدقاء . »

فقال جوندريت :

- « الساعة السادسة ؟ »

- « الساعة السادسة على الضبط . »

وفي تلك اللحظة لفت المعطف الملقى على الكرسيّ نظر الفتاة الكبرى ،

فقالت :

- « سيدي ، لقد نسيت سترتك الطويلة . »

وحدج جوندريت ابنته بنظرة صاعقة مصحوبة بهزة كتفين فظيمة .

والتفت ميسو لوبلان ، في ابتسامة :

- « انا لم أنسها . لقد تركتها . »

فقال جوندريت :

- « اوه ، يا نصيري ! يا محسنى النبيل . إن عينيّ تفروقات

بالدمع ! اسمح لي بأن اشبك حتى عربتك العمومية . »

فأجابه ميسو لوبلان :

- « اذا خرجت ، فالبس هذا المعطف . ان الجو جدُّ بارد حقاً . »

ولم يضطره جوندريت الى ان يقول ذلك مرتين . لقد سارع الى ارتداء

المعطف الاسمر في خفة بالغة .

وخرجوا ثلاثهم ، وقد تقدّم جوندريت الزائرين .

تعرقه عربات الاجرة ذوات الدولابين فرنكان في الساعة

لم يفت ماريوس شيء من هذا المشهد كله ، ومع ذلك فانه لم ير منه ، في الواقع ، شيئاً . كانت عيناه قد ركزتاً على الفتاة الشابة ، وكان قلبه قد أمسك بها - اذا جاز التعبير - وطوّقه تطويقاً كاملاً منذ وطئت قدماها ارض العلبة . وطوال مقامها هناك غمرته تلك النشوة الروحية التي تعطل المشاعر المادية وتحمل النفس على الاستغراق في نقطة واحدة . لقد تأمل ، لا تلك الفتاة ، ولكن ذلك الضياء المشرق برداء حريري مبطن بفرو ، والمعتمر بقبعة مخملية . ولو ان الشعري دخلت الغرفة لما بهرت بصره على نحو أشد .

وفيا كانت الفتاة الشابة تفتح الصرة ، وتشر الملبس والبطانيات ، مرتجة الاسئلة في طيبة الى الأم المريضة ، وفي حنان الى الفتاة الجريح ، راقب انفعالاتها كلها ، وحاول ان يصفي الى كلماتها . كان يعرف عينيها ، وجبينها ، وجمالها ، وقامتها ، ومشيتها ، ولكنه ما كان يعرف جرس صوتها . وحسب انه تلقّف بضع كلمات منه ، ذات مرة في اللوكسمبورغ ، ولكنه لم يكن موقناً كل اليقين . وكان على استعداد لأن يتخلى عن عشر سنوات من حياته لكي يسمعه ، ولكي يتمكن من ان يحمل في روحه قليلاً من تلك الموسيقى . ولكن كل شيء تلاشى وسط استعراضات جوندريت الموحجة وتبويقاته الصارخة . وازاف ذلك غضباً حقيقياً الى تهلل ماريوس . لقد حضنها بعينه . ولم يستطع ان يتخيل ان هذه التي لها وسط هذه الكائنات الدنة في هذا

الوكر الرهيب كانت تلك المخلوقة الالهية فعلاً . لقد بدا له وكأنه رأى طيراً صغيراً رقيق المنقار بين مجموعة من ضفادع الجبل .

وحين خرجت لم يخطر له غير خاطر واحد : ان يتبعها ، ان يقتفي أثرها ، ان لا يتركها من غير ان يعرف أين تكن ، وان لا يُضيعها كرةً أخرى ، على الأقل ، بعد ان وجدها على هذا النحو الاعجوبي ! ووثب عن الحزاة ذات الادراج ، وتناول قبعته . ولم يكذب بضع يده على الففل ، ويخطو الى خارج العلبة حتى اوقفته فكرة . كان الرواق طويلاً ، وكانت السلم وعرة الانحدار ، وكان جوندريت ثثاراً ؛ وليس من شك في ان مسيو لوبلان لما يدخل عربته بعد . ولو قد اتفق له ان يلتفت في المجاز ، أو على السلم ، او عند العتبة ، ويلمحه - هو ، ماريوس - في ذلك البيت ، اذن لأصابه الذعر من غير شك ، واذن لوجد وسيلة الى الفرار منه كرة ثانية ، وينتهي كل شيء من جديد . ما العمل ؟ ينتظر قليلاً ؟ ولكن العربة قد تمضي لسبيلها خلال فترة الانتظار هذه . وارتبك ماريوس . واخيراً غامر ، وغادر غرفته .

لم يكن في الرواق أحد . وهرع الى السلم . ولم يكن على السلم أحد . وهبطها في سرعة ، وبلغ الجادة لحظة كانت عربة الاجرة تستدير حول زاوية شارع الـ "بيتي بانكييه" وتراجع الى باريس .

واندفع ماريوس في ذلك الاتجاه . وحين انتهى الى زاوية الجادة رأى عربة الاجرة كرةً أخرى تهبط شارع موفتارد مسرعة . كانت العربة قد اجتازت مسافة غير يسيرة ، ولم تكن ثمة وسيلة الى اللحاق بها . ما الذي يتمين عليه ان يفعله ؟ أيعدو خلفها ؟ مستحيل . لأنهم سوف يلاحظون من داخل العربة - لا ريب في ذلك - رجلاً يركض لاحقاً بهم باقصى السرعة ، وعندئذ يعرفه الأب . وفي تلك اللحظة - وكانت فرصة ذهبية لم يُسمع بثملها - لمح ماريوس عربة اجرة ذات دولابين

تخطر فارغة في الجادة . ولم يكن ثمة غير سبيل واحدة : ان يمتطي مثن
هذه العربات ذات الدوابين ، ويلحق بعربة الاجرة . كان ذلك مأموناً ،
ناجماً ، خلواً من الخطر .

وأشار ماريوس الى السائق ان يقف ، وصاح قائلاً له :
- « في الحال ! »

كان ماريوس من غير ربطة عنق ، وكان يرتدي بذلة عمله
العتيقة التي أعوزتها بعض الاضرار ، وكان قميصه ممزقاً عند إحدى
تنتيات الصدر .

ووقف السائق ، وغرز بعينه ، وبسط يده اليسرى نحو ماريوس فاركاً
سبابته في رفق ، بأبهامه .

فقال ماريوس :

- « ماذا ؟ »

فأجاب السائق :

- « إُدفع مقدماً . »

وتذكر ماريوس أنه ما كان يملك غير ستة عشر « سو » .
وسأله :

- « كم ؟ »

- « اربعون سو . »

- « سوف أدفع حين أعود . »

ولم يجب السائق باكثير من الترنم صافراً بلحن « لا ياليس » ،
ولهاب جواده بالسوط .

ونظر ماريوس ، شارد اللب ، الى العربات تتباعد . فمن أجل اربعة
وعشرين « سو » كانت تعوزه ، أضاع بهجته ، وسعادته ، وحببه !
لقد انقلب الى الظلام . كان قد أبصر ، ثم ارندت أعمى ! وفكر في
مرارة ، وفي اسف عميق - وهو ما ينبغي ان نقوله - بالفرنكات

الحمة التي قدمها ، ذلك الصباح ، الى تلك الفتاة البائسة . اذ لو كانت تلك الفرنكات الحمة في جيبه اذن لغاز بالخلاص ، ولولد من جديد ، ولخرج من الشك والظلام ، ولفارق عزله ، وسوداويته ، و'ثكلته' ، ولعاود عقد خيط قدّره الاسود بذلك الحيط الذهبي الجميل الذي طفا اللحظة أمام عينه ثم انقطع كرةً أجرى . ورجع الى البيت العتيق يائساً .

كان في ميسوره أن يذكر أن ميسو لوبلان وعد بالعودة ذلك المساء ، وأن ليس عليه إلا ان يبذل غاية الجهد للتحاق به عندئذ ولكنه لم يكذبهم ، في غمرة من تأمل الغائم ، شيئاً من ذلك .

وفيا هو يصعد السلم ، لمح على الجانب الآخر من الجادة ، الى جانب حائط شارع د لا باريير دي غوبلين ، المهجور - لمح جوندرت مرتدياً معطف د المحسن ، يتحدث الى احد اولئك الرجال الخطري الملامح ، الذين يجمع الناس على تسميتهم د الحائنين ليلاً حول ابواب المدينة ، اولئك الرجال المبهمي الوجوه ، المريب المحاورات ، الذين تبدو عليهم أمارات النية الشريرة ، والذين ينامون في اثناء النهار عادةً ، مما يحمل على الاعتقاد بأنهم يشتغلون في موهن من الليل .

وألف هذان الرجلان المتحدثان في سكينة بينا كث الثلج بتقاط من فوقهما مدوداً - ألف هذان الرجلان صورةً كان خليقاً برجل من رجال الشرطة ان يلحقها من غير ريب ؛ على حين ان ماريوس كاد ان يخطئها .

ومع ذلك ، وبرغم ما استغرق ذهنه من تفكيك فاجع فلم يتالك عن ان يقول في ذات نفسه ان ذلك د الحائم الليلي حول ابواب المدينة ، يشبه د بانشو ، - المعروف بـ د برينتايني ، د بـ د بيغروفاي ، - الذي كان كورفيراك قد دلّه عليه ذات مرة ، والذي كان اهل الحي يعتبرونه مطوّفاً ليلاً خطراً جداً . لقد وأينا امم هذا الرجل في

الكتاب السابق . ولقد برز بانشو هذا ، المعروف بـ « برينتاويه » ،
و بـ « بيغروناني » ، بعد ذلك في عدد من المحاكمات الجنائية وامي
منذ تلك الفترة وغداً شهيراً . اما في ذلك الحين فلم يكن غير وُغد
رديه السمعة . وهو اليوم حديثٌ يُروى في اوساط السفاحين وقطاع
الطرق . لقد تزعم مدرسةٌ ما ، في اواخر عهد الملك السابق . وعند
المساء ، لحظةً يحبط الليل في تلك الساعة التي تجتمع خلالها الحشود وتتكلم
في صوت خفيض ، كان موضوع الكلام في « لا فورس » عند « حفرة
الأسود » . وحتى في ذلك السجن ، عند النقطة التي امتدت فيها ،
تحت مجاز العُرس ، قناة المراحيض التي مكنت ثلاثين سجيناً من
الهرب في وضع النهار ، على نحو خارق ، عام ١٨٤٣ - نقول حتى في
ذلك الموضع كان في-ميسورك ان تقرأ ، فوق بلاط تلك المراحيض ،
اسمه « بانشو » وقد حفره هو نفسه ، في جسارة ، على الجدار الخارجي
في احدى المحاولات التي قام بها للهرب من السجن . كان رجال الشرطة
قد شرعوا يراقبونه ، عام ١٨٣٢ . ولكنه لم يكن قد استهل نشاطه
الخطر ، استهلاً جدياً ، بعد .

١١

عروض خدمة يقدمها البؤس

الى الأسى

ورقي ماريوس سلّم البيت العتيق في خطى وثيدة . ولحظة انتهى
الى غرفته ، أو كاد ، لمح في الرواق ، خلفه ، ابنة جونديت
الكبرى التي كانت تتبعه . كانت هذه الفتاة بغیضة في نظره ؛ فهي

التي اخذت منه فرنكاته الحقة ، ولم تبق ثمة فائدة ترجى من مطالبتها بها ، فعرية الاجرة ذات الدولايين لم تعد هناك ، والعرية العمومية أمست بعيدة جداً . وإلى هذا ، فقد كان خليقاً بها أن لا تُرجعها اليه . أما سؤالها عن عنوان الزائرين اللذين وفدا عليهم منذ برهة وجيزة ، فلم يكن ذا غناء . كان واضحاً انها لا تعرفه ، لان الرسالة المذيلة بتوقيع قابانتو كانت موجهة الى « سيدي الخبير » رجل كنيسة سان جاك دو هو با .

ودخل ماريوس غرفته ، ودفع بابها من خلفه . ولم ينغلق . واستدار ، فرأى يداً كانت 'تبقى' الباب منفتحاً على نحو جزئي .

وسأل :

- « ما هذا ؟ من هناك ؟ »

كانت ابنة جوندرت .

وقال ماريوس في خشونة ، تقريباً :

« هذا انت ؟ انت دائماً ؟ ماذا تريد مني ؟ »

لقد بدت مستغرقة في التفكير ، ولم تنظر اليه . كانت قد فقدت الثقة التي تكشفت عنها ذلك الصباح . ولم تدخل غرفته ، بل وقفت في الرواق القاتم ، حيث لمحها ماريوس من خلال الباب نصف المفتوح .

وقال ماريوس :

- « هاي ، أنت ، ألا تجيبين ؟ اي شيء تريد مني ؟ »

ورفعت عينيها الفاجعتين ، حيث بدا وكأن ضرباً من الضياء كان يتوهج على نحو مبهم ، وقالت له :

-- « مسيو ماريوس ، أنت تبدو حزيناً . فهل تشكو شيئاً ؟ »

فقال ماريوس :

- « انا ؟ »
 - « نعم ، أنت . »
 - « انا لا اشكو شيئاً . »
 - « بلى ! »
 - « لا . »
 - « اقول لك بلى . »
 - « دعيني وشأني . »
- ودفع ماريوس الباب ، ككرة اخرى ، ولكنها ظلت متشبثة به .
وقالت :

- « قف ، أنت على خطأ . فعلى الرغم من انك قد لا تكون غنياً ، فقد كنت خيراً هذا الصباح . كن هكذا الآن . لقد أعطيتني شيئاً آكل به ، فقل لي الآن ما بك . أنت محزون ، هذا واضح . أنا لا اريد ان اراك محزوناً . ما الذي يجب ان يُعمل من اجل هذا ؟ هل أستطيع ان اقدم اليك خدمة ما ؟ إستخدمني . أنا لن أسألك عن امراك ، فلست في حاجة الى ان تبوح بها اليّ ، ولكنني قد اكون مع ذلك ذات فائدة . في استطاعتي من غير شك ، أن أساعدك ، ما دمتُ أساعد ابي . فحين يحتاج الى من يحمل الرسائل ، ويذهب الى البيوت ، ويسأل من بيت الى بيت ، ويبحث عن عنوات ، ويلحق بشخص ما ، أقوم أنا بهذه المهام . والان ، في استطاعتك من غير شك أن تقول لي ما بك . سوف اذهب واتحدث مع الناس . إنَّ التحدث الى الناس في بعض الاحيان كافٍ لان يفهم المرء الاشياء ، وعندئذ تسوى الامور . استفد مني . »

وخطرت لماريوس فكرة . وهل يزدري المرء قضياً حين يستشعر انه على وشك الفرق ؟

وتقدّم نحو الفتاة ، وقال لها بضمير المفرد :

- « اسمي ! »
فقاطعته وفي عينيها وميض ابتهاج :
— « اوه ! اجل ! خاطبني بضمير المفرد ! انا احب هذا اكثر . »
فأردف قائلاً :
— « حسن . لقد قدّرت ذلك الرجل وابنته الى هنا ... »
— « نعم . »
— « اتعرفين عنوانها ؟ »
— « لا . »
— « ابجشي لي عنه . »
كانت عينا الفتاة الفاجعتان قد امسنا بهيجتين . ولكن الكآبة ما لبثت ان رانت عليها .
وسأله :
— « اهذا هو الشيء الذي تريد ؟ »
— « نعم . »
— « هل تعرفها ؟ »
— « لا . »
فقلت في قوة :
— « يعني انك لا تعرفها ، ولكنك تريد ان تعرفها . »
وكانت « هما » هذه التي اصيبت « ها » ، تتطوي على مغزى ومرارة لا سبيل الى وصفها .
وقال ماريوس :
— « حسن . هل تستطيعين ان تقومي بذلك ؟ »
— « تريد عنوان الانسة الجميلة ؟ »
وكان في هاتين الكلمتين ايضاً ، « الانسة الجميلة » ، معنى اقلق ماريوس .
واستأنف كلامه :

- « على كل حال ، لا فرق ! عنوان الاب والبنت . عنوانهما .
اجل ! »

وصوتت بصرها اليه على نحو موصول .

- « واي شيء سوف تعطيني ؟ »

- « كل ما تطلبين . »

- « كل ما اطلب ؟ »

- « اجل . »

- « سوف آتيك بالعنوان . »

وخفضت رأسها ، ثم اغلقت الباب في حركة مفاجئة .

ووجد ماريوس نفسه وحيداً .

وارتمى في كرمي ، مسنداً رأسه ومرفقيه الى السرير ، مستغرقاً في

افكار لم يكن قادراً على فهمها ، وكانما هو فريسة 'دوار . كان كل

ما جرى منذ الصباح ، وظهور 'الملاك ، و'غيبته' ، وما قالته له

الاحظة هذه المخلوقة ، وشعاع الأمل الطافي وسط اوقيانوس من اليأس

- كان ذلك هو ما 'يفعم دماغه على نحو مشوش .

وفجأة انتزع من تفكيره الحالم انتزاعاً عنيفاً .

لقد سمع صوت جوندريت المرتفع القاسي وهو يلفظ هذه الكلمات

الحافلة بأغرب ما اثار اهتمامه :

- « اقول لك اني واثق من ذلك ، واني قد عرفته ! »

عن كان جوندريت يتحدث ؟ لقد عرف من ؟ مسيو لوبلان ؟ والد

'أورسوله ، ؟ ماذا ؟ هل عرفه جوندريت ؟ أكان ماريوس على وشك

ان يفوز ، على هذه الطريقة المفاجئة غير المتوقعة ، بكل المعلومات

التي كان جهله بها قد جعل حياته قائمة في عينه ؟ أكان على وشك ان

يعرف ، آخر الأمر ، من أحب ؟ من كانت هذه الفتاة الشابة ؟ من

كان أبوها ؟ أكانت الظلمة الكثيفة التي حجبتها عنه في سبيلها الى الانجلاء ؟

اكان اللثام في طريقه الى التمزق ؟ آه ! يا للساء !
ووثب ، ولا نقول ارتقى ، الى الخزانة ذات الادراج ، واستعاد
موقفه قرب كوة الجدار الصغيرة .
واطلع على ما كان يجري في وكر جوندريت ، كرة اخرى .

١٢

كيف استعملت فرنكات

مسيو لوبلان الخمسة

لم يكن قد تغير شيء في مظهر الأسرة ، لولا ان الزوجة والفتاتين
كنّ قد فتمن الصرّة وارندين الجوارب والصدرات الصوفية . كانت بطانيتان
جديدتان قد طرحتا على السريرين .

كان جوندريت قد رجع الى غرفته ، من غير شك . وكان لا
يزال يلهث . وكانت ابنتاه جالستين على الارض قرب الموقد ، وقد
انصرفت كبراهما الى تضييد يد الصغرى . وكانت زوجته مستلقية ،
وكأنها منهوكة القوى ، على الحشية المجاورة للموقد ، وقد رانت على
حياها سياء مشدوهة . أما جوندريت فكان يذرع العلّية جيئة وذهاباً ،
ونجّطى واسعة . كانت نظراؤه خارقة للعادة .

وغامرت المرأة - التي بدت جبانة مذعورة أمام زوجها - فقالت له :
- « ماذا ، حقاً ؟ اوائق انت ؟ »

- « وائق ! لقد انقضت ثمانية أعوام ! ولكني عرفته ! آه ! لقد
عرفته ! لقد عرفته في الحال ! ماذا ؟ ألم يتضح ذلك في عينيك ؟ »

- « لا . »

- « مع اني قلت' لك انتبهى جيداً ! ولكن القامة هي القامة ،
والوجه هو الوجه ، لم يكبر إلا قليلاً . إن ثمة رجالاً لا يرمون ؛
وأنا لا أدري كيف يفعلون ذلك ؛ وجرس' صوته كذلك لم يتغير .
إنه أحسن بزةً من ذي قبل ، هذا كل ما هنالك ! آه ! ايها الشيطان
القامض المعوز ، لقد أمسكت' بك ، لقد أمسكت' بك ! »

وكبح جماح نفسه ، وقال لبنتيه :

- « وانتما ايضاً ! أخرجا من هنا ! من العجيب انه لم يتضح
لناظريكما . »

ونفضتا تنفيذاً لرغبته .

وقننت الأم :

- « ويدها ما تزال تؤلمها ؟ »

فقال جوندريت :

- « الهواء سوف يفيدها . أخرجا . »

كان واضحاً ان هذا الرجل كان من اولئك الرجال الذين لا رادَ
لمشيئتهم . وخرجت الفتاتان .

وفيما هما تجتازان الباب ، أمسك الأب بذراع البنت الكبرى وقال
في نبرة فريدة :

- « يجب ان تكونا هنا في الساعة الخامسة تماماً . انتِ وهي .

سوف أحتاج اليكما . »

وضاعف ماريوس انتباهه .

حتى اذا خلا جوندريت الى امراته شرع يذرع الغرفة من جديد ،
فتمّ له ذلك مرتين او ثلاث مرات في صمت . ثم قضى بضع دقائق في
إقحام الجزء الأدنى من القميص النسائي الذي كان يرتديه ، في الجزء
الأعلى من بنطلونه .

وفجأة التفت الى المرأة ، وطوى ذراعيه هاتفاً :

- « وهل تريد أن أخبرك شيئاً ؟ ان الآنسة ... »
فقلت المرأة :

- « ثم ماذا ؟ الآنسة ؟ »

ولم يعد في ميسور ماريوس أن يشك ؛ فعنها هي كانت جوندرت وزوجته يتحدثان . وأصغى في قلق محترم . كانت حياته كلها متروكة في أذنيه .

ولكن جوندرت انحنى ، وأسر في أذن زوجته حديثاً . ثم انتصب واكمل كلامه في صوت مرتفع :

- « انها هي ! »

فقلت الزوجة :

- « تلك الفتاة ؟ »

فقال الزوج :

- « تلك الفتاة ! »

ان ايما كلام لم يكن قادراً على حمل ما انطوى عليه قول الأم « تلك الفتاة ؟ » من معانٍ . كان في تبتك الكلمتين دهش ، وغيظ ، وبغض ، وغضب بمتعة ومتحدة بنبرة صوت فظيعة . ذلك ان الكلمات القليلة التي همس بها زوجها في اذنها ، وهي اسم شخص ما من غير شك ، كانت كافية لابقاظ هذه المرأة الضخمة الناعسة والى تحويل تقززها الى هول .

وصاحت :

- « مستحيل ! حين افكر ان بنتي تمشيان حافيتين وليس لهما ثوب تلبسه ! كيف ! رداء حريري مبطن بالفرو ، وقبعة مخملية ، وحذاء عالٍ ذو رباط ، وكل شيء . ملابس تساوي اكثر من مني فرنك ! ان المرأة ليحسبها سيده ! لا ؛ انت مخطيء ! ولكن ، قبل كل شيء ، كانت تلك رهبة ، أما هذه فليست رديئة ! انها ليست

ردية حقاً ! مستحيل ان تكون اياها ! ،

- « اقول لك انها هي . سوف ترين . »

وعند هذا التوكيد الجازم ، رفعت المرأة رأسها الضخم الأحمر
الاشقر ، ونظرت الى السقف وعلى عجاها انطباعة مروعة . وفي تلك
اللحظة بدت في عيني ماريوس اشدة فظاعة من زوجها . كانت خنزيرة
لها نظرات بمررة .

واستأنفت كلامها :

- « ماذا ؟ هذه الآلة الجميلة الرهيبة التي نظرت الى بنتي وقد
غلبت عليها الشفقة ، ايمكن ان تكون تلك الشحاذة ! أوه ، كم أتمنى
لو أدوس قلبها بعقب حذاء خشبي ! »

ووثبت من السرير ، وظلت واقفة لحظة ، منقوشة الشعر ، منتفخة
المنخرين ، فاعرة الفم ، متشنجة الاصابع مردودة الى وراء . ثم إنها
خرت على الفراش . وظل الرجل يروح ويحيي غير ملقٍ بالاً الى أنثاه .
وبعد بضع لحظات من الصمت ، اقترب من زوجته ، ووقف
أمامها ، طاوياً ذراعيه شأنه من قبل .

- « وهل تريدان أن اقول لك شيئاً آخر ؟ »

فسأته :

- « ماذا ؟ »

فأجابها في صوت سريع منخفض :

- « لقد تكوَّنت ثروتي . »

وحذقت اليه المرأة بتلك النظرة التي تعني : هل أصيب الرجل الذي
يتحدث اليّ بمسٍّ من الجنون ؟

وتابع :

- « يا للصاعقة ! لقد انقضت فترة طويلة على انتسابي الى « ابوشية
'مت' من الجوع اذا كان عندك نار ، و'مت' من البرد اذا كان عندك

خبز ، ! لقد شبتُ بؤساً ! وأنا احمل نيوي ونير الآخرين ! إني لا
أزح بعد اليوم ، إني لا أجد ذلك مضحكاً بعد اليوم ! حسي 'نكتاً'
لفظية جناسية ، ايها الرب الرحيم ! لا تثيل هزلياً من الآن فصاعداً ،
ايها الاب الازلي ! اني اريد طعاماً اسدّ به جوعي ، وشراباً أطفيء
به ظمائي ! اريد أن ألتهم ! أن اقام ! ان لا أفعل شيئاً ! أريد ان
يحيى دوري ، أجل ان يحيى دوري ، قبل أن انفجر ! اريد أن
أكون جزءاً من مليونير !

وذرع العلّية من اقصاها الى اقصاها وأضاف :

- « مثل غيري من الناس . »

وسأله المرأة :

- « ماذا تعني ؟ »

فهزّ رأسه ، وغمز بعينه ، ورفع صوته مثل عالم طبيعي من علماء
مفارق الطرق على وشك ان يعرض براعاته .

- « ماذا أعني ؟ اسمعي ! »

فتمتمت المرأة :

- « هسنت ! لا تتكلم بصوت هال الى هذا الحد ، اذا كان

الحديث متصلاً بأشياء لا ينبغي لأحد ان يسمعها ! »

- « هه ! ومن هناك حتى يسمع ؟ جارنا ؟ لقد رأيته يغادر الغرفة

منذ لحظة . والى هذا ، فهل يسمع ذلك الأبله الكبير شيئاً ؟ ثم إني

قلت لك اني رأيته يغادر الغرفة . »

ومع ذلك ، فقد خفض جوندريت صوته ، بضرب من الغريزة ، ولكن

من غير ان يحول ذلك دون سماع ماريوس للحديث . وبما ساعد ماريوس

على الاحاطة بذلك الحديث كله ، تقريباً ، ان الثلج المتساقط خنق ضجة

العربات المنطلقة على الجادة .

وهذا ما سمعه ماريوس :

- « أصفي جيداً . لقد وقع « قارون » ذاك ! هذا شيء حسن .
ولقد تمّ ذلك . إن كل شيء قد أُعِدَّ . لقد اجتمعتُ الى الرجال .
إنه سوف يجيء هذا المساء في الساعة السادسة . لكي يحمل النسا
فرنكاته الستين ، الوغد ! أرأيت كيف تقيأتُ الستين فرنكاً ، وصاحب
البيت ، والرابع من شباط ! انا لم يستحق عليّ مجرد قسط واحد
بعد ! أكان ذلك عملاً احمق ! إنه سوف يأتي ، اذن ، في الساعة
السادسة . انها الساعة التي يمضي فيها جارنا لتناول طعام العشاء . والأم
بورغون تغسل الاطباق في المدينة . ليس ثمة احدٌ في المنزل . وليس من
دأب جارنا ان يرجع قبل الحادية عشرة على الاطلاق . ان البنيتين
سوف تقومان بالحراسة . وانتِ سوف تساعدننا . انه سوف يُجري ما
نطلبه منه . »

فسألته زوجته :

- « واذا لم يجر ما نطلبه منه ؟ »

فاوماً جوندرت إيماءة كالحة ، وقال :

- « سوف نحكم عليه بالموت ! »

وانفجر ضاحكاً .

كانت تلك أول مرة رآه ماريوس يضحك . وكانت تلك الضحكة
باردةً واهنةً ، ولقد اوقعت الرعدة في اوصاله .

وفتح جوندرت خزانة مجاورة للموقد ، وأخرج منها قلنسوة عتيقة ،
فاعتمر بها بعد ان فرشاها بردنه .

وقال :

- « والآن ، أنا ذاهب . هناك رجال آخرون ينبغي ان أراهم .
رجالٌ طيبون . سوف ترين كيف سيتمّ كل شيء . إني سأرجع
في اسرع وقت ممكن . هذه ورقة جميلة يجب ان تلعب ! انتبهى الى
البيت . »

ووقف لحظةً يفكر ، مقعماً قبضتيه في جيبي بنطلونه ، ثم هتف :
- « أتعلمين ان من حسن حظنا العظيم أنه لم يعرفني ؟ ولو انه
عرفني اذن لما رجع . كان خليفاً به ان يجتنبنا ! إن لحيتي
هي التي انقذتني ! لحيتي الرومانتيكية ! لحيتي الرومانتيكية الصغيرة
الجيلة ! »

وشرع يضحك من جديد .
ومضى الى النافذة . كان الثلج ما يزال يتساقط ، وكان قد محا
السما الرمادية .

وقال :

- « أي جوّ خنزيري ! »

ثم ثنى ستونه الطويلة واطاف :

- « هذا الثوب اوسع مما ينبغي . ولكن لا بأس . لقد احسن
على نحوٍ شيطانيّ في تركه لي - الوغد ! فلولا لما كنت قادراً
على مغادرة الغرفة ، وعندئذ يفسد الأمر كله ! عجيبٌ علام تتوقف
الاشياء ؟ »

وأنزل قلنسوته فوق عينيه ، وخرج .
ولم يكده بخطوب بضع خطوات في الرواق ، حتى 'فتح الباب من جديد ،
وأطل وجهه الأسفر الداهية من شقّه .

وقال :

« لقد نسيت . سرف تنعين بفهم يدفئك . »

وقذف في مئزر امرأته قطعة الفرنكات الخمسة التي تركها له « المحسن » .
وتساءلت المرأة :

- « ففهم ؟ »

- « نعم . »

- « كم كيساً ؟ »

- « كيسان مليئان . »

- « هذان يكلفان ثلاثين سو . وبالباقى ، سوف اشترى شيئاً للعشاء . »
- « لا ، بحقّ الشيطان ! »
- « لماذا ؟ »
- « إن قطعة المئة « سو » يجب ان لا تنفق . »
- « لماذا ؟ »
- « لأنّ ثمة شيئاً ينبغي ان اشتره . »
- « ما هو ؟ »
- « شيء ما . »
- « الى كم ستحتاج ؟ »
- « هل يوجد بائع الادوات النحاسية والحديدية ، على مقربة من هنا . »
- « فى شارع موفتارد . »
- « آه ، نعم . عند زاوية احد الشوارع . إني ارى الدكان . »
- « ولكن قل لي ، الآن ، الى كم ستحتاج من اجل شراء ذلك الشيء ؟ »
- « الى خمسين سو او ثلاثة فرنكات . »
- « وعندئذ لن يبقى مقدار كافٍ للعشاء . »
- « ينبغي ان لا نتكلم اليوم فى امر الطعام . إن عندنا عملاً أفضل . »
- « كفى ، يا جوهرتي ! »
- وعند هذه الكلمة التي نطقت بها زوجته ، اغلق جوندريت الباب من جديد ، وسمع ماريوس خطاه تباعد فى رواق البيت العتيق ، وتهبط السلم فى سرعة .
- وفى تلك الساعة ذاتها اعلنت ساعة « سان ميدار » الواحدة .

« وحيد مع نفسي في مكان قصي
فانهم لم يجدوا حافظاً للصلاة يا أبانا! »

كان ماريوس برغم نزعه الى الاستغراق في التأمل ذا طبيعة حازمة تتضع بالعزم . قد تكون عادة التأمل الموحد - التي طورت فيه الحنان والمشاركة الوجدانية - قد قلت من إمكان غضبه ، ولكنها تركت قدرته على السخط سليمة لم تَمَس . كان له عطف برمهي ، وقسوة قاضية . كان يشفق على ضفدع الجبل ، ولكنه كان يسحق الافعى . وها هو ذا الآن ينظر الى جعر أفعى حقاً . كان امام عينيه وكر من اوكر المؤول .
وقال :

« يجب ان أدوس بقدمي هؤلاء الادياء . »

إن اياً من الاحاجي التي رجا ان تُحَلَّ لم تكن قد انجلت ؛ على العكس ، فلعل كل شيء كان قد ازداد قتاماً . إنه لم يعرف شيئاً إضافياً عن فتاة اللوكسومبورغ الجميلة وعن الرجل الذي كان يدعوه مسيو لوبلان ، باستثناء ان جوندريت كان يعرفها . ومن خلال الكلمات التي تُنطق بها ، لم يرَ على نحو واضح غير شيء واحد ، هو ان كميناً كان يُهيأ ، كميناً غامضاً ولكنه فظيع ؛ وان خطراً عظيماً كان يحيط بكل منها : بها هي في اغلب الظن ، وبه هو على وجه التحقيق ؛ وان عليه ان يُحيط مكائد جوندريت الرهيبة ويقطع نسيج هذه العناكب .

ونظر لحظة الى جوندريت الانثى . كانت قد اُخرجت كانوناً حديدياً قديماً من احدى الزوايا ، وانشأت تقلب ضرباً من الحداث

العتيقة .

وترجل عن الحزانة ذات الادراج بأقصى ما يستطيع من الهدوء ،
محاذراً ان يحدث ضجةً ما .

وفي غمرة من ذعره بما كان يُبَيِّت والهَوَل الذي القاه جوندرت
وزوجته في فؤاده ، استشعر ضرباً من البهجة حين فكّر انه قد يقيّض
له ان يُسدي مثل تلك الخدمة الى الفتاة التي يحب .

ولكن ما الذي يتعين عليه أن يعمل ؟ أمجذر الشخصين المهددين
بالخطر ؟ وأين يجدهما ؟ إنه ما كان يعرف عنوانها . كانا قد عاودا
الظهور لعينه لحظةً ، ثم غاصا من جديد في اعماق باريس التي لا يُسر
غورها . أينظر مسيو لوبلان ، لدى الباب ، في الساعة السادسة مساءً ،
لحظة وصوله ، ومجذره من الشرك ؟ ولكن جوندرت ورجاله سوف
يرونه يتوصّد ، والمكان منعزل ، ولـوف يكونون أقوى منه ؛
وخليقٌ بهم ان يلتصوا وسيلةً للقبض عليه او ازاحته من الطريق ،
وعندئذ يهلك ذلك الذي اراد ماريوس ان ينقذه . لقد دقت الساعة
الواحدة منذ لحظات ، والتدبير يقضي بتنفيذ المكيدة في السادسة . كانت
امام ماريوس خمس ساعات .

لم يكن ثمة غير شيء واحد يمكن ان يعمل .
وارتدى بذلته المقبولة ، وعقد حول عنقه رباطاً ، وتناول قبعته !
وخرج غير محدث من الضجة اكثر مما كان جديراً بأن 'مجدته منها لو سار
على الطحالب حافياً .

والى هذا ، فقد كانت جوندرت المرأة ما تزال تقلّب حدائدها
العتيقة باحثة عن شيء ما .

حتى اذا غادر البيت ، شخص الى شارع الـ بيتي بانكييه .
وكان قد انتهى ، او كاد ، الى منتصف ذلك الشارع قريباً من
جدار منخفض جداً في ميسور المرء ان يتجاوزه بخطوة واحدة في

بعض المواطن ، جداره يؤدي الى حقل مترامي الاطراف ، وكان يشي
وثيداً ، مستغرقاً في افكاره وقد خفق الثلج صدى خطواته عندما سمع ،
فجأة ، اصواتاً تتحدث على مقربة منه . والتفت . كان الشارع مقفراً
ليس فيه احد ، وكانت الشمس في كبد السماء ، ومع ذلك فقد سمع
بعض الاصوات سماعاً واضحاً .

وخطر له ان يطلّ من أعلى هذا الجدار الذي كان يجاذبه .
كان ثمة ، في الواقع ، رجلان جالسان على الثلج ، وقد وليا
الجدارَ ظهرهما ، وراحا يتجاذبان اطراف الحديث في صوت خفيض .
ولم يكن يعرف هذين الرجلين . كان احدهما ملتجئاً ، يرتدي سترة
فضفاضة ، وكان الآخر طويل الشعر ، يرتدي اسهالاً بالية . كان الرجل
الملتجئ يعتمد بقلنسوة إغريقية ، وكان الآخر حاسر الرأس ، وكان على
شعره ثلج .

وحين خفض ماريوس رأسه من فوقها كان في ميسوره ان يسمع .
لقد وكز ذو الشعر الطويل صاحبه برفق يده ، وقال :
- « اذا تولى المعلم مينيت المسألة فلن نتحقق ابداً » ،
فقال الرجل الملتجئ :
- « أعتقد ذلك ؟ »

فاستأنف ذو الشعر الطويل كلامه :
- « سوف ينال كل منا ورقة ألف فرنك ذات خمسة صورة .
واسوأ ما سوف يصيبنا خمس سنوات ، ست سنوات ، عشر سنوات
على الاكثر . »

فأجاب الآخر متردداً ، مرتعداً تحت قلنسوته الاغريقية :
- « اجل ، هذا شيء حقيقي . نحن لا نستطيع ان نسير في اتجاه
معاكس لمثل هذه الاشياء . »
فقال ذو الشعر الطويل :

- « اقول لك ان المسألة لن تحقّق . إن « عربية » الأب فلان سوف تُقرن بالدوابّ . »

ثمّ بدءا يتحدثان عن مأساة شعبية كانا قد شهداها الليلة البارحة ، في مسرح « لا غيتيه » .

ومضى ماريوس لسبيله .

لقد بدا له ان الكلمات الغامضة التي فاه بها هذان الرجلان ، المحتبّتان على ذلك النحو البالغ الغرابة خلف هذا الجدار والجالسان القرفصاء في الثلج ، لا يبعد ان تكون ذات صلة ما بمشروعات جوندريت الرهيبة . تلك من غير ريب كانت « المسألة » .

وتقدّم نحو ضاحية « سان مارسو » ، وسأل صاحب اول دكان التقاء عن مركز للشرطة قريب .

وسمّوا له شارع بونتواز والرقم ١٤ .

وشخص ماريوس الى هناك .

واذ اجتاز بأحد الجبازين اشترى رغيفاً بفسين وأكله ، بعد ان تبدّى له انه لن يصيب عشاء ما تلك الليلة .

وفي طريقه الى مركز الشرطة رفع الى العناية الالهية حقهما من الحمد . لقد تخيّل أنه لو لم يعطِ فرنكاته الخمسة الى جوندريت الفتاة في الصباح ، اذن للعق بعربة مسيو لوبلان ، واذن للجل من ثمّ كل شيء ، وهكذا تمّ مكيدة جوندريت من غير ان يعترضها شيء ، ويهلك مسيو لوبلان ، وتهلك ابنته معه من غير شك .

وفيه يقدم شرطي الى احد المحامين مسدسين فولاذيين

حتى اذا انتهى الى رقم ١٤ شارع بوتتواز ، رقي السلم وسأل عن مفوض الشرطة ،

فقال أحد الخدم :

- « إن مفوض الشرطة ليس هنا ، ولكن ثمة مفتشاً يقوم مقامه .
أتحب أن تتحدث اليه ؟ هل المسألة ملحة ؟ »
فقال ماريوس :

- « نعم . »

وقاده الخادم الى مكتب المفوض . كان رجلٌ فارغ الطول واقفاً هناك ، خلف حاجز مشبك ، أمام الموقد ، مشتمراً عن يديه معطفاً ضخماً مثلث التلايب . كان ذا وجه مربع ، وغر رقيق حازم ، وعارضين ضاربين ، أثبتين ، وخططهما الشيب ، وعين خليق بها ان تجعل جيوبك باطنها ظاهرها . كان في ميسورك ان تقول عن هذه العين إنها تبعثر وتبحث ، لا إنها تنفذ الى الاشياء وحسب . ولم يكن 'مظهر هذا الرجل اقل' ضراوة بكثير او اقل' هولاً بكثير ، من مظهر جوندريت . إن مواجهة الكلب ليست دون مواجهة الذئب إزعاجاً .

وقال لماريوس من غير ان يتبع كلامه بلفظة « سيدي » :

- « ماذا تريد ؟ »

- « السيد مفوض الشرطة ؟ »

- « إنه غائب . أنا أقوم مقامه . »

- « انها مسألة سرية جداً . »

- « تكلم ، اذن . »

- « وملحة جداً . »

- « اذن ، تكلم في سرعة . »

كان هذا الرجل ، الهادئ الغليظ ، مروّعاً ومطْمَئِنّاً في آنٍ معاً . كان يوحى بالخوف وبالثقة . وروى ماريوس القصة : - أن شخصاً لم يكن يعرفه الا بالرؤية سوف يأت ، ذلك المساء نفسه ، الى كمين أُعدّ له ؛ وانه ، هو ماريوس بونيرمي ، المحامي ، الساكن في غرفة مجاورة لمغارة اللصوص تلك ، كان قد سمع المكيدة كلها من خلال الجدار ؛ وان الوغد الذي نَصَب ذلك الشرك كان يدعى جوندريت ؛ وانه كان ذا شركاء في الجريمة ، لعلمهم من « الحائنين ليلاً حول ابواب المدينة » ، وفيهم رجل اسمه بانشو ، المعروف بـ « برينتانيه » و بـ « بيغروناي » ؛ وان ابنة جوندريت سوف تراقب المكان ؛ وانه ليس ثمة وسيلة الى انذار الرجل المهدّد إذ لم يكن ليعرف عنه شيئاً حتى اسمه ؛ واخيراً ان هذا كله سوف يتمّ في الساعة السادسة من ذلك المساء ، في الجزء الأشدّ انعزالاً من « جادة المستشفى » ، في البيت الذي يحمل الرقم ٥٠ - ٥٢ .

ولم يكده مفتش الشرطة يسمع هذا الرقم ، حتى رفع رأسه وقال في برود :

- « اذن فسيتمّ ذلك في الغرفة التي في اقصى الرواق ؟ »

فقال ماريوس :

- « تماماً . »

ثم اضاف :

- « هل تعرف ذلك البيت ؟ »

فاعتصم المفتش بالصمت لحظةً ، ثم اجاب وهو يدفع عقب قدمه

عند باب الموقد :

— « في ما يبدو . »

وتابع ، من بين أسنانه ، متحدثاً الى رباط عنقه اكثر منه متحدثاً الى ماربوس :

— « ينبغي ان يكون ثمة شيء من « المعلم مينيت » في ذلك المكان . »

واذهلت هذه الكلمة ماربوس .

وقال :

— « المعلم مينيت . الحق اني سمعتُ من يلفظ هذه الكلمة . »
وروى للمفتش الحوار الذي دار بين الرجل ذي الشعر الطويل
والرجل ذي اللحية ، وسط الثلج ، وراء جدار شارع الـ « بيتي
بانكيه » .

ونغمم المفتش :

— « ان صاحب الشعر الطويل هو بروجون ، من غير شك ، وان
صاحب اللحية هو دومي ليار المعروف بـ « دو ميار » من غير
شك ايضاً . »

كان قد خفض بصره ، من جديد ، وانشأ يفكر .

— « اما الأب فلان فعندي ريب في حقيقته . لقد احرقته معطفي
هناك . انهم يضرمون كثيراً من النار في تلك المواقف اللعينة . رقم
٥٠ - ٥٢ ؛ ملك غوربر العتيق . »

ثم نظر الى ماربوس :

— « ألم ترَ غير هذا الرجل الملتحي وذلك الرجل الطويل الشعر ؟ »
— « رأيت بانشو ايضاً . »

— « ألم ترَ ضرباً من الشاب المفرط في الافاقة بحوم منلصصاً
هناك ؟ »

- « لا . »

- « وهل رأيت كومةً كبيرةً ضخمة غليظة مثل القيل في حديقة النبات ؟ »

- « لا . »

- « حسن . ألم ترَ ايضاً رجلاً خبيثاً يبدو وكأنه مهرج تنتهي لمتته المستعارة بذيل معصوب بشريطة حمراء ؟ »

- « لا . »

- « أما الرابع ، فانّ أحداً لا يراه ، حتى أعوانه ومستخدموه ، وعلاؤه انفسهم . فليس غريباً ان لا تقع عليه عينك .. »
فتساءل ماريوس :

- « لا . ولكن ما هي هذه المخلوقات كلها ؟ »
فأجابه المفتش :

- « ومن جهة اخرى ، فليست هذه الساعة ساعتهم . »
واستغرق في صمته ، كرة ثانية ، ثم اردف :

- « رقم ٥٠ - ٥٢ . أنا أعرف الكوخ . من المستحيل ان نختبئ في الداخل من غير ان يلمحنا الفنانون ، وعندئذ يغادرون المكان ويبلغون المسرحية . إنهم حيتون الى هذا الحد ! إن الجمهور يُوبكهم . أنا لا أريد شيئاً من هذا ؛ أنا لا أريد شيئاً من هذا . إنني أريد ان أسمعهم يغنون ، وأن اجعلهم يرقصون . »
حتى اذا انتهى هذا الحوار ، التفت الى ماريوس وسأله ناظراً اليه نظراً موصولاً :

- « هل ستخاف ؟ »

فقال ماريوس :

- « مم ؟ »

- « من هؤلاء الرجال ؟ »

فأجاب ماريوس :

- « انا لن اخاف اكثر مما ستخاف أنت ! »
وإنما قال ذلك في قسوة ، وكان قد بدأ يلاحظ ان جاسوس الشرطة
هذا لم يوجه اليه حتى الان لفظه « سيدي » .
وحدّق المفتش الى ماريوس تحديقاً أشدّ ، وتابع كلامه في مهابة
محكمة :

- « انت تتكلم الآن مثل رجل شجاع ، ومثل رجل نزيه . إن
الشجاعة لا تخشى الجريمة ، وان النزاهة لا تخاف السلطان . »
وقاطعه ماريوس قائلاً :

- « هذا حسن جداً ، ولكن ما الذي سوف تعمله ؟ »
فاكتفى المفتش بمجرد القول :
- « إن سكان ذلك البيت يملكون مفاتيح صومية تمكّنهم من دخوله
ليلاً . ولا ريب في ان عندك مفتاحاً من هذا النوع . »
فقال ماريوس :

- « نعم . »
- « أهو معك الان ؟ »
- « نعم . »
فقال المفتش :
- « أعطني اياه . »
وأخرج ماريوس مفتاحه من جيب صدرته ، وقدمه الى المفتش ،
مضيفاً :

- « اذا كنت تثق بي ذهبت الى هناك باكمل السلاح . »
والقى المفتش على ماريوس نظرة كمثل تلك النظرة التي يجدر بفولتير ان
يلقيها على عضو ريفي من اعضاء الاكاديمية الفرنسية اقترح عليه قافية من
القوافي . وفي حركة واحدة ، أقجم يديه الاثنتين - وكانتا هائلتين -
في جيب معطفه الواسعين الى حد بعيد ، وأخرج مسدسين فولاذيين

صغيرين من النوع المعروف باللكمة . ثم إنه قدّمهما الى ماريوس وقال في سرعة وفي إيجاز :

- « خذ هذين . إرجع الى المنزل . إختبي في غرفتك . دعهم يعتقدون انك قد خرجت . إنهما مشحونان . في كل منها رصاصتان . راقبهم جيداً . هناك ثغرة في الجدار ، كما قلت لي . إن الرجال سوف يقبلون . دعهم يتقدمون قليلاً . وحين تقدر ان المسألة بلغت حد الخطورة ، وأن الوقت قد حان لتعطيلها ، أطلق رصاصة . لا تتعجل كثيراً . أما البقية فعلياً . طلقه مسدس في الهواء ، نحو السقف ، في ايما جهة . ولكنني اوصيك قبل كل شيء بأن لا تتعجل . إنتظر حتى يشرعوا في الأجراء . أنت محام . وانك لتعرف معنى هذا . »
واخذ ماريوس المسدسين الصغيرين ووضعهما في جيب ستروته الجانبي . فقال المفتش :

- « إنهما 'مجدثان' حديثة ، على هذا الشكل . إنهما يبدوان للعيان . ضعها في جيبي صدرتك . »
وخبأ ماريوس المسدسين الصغيرين في جيبي صدرته .
واضاف المفتش :

- « والآن ، لم يعد ثمة دقيقة واحدة يمكن ان تُضيّع . كم الساعة ؟ الساعة الثانية والنصف . الموعد الساعة السابعة ؟ »
فقال ماريوس :

- « الساعة السادسة . »

وتابع المفتش :

- « عندي وقت كافٍ ، ولكن ليس عندي غير الكفاية . حذار ان تنسى شيئاً مما قلته لك . كنّ بخ ! طلقه مسدس . »
فأجاب ماريوس :

- « كن مطمئناً . »

وفيا كان ماريوس يضع يده على مزلاج الباب ابتغاء الخروج ، صاح به المفئش :

- « بالمناسبة ، اذا احتجت الىّ بين فينة وفينة فتعال او أرسل احدآ الى هنا . وعندئذ أسأل عن المفئش جافير . »

١٥

جوندريت يتبضع

وبعد بضع لحظات ، حوالى الساعة الثالثة ، اتفق ان اجتاز كورفيراك بشارع موفتارد يصحبه بوسويه . كان الثلج قد تضايف وملأ الارجاء . وكان بوسويه على وشك ان يقول لكورفيراك :

- « إن رؤية رقاقت الثلج هذه كلها تسقط ، لتخيل الى المرء ان ثمة أمراباً من الفراشات البيض في السماء . »

وفجأة وقعت عين بوسويه على ماريوس ، الذي كان يصعد في الشارع نحو باب المدينة ، وقد طفت على وجهه سماء غريبة .

وصاح بوسويه :

- « انظر ! ماريوس ! »

فقال كورفيراك :

- « لقد رأيته . لا تكلمه . »

- « لماذا ؟ »

- « إنه مشغول . »

- « بماذا ؟ »

- « الا ترى كيف يبدو ؟ »

- « كيف ؟ »

- « إنه يبدو وكأنه يتبع شخصاً ما . »
فقال بوسويه :

- « هذا صحيح . »
واضاف كورفيراك :

- « وانظر ايّ نظراتٍ غرامية يرسلها ! »
- « ولكن ، يا للشيطان ، ايّ شيء يتبع ؟ »
- « إنها قبعة حبيبة ، ريفية ، منمقة ! إنه عاشق . »
ولاحظ بوسويه :

- « ولكني لا أرى أية قبعة حبيبة ، أو ريفية ، أو منمقة ، في الشارع . ليس ثمة امرأة . »
فنظر كورفيراك وهتف :
- « إنه يتبع رجلاً ! »

وفي الحلق أن رجلاً يعتبر بقبعة - رجلاً استطاعا أن يتبيننا لحيتيه
البيضاء على الرغم من أنه لم يكن يبدو منه غير ظهره - كان يسير على
مسافة عشرين خطوة ، تقريباً ، أمام ماريوس .
وكان ذلك الرجل يرتدي سترة طويلة جديدة ، فضفاضة جداً ، وبنطلوناً
رهيباً ممزقاً سوده الوحل .

وانفجر بوسويه ضاحكاً :
- « من هذا الرجل ؟ »
فاجاب كورفيراك :

- « هذا ؟ هذا شاعر . الشعراء مولعون بارتداء بنطلون تاجر من
تجار جلد الارنب ، وسترة طويلة من سترات عضو في مجلس الاعيان
الفرنسي . »

فقال بوسويه :

- « دعنا نرى الى اين يذهب ماريوس . دعنا نرى الى اين يذهب

هذا الرجل . فلتتبعهما ، هيه ؟

فصاح كورفيلاك :

« بوسوويه ! إيغل دو مو ! أنت معتوه مدهش . انتبع رجلاً

يتبع رجلاً ! »

وتابعا طريقهما .

كان ماريوس قد رأى جوندريت ، حقاً ، يجتاز بشارع موفتارد ،

وكان يراقبه .

ومضى جوندريت ليله من غير أن يرتاب في أن عيناً كانت

مركزة عليه .

وترك شارع موفتارد ، ورآه ماريوس يدخل الى احد المواطنين الاشد

إرعاباً في شارع غراسيوز . ولبت هناك نحواً من ربع ساعة ، ثم

انقلب الى شارع موفتارد . ووقف ليدخل دكاناً للادوات الحديدية

والنحاسية وغيرها كانت قائمة في تلك الايام عند زاوية شارع بيير لومبار ؛

وبعد بضع دقائق رآه ماريوس يغادر الدكان وفي يده أزميل ضخيم للعديد

البارد ذو مقبض خشبي ابيض ما لبث ان خبأه تحت ستrote الطويلة .

وعند الطرف الأعلى من شارع الـ « بيتي جانتيني » انعطف الى اليسار

ومشى مسرعاً الى شارع الـ « بيتي بانكييه » . كان الليل يهبط ،

وكان الثلج الذي كف عن السقوط لحظة قد شرع يسقط كرة اخرى .

وكن ماريوس عند زاوية شارع الـ « بيتي بانكييه » تماماً ، تلك الزاوية

التي كانت مقفرة كشأنها دائماً ، ولم يتبع جوندريت الى أبعد من

ذلك . وكان هذا من حسن الطالع ، اذ لم يكد جوندريت يصل الى

الجدار المنخفض - حيث سبق لماريوس ان سمع الرجل ذا الشعر الطويل

والرجل ذا اللحية يتحدثان - حتى استدار ، واستيقن أن احداً لم يتبعه

ولم يره ، ثم جاوز الجدار بخطوة واسعة ، واختفى .

وكانت الارض الواسعة التي يحيط بها ذلك الجدار تتصل بالفناء الخلفي

لمؤجر عربات سابق ذي شهرة رديئة ، مؤجر كان قد أفلس ، ولا تزال
تحت سقائه بضع عربات عتيقة .

وبدا لما ربوس ان من الخير أن يفيد من غيبة جونديت فينطلق الى
البيت . والى هذا ، فقد كانت العتمة تشتد ؛ فكل مساء ، كان من
دأب « مام بوغون » لدن خروجها لغسل الاطباق في المدينة ان
توصد باب البيت ، فهو مغلق دائماً عند الزوال . وكان ماربوس قد
أعطى مفتاحه الى مفتش الشرطة . واذن فقد كان من الضروري ان
يسرع .

كان المساء قد اقبل ، وكان الليل قد أطبق على الكون أو كاد .
ولم يبق في الأفق أو في السماء كلها غير نقطة واحدة مضاءة بالشمس ؛
وكانت تلك النقطة هي القمر .

كانت ترتفع حمراء خلف قبة « لا سالبيتير » المنخفضة .

ورجع ماربوس الى رقم ٥٠ - ٥٢ في خطى واسعة . كان الباب
لا يزال مفتوحاً حين وصل الى البيت . وارتقى السلم على رؤوس
اصابعه وتسلل في محاذة جدار الرواق حتى غرفته . وكان هذا
الرواق ، كما نذكر ، مطوّقاً من جانبيه بالعلاي التي كانت شاغرة
كلها ، آنذاك ، ومعدّة للتأجير . وكان من عادة « مام بوغون »
أن تترك الابواب مفتوحة . وفيما كان ماربوس يمرّ باحد هذه الابواب
خالاً انه لمح في الحُجيرة الفارغة اربعة رؤوس لا تبدي حراكاً ،
رؤوس لم تكن لتبدو على نحو باهت إلا بفضل بقية من ضوء النهار
كانت تمرّ من خلال النافذة الصغيرة . واذ كان ماربوس راغباً في ان لا
يراه أحد ، فإنه لم يحاول أن يرى . ووفّق الى دخول غرفته من غير
ان يلمحه أحد ، ومن غير أن يحدث ضجة ما . كان الوقت قد حان .
وبعد لحظة سمع « مام بوغون » تخرج ، وتغلق باب البيت .

وفيه سنجد من جديد تلك الاغنية
ذات اللحن الانكليزي دارجة عام ١٨٣٢

وجلس ماريوس على سريره . لعل الساعة كانت الخامسة والنصف .
إن ثلاثين دقيقة ليس غير تفصله عما سوف يحدث . وسمع شرايينه تنبض
كما يسمع المرء تهكتكة الساعة في الظلام . وفكر في ذلك الزحف
المزدوج الذي كان يجري في تلك اللحظة وسط الدجّة : الجريمة تتقدم
من ناحية ، والعدالة تتقدم من ناحية . ولم يعتره الخوف ، ولكنه لم
يستطع أن يفكر ، من غير أن تأخذه شبه رعدة ، في الاشياء التي
توشك أن تقع . لقد بدا له ، شأن جميع اولئك الذين يُلمّ بهم حادث
مفاجيء مذهل ، أن ذاك النهار كله لم يكن إلا حلمًا . ولكي لا يقع
في نفسه أنه فريسة كابوس من الكوابيس ، فعين عليه ان يستشعر برودة
المسدسين الفولاذيين الصغيرين في جيبي صدره .

كان الثلج قد كف عن السقوط . وكان القمر ، وقد تعاظم
إشراقه ، ينبجس بنفسه من الضباب . وامتزج ضياؤه بالأشعة البيضاء المنعكسة
عن الثلج المتراكم ، فخلع على الغرفة مظهرًا غسقيًا .

كان في وكر جوندريت ضوء . ورأى ماريوس الى ثغرة الجدار
تلتصع بنور أحمر بدا في عينيه مضرجاً بالدماء .

وكان على مثل اليقين من ان هذا الضوء لا يمكن أن يكون منبعثاً
من شمعة ما . وعلى أية حال ، فلم تكن في غرفة جوندريت وأسرت
أيما حركة . إن أحدًا لم يكن يتحرك هناك ، وإن أحدًا لم يكن
يتكلم . لم يكن ثمة نفس . كانت السكينة مثلوجة وعميقة .
ولولا ذلك الضوء اذن لكان خليقاً به أن يعتقد أنه في جوار قبر .

وتزع ماريوس نعليه ، في رفيق ، ودفعهما تحت سريره .
وانقضت بضع دقائق . وسمع ماريوس الباب الادنى يدور على
رؤثاته . وارتقت السلم خطى ثقيلة مريعة ، واجتازت الرواق ؛
ورُفع مزلاج الرواق في صخب . كان جوندريت هو الذي دخل .
وفجأة ، ارتفعت اصوات عديدة . كانت الاسرة كلها في العلية . بيد
أنها لُزمت الصمت في غيبة رب البيت ففعل الذؤيبات في غيبة
الذئب .

وقال :

— « هذا أنا . »

وعوّت الفتاتان :

— « ماء الخير ، يا أبانا الرائع ! »

فقال الأم :

— « والآن ؟ »

فأجاب جوندريت :

— « كل شيء يسير على نحو ساحر . ولكن قدمي باردتان مثل قدمي

كلب - حسن ، هذا هو المطلوب . لقد لبستما . يجب ان تكونا قادرتين
على إيجاء الثقة . »

— « نحن مستعدتان للخروج . »

— « حذار ان تنسيا شيئاً مما قلته لكما ! سوف تعملان كل شيء »

على احسن وجه ، اليس كذلك ؟ »

— « كن . مطمئناً . »

فقال جوندريت :

— « لأنه ... »

ولم يتمّ جملته .

وسمعه ماريوس يضع شيئاً ثقيلاً على الطاولة ، ولعله أن يكون ذلك

الازميل الذي اشتراه .

وقال جوندريت :

- « آه ، ها ! هل أكلتَ هنا ؟ »

فأجابت الأم :

- « نعم . لقد أكلت ثلاث حبات كبيرة من البطاطا مع شيء من

الملح . لقد أفدتُ من وجود النار فطبختها عليها . »

فقال جوندريت :

- « حسن . غداً ، سأخذك لتتناولي الطعام معي . سوف يكون

على المائدة بطة وتوابعها . وسوف تتعشين مثل شارل العاشر . أيجري

كل شيء على ما يرام ؟ »

ثم اضاف ، خافضاً صوته :

- « لقد نُصِبَت مصيدة الفيران . والقطط على اتم الاستعداد . »

وخفض صوته اكثر من ذي قبل ، ايضاً ، وقال :

-- « ضعي هذا في النار . »

وسمع ماريوس حسيس فجم كانت يده ما تصدمه بكلاية صغيرة او

بأداة حديدية ما . وتابع جوندريت :

- « هل شحمتِ رزات الباب ، بحيث لا تحدث اي صوت ؟ »

فأجابت الأم :

- « نعم . »

- « كم الساعة ؟ »

- « السادسة تقريباً . إن ساعة سان ميدار قد أعلنت النصف بعد

الحامسة منذ لحظة فقط . »

فقال جوندريت :

- « يا للشيطان ! يجب ان تخرج الفتاتان وتقوموا بالحراسة . تقدّما

الى هنا ، ايها البنّتان ، واستمعا اليّ . »

ودار همس .
 وارتفع صوت جوندريت كرة اخرى ا
 - « هل خرجت بورغون ؟ »
 فأجابت الأم :
 - « نعم . »
 - « اواثقة انتِ من انه لا يوجد أحد في غرفة جارنا ؟ »
 - « إنه لم يرجع ، اليوم ، بعد ، وانت تعلم ان هذا هو الموعد
 الذي يتناول فيه عشاءه . »
 - « اواثقة انتِ ؟ »
 - « واثقة . »
 فأجاب جوندريت :
 - « سيان . لا ضرر في الذهاب والتثبت من وجوده في الغرفة او
 عدمه . خذي الشمعة ، يا ابنتي واذهي . »
 ونزل ماريوس عن الخزانة واثبأ على يديه وركبتيه ، ودبّ تحت
 مريره من غير أن يحدث ضجة ما .
 ولم يكذب بخشيء ، حتى لمع ضوء ينبعث من خلال شقوق الباب .
 وصاح صوت :
 - « بابا ! لقد خرج . »
 وادرك ان الصوت كان صوت الفتاة الكبرى .
 وسألها الأب :
 - « هل دخلت الغرفة ؟ »
 فأجابت الفتاة :
 - « لا . ولكن لما كان مفتاحه في الباب فمن الواضح انه قد
 خرج . »
 فصاح الاب :

- « مهما يكن ، ادخلي الى الغرفة . »
 وفتح الباب ، ورأى ماريوس الفتاة الطويلة تدخل وفي يدها شمعة .
 كان يبدو عليها ذلك المظهر الذي تبدت فيه ذلك الصباح ، وإن تكن
 الآن ، وعلى ضوء هذه الشمعة ، ادعى الى المول .
 وتقدمت نحو السرير مباشرة . وعبرت ماريوس لحظة من الحصر
 النفسي لاسيلا الى تصويرها . ولكن كان ثمة مرآة مسمرة على الجدار ،
 قرب السرير ؛ وانما كانت الفتاة تتجه نحو تلك المرآة . ورفعت نفسها
 على رؤوس اصابعها ، ونظرت الى وجهها فيها . وسمع صوت حدائد
 عتيقة في الغرفة المجاورة .
 وملست شعرها براحة يدها ، وابذمت أمام المرآة منشدة في
 خلال ذلك بصوتها القبري المهشم :

« إن جئنا قد دام اسبوعاً ،
 ولكن لحظات السعادة قصيرة !
 ولأن يوم المراء حياً ثمانية ايام شيء يستحق الجهد !
 ان زمان الحب ينبغي ان يستمر الى الابد !
 ينبغي ان يستمر الى الابد ! ينبغي ان يستمر الى الابد . »

وفي غضون ذلك ، كان ماريوس يرتعد . لقد بدا له ان من المتعذر
 ان لا تسمع أنفاسه .
 ومضت نحو النافذة ، ونظرت الى الخارج ، متحدثة في صوت عال
 على طريقتهما تلك ، نصف البلاء .
 وقالت :

- « ما أبشع باريس حين نرتدي قميصاً أبيض ! »
 ورجعت الى المرأة ، وعادت القيام بحركاتها المتكلفة ، وتأملت في
 طلعتها الأمامية ، ثم في طلعتها الجانبية .

وصاح الأب :

« حسنًا ، ما الذي تفعلينه الان ؟ »

فاجابت ، مواصلةً تسوية شعرها :

« إني انظر تحت السرير والأثاث . ليس هناك أحد . »

فهرّ الأب :

« ايتها البلهاء . ارجعي الى هنا في الحال ! ينبغي ان لا نضيع

دقيقة واحدة ! »

ف قالت :

« آنا آتية ! انا آتية ! إن المرء لا يجد متسعاً لشيء في كوخه

الحقير ! »

ومهمت :

« لقد تركني لتذهب الى المجد ،

ان قلبي الحزين لينع خطاك حيناً انجبت . »

وألفت نظرة اخيرة على المرأة ، وخرجت ، موصدةً الباب خلفها .

وبعد لحظة ، سمع ماريوس وقع اقدام الفتاتين الصغيرتين الحافيتين ،

في الرواق ، وصوت جوندريت يصيح بهما :

« انتبها جيداً ! واحدة نحو باب المدينة ، والاخرى عند زاوية

شارع الـ « بيتي بانكيه » . حذار ان ترفعا عيونكما عن باب المنزل

دقيقة واحدة . واذا رأيتم اقل شيء فسارعا الى هنا في الحال ! طيرا

الى هنا طيراناً ! إن معكما مفتاحاً يُمَكِّنكما من الدخول . »

ودمدت البنت الكبرى :

« نقوم بالحراسة واقدامنا حافية في الثلج ! »

فقال الأب :

« غداً سوف تنتملان حذاءين حريريين بلون الخنفسة ! »

وهبطنا السلم ، وبعد بضع ثوانٍ أعلن صوتُ الباب السفليّ المنغلق
أنها قد غادرت البيت .

وهكذا لم يبق في البيت غير ماريوس وجوندريت وزوجته ؛ ولعل
الكائنات العجيبة التي لمحا ماريوس في الغسق وراء باب العلبة الشاغرة
كانت هناك أيضاً .

١٧

كيف أنفقت قطعة ماريوس النقدية ذات الفرنكات الخمسة

وقدّر ماريوس أن: قد آن له ان يستعيد موقعه القديم في مرصده .
وفي غمضة عين ، وفي خفة الشباب ، كان قرب ثغرة الجدار .
ونظر .

كانت غرفة جوندريت تتكشف عن مظهر فريد ، واهتدى ماريوس
الى تفسير للضوء الغريب الذي سبق له أن لاحظ . كانت شمعة تحترق
في شمعدان زنجاريّ اللون ، ولكن لم تكن هي التي اضاءت الغرفة في
الواقع . كان الوكر كله مضاءً بالوهج المنبعث من كانون حديدي ضخم
ملقى في الموقد ، يملوء بفحم مشتعل ؛ وهو الكانون الذي أعدته
جوندريت الزوجة ذلك الصباح . كان الفحم متأجباً ، وكان الكانون
أحمر حامياً . وتراقصت شعلة زرقاء فوقه ، فساعدت على الكشف عن
شكل الازميل الذي اشتراه جوندريت من شارع « بيير لومبار » ،
والذي كان يُحمى وسط الجمرات . وفي زاوية قرب الباب كانت كومتان
بدتا وكأن احدهما كومة حدائد عتيقة ، والاخرى كومة حبال ،

وقد أعدنا على ما يظهر لاستعمال مرتقب . وكان ذلك كله خليقاً بأن يحمل المرء الذي لم يطلع على شيء ، بما كان 'هيباً' هناك ، على ان يتروى بين فكرة مشؤومة جداً ، وفكرة بسيطة جداً . كانت الغرفة ، وقد أضيئت على هذا النحو ، أشبه بـدكان حداد منها بفم الجحيم ؛ ولكن جوندريت اتخذ في ذلك الوهج مظهر الشيطان اكثر مما اتخذ مظهر الحداد .

وكانت حرارة الجمرات قوية الى حد جعل الشمعة التي على الطاولة تذوب من ناحية الكانون ، وتستهلك على نحو منحرف . وكان مصباح نحاسي عتيق مظلمٌ جديرٌ بديوجين وقد تحول الى كارتوش * ، ينهض فوق الموقد .

وأرسل الكانون ، الذي وُضع في الموقد نفسه ، قرب الجمرات المشككة ان تحمد ، دخانه الى مدخنة الموقد ، ولم ينشر رائحة ما . وألقى القمر ، المضيء من خلال الواح النافذة الزجاجية الاربعة ، بياضه على العلية الارجوانية المتوهجة : وبدا ذلك لعقل ماريوس الشاعرى ، الحالم حتى في لحظة العمل ، مثل فكرة سماوية غتزع بكوابيس أرضية شائنة .

ونفذ الى الغرفة ، من خلال اللوح الزجاجي المكسور ، نسيمٌ ساعد على تبديد الرائحة وإخفاء الكانون .

كانت مغارة جوندريت ، اذا ذكر القارىء ما قلناه عن بيت غوربو العتيق ، قد اختيرت اختياراً بارعاً لتكون مسرحاً لآعمال الظلمة والعنف ، ولاخفاء جريمة من الجرائم . كانت اكثر الغرف تقهقراً في اكثر البيوت انعزالاً في اكثر شوارع باريس إقفساراً . ولو ان الكمين لم يكن معروفاً ، اذن لكان خليقاً به أن 'يخترع' هناك .

كان عمق بيت بكامله وجمهرة من الغرف غير المؤجرة تفصل هذا

* زعيم عصابة من الاصوص سبق التعريف به .

الوكر عن الجادة ، وكانت نافذته الوحيدة تطلّ على اراضٍ واسعة
مهيّكة مطوّقة بالاسوار والاسيجة المؤلفة من أوتاد مفروزة .

وكان جوندريت قد اشعل غليونه ، وجلس على الكرسي المتزوع
قشّها ، وأنشأ يدخّن . كانت زوجته تتحدث اليه في صوت خفيض .

ولو كان ماريوس كورفيراك ، يعني لو كان واحداً من اولئك الذين
يضحكون لكل مناسبة من مناسبات الحياة اذن لانتفجر ضاحكاً حين
وقعت عينه على هذه المرأة . كانت تعتمر بقبعة سوداء مريشة تشبه الى
حدّ ما قبعات الرسل الحاملين نبأ اعلان الحرب كما بدوا عند مسّح
الملك شارل العاشر ، وكانت قد ألقت على تنورتها المسرودة مثلاً عريضاً
جداً من نسيج صوفيّ مربع ، وانتعلت الخذاء الرجالي الذي ازدرته
ابنتها ذلك الصباح . وكانت تلك الزينة هي التي انتزعت من جوندريت
هذه الصيحة : « حسن ! انت في أكمل حلة ! لقد أحسنت صنعاً !
يجب ان تكوني قادرة على الإيحاء بالثقة ! »

أما جوندريت فلم يكن قد نزع المعطف الجديد ، الواسع جداً
بالنسبة اليه ، والذي كان مسبو لوبلان قد أعطاه اياه . وظلّ زيه
يكشف عن ذلك التغاير بين السترة والبنطلون الذي ألّف في عيني
كورفيراك المثل الأعلى للشاعر .

وفجأة رفع جوندريت صوته :

- « وبالمناسبة ! أنا افكر في ذلك . ما دامت حالة الجو هكذا ،
فسوف يجيء في عربة اجرة . أضيئي المصباح ؛ خذيه ؛ واهبطي السلم .
ولسوف تبقيين هناك خلف الباب الادنى . ولحظةً تسمعين العربية تقف ،
فعندئذ تفتحين الباب في الحال ، فيصعد ، فتضيئين له السلم والرواق ،
حتى اذا دخل الى هنا ترجعين في الحال ، فتدفعين الاجرة الى السائق ،
وتسرحين العربية . »

فسأله المرأة :

- « والمال ؟ » -
فبحث جوندريت في جيوب بنطلونه ، وناولها خمسة فرنكات .
فصاحت :
- « ما هذا ؟ » -
فأجابها جوندريت في وقار :
- « إنه الملك الذي اعطانا جارنا اياه ، هذا الصباح . »
تم اضاف :
- « أتعرفين ؟ يجب أن نضع هنا كرسيين . »
- « لماذا ؟ » -
- « لكي يجلس عليهما . »
واستشر ماريوس رعدة تسري في أوصاله حين سمع المرأة تنجيب
بهذا الجواب الهادي :
- « وحق الأله ! سوف اجيء بكرسي جارنا . »
وفي حركة مريعة ، فتحت باب الوكر ، وخرجت الى الرواق .
وليس من ريب في أنه لم يكن لدى ماريوس متسع من الوقت للوثوب
عن الخزانة والاختباء تحت السرير .
وصاح جوندريت :
- « خذي الشمعة . »
فقالت :
- « لا . ذلك يربكني . إن عليّ أن احمل كرسيين . والقمر
بدرّ علي كل حال . »
وسمع ماريوس يد « جوندريت الأم » الثقيلة تتمسّس مفتاح غرفته
في الظلام . وفتح الباب . ووقف مسرّاً في مكانه بالتوجّس والذهول .
ودخلت المرأة .
وأدخلت كوة العلية شعاعاً من اشعة القمر بين صفحتين صغيرتين من

الظلمة . وكانت احدى هاتين الصفتين تحجب الجدار الذي استند اليه ماريوس حجباً كاملاً ، فاذا به - ماريوس - يخفي عن العيان . ورفعت جوندريت الأم غنيها ، ولم ترَ ماريوس ، واخذت الكرسيين ، وكافا الكرسيين الوحيدين اللذين يملكها ماريوس ، وخرجت ، مغلقة الباب خلفها في صخب .

لقد رجعت الى الوكر :

- « ها قد جثتك بالكرسيين . »

فقال الزوج :

- « وهو ذا المصباح . إهبطي السلم في الحال . »

ونزلت عند أمره لتوها ؛ وغودر جوندريت وحيداً .

ووضع كلاً من الكرسيين عند جانب من الطاولة ، وقلب الازميل في النار ، ووضع ستاراً عتيقاً أمام الموقد فحجب السكاون ، ثم مضى الى الزاوية التي نهضت فيها كومة الحبال ، وانحنى وكأنا يريد ان يفحص شيئاً . وادرك ماريوس عندئذ ان ما حسبه كومة شائنة كان في الواقع سلسماً جبالية ، متقنة الصنع ، ذات درجات خشبية ، وكلابتين ضخمتين تعلقت بهما .

هذه السلم ، وبضع آلات ضخمة - هي كتل حقيقية من الحديد مطروحة فوق ركام الحدائد العتيقة القائم خلف الباب - لم تكن في وكر جوندريت عند الصباح ، فليس من ريب في أنها حملت الى هناك بعد الظهر ، خلال غيبة ماريوس .

وقال ماريوس في ما بينه وبين نفسه :

- « هذه هي ادوات الحداد . »

ولو ان ماريوس كان على علم اوسع بهذا الضرب من المعرفة إذت لتبين في ما حسبه ادوات حداد بعض الادوات القادرة على ان تخلع قفلاً او تفتح باباً بكلاية ، وأدوات اخرى قادرة على القطع والاحتراز ،

وهما نوعا الادوات المشؤومة اللذان يدعوهما اللصوص *les fauchants* و *les cadets* كان الموقد ، والطاولة ، والكرسيان تجاه ماريوس مباشرة . أما الكانون فكان محبوباً . وكانت الغرفة مضاءة ، الآن ، بالشمعة ؛ فاذا بأتفه الاشياء التي على الطاولة او على الموقد يُلقى ظلًا كبيراً . كانت آنية ماء مكسورة تقنع نصف جدار من الجدران . وكان يرين على تلك الغرفة هدوء رهيب ينذر بالخطر على نحو لا سبيل الى وصفه . لقد كان في استطاعة المرء ان يستشعر اقتراب شيء مخيف .

وكان جوندرين قد ترك غليونته ينطفئ - وتلك علامة تؤذن ، من غير شك ، باستغراقه البالغ في التفكير - وكان قد رجع وجلس . وجعلت الشمعة طرفي وجهه وزواياه الضاربة تبرز على نحو يلفت النظر . وكان ثمة تفضن في حاجبيه وانفتاح مفاجيء في يده اليمنى ، وكأنما كان يجيب عن النصائح الاخيرة التي وجهها اليه حوار باطني كالح . وفي احدى هذه الاجابات الغامضة التي كان يردّها بها على نفسه ، سحب درج الطاولة نحوه سحباً عنيفاً ، وأخرج مديّة مطبخ طويلة كانت مخبوءة هناك ، وجربّ شفرتها على ظفّره . حتى اذا تمّ له ذلك ، أعاد المديّة الى الدرج ، وأغلقه .

أما ماريوس فأمسك بالمسدس الصغير الذي كان في جيب صدرته - الايمن ، وأخرجه منه ، وضغط على نابضه استعداداً لاطلاق النار . واحداث المسدس ، عند ذلك ، صوتاً صغيراً واضعاً حادثاً . واجفل جوندرين ، ونهض عن كرسيه نصف نهضة .

وصاح :

- « مَنْ هناك ؟ »

وحبس ماريوس انفاسه . وأصغى جوندرين لحظة . ثم شرع يضعك ، قائلاً :

- « يا لي من مجنون ! ان الجدار الحاجز هو الذي قضقض على

تلك الشاكلة . »

وأبقى ماريوس المسدس الصغير في يده .

١٨

كرسيًا ماريوس يتواجهان

وفجأة ، قلقلت ذبذبة ' ناقوس قصية ' ومحزونة زجاج النوافذ . لقد أعلنت ' سان ميدار ' الساعة السادسة .

وأتبع جوندريت بكل دقة من تلك الدقات بأيماءة من رأسه . وعند الدقة السادسة ، أطفأ الشمعة بيديه .

ثم راح يذرع الغرفة ؛ وأصغى في الرواق ، ومشى ، ثم اصغى من جديد .

ودمدم :

« - شرط أن يجيء ! »

ثم انقلب الى كرسيه .

ولم يكذب يعاود الجلوس حتى 'فتح الباب .

كانت جوندريت الأم قد فتحت ، ووقفت في الرواق ، متكلفة ابتسامة توددية رهيبة أضيئت ، من ادني ، بأحد ثقوب المصباح القائم . وقالت :

« - تفضل ، يا سيدي ! »

وكرر جوندريت ، وقد نهض في عجلة بالغة :

« - تفضل يا محسني ! »

وبرز مسيو لوبلان .

كانت تطفو على حياء طلاقة جعلته جليلاً على نحو فريد .

ووضع اربع ليوات ذهبية على الطاولة .
وقال :

- « مسيو فابانتو ، خذ هذه واستعن بها على دفع اجرة الغرفة وسدّ حاجاتك الملحة . وفي المستقبل سأحاول ان اقدم اليك مبلغاً آخر . »
- « اثابك الله ، يا محسن الكريم ! » قال جوندريت ذلك ، واقترب من امرأته في سرعة وهمس :

- « مرتحي العربية ! »

وانسلت من الغرفة ، فيما كان زوجها يُسرف في الانحاء احتراماً ،
ويقدم كرسيّاً الى مسيو لوبلان . وبعد لحظة ، رجعت وهمست في اذنه :

- « لقد تمّ ذلك . »

كان الثلج ما انفكّ يتساقط منذ الصباح عميقاً الى درجة جعلتهما لا يسمعان العربية حين وصلت ، ولا يسمعاها حين ولّت .

وفي غضون ذلك كان مسيو لوبلان قد جلس على الكرسي .
وكان جوندريت قد احتل الكرسي الآخر المقابل لمسيو لوبلان .
والآن ، يحسن بالقاري ، لكي يكوّن فكرة عن المشهد الذي سوف يلي ، ان يتشّكل في مخيلته ذلك الليل البارد ، وإقفار الـ « ساليترير » المغطى بالثلج ، الأبيض تحت ضياء القمر ، مثل كفّن هائل ، ومصاييح الشارع المضطربة الضوء ، هنا وهناك ، المخضبة هذه الجادات الفاجعة ، وصفوف الدردار الاسود الطويلة ، وقد خلا الشارع أو كاد - على مدى ميل واحد - من عابر سبيل ، وغرق بيت غوردو العتيق في أعماق ما اكتنفه من صمت وهول وظلمة ، وأضيئت عليه جوندريت الواسعة - في ذلك البيت ، ووسط هذا الاقفار وتلك الدجّة - بشمعة ليس غير ، وجلس في ذلك الوكر رجلان اثنان الى طاولة ، مسيو لوبلان هادئاً مطمئناً ، وجوندريت مبتسماً وهيباً ،

وانزوت زوجته ، الذئبة الأم ، في زاوية ، وانتصب ماريوس خلف الجدار الحاجز ، محجوباً عن الانظار ، متيقظاً ، واعياً كل كلمة ، راصداً كل حركة ، مسدداً عينيه الى الساعة ، قابضاً على المسدس الصغير بجمع كفته .

والحق ان ماريوس لم يستشعر خوفاً ما . لقد أحس بالغیظ ليس غير . لقد شدّ على عقب المسدس ، فاستشعر الأمن والثقة . وقال في ذات نفسه : « سوف أوقف هذا النذل ساعة أشاء . »

وأحس ان البوليس كان يكمن ، غير بعيد ، في مكان ما ، في انتظار الاشارة المتفق عليها ، وأنه على اتم الاستعداد لأن يبسط ذراعه .

والى هذا ، فقد رجا أن يلقى هذا الاجتماع الرهيب ، بين جوندريت ومسيو لوبلان ، بعض الضوء على كل ما كان قائماً الى معرفته .

١٩

شواغل الأعماق المظلمة

لم يكد المقام يستقرّ بمسيو لوبلان حتى أدار عينيه نحو الفراشين الفارغين .

وتساءل :

« كيف حال الجريح الصغيرة البائسة ؟ »

فأجاب جوندريت في ابتسامة محزنة ولكنها معترفة بالجميل :

« سيئة . سيئة جداً ، يا سيدي الجليل . لقد اخذتها شقيقتها

الكبرى الى ال « بورب » لكي تضمدها . سوف تراهما . انهما ستعودان

بعد قليل .

— « إن مدام فابانتو تبدو لي أحسن جداً من ذي قبل ؟ ، كذلك استأنف مسيو لوبلان كلامه ، مسدداً بصره الى جوندريت الزوجة بزيها المضحك ، وقد وقفت بينه وبين الباب ، وكأنما كانت نحرس المخرج ، وانشأت تحدق اليه في وضع مهدد ، وضع يكاد يكون متحدياً .

وقال جوندريت :

— « إنها تموت . ولكنك ترى ، يا سيدي ، ان تلك المرأة ذات شجاعة عظيمة . إنها ليست امرأة ؛ انها ثور .
واذ تأثرت المرأة بهذا الاطراء ، اعتوضته صاحقة في مثل دلال غول أغدق عليه فيض من ثناء :
— « انت لطيف معي دائماً ، اكثر مما ينبغي ، يا مسيو جوندريت . »

فقال مسيو لوبلان :

— « جوندريت ! لقد سمعت ان اسمك فابانتو ؟ ،
فارع الزوج الى القول :
— « فابانتو أو جوندريت ! لقب فتان ! »
وهز كتفيه لامرأته هزة لم يرها مسيو لوبلان ، ثم اضاف في جرس مفخّم ملاطف :

— « آه ! لقد عشنا عمرنا كله على وئام واتفاق ، أنا وهذه العزيزة المسكينة ! واي شيء يمكن أن يبقى لنا ، اذا فقدنا هذا ايضاً ؟ نحن منكودو الحظ جداً ، يا سيدي المحترم ! إن عندنا أذرعاً ، ولكن ليس عندنا عمل ! وإن عندنا شجاعة ، ولكن ليس عندنا شغل ! أنا لا ادري كيف تنظم الحكومة هذا ، ولكنني أقسم بشرفي ، يا سيدي ، اني لست يعقوبياً ، يا سيدي ، ولست رجلاً محباً للشجار . أنا لا أضمر

لهم ايّ اذى ، ولكنّ لو كنتُ انا الوزراء لاسرت الامور ، وأقسم لك بشرفي ، سيرا مختلفاً . خذ مثلاً اني اردت ان أعلم ابنتي صناعة الصناديق الكرتونية . قد تقول لي : ماذا ؟ صناعة ؟ أجل ! صناعة ! صناعة بسيطة ! مورد رزق ! ايّ سقوط هو هذا ، يا محسني ! ايّ ذلّ ، بالنسبة الى من كان كما كنا نحن ! وأأسفاه ! لم يبقَ لنا من ايام الرخاء شيء ! لم يبقَ لنا غير شيء واحد : صورة زيتية أنا شديد التعلق بها ، ومع ذلك فدوف اضطرّ الى التخلي عنها ، لأن علينا ان نعيش ! أجل ، ان علينا ان نعيش !

وفما كان جوندريت يتحدث في اضطراب واضح لم يُنقص شيئاً من سيئاته الرصينة الذكية ، رفع ماريوس عينيه ، فلمح في مؤخرة الغرفة شخصاً لم يره من قبل . كان رجلٌ قد انسلّ الى هناك في خفة بالغة تعذّر معها على ايّ من الجماعة ان يسمع الباب يدور على رزّاته . وكان هذا الرجل يرتدي صدرّة صوفية بنفسجية مسرودة ، صدرّة عتيقة ، بالية ، وسخة ، ممزقة ، فاغرة الفم عند كل ثنية من ثنياتها ، وبنطلوناً واسعاً من مخمل قطني ، وينتعل حذاء خشبياً . ولم يكن على جذعه قميص . كانت عاريّ العنق ، عاريّ الذراعين موشومهما ، وكان وجهه ملطّخاً بالسواد . وكان قد جلس في صمت ، طاوياً ذراعيه على السرير الاقرب . وإذا ظلّ خلف المرأة ، فلم يتبيّنهُ ماريوس إلا في عسر .

وكان في ذلك الضرب من الغريزة المغناطيسية الذي يجذّر العين ما جعل ماريو لوبلان يلتفت لحظة التفت ماريوس تقريباً . ولم يتألك ان يُبدي حركة تتمّ عن الدهش ، لم تفتّ جوندريت .

وصاح جوندريت ، وهو يزّرّ ستورته في لهجة ملاطفة :
... دآه ، فهمتُ ! أنت تنظر الى معطفك . لكانه مفصل خصيصاً لي ، أقسم لك ، لكانه مفصل خصيصاً لي !

فقال مسيو لوبلان :

« مَنْ ذلك الرجل ؟ »

فأجاب جوندرت :

« ذلك الرجل ؟ إنه جارنا . لا 'تلقِ بالآ اليه . »

كانت لذلك الجار هيئة غريبة . وعلى أية حال ، فأنت مصانع
المنتجات الكيميائية تكثر في ضاحية سان مارسو . وإن كثيراً من
وجوه العمال الصناعيين لتلطّخ بالسواد . وفوق ذلك ، فقد كان
شخص مسيو لوبلان كله 'يفصح عن ثقة ساذجة بأسلة . واستأنف
حديثه :

« عفواً . ماذا كنت تقول لي ، يا مسيو قابانتو ؟ »

فأجابه جوندرت ، مسنداً رفاقه الى الطاولة ، ومحدّثاً الى مسيو
لوبلان بعينين ثابتتين وخصتين تشبهان عيني بواء * ، قائلاً :

« كنت أقول لك ، ياسيدي ، وبأ نصيري العزيز ، كنت أقول
لك ان عندي لوحة زيتية اودّ ان ابيعها . »

وسمعت لدى الباب ضجّة ضئيلة . ودخل رجلٌ ثانٍ ، وجلس
على السرير قرب جوندرت المرأة . كانت عاري الذراعين ، مثل
الرجل الأول ، وكان على وجهه قناع من الجبر أو من السخام
وعلى الرغم من ان ذلك الرجل انزل ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ،
الى الفرقة انشلالاً ، فان ذلك لم يمنع مسيو لوبلان من أن يلحجه :

وقال جوندرت :

« لا تشغل نفسك بهم . إنهم من أهل المنزل . كنتُ أقول لك ،
اذن ، انه قد بقيت عندي لوحة زيتية ذات قصة . هي ذي ، ياسيدي ،
انظر . »

ونفض ، ومضى الى الجدار الذي انتصبت في ادناه تلك اللوحة

* Boa وهي ضرب من الافاعي .

المؤطرة التي اشرنا اليها من قبل ، وادارها وجهاً لظهر ، مُبنيّاً ايهاا مستندة الى الجدار . كانت في الواقع شيئاً يشبه لوحة فنية ، شيئاً اضاءته الشمعة على نحو باهت . ولم يستطع ماريوس ان يتبين شيئاً منها بعد ان حالت وقفة جوندريت ما بينه وبين اللوحة . غير انه لمح تصويراً غليظاً غير متقن ، وشبه شخصية رئيسية لوّنت بالاسلوب الفجّ الصخّاب الذي نألفه في ستائر المسرح المتجول ، والرسوم التي تُحلّى بها الحُجب الفاصلة (بارافان) .

وسأله مسيو لوبلان :

- « ما هذه ؟ »

فهتف جوندريت :

- « لوحة بريشة فنان كبير . صورة ذات ثمن غالٍ ، يا محسني ! أنا اقلعتى بها كتعلقي بابنتي ؛ إنها تذكرني بأشياء واشياء ! ولكنني قلتُ لك ، ولستُ أناقض ذلك ، إنني من البؤس بحيث اجدني مضطراً الى التخلي عنها ... »

وسواء أكان ذلك بحكم المصادفة أم بسبب من اتّ الارتباب بدأ يُدخاله فيما كان يدرس الصورة ، انجبه بصر مسيو لوبلان نحو مؤخرة الغرفة . كان ثمة ، الآن ، اربعة رجال : ثلاثة جالسون على السرير ، وواحد واقف قرب إطار الباب . كان كلٌ منهم عاري الذراعين ، جامداً لا يتحرك ، ملطّخ الوجه بالسواد . كان احد الذين جلسوا على السرير مستنداً الى الجدار ، مغمض العينين ، حتى ليحسب المرء أنه نائم . وكان هذا الرجل هرماءً ، وكان شعره الأشيب رهيباً فوق وجهه الاسود . أما الاثنان الآخران فقد بدت عليهما أمارات الشباب . كان احدهما ذا لحية ، وكان الآخر ذا شعر طويل . ولم يكن أيّ منهما ينتعل حذاء . إن اولئك الذين لم يكن عندهم احذية من نسيج كانوا حفاة .

ولاحظ جوندريت ان عين مسيو لوبلان كانت مركزة على اولئك الرجال ، فقال :

— « إنهم اصدقائي . وهم يسكنون في جوارنا . إنهم سود الوجوه لأنهم يعملون في الفحم . إنهم دكاترة مداخن . لا تشغل بالك بهم ، يا محسنى . واشترِ لوحتي الفنية . أسفّقْ على شقائي . انا لن ابيعك اياها بثمان غال . بكم تقدّرها ؟ »

فقال مسيو لوبلان ، محدقاً النظر الى وجه جوندريت مثل رجل يأخذ حذره :

— « ولكنّ هذه اشبه بلاقة حانة . انها تساوي ثلاثة فرنكات تقريباً . »

فاجاب جوندريت في هدوء :

— « أتحمّل حافظة نقودك ؟ إني اكتفي بألف ريال . »

فنهض مسيو لوبلان واقفاً ، واسند ظهره الى الجدار ، واجال بصره في الغرفة على نحو خاطف . كان جوندريت الى يساره ناحية النافذة ، وزوجته والرجال الاربعة الى يمينه ناحية الباب . ولم يتحرك الرجال الاربعة ، بل لم يبدُ عليهم ما يؤذن انهم رأوه . وكان جوندريت قد عاد يتحدث في لهجة شاكية وقد عصف الاحتياج بعينه وغلبت على صوته نبرة فاجعة الى درجة كان خليقاً بها ان تجعل مسيو لوبلان يعتقد ان هذا الذي امامه ليس غير رجل ذهب الشقاء بصوابه .

وقال جوندريت :

— « اذا لم تشتري لوحتي الفنية ، ايها المحسن العزيز ، بقيتُ من غير مورد ، ولكن يكون امامي إلا انت القى بنفسى في النهر . آه ، حين افكّر باني اردتُ ان اعلم بنتي صنع الورق المقوى نصف الرقيق ، الورق المقوى الذي تعمل منه صناديق الهدايا ! حسناً ، يجب ان تكون عندهما طاولة في ادناها لوح خشبي لكي لا يسقط الزجاج

على الارض ؛ يجب ان يكون عندهما كانون مصنوع خصيصاً لهذا الغرض ، وقدر ذات ثلاثة أقسام لمختلف درجات القوة التي ينبغي ان يكون الغراء عليها تبعاً لجهة استعماله : خشباً كانت أو ورقاً أو قماشاً . وكذلك ينبغي ان يكون عندهما سكين لقطع الكرتون ، وقالب لأحكامه ، ومطرقة لتسيير الصفائح الفولاذية ، وكلاّبات ، وأشياء كثيرة أخرى لا أعلمها وحقّ الشيطان ! وذلك كله لكي تكسب أربعة فلوس في اليوم ! أربعة فلوس بعد أربع عشرة ساعة من العمل ! وكل صندوق ينبغي ان يمرّ من خلال يدي البنت ثلاث عشرة مرة ! وعليهما فوق ذلك ان تبللا الورق ! وان لا تومّخا شيئاً ! وان تثبّيا الغراء ساخناً ! بالشيطان ! اقول لك ! أربعة فلوس في اليوم ! كيف تريد من المرء ان يعيش ؟ »

وفيما كان جوندريت يتكلم لم ينظر الى مسيو لوبلان الذي راح يراقبه . كانت عين مسيو لوبلان مستمرة على جوندريت ، وكانت عين جوندريت مستمرة على الباب . وكان انتباه ماريوس اللاهث ينتقل من احدهما الى الآخر . وبدأ مسيو لوبلان وكأنه يسأل نفسه : « هل هذا الرجل معتوه ؟ » وكرّر جوندريت مرتين أو ثلاثاً بمختلف ضروب التبرّات المتفاوتة في الاسلوب السقيم المتواصل : « ليس امامي إلا ان اقدف بنفسني في النهر ! لقد هبطت ذلك اليوم ثلاث خطوات لهذا الغرض من ناحية جسر اوستوليتز ! »

وفجأة اضطربت عينه الباهتة بتوهج فظيع ؛ وتصدّر هذا الرجل القميء وأمسى مروّعاً . ثم تقدّم خطوة نحو مسيو لوبلان ، وصاح في وجهه بصوت راعد :

« ولكن هذا كله لا علاقة له بالمسألة ! هل عرفتني ؟ »

٢٠ الكمين

كان باب العلية قد 'فتح فجأة' ، متكشفاً عن ثلاثة رجال يرددون نياًباً عمالية زرقاء ويتقنعون بأقنعة ورقية سوداء . كان أولهم مهزولاً يحمل مراوطة طويلة معصوبة بالحديد . وأما ثانيهم ، وكانت ضرباً من عملاق ، فقد حمل مطرقة كالتني يصطنعها الجزارون لقتل الثيران ، خافضاً فأسها ، ممسكاً بها من منتصف مقبضها . وأما ثالثهم ، فكان رجلاً عريض المنكبين ، ليس شديد الهزال كالأول ، وليس شديد الضخامة كالثاني ، وكان يحمل في 'جمع كفيه' مفتاحاً هائلاً مسروقاً من باب سجن من السجون .

لقد بدا وكأن جوندريت إنما كان ينتظر وصول هؤلاء الرجال . ودار حوار خاطف بينه وبين الرجل ذي المراوطة ، الرجل المهزول :

قال جوندريت :

- « كل شيء جاهز ؟ »
- فأجابه الرجل المهزول :
- « نعم . »
- « اين موبارناس ، اذن ؟ »
- « لقد وقف « الفتى الأول » ليتجاذب الحديث مع ابنتك . »
- « مع ايّ منهما ؟ »
- « الكبرى . »
- « هل توجد عربة اجرة ، قرب البيت ؟ »
- « نعم . »
- « هل شدت الحيل الى العربة الصغيرة ؟ »

- « شُدَّت . »
- « وهل هما فرسان جيدان ؟ »
- « ممتازان . »
- « أهى تنتظر حيث قلت إن عليها ان تنتظر ؟ »
- « نعم . »
- فقال جوندريت :
- « حن . »

كان مسيو لوبلان شاحباً جداً . لقد اجال طرفه في ارجاء الغرفة مثل رجل يعرف أين وقع ؛ ودار رأسه فوق عنقه ، متجهاً على التعاقب نحو جميع الرؤوس المحيطة به ، في ببطء متيقظ منشد ، ولكن لم يكن في سياه ما يشبه الخوف . كان قد جعل من الطاولة متراًساً مرتجلاً ، وكان هذا الرجل الذي بدا ، قبل لحظة ، وكأنه مجرد رجل ساذج عجوز ، قد تحول فجأة الى ضرب من الجبار ، ووضع قبضة يده القوية على مؤخر كرسيه في ايماء رهيبة مذهلة .

لقد بدا هذا الرجل - الثبت الجنان الى حد بعيد ، الشجاع الى حد بعيد ، أمام خطر كهذا - وكأنه من اصحاب تلك الطبائع التي تجمع البسالة الى الطيبة ، في بساطة وطبعية . إن أبا الفتاة التي نحبها لا يمكن ان يكون غريباً بالنسبة الينا ابدآ . واستشعر ماريوس اعتزازاً بهذا الرجل المجهول .

وكان ثلاثة من الرجال الذين وصفهم جوندريت بقوله « إنهم دكاترة مداخن » قد فزعوا الى ركام الحداث العتيقة . فأما احدهم فتناول مقصاً ضخماً من مقصات المعادن ، وأما الثاني فتناول قضيباً حديدياً من قضبان القبايين ، وأما الثالث فتناول مطرقة ، ووقفوا معترضين الباب ، من غير ان يندسوا بكلمة . كان الرجل العجوز لا يزال على السرير ، وكان قد اجتراً بفتح عينيه . وكانت جوندريت المرأة قاعدة الى جانبه .

وخطر لما ربوس أن لحظة التدخل سوف تحين بعد ثوانٍ ، فرفع يده اليمنى نحو السقف ، في اتجاه الرواق ، فهو على استعداد لإطلاق النار .
واذ أتمّ جوندريت محادثته مع الرجل ذي المراهة ، التفت الى مسيو لوبلان وكرر سؤاله ، مردفاً اياه بضحكة تلك ، الخفيفة ، المكبوحة ، الفظيعة :

« انت لا تعرفني اذن ؟ »

ونظر اليه مسيو لوبلان في وجهه ، واجاب :

« لا . »

ثم إن جوندريت تقدم حتى الطاولة . وانحنى فوق الشمعة ، مصالباً ذراعيه ، دافعاً فكته الضاري ذا الزوايا نحو وجه مسيو لوبلان الهادي .
اقرب ما استطاع ان يدفعه ، من غير ان يحمله على الارتداد الى وراء .
وفي ذلك الوضع ، الخليق بوحش مفترس على وشك ان ينهش فريسته ، صرخ :

« إن اسمي ليس فابانتو ، إن اسمي ليس جوندريت ؛ إن اسمي

تيناردييه ! انا صاحب فندق مونفيرماي ! هل تفهمني ؟ تيناردييه !
والآن هل عرفتني ؟ »

وسرى في جبين مسيو لوبلان احمرار لا يكاد يُلحظ ، واجاب من غير ان يرتعش صوته ، او يرتفع ، وفي سكينته المألوفة :

« لم ازد معرفةً بك . »

ولم يسمع ماريوس الجواب . ولو انّ احداً رآه في هذه اللحظة وسط تلك الكلمة اذن لرآه شارد العين ، مشدوهاً ، مروّع القلب .
فحين قال جوندريت : إن اسمي تيناردييه سرت الرعدة في اوصال ماريوس كلها ، واسند نفسه الى الجدار وكأنه قد استشعر برّد شفرة سيفٍ يخترق فؤاده . وعندئذ انخفضت ذراعه اليمنى ، وكانت على وشك ان تطلق الرصاصة المتفق عليها ، انخفاضاً بطيئاً ؛ حتى اذا كرّر جوندريت :

هل تفهمني ، تيناردييه ؟ كادت اصابع ماريوس الحائرة ان 'نقلت المسدس الصغير . إن إماطة جوندرت اللثام عن 'هويته لم 'تحدث هزة' ما في نفس مسيو لوبلان ، ولكنها احدثت هزة زلزلة في نفس ماريوس . وذلك الاسم ، تيناردييه ، الذي بدا وكأن مسيو لوبلان لم يعرفه ، قد عرفه ماريوس . فلنذكر اي شيء كان ذلك الاسم عنده ! لقد حمل ذلك الاسم فوق فؤاده ، مكتوباً في وصية أبيه ! لقد حمل في أعماق أعماق تفكيره ، في أعماق ذاكرته ، في هذه الوصية المقدسة : « إن رجلاً يدعى تيناردييه انقذ حياتي . فاذا ما لقيه ولدي فلنحسب اننا قدّم اليه كل خدمة يقدر عليها . » كان ذلك الاسم ، كما نذكر ، احدى صلوات روحه . لقد مزجه مع اسم أبيه في عبادته . ماذا ؟ اهذا هو تيناردييه ، اهذا هو فنديّ مونفيرماي الذي بحث عنه على غير طائل ، تلك المدة الطويلة كلها ! لقد وجده آخر الامر ، وكيف ! إن منقذ أبيه هذا كان قاطع طريق ! إن هذا الرجل ، الذي كان هو ، ماريوس ، يتحرق لكي يقف نفسه لخدمته ، كان هولة ! إن مخلص الكولونيل بونغيرمي هذا كان على وشك ان يرتكب جريمة حقيقية ، لما يتبين ماريوس حتى الآن شكلها على نحو واضح جداً ، ولكنها بدت وكأنها جريمة قتل ! وضد من ! يا الهي العظيم ! اي قدر هذا ! اي سخرية مريرة من سخريات القضاء ! لقد امره أبوه من أعماق تابوته ان يقدم الى تيناردييه كل خير يقدر عليه ؛ وطوال أربع سنوات لم تراود ذهنه فكرة غير سداد دين أبيه هذا ؛ ولحظة اوشك ان يمكن العدالة من القاء القبض على قاطع طريق ، متلبس بجريمة ، يصيح القدر في وجهه : هذا تيناردييه ! وحياته أبيه ، التي أنقذت وسط وابل من القذائف المدفعية في ساحة واتلو البطولية ، كاد آخر الأمر ان يكافئ هذا الرجل على تخليصها ، وان يكافئه بالمشقة ! كان قد وطن النفس ، اذا ما وجد تيناردييه هذا ذات يوم ، ان لا يدنو منه إلا

منطرحاً على قدميه ، وها هو ذا قد وجده الآن فعلاً ، ولكن لئس له الى الجلاذ . لقد قال له ابوه : ساعد تيناردييه ! وكان هو يجب ذلك للصوت المقدس المعبود بسحق تيناردييه ! اذ يقدم الى ابيه ، في تابوته ، مشهد الرجل الذي انتزعه من برائن الموت ، وقد أعدم في ساحة سان جاك بفضل تدخل ابنه ، ابنه ماريوس الذي اوصاه بهذا الرجل ! وأية سخرية اعظم من ان يكون قد حمل فوق صدره ، طوال هذه المدة كلها ، أمنيات ابيه الأخيرة ، مكتوبة بخط يده ، لا شيء إلا لكي يعمل بما يناقضها على هذا النحو المروع الى هذا الحد ! ولكن من ناحية ثانية ، أيرى الى هذا الكمين ولا يحبطه ؟ ! أيدين الضحية وبشفق على السفاح ؟ ! وهل من الممكن ان يكون مدينياً بجميل يجب ان يردّه لمثل هذا النذل ؟ لكن جميع الافكار التي راودت ماريوس في السنوات الاربع الاخيرة قد اخترقها هذه الضربة المفاجئة اختراقاً . وارتعد . كان كل شيء رهناً به . كان يمسك بيده ، على غير وعي منهم ، هذه الخلوقات التي تحركت هناك تحت بصره . فاذا اطلق النار من مسدسه الصغير ، نجوا ميو لوبلان وهلك تيناردييه . واذا لم يطلق النار ذهب ميو لوبلان ضحية ، ومن يدري ؟ فقد يفرّ تيناردييه . إنه بين واحد من أمرين : ان يهلك أحدهما او يدع الآخر يقع في الهاوية ! وفي كلتا الحالتين وخز ضمير ! ما الذي يتعين عليه ان يعمل ؟ اي الأمرين يجب ان يختار ؟ أنجون ذكرياته الأشد إلحاحاً ، والعهود الوثيقة التي اكثر من أخذها على نفسه ، وواجبه الأشد قداسة ، وتلك الوصية الممنعة في الجلال ! أنجون ارادة ابيه ، أم يفضّ الطرف عن جريمة ترتكب ؟ لقد بدا له من ناحية ، وكأنه يسمع « أورشوله » تتوسل اليه ان ينقذ إياها ، ومن ناحية ثانية وكأنه يسمع الكولونيل يوصيه بتيناردييه . لقد استشعر انه فقد صوابه . وخذلته ركبته . ولم يجد حتى متسعاً من الوقت للتفكير وقد اندفع المشهد البادي امامه في مثل

هذا الغليان . كان ذلك اشبه باعصار حسيب ماريوس انه سيده ولكنه
كان يعصف به . كان على وشك ان يغى عليه .

وفي غضون ذلك ، كان تيناردييه - ولن ندعوه منذ اليوم
بغير هذا الاسم - يروح ويحيى امام الطاولة ، في ضرب من الانشده
وفي ضرب من الظفر المسعور .

وأخذ الشمعة بقوة ، ووضعها على الموقد في عنف اطفأ شعلتها ، او
كاد ، ونثر شعنها على الجدار .

ثم إنه التفت الى مسيو لوبلان ، التفاته مروعة ، وبصق
الكلمات التالية :

- « مُشَيِّط ! مدخن ! محمّص ! مشوي ! »

وشرع يذرع الغرفة من جديد ، وقد انفجر انفجاراً كاملاً .
وصاح :

- « آه ، لقد عثرتُ عليك من جديد ، يا سيدي الحسن ! يا
سيدي المليونير البالي الثياب ! يا سيدي واهب الدمي ! يا سيدي
الغبيّ المخدوع ! ها ! انت لا تعرفني ؟ لا ، لست انت ذلك الرجل
الذي جاء الى مونفيرماي ، الى فندقي ، منذ ثماني سنوات ، ليلة عيد
الميلاد عام ١٨٢٣ ! انت لم تكن ذلك الرجل الذي انتزع ابنة فانتين ،
القبترة ، من منزلي ! انت لم تكن ذلك الرجل اللابس سترة صفراء !
والحامل في يده صرة من الثياب مثلما جئت الى هنا هذا الصباح تماماً !
قولي ، الآن ، يا زوجتي ! إنه مصاب ، على ما يظهر بمرض حمل الصرر
الملأى بالجوارب الصوفية الى المنازل ! ايها الحسن العجوز ، اخرج !
أنت صانع جوارب ، يا سيدي المليونير ؟ اتعطي الفقراء كناسة دكانك ،
ايها الرجل القدسي ! يا لك من بهوان ! ها ! انت لا تعرفني ؟
حسن ، انا اعرفك ، انا ! لقد عرفتكَ لحظة اقصمت خطمك هنا .
آه ! سوف ترى آخر الامر ان الورود لا تغطي دائماً طريق الدخول

الى بيوت الناس على هذا الشكل ، بحجة انها فنادق ، بتياب مزقة بالية ، وفي هيئة شحاذ يجدر بأي امريء ان يمنحه فلأً ، لكي تخدع الناس ، وتمثل دور الكريم الجواد ، وتلبس 'معيهم منهم' ، وتهددهم في الغابات ، ولسوف تجد ايضاً انك لا تستطيع ان تبزيء ذمتك من ذلك بان تعود بعد مدة ، حين 'يصاب الناس بالافلاس' ، وتقدم اليهم سترة طويلة واسعة جداً ، وبطانيّتين خسيّتين من بطانيات المستشفيات ، ايها الشحاذ العجوز ، السارق الاطفال !

وكفّ عن الكلام ، وبدا وكأنما راح يتحدث الى نفسه لحظة . كان خليقاً بالمرء ان يقول ان ثورته قد سقطت مثل نهر 'الرون' في حفرة من الحفر . ثم انه ضرب الطاولة بجمع كفه ، وصاح وكأنه 'ينهي بصوت مرتفع شيئاً كان يقوله لنفسه :

— 'بهيشته الهادئة !

ووجه الخطاب الى مسيو لوبلان :

— 'وحق الاله ! لقد سخرت مني مرة ! انت علة مصائبي كلها ! لقد استوليت ، بالف وخمسة فرنك ، على فتاة كانت عندي ، وهي من امرة غنية حتماً ، وكانت قد عادت عليّ قبل ذلك بمقدار كبير من المال ، وكان يتعين عليّ ان احصل منها على مبلغ اعيش عليه طوال حياتي ! فتاة كانت جديرة بأن تعوّضي من كل ما خسرت في ذلك المطعم حيث كان الناس يسكرون سكرة ملوكية ، وحيث التهمت كل ثروتي كالأبله . اوه ، اتنى لو ان جميع الخمر التي شربت عندي كانت سماً على شاربها ! ولكن ما لنا ولهذا ! قل لي اذن ! لا ريب في انك حسبتي ساذجاً حين انطلقت مع القبرة ! كان معك نبوتك في الغابة ! كنت انت الرجل الاقوى ! الانتقام ! إن الورقة الراجعة هي اليوم في يدي ! انت هالك' ، ايها الرجل الساذج ! اوه ؛ واكنني اضحك ! انا اضحك حقاً ! هل وقع في الشرك ؟ لقد قلت له اني ممثل ، وان اسمي فابانتسو ، واني مثلت الادوار الكوميدية مع

مدموزيل مارس ، ومدموزيل موش ، وان عليّ ان ادفع الاجرة الى صاحب البيت غداً في الرابع من شباط ، ولم يخطر له حتى مجرد التفكير بأن موعد دفع القسط هو الثامن من كانون الثاني لا الرابع من شباط ! يا له من ابله مضحك ! وهذه القطع النقدية الاربع الحبيسة التي جاءني بها ! النذل ! إنه لم يؤانس من نفسه الشجاعة الكافية التي تمكنه من جعلها مئة فرنك ! وكيف ابتلع عباراتي الركيكة ! إن هذا قد سلاّني . وقلت في نفسي : رجلٌ عديم الفهم ! هيا ، لقد امسكت بك ! لقد لحست برائتك هذا الصباح ! ولسوف أقضم قلبك هذا المساء ! ،

وسكت تيناردييه . لقد انقطع نَفْسه . ولهُت صدره الصغير الضيق مثل منفاخ الحداد . كانت عينه تمور بمثل البهجة الدنيئة التي تغمر حيواناً ضعيفاً وحشياً جباناً وُفّق آخر الامر الى ان يهزم ما كان يرهبه من قبل ، ويُهين ما كان أطراه ، تلك البهجة التي تعصف بقلب قزم يضع عَقِبَ قدمه على رأس جالوت ، والتي تستحوذ على ابن آوى شرع يمزّق ثوراً مريضاً ، هو من الموت بحيث يعجز عن الدفاع عن نفسه وهو من الحياة بحيث لا ينقطع عذابه .

ولم يقاطعه مسيو لوبلان ، بل قال حين كفّ عن الكلام :
 - « انت ادري ما تريد ان تقوله . أنت خطيء . أنا رجل فقير جداً ، ولست مليونيراً بحال من الاحوال . انا لا اعرفك . انت تخط ما بيني وبين رجل آخر . »
 فصاح تيناردييه :

- « ها ! اها الخادع الفشاش ! انت لا تزال تتمسك بهذه النكته ! انت مُرتبك » ، يا صاحبي العجوز ! آه ! إنك لا تتذكر ! انك لا ترى من انا ! ،

فأجاب مسيو لوبلان في نبرة من الكياسة كان لها في مثل تلك

اللحظة ، اثرٌ قويٌّ وغريب :

— « عفواً ، يا سيدي ، اني ارى انك قاطع طريق . »

إن الكائنات البغيضة سريعة التأثير ، وإن الهول سريعة الاغتيال .
وهل ثمة من لم يلاحظ ذلك ؟ فما إن سمعتُ تيناردييه الزوجة عبارة
قاطع طريق هذه حتى وثبت من السرير . وأمسك تيناردييه بكرسيه
وكانما كان يعتزم ان يسحبها بيديه . وصاح في وجه زوجته :
— « لا تتحركي ! »

ثم التفت نحو ميسو لوبلان وقال :

— « قاطع طريق ! اجل ، انا اعلم انكم تدعوننا هكذا ، انتم
الاغنياء ! اجل ! هذا صحيح ؛ لقد أفلستُ ؛ انا احيا في مخبأ ؛ انا
لا أجد كسرة من الخبز ؛ انا لا املك فلساً ؛ فانا قاطع طريق ! ها
قد انقضت ثلاثة ايام لم آكل فيها لقمة ؛ فانا قاطع طريق ! آه !
انتم تدفثون اقدامكم ؛ انتم تفتعلون اخفاً من نوع ساكوسكي ؛ انتم
تلبسون سترات طويلة مبطننة مثل رؤساء الاساقفة ؛ انتم تسكنون في
الدور الاول من بيوت يحرسها بوابون ؛ انتم تأكلون الكمأة ؛ انتم
تأكلون حُزماً من الحلوى ثمن الحزمة اربعون فرنكاً في شهر كانون
الثاني ، وتأكلون الجلبان ؛ انتم تعلقون انفسكم ، وحين تريدون ان
تعرفوا ما اذا كان الجوُّ سوف يبرد تلقون نظرةً على الجريدة لتروا
عند اية درجة سوف يقف ميزان الحرارة ، الذي اخترعه شوفالييه !
أما نحن ! فأجسادنا هي موازين حرارتنا ! نحن لسنا في حاجة الى
ان نذهب الى الرصيف عند زاوية « برج الساعة » لكي نرى كم درجة
تحت الصفر بلغت الحرارة ! نحن نحسّ بالدم يتجمد في أوردتنا والثلج
يصل الى قلوبنا ، فنقول : « ليس هناك ربّ ! » ثم تأتون انتم الى
كهوفنا ، اجل الى كهوفنا ، وتسمّوننا قطاع طرق ! ولكننا سوف نأكلكم !
ولكننا سوف نفترسكم ، ايها الصغار المساكين ! سيدي المليونير ! إعلم هذا :

لقد كنتُ رجلاً ذا تجارة ناجحة ، كنتُ دافع ضرائب ، كنتُ ناخباً ؛ أنا مواطن ! أنا ! وقد لا تكون أنت مواطناً ، انت ! ، وهنا خطأ تيناردييه خطوة نحو الرجال الذين كانوا قرب الباب ، و اضاف في رعدة :

- « حين افكر انه يتجرأ على المجيء ليحدثني كما يتحدث إلى اسكاف ! ،

ثم خاطب مسيو لوبلان في نكسة سُعر :

- « واعلم هذا ايضاً ، يا سيدي المحن ! أنا لست رجلاً مريباً ، أنا ! أنا لست رجلاً لا يعرف احد اسمه ، رجلاً يأتي إلى البيوت ليخطف الاولاد ! أنا جندي فرنسي قديم ، كان ينبغي ان أقلد وساماً ! لقد شهدتُ واترلو ، أنا ! وفي اثناء المعركة انقذت جنرالاً يدعى الكونت لا أدري ماذا ! لقد قال لي اسمه ، ولكن صوته الكلابي كان ضعيفاً إلى درجة جعلتني لا أسمعه . أنا لم اسمع إلا كلمة ميومي (شكر) ولقد كنت افضل ان اسمع اسمه لا أن اسمع شكره . * فقد كان ذلك الاسم خليقاً بأن يساعدني على العثور عليه في ما بعد . واللوحة التي تراها ، والتي رسمها دافيد ** في بروكسيل ، أندري تمثل مَنْ ؟ إنها تمثلني . لقد أراد دافيد ان يخلّد هذه البسالة . إني احمل ذلك الجنرال على ظهري ، واني انقله تحت وابل من القذائف المدفعية . ذلك هو التاريخ . وحتى هذا الجنرال لم يُسند اليّ خدمة ما في يوم من الايام . إنه ليس أحسن من سائر الناس . ومع ذلك ، فقد انقذت حياته مخاطراً بحياتي ، وإن جبي مليء بالشهادات على ذلك . أنا جندي

* كان الكولونيل بونميرسي قد قال لتيناردييه ، وقد توم انه اقبل لانتفاذه ، « إن اسمي بونميرسي » كما رأينا من قبل . ويبدو انه لم يسمع من ذلك الاسم الا جزاء الاخير وهو الجزء الذي يؤدي معنى الشكر .

** رسام فرنسي مشهور ، ولد في باريس ، ومات متقياً في بروكسيل (١٧٤٨ - ١٨٢٥) وفي عهد الامبراطورية كان رسّام نابليون الخامس .

من جنود واترلو ، اسم من الف اسم ! والآن ، وقد حملتني الطبيعة على إخبارك بهذا كله ، دعنا نضع حداً للمسألة . يجب ان احصل على المال ؛ يجب ان احصل على مقدار هائل من المال ، وإلا قضيتُ على حياتك ، وحقّ رعود الله ! ،

كان ماريوس قد سيطر ، بعض الشيء ، على قلقه البالغ ، وانشأ يصفي . كان آخر احتمال من احتمالات الشك قد تلاشى . كان من غير شك تيناردييه الوصية . وارتعد ماريوس لذلك التوبيخ الذي وُجّه الى أبيه بسبب من نكرانه للجميل ، والذي كان على وشك ان يقدم تبريراً فاجعاً له منذ لحظات . وتعاضم ارتباكاه ؛ والى هذا ، فقد كان في كلمات تيناردييه هذه كلها ، في جرسه ، في إيماءاته ، في عينيه اللتين أطلقنا اللهب مع كل كلمة - كان في انفجار هذه الطبيعة الشريرة الكاشفة عن حقيقتها كلها ، في هذا المزيج من الصلف والدناءة ، من الغرور والحقارة ، من الغيظ والحماقة ، في هذا الخليط المشوش من الشكاوى الحقيقية والعواطف الزائفة ، في هذه الوقاحة التي تكشف عنها رجلٌ شرير تذوّق حلاوة العنف ، في ذلك العري الذي تبدّت عليه نفسٌ شنيعة ، في ذلك الاضطرام الذي عصف بالآلام كلها وقد اتحدت بالبعض كله ؛ كان في هذه جميعاً شيء فظيعٌ كالشر ، موجع كالحقيقة .

ولم تكن اللوحة التي رسمها استاذ من اساتذة الفن ، الصورة التي ابدعها دافيد ، والتي عرض على مسيو لوبلان شراءها ، لم تكن -- كما قد حزر القاريء -- شيئاً غير لافتة مطعمه الخفير ، وقد رسمها هو كما نذكر بريشته ، وكانت الأثر الأوحده الذي استخلصه من افلاسه في مونفيرماي . وإذا لم يعد يعترض خطّ بصر ماريوس ، فقد صار في امكان ماريوس الآن ان يرى الى ذلك الشيء ؛ وفي طلي الحيطان ذاك تبين معركة ، فعلاً ، وخلفية من دخان ، ورجلاً يحمل رجلاً . لقد التقى فيها تيناردييه

وبوغيرسي ؛ الرقيب المنقذ ، والكولونيل المنقذ . وبدأ ماريوس أشبه بالسكران . لقد أعادت هذه الصورة أباه ، بطريقة ما ، الى الحياة . لأنها لم تعد الآن لافتة فندق مونفيرماي ؛ كانت بعثاً . فيها انفتح ثابوت نصف فتحة ، ومنها انتصب طيف . وسمع ماريوس قلبه يدق بين صدغيه ، وسمع مدفع واترلو يدوي في أذنيه . كانت صورة ابيه الدامية المرسومة على نحو باهت في هذا اللوح القاتم قد أذهلته ؛ ولقد بدا له وكأن هذا الظل المشوه كان يجذب اليه على نحو موصول .

وحين اخذ تيناردييه نفساً ركز عينيه الداميتين على ميو لوبلان ، وقال في صوت خفيض خاطف :

- « ما الذي تريد ان تقوله قبل ان نبدأ الرقص معك ؟ »
ولم يقل ميو لوبلان شيئاً . وفي غمرة من هذا الصمت ، طرح صوت أجش ، مقبل من ناحية الرواق ، هذه السخرية المأتمية :
- « إذا كان الأمر يستدعي تشقيف حطير ما ، فأنا هنا ! »
كان الرجل الحامل مطرقة الجزار يتندّر .
وفي الوقت نفسه برز وجه ضخم ، شائك ، قدر ، لدى الباب ، وهو يضحك ضحكاً لم يكشف عن اسنان ، ولكن عن كلاليب .
كان وجه الرجل حامل مطرقة الجزار .

وصاح تيناردييه في ضراوة :

- « لماذا نزعّت القناع عن وجهك ؟ »

فأجابه الرجل :

- « لكي اضحك ! »

وطوال بضعة لحظات ، بدا ميو لوبلان وكأنه قد تتبع وراقب جميع حركات تيناردييه الذي راح ، وقد أمماه غيظُهُ وأذهله ، يذرع الوكر جيئة وذهاباً ، في ثقة مستوحاة من الشعور بأن الباب كان

محروساً ، وانه يمين وهو متسلح على رجل اعزل من السلاح ، وانه
وجاعته يشكلون تسعة الى واحد ، حتى ولو اعتبرت تينارديه الزوجة
بثابة رجل واحد ليس غير . وفي حديثه ذاك مع الرجل ذي
المطرقة التي يصطنعها الجزارون لقتل الثيران أدار ظهره لمسيو لوبلان .
واغتم مسيو لوبلان الفرصة السانحة ، ودفع الكرسي بقدمه ، والطاولة
بيده ؛ وبوثبة واحدة ، تمور برمشاة اعجوبية ، قبل ان يتمكن
تينارديه من ان يستدير ، انتهى الى النافذة . ولم يستغرق فتحها ،
وتسلق دعامتها ، وتخطتها غير ثانية واحدة . وما إن أصبحت إحدى
قدميه خارج الغرفة واحداها داخلها ، حتى امسكت به ستاً أيدي
قوية ، وردته الى الغرفة في قوة . كان « دكاترة المداخن » الثلاثة قد
وثبوا عليه . وفي الوقت نفسه ، كانت تينارديه الزوجة قد انشبت
اظفارها في شعره .

وفي غمرة الاضطراب الذي نشأ عن ذلك ، هرع قطاع الطرق الآخرون
من الرواق . ونزل العجوز - الذي كان فوق السرير والذي بدا صريع
الحجر - عن الفراش الحقيق ، وتقدم متلماً سبيله ، حاملاً بيده مطرقة
معبد طرق .

ورفع واحد من « دكاترة المداخن » اضاءت الشمعة وجهه الاسود
وعرف فيه ماريوس برغم هذا الظلام ، بانشو المعروف بـ « برينتايني »
وبـ « بيغروناي » ايضاً - نقول رفع ذلك « الطبيب » نبوتاً مصنوعاً
من قضيب حديدي ذي كتلة رصاصية في كل من طرفيه فوق رأس
مسيو لوبلان .

ولم يستطع ماريوس أن يحتمل هذا المشهد . وقال في ذات
نفسه : « اغفر لي ، يا أبت ! » وتلمس أصبعه زناد المدس
الصغير . وكانت الرصاصة على وشك ان تتطلق حين صاح صوت
تينارديه :

- « لا توقعوا به أيّ اذى ! »

كانت هذه المحاولة اليائسة التي قامت بها الضحية ، وقد عجزت عن إثارة سخط تيناردييه ، قد هدأت من غلوائه . كان في ذات نفسه رجلاً ، الرجل الضاري ، والرجل الداهية . وحتى تلك اللحظة ، في غمرة النصر ، وأمام فريسته المصعوقة غير المبيدة حراكاً ، كان الرجل الضاري هو صاحب اليد العليا . فما إن قاومت الضحية ، وبدأت راغبةً في النضال ، حتى برز الرجل الداهية من جديد واستعاد سلطانه .

وكرر :

- « لا توقعوا به أيّ اذى ! »

ومن غير أن يعي شيئاً من ذلك كانت أولى نتائج هذه الكلمة أن أوقفت المسدس الصغير الذي كان على وشك الانطلاق ، وشلت ماريوس الذي بدا له أن الأحلام قد زال ، والذي لم يعد يرى حرجاً في الانتظار فترة أخرى . ومن يدري فقد تنشأ مصادفة تنقذه من هذا الحيار الرهيب بين أمرين : أن يدعّ والد أورشول يهلك ، أو أن يهلك منقذ الكولونيل !

كان صراع جبّار قد بدأ . وبضربة واحدة على أمّ الصدر ، طوح مسيو لوبلان الرجل العجوز متدحرجاً وسط الغرفة ، ثم بضربتين من ظاهر يده صرعَ معتدين آخرين وأمسك بكل منهما تحت إحدى ركبتيه ؛ وصرخ النذلان تحت ذلك الضغط وكأنما كانا تحت رحى من الصوان . ولكن الأربعة الآخرين كانوا قد أمسكوا بالعجوز الرهيب من ذراعيه ورقبته ، وأبقوه جالساً القرفصاء فوق « دكتور المداخن » المدعورين . وهكذا فأن مسيو لوبلان - وكان مسيطرّاً على هذين الأخيرين مسيطرّاً عليه من أولئك الأولين ، ساحقاً اللذين كانا تحته ومختنقاً من أولئك الذين كانوا فوقه ، محاولاً على غير طائل أن يززع

جميع تلك الجهود التي تكدست عليه - نقول وهكذا فانت مسيو لوبلان اختفى تحت تلك المجموعة الرهيبة من قطاع الطرق ، مثل خنزير بري تحت كومة عاويةٍ من الكلاب الكبيرة الرؤوس ، وكلاب القنص الضاربة .

ووقفوا الى طرحة على السرير الأقرب الى النافذة وتشبثوا به هناك في تهيّب . كانت تيناردييه الزوجة لم تفلت شعره بعد . وقال تيناردييه :

- « أنت ! لا تتدخلي في هذه المسألة . سوف يتمزق شالك . »
وامتملت تيناردييه الزوجة أمر بعلمها ، كما تمثل الذئبة أمر الذئب ، في زجاجة .

واستأنف تيناردييه كلامه :

« وانتم الباقون ... هيا فتشوا جيوبه ! »
وبدا مسيو لوبلان وكأنه اطرّح المقاومة . وفتشوا جيوبه . فلم يجدوا فيها غير كيس نقود جلديّ منطويّ على ستة فرنكات ، ومنديله .

ووضع تيناردييه المنديل في جيبه .
وتساءل :

- « ماذا ؟ لا حافظة اوراق نقدية ؟ »
فأجابه احد « دكاترة المداخن » :

- « حتى ولا ساعة ! »

فغمغم الرجل المقطع ذو المفتاح الضخم ، وكأنما يخرج صوته من بطنه :

- « سيان . إنه شكسٌ عجوز ! »

ومضى تيناردييه الى الزاوية المجاورة للباب ، وتناول حزمة من الحبال قذف بها اليهم .

وقال :

- « اوثقوه الى مؤخر السرير . »
حتى اذا لمح الرجل العجوز المنطرح ، عبرَ الغرفة ، وقد صرخته
الضربة التي سدّدها اليه مسيو لوبلان بجمع كفه ، تسأل :

- « هل مات بولاتروويل ؟ »

فأجاب بيغروفاي :

- « لا ، إنه سكران . »

فقال تيناردييه :

- « اكنّوه الى احدى الزوايا . »

ودفع رجلان من « دكاترة المداخن » بأقدامهما ، الرجل الثمل حتى
كرومة الحدائد العتيقة .

وقال تيناردييه موجهاً الكلام ، في همس ، الى الرجل ذي المراوة :

- « بابيه ! لماذا حدثت هؤلاء القوم كلهم ؟ لم يكن من حاجة

الى ذلك . »

فأجاب الرجل ذو المراوة :

- « ماذا تريد ان افعل ؟ لقد ارادوا كلهم ان يشتركوا في ذلك .

الموسم رديء . ليس هناك أشغال . »

كانت الحشبة التي 'قلبت على مسيو لوبلان شبه سرير من سرر
المستشفيات ذي أربع قوائم خشبية ضخمة تكاد ان تكون مربعة . ولم
يبدِ مسيو لوبلان مقاومة ما . وأوثق قطاع الطرق رباطه ، وقد انتصب
واخفاً ورجلاه فوق الارض ، الى قائمة السرير الاشدّ بعداً عن النافذة ،
والأشدّ قرباً الى الموقد .

وحين أحكموا العقدة الاخيرة اخذ تيناردييه كرسيّاً ، وتقدّم
فجلس تجاه مسيو لوبلان تقريباً . كانت سيّاه قد تغيرت تغيراً كاملاً ؛
فهي بضع ثوانٍ تحولت اساور وجهه من العنف الجامح الى الرقة الوداعة

الماكرة . وكاد ماريوس لا يتبين في تلك الابتسامة الكيئة الجديرة
برجل من رجال الدواوين ، ذلك الفم الوحشي او يكاد ، الذي كان
يُرغمي ويزبد قبل لحظة . لقد نظر في ذهول الى هذا التحول الغريب
الموجع واستشعر ما يستشعره امرؤ يرى نمرأ ينقلب الى وكييل
دعاوى .

وقال تيناردييه .

« سيدى . »

وبأيماء ، مَرَّحَ قطاعَ الطرق الذين كانوا ما يزالون منشبين بمسيو
لوبلان ، قائلاً :

« ابتعدوا قليلاً » ، ودعوني اتحدث الى السيد . »

وانسحبوا كلهم نحو الباب . واستأنف تيناردييه كلامه :

« سيدى ، لقد اخطأت في محاولة الرئوب من النافذة . كان من
الجانز ان تكسر رجلك . والان ، اذا شئت فسوف نتحدث في
سكينة . وقبل كل شيء ، يجب عليّ ان انبهك الى هذه الحقيقة التي
لاحظتها ، وهي انك لم تطلق حتى الان اقلّ صيحة . »

وكان تيناردييه على صواب . فقد كانت هذه الملاحظة صحيحة ، على
الرغم من أنها فأت ماريوس ، في غمرة من القلق الذي استحوذ عليه .
كان مسيو لوبلان قد نطق ببضع كلمات من غير ان يرفع صوته .
وحتى في صراعه ، قرب النافذة ، مع قطاع الطرق الستة ، كان قد التزم
اصمق الصمت وأعجبه . وتابع تيناردييه :

« يا الهي ! كان في ميسورك ان تصيح قليلاً : « اللص !
الاص ! » اذ ما كنت لاجد في ذلك شيئاً غير ملائم . او ان تصيح :
« السفاح ! السفاح ! » فهذا يقال بين الفينة والفينة ، أما انا فما كنت
لأفسرها تفسيراً رديئاً . فمن الطبيعي جداً ان يحدث الانسان ضجة
صغيرة حين يجد نفسه مع اشخاص لا يوحون اليه بقدر كافٍ من الثقة .

كان في إمكانك ان تفعل ذلك ، فلا نحاول ان نزعجك . بل لا نحاول ان نكمّ فك . وسأقول لك لماذا . لأن هذه الغرفة صماء جداً . هذا كل ما استطيع ان اقله عنها ، ولكنني استطيع ان اقول ذلك . إنها مغارة . في استطاعتنا ان نفجر قنبلة هنا ، فقتُنع عند اقرب مركز للحرس وكأنها غطيط' سكران . هنا يعمل المدفع 'هيم' ويعمل الرعد 'بف' . هذا مأوى مريح . ولكنك ، على الجملة ، لم تصرخ . هذا أحسن . إني اقدم اليك تهنئي على ذلك ، وسوف اقول لك اي شيء أستنتجه من هذا : يا سيدي العزيز ، حين يصرخ المرء من الذي يأتي ؟ البوليس . وبعد البوليس ؟ العدالة . حن ! انت لم تصرخ . لانك لم تكن راغباً ، اكثر منا نحن ، في ان ترى العدالة والبوليس يأتيان . لأن لك - ولقد ارتبت' في ذلك منذ زمن طويل - مصلحة ما في إخفاء شيء ما . ونحن نشاركك هذه المصلحة . واذن ، ففي استطاعتنا ان نتفاهم . »

وفيما هو يتحدث هكذا ، بدا وكأن نيناردويه ، الممرّ بصره على ميو لوبلان ، كان يحاول ان يُنفذ الحناجر ، التي انطلقت من عينه ، الى ضمير أسيره نفسه . والى هذا ، فقد كانت لغته ، المطبوعة بضرب من السفاهة المكظومة المرائية ، متحفظة بل متخيرة تقريباً . وفي هذا الوغد الذي لم يكن من قبل غير قاطع طريق ، كان في ميسور المرء الآن ان يلح الرجل الذي يدرس لكي يصبح كاهناً .

وكان الصمت الذي لزمه الأسير ، وذلك الحذر الذي اصطنعه الى حدّ تمريض حياته للخطر ، وهذه المقاومة لاول حافز من حوافز الطبيعة ، وهو اطلاق صيحة ما - كان هذا كله ، كما يتعتن علينا ان نقول ، بعد ان أبديت هذه الملاحظة ، قد أقلق ماريوس وادهشه على نحو أليم .

وكان في ملاحظة تيناردييه ، الحسنة الاساس ، ما ضاعف في عيني ماريوس السُّحْبَ الحَفِيَّةَ التي تغلّف هذا الوجه الرصين الغريب الذي اطلق عليه كورفيراك لقب مسيو لوبلان . ولكنّ أياً ما كانت حاله - مؤثّقاً بالحبال ، مطوّقاً بالسفاحين ، نصف مدفون ، اذا جاز التعبير ، في قبر كانت يزداد تحته عمقاً في كل لحظة ، أمام هياج تيناردييه او امام رقته - فقد ظل هذا الرجل بمتنعاً على الألم ، ولم يستطع ماريوس ان يكبت في مثل تلك اللحظة اعجابه بذلك الوجه الكئيب على نحو جيّ .

هنا كانت ، من غير شك ، نفس لا يتطرق اليها الخوف ، ولا تعرف الذعر . وهنا كانت واحد من اولئك الرجال الذي هم فوق الدهش في المواقف اليائسة . فمهما تكن الأزمة حادة ، ومهما تكن الكارثة محتومة ، فلم يكن على وجهه شيء من نزاع الرجل الغريق المحدث بعينين مروءتين فيما هو يفوض الى الاعماق .

ونفض تيناردييه في هدوء ، ومضى الى الموقد ، وازاح الستار الحاجز مسنداً ايّاه الى الحشية الاكثر قرباً ، كاشفاً القناع بذلك عن الكانون الطافح بالجرات المتوهجة حيث كان في استطاعة الاسير ان يرى ، بوضوح ، الى الازميل حامياً حتى البياض ، تنقطه هنا وهناك نجوم قمرية صغيرة .

ثم تراجع تيناردييه ، وجلس الى جانب مسيو لوبلان .
وقال :

- « أتابع الحديث . في استطاعتنا الان ان نصل الى تفاهم . دعنا نسوّي هذه المسألة ودياً . لقد اخطأت عندما استسلمت لللعظة الانفعال . انا لا ادري اين كان عقلي ؛ لقد ذهبت الى ابعد مما يجب ؛ لقد كنت أهذي . فمثلاً ، لأنك مليونير قلت لك إنني محتاج الى مال ، الى مبلغ كبير من المال ، الى مبلغ هائل . فلعل هذا غير معقول .

يا السّهي ! فهما تكن غنياً فان عندك نفقاتك . وايّ منا لا نفقات
عنده . انا لا اريد ان أُزَل الحُرّاب بك ؛ وانا لست موظفاً مهمته
القاء القبض على المتخلفين عن دفع الديون ، على كل حال . انا لست
إلا واحداً من اولئك الذين اذا وجدوا انفسهم في وضع افضل من
وضع الحَصم افادوا من ذلك لكي يكونوا مضحكين . وها انا راغب في
السير نصف الطريق ، والقيام ببعض التضحية من جانبي . انا لا اطلب
غير مئتي الف فرنك .

ولم يفس مسيو لوبلان بكلمة واحدة . وتابع تيناردييه كلامه :
- « انت ترى اني اخفف من غلواني كثيراً . أنا لا اعرف
حقيقة ثروتك ، ولكنني أعلم انك لا تبالي كثيراً بالمال ، ورجلٌ يحب
للخير مثلك لن يبخل بمئتي الف فرنك على ربّ اسرة بائس فقير . وانت
منطقيّ من غير شك ، فلست تتخيل اني تجشمت ما تجشمته اليوم من
عناء ، ونظمت حادث هذا المساء ، وهو تديير بارع في رأي هؤلاء
السادة كلهم ، لكي اطلب منك ما يكفيني للذهاب واحتساء كأس
بخمسة عشر دسو ، من الحرّ الجراء ، وأكل لحم العجل بطعم
دينواوييه . إن مئتي الف فرنك تعويض كافٍ . ومتى خرج هذا
المبلغ النافه من جيبيك أوكد لك ان كل شيء قد انتهى ، وانك لن
تحشى بعد ذلك ضربةً بطرف السبابة . وستقول لي : ولكن ليس في
جبي مئتي الف فرنك ! اوه ! انا لا اتجاوز الحد . أنا لا اطلب
ذلك . إني لا أسألك غير شيء واحد . فتلطّف واكتب ما سأمليه
عليك . »

وهنا تمهل تيناردييه ، ثم أضاف مؤكداً كل كلمة ، مرسلًا ابتسامة
نحو الموقد :

- « احيطك علماً بأنني لن أسلّم مطلقاً بانك لا تعرف الكتابة .
كان خليفاً بمحقق قضائي كبير ان يحسده على تلك الابتسامة . »

ودفع تيناردييه الطاولة حتى حاذت مسيو لوبلان ، واخرج من
دوجها دواة ، وقلماً ، وورقة مبقياً الدرج مفتوحاً نصف فتحة ، وقد
اومضت فيه شفرة المدية الطويلة .

ووضع الورقة امام مسيو لوبلان .
وقال :

— « اكتب ا »

وتكلم الأسير آخر الأمر :

— « وكيف تريد مني ان اكتب ؟ أنا مقيد . »
فقال تيناردييه :

— « هذا صحيح ، اعذرني ا أنت على حق ا »

والتفت الى بيغروناي وقال :

— « فك ذراع السيد اليمنى . »

ونفذ بانشر ، المعروف بـ « برينتانييه » وبـ « بيغروناي » أمر
تيناردييه . حتى اذا أطلقت يد الأسير اليمنى من وثاقها غمس تيناردييه
الريشة في الحبر ، وقدّمها اليه ، قائلاً :

— « تذكر ، يا سيدي ، انك في قبضتنا ، نعت تصرفنا المطلق ،
وأنة ما من قوة بشرية تستطيع ان تنتزعك من هنا ، وانه سوف
يسوءنا حقاً ان نضطر الى اللجوء الى بعض الاجراءات المتطرفة البغيضة
الينا . أنا لا اعرف اسمك ، ولا اعرف عنوانك ، ولكنني انبهك الى
انك سوف تبقى موثقاً حتى يعود الشخص المكلف بنقل الرسالة التي
نوسك ان تكتبها . والان تطف واكتب . »

فتساءل الأسير :

— « ماذا ؟ »

— « سوف أملي عليك . »

وتناول مسيو لوبلان الريشة .

- وبدا تيناردييه علي :
- « ابنتي ... »
وارتعد الأسير ، ورفع عينيه الى تيناردييه .
وقال تيناردييه :
- « ضع : ابنتي العزيزة . »
وامتثل مسيو لوبلان .
وتابع تيناردييه :
- « تعالي في الحال ... »
وقاطع نفسه متسائلاً :
- « انت تخاطبها بضمير المفرد ، اليس كذلك ؟ »
فساله مسيو لوبلان :
- « مَنْ ؟ »
فقال تيناردييه :
- « يا السّهي ! الفتاة الصغيرة ، القبّرة . »
واجاب مسيو لوبلان من غير ان يبدو عليه اقل اشارة من أمارات
الانفعال :
- « انا لا أدري ماذا تعني . »
فقال تيناردييه :
- « حسن ، تابع الكتابة . »
واستأنف الاملاء :
- « تعالي في الحال . انا في حاجة ماسة اليك . إن الشخص الذي
سيقدم اليك هذه المذكرة مكلف بأن يقودك اليّ . أنا في انتظارك .
تعالي في ثقة . »
- وكان مسيو لوبلان قد كتب ذلك كله . و اضاف تيناردييه :
- « آه ، اسطب تعالي في ثقة ، فقد يقودها هذا الى الاعتقاد بأن

المسألة ليست في غاية البساطة ، وأن عدم الثقة ممكن . ،
ومحا مسيو لوبلان الكلمات الثلاث .

وتابع تيناردييه :

— « والآن ، وقّع . ما اسمك ؟ »

واطّرح الأسير الريشة ، وسأل :

— « الى مَنْ هذه الرسالة ؟ »

فأجاب تيناردييه :

— « انت تعرف ذلك جيداً . الى الفتاة الصغيرة . لقد قلت لك

هذا منذ لحظة . »

كان واضحاً ان تيناردييه قد تجنب تسمية الفتاة الشابة موضوع
السؤال . اقد قال : « القبرة » ؛ وقال : الفتاة الصغيرة ، ولكنه
لم يلفظ الاسم . حذّر رجل ما كريسون سره امام شركائه في الجريمة .
فلو قد نطق بذلك الاسم اذن لأسلم « المسألة كلها » اليهم ، ولأخبرهم
بأكثر مما ينبغي لهم ان يعرفوه .

واستأنف كلامه :

— « وقّع . ما اسمك ؟ »

فقال الأسير :

— « اوربان فاير . »

وبحركة مثل حركة الهرة اقمع تيناردييه يده في جيبيه ، وأخرج
منها المنديل الذي انتزعه من مسيو لوبلان . وبحث عن العلامة التي
يحملها ، وقرّبها من الشمعة .

— « أ . ف . U . F . ذلك هو . اوربان فاير . حسناً ، وقّع :

أ . ف . »

ورقع الأسير .

— « ولما كان المرء يحتاج الى يديه الاثنتين لطّي الرسالة ، فأعطني

اياها . سوف أطوحها انا . »

حتى اذا تمّ له ذلك استأنف الحديث :

- « ضع العنوان . الانسة فابر ، في منزلك . أنا اعرف انك تسكن في مكان غير بعيد جداً من هنا ، في جوار « سان جاك دو هو با » ، ما دمت تذهب الى هناك لحضور القداس كل يوم ، ولكني لا أعرف في ايّ شارع . أنا ارى انك تفهم وضعك . واذ كنت لم تكذب في ما يتصل باسمك ، فلن تكذب في ما يتصل بعنوانك . ضعه انت نفسك . »

واعتصم الأسير بالتأمل لحظةً ، ثم تناول الريشة وكتب :

- « الانسة فابر ، منزل مسيو اوربان فابر ، شارع سان دومينيك دانفير ، رقم ١٧ . »

وامسك تينارديه بالرسالة في ضرب من التشنج المحموم .
وصاح :

- « ابتها الزوجة ! »

فاندفعت تينارديه الزوجة نحوه .

- « هي ذي الرسالة . انت تعرفين ما يتعين عليك ان تفعله .

هناك عربة اجرة تحت . اذهبي في الحال ، وأرجعي في الحال . »

ووجه الخطاب الى الرجل ذي المطرقة الخاصة بقتل الثيران ، قائلاً :

- « إسمع ، ما دمت قد نزعْتَ لثامك فاذهب مع المرأة . سوف

تركب خلف عربة الاجرة . انت تعرف ابن فارقت « العربة الصغيرة » .

فقال الرجل :

-- « نعم . »

وألقى مطرقته في احدى الزوايا ، وتبع تينارديه الزوجة .

وفيما هما يمشيان لسبيلهما ، أطلّ تينارديه برأسه من خلال الباب

نصف المفتوح ، وصاح في الرواق :

« حذار قبل كل شيء ان تضيعا الرسالة ! تذكرنا انكما تعملان
مشتي الف فراك . »

فأجابه صوت زوجته الأجنس :

« كن مطمئناً . لقد وضعتها في صدري . »

ولم تكذب تنقضي دقيقة واحدة حتى سمعت ضربة سوط ما لبثت
ان ضعفت ثم تلاشت وشيكاً .

فغمغم تيناردييه :

« حسن ! إنها منطلقان في سرعة صالحة . وهذه السرعة سوف
ترجع المرأة في ثلاثة ارباع الساعة . »

وقرب كرسياً الى الموقد ، وجلس ، طاوياً ذراعيه ، رافعاً حذاءه
الملطخ بالوحل الى الكانون .

وقال :

« قدماي باردتان . »

لم يكن قد بقي في الوكر ، الان ، غير خمسة قطاع طرق مع
تيناردييه والأسير . وكان هؤلاء الرجال - بأفئدتهم او بالطلاء الأسود
الذي غطى وجوههم وجعلهم ، وفقاً لما يوحى الخوف ، فحاميين او
زنوجاً او أبالسة - ذري مظهر خدير كالح ، وكان خليقاً بمن يراهم أن
يعتقد أنهم يقدمون على ارتكاب جريمة كما يقدمون على القيام بأي عمل
نافه من غير ما غضب ومن غير ما رحمة ، في ضرب من الضجر .
كانوا مكذابين في احدى الزوايا كالبهايم ، وكانوا صامتين . كان
تيناردييه يذفي قدميه . وكان الأسير قد اعتصم بالصمت من جديد .
وكانت سكينه مظلمة قد عقت الجلبة التي ملأت العلية قبل بضع
لحظات .

وكانت الشمعة التي تكوّن فيها ثؤلول ضخّم لا تكاد تضيء الوكر
الواسع الا بشقّ النفس ، وكانت النار قد خمدت ، والقت جميع تلك

الرؤوس الفظيعة ظلالاً هائلة على الجدران وعلى السقف .
ولم يكن في الامكان سماع أيما صوت غير صوت الانفاس الهادئة
التي أطلقها العجوز السكران ، وكان مستسلماً للرقاد .
وانتظر ماريوس في قلق كان كل شيء يزيده حدة . كانت الاحجية
ممتعة على التفسير اكثر منها في ايما وقت مضى . من كانت هذه
« الصغيرة » التي دعاها تيناردييه « القبرة » ايضاً ؟ اهي فتاته
« أورسول » ؟ ولم يبدو على وجه الأسير انفعال ما لدن سماعه هذه
الكلمة « القبرة » ، وأجاب باكثر ما يكون من الطبعية : انا لا ادري
ماذا تعني . ومن ناحية ثانية ، فقد فُسر الحرفان أ . ف U . F .
كانا يرمزان الى « أوربان فاير » ، ولم تكن أورسول تدعى أورسول .
ذلك كان الشيء الذي رآه ماريوس باكثر ما يكون من الوضوح .
وأبقاه ضرب من السحر المروع مسمراً في المكان الذي راقب منه
هذا المشهد كله وهيمن عليه . كان عاجزاً ، تقريباً ، عن التفكير
والحركة ، وكأنما قد محقته هذه الاشياء الرهيبة التي كان يراها عن
كسب . كان ينتظر ، مترقباً ان يقع حادث من الحوادث ، كأنما ما
كان ، غير قادر على ان يجمع شتات افكاره ، وغير عالم ايّ مسلك
ينبغي ان يملك .

وقال :

— « وعلى اية حال ، اذا كانت القبرة هي اياها ، فسوف أراها من
غير شك ، لأن تيناردييه الزوجة سوف تجيء بها الى هنا . وعندئذ يصعب
كل شيء واضحاً . إني مستعد لأن ابذل دمي وحياتي ، عند الحاجة ،
ولكنني سوف أنقذها ! لن يحول بيني وبين ذلك شيء على الإطلاق . »
وتصرّمت على هذا النحو ثلاثون دقيقة . وبدأ تيناردييه مستغرقاً في
تأمل مظلم . ولم يتحرك الأسير . ومع ذلك ، فقد حسب ماريوس
انه سمع ، بين الفينة والفينة ، وطوال بضع لحظات ، ضجة صغيرة

بكاء مقبلةً من ناحية الأسير .

وفجأة وجه تينارديه الخطاب الى الأسير :

- « ميو فابر ، إنته الى ما سأقوله لك في الحال . »

ووجد ماريوس في هذه الكلمات القليلة بصيصاً من النور ، فأصغى

في انتباه . وتابع تينارديه حديثه :

- « إن زوجتي سوف ترجع وشيكاً ، فلا تكن عجولاً . وأنا اعتقد أن القبرة هي ابنتك حقاً ، وأجد ان من الطبيعي جداً أن تحرص على الاحتفاظ بها . ولكن اسمع لحظة . برسالئك تلك ، سوف تعثر زوجتي عليها . ولقد قلت لزوجتي ان تكون حنة البزة ، كما رأيت ، لكي تلحق بها آنتسك الصغيرة من غير تردد . ولسوف تركبان معاً عربة الأجرة التي يتعلق رفيقي بمؤخرتها . وهناك في مكان ما خارج احد ابواب المدينة ، عربة مُشدّة اليها فرسان أصيلان . سوف تقودان آنتسك الصغيرة الى هناك . ولسوف تترجل من العربة . وعندئذ يركب رفيقي العربة الاخرى معها ، وتعود زوجتي الى هنا لكي تقول لنا « قضي الأمر . » أما آنتسك ، فلن يُنزلَ بها اذىً ما . ان العربة سوف تسوقها الى مكان تنعم فيه بالهدوء ، وما إن تعطيني المشتري الف فرنك ، هذا المبلغ الصغير ، حتى تعاد الآنسة اليك . واذا ما ابلغت الشرطة فاعتقلتنني ، فعندئذ يقرص رفيقي القبرة فرصةً ، هذا كل ما هناك . »

ولم ينبس الأمير ببنت شفة . وبعد تمهل ، استأنف تينارديه كلامه :

- « المسألة بسيطة ، كما ترى . لن يكون ثمة اذىً الا اذا شئت

أنت ان يكون . هذه هي القصة كلها . لفت روبيت لك كل شيء ،

لكي يكون على يثينة من امرك . »

وصمت . ولم يقطع الأمير جبل الصمت ، فأردف تينارديه :

- « بما إن ترجع زوجتي وتقول : « القبرة على الطريق ، حتى

نطلق سراحك ، وعندئذ يكون في إمكانك ان تذهب الى بيتك وتنام .
انت ترى أننا لا نضمر نيات سيئة .

وتعاقبت على عقل ماريوس صوراً رهبة . ماذا ؟ هذه الفتاة الشابة
التي يعتزمون اختطافها ، لن يجيئوا بها الى هنا ؟ إن واحداً من هؤلاء
الغيلان سوف يسوقها تحت جناح الظلام ؟ الى اين ؟ ... واذا كانت هي !
وكان واضحاً أنها هي . واستشعر ماريوس ان قلبه يكف عن الحققان .
ما الذي ينبغي ان يعمل ؟ يطلق الرصاص من المدس الصغير ؟ أيلقي
بهؤلاء الأوغاد كلهم في يد العدالة ؟ ولكن الرجل الفظيع ذا المطرقة
سوف يكون بعيداً عن متناول البوليس مع الفتاة الشابة . وتذكر
ماريوس كلمات تيناردييه هذه التي حزر ما انطوت عليه من مغزى
دموي : اذا أبلغت الشرطة فاعتقلني فعندئذ يقوص رفيقي القبرة
قروصة .

والان لم تعد وصية الكولونيل وحدها هي التي تغلّ يده . لقد
غلّ يده فوق ذلك ، حبه نفسه ، والخطر المهدق بتلك التي احبها .
وفي كل لحظة ، اتخذت هذه الحالة الرهبة ، التي نشأت منذ ساعة
او يزيد ، مظهراً جديداً . ووجد ماريوس القوة على استعراض مختلف
الافتراضات الموجعة ، على التعاقب ملتصقاً املأ ما ، غير واجد ذلك
الأمل . وتفايرت جلبة أفكاره تفايراً غريباً مع صمت الوكر المأتمني .
وفي غمرة من هذا الصمت 'سمع صوت باب السلم 'يفتح ، ثم 'يغلق .
وقام الأسير بحركة في قيوده .

وقال تيناردييه :

- « ها قد أقبلت السيدة . »

ولم يكذب يقول ذلك حتى اندفعت تيناردييه الزوجة الى الغرفة ،
حراء ، مبهورة ، لاهثة ، ملتعبة العينين ، وصاحت لاطمة 'مفتيها
بكلتا يديها في آن معاً :

— « عنوان كاذب ! »

ودخل قاطع الطريق الذي قاده معها ، على اثرها ، وتناول مطرقته الخاصة بقتل الثيران ، من جديد .
وكرر تيناردييه :

— « عنوان كاذب ؟ »

وتابعت :

— « لا أحد ! شارع سان دومينيك ، رقم سبعة عشر ، لا يوجد شخص اسمه اوربان فاير ! لم يعرف احد من هو هذا الرجل ! »
وصمتت وقد غصت بريقها . ثم استأنفت كلامها :

— « مسيو تيناردييه ! إن هذا الرجل العجوز قد خدعك ! انت ساذج اكثر مما ينبغي ، رأيت ؟ ! لو كنت مكانك لبدأت بتمزيق فكه الى اربع قطع ! ولولا انه قبيح ، لكان جديراً بي أن أطبخه حياً ! وعندئذ كان يجد نفسه مضطراً الى الكلام ، والى ان يقول اين الفتاة ، واين المال المحبوه ! هكذا أتأتى للأمر ! فلا عجب اذا ما قالوا ان الرجال اسدّ بلاهة من النساء ! لا أحد ! رقم سبعة عشر ! إنه باب كبير من ابواب العربات ! لا مسيو فاير في شارع سان دومينيك ! والفرسان ينطلقان باقصى السرعة ، والرموة الى السائق ، وكل شيء ! لقد تحدثت مع البواب والبوابة ، وهي امرأة جميلة قوية ، فلم يعرفا الرجل . »

وتنفس ماريوس الصعداء . كانت هي ، أورشول أو القبرة — تلك التي لم يَعدْ يعرف بمَ يدعوها — قد نجت .

وفيا كانت زوجته الساخطة تصيح ، جلس تيناردييه على الطاولة . لقد جلس بضع ثوانٍ غيرَ ناطق بكلمة ، مؤرجحاً ساقه اليمنى ، المتدلّية ، محدّقاً الى الكانون وقد طَفَّتْ على وجهه سِبا وحشية من الاستغراق في التفكير .

وأخيراً قال للأسير مغيّراً نبرة صوته تغييراً بطيئاً وضارياً على نحو فريد :

- « عنوان كاذب ! ما الذي كنت ترجوه من وراء ذلك ؟ »
فصاح الأسير في صوت مجلجل :
- « ان اكسب الوقت ! »

وهزّ ، في الوقت نفسه ، القيود المكبل بها . كانت قد قُطعت . ولم يعد الأسير موثقاً الى السرير إلا برجل واحدة . وقبل ان يجد الرجال السبعة متسعاً من الوقت يصنعون فيه من الدهش ، ويشبون على الأسير كان هو قد انحى نحو الموقد ، وبسط يده في اتجاه الكانون ، ثم نهض ، فاذا بتينارديه ، وتينارديه الزوجة ، وقطاع الطرق ، وقد قذفت بهم الصدمة الى مؤخر الغرفة ، يحدقون اليه في انشداه ، رافعاً فوق رأسه الازميل المتقد ، المرسل ضياءً مشووماً ، متمتعاً بحريته تقريباً في وضع رهيب .

وعند التحقيق القضائي الذي استتبعه كمين بيت غوربو العتيق ظهر أن قطعة نقدية كبيرة من فئة الـ « سو » ، مقطوعة ومعالجة على نحو فريد ، قد وجدت في العلبة عندما داهمها البوليس . وكان هذا الـ « سو » الضخم احدى عجائب الصناعة التي ينتجها صبرُ الأشغالين في الظلام ، ومن أجل الظلام ؛ عجائب ليست غير ادوات للهرب . وهذه الثمرات الدقيقة البشعة الناشئة عن فنّ رائع هي بالنسبة الى الصياغة كاستعارات اللهجة العامية بالنسبة الى الشعر . إن في سجون الأشغالين عشرات من مثل بينفينيتو ميليني * كما ان في اللغة عشرات من مثل فييُون **. فالرجل الشقي الطامع في الخلاص يجد الوسيلة ،

* Cellini نقاش ومثال وصانع ايطالي شهير ، وند وتوفي في فلورنسة (١٥٠٠ - ١٥٧١) .

** Villion شاعر فرنسي قديم يعتبر اول شعراء فرنة الغنائيين الكبار ، وقد توفي حوالي ١٤٨٩ .

من غير ادوات في بعض الاحيان ، بسكين ، او بمـدبة قديمة ، الى
 شقّ قطعة نقدية من فئة الـ « سو » الى صفيحتين رقيقتين ، وتعتبر
 هاتين الصفيحتين من غير ان تـمـسّ السـمـة النقدية بسوء ، وإحداث
 اسنان لولب على حافة الفلس بحيث يكون من اليسير إلصاق الصفيحتين
 من جديد . وإنما تُثبت هاتان الصفيحتان وتُفكّان ساعة يشاء المرء ؛
 إنها اشبه شيء بصندوق . وفي هذا الصندوق يُخفي الاشغاليون نابضاً
 من نوابض الساعات . وهذا النابض اذا ما اصطنع اصطناعاً جيداً
 يقطع حلقاتٍ من حجم ما ، وقضباناً حديدية . إن البائس المحكوم
 عليه بالاشغال الشاقة يُفترض فيه ان لا يملك غير « سو » واحد . لا ؛
 إنه يملك الحرية . وإنما كان الـ « سو » الذي عثر عليه البوليس في
 الغرفة ، في ما بعد ، من هذا الضرب الكبير ؛ وكان مفتوحاً ذ
 شقّين مطروحين تحت الحشية ، قرب النافذة . ولقد اكتشف البوليس
 ايضاً منشاراً صغيراً من فولاذ ازرق كان ممكناً اخفاؤه في قطعة الـ « سو »
 النقدية الكبيرة . وأغلب الظن ان الاسير كان يحمل هذا الـ « سو » الكبير
 عندما قُتـش قطاع الطرق جيوبه ، وانه قد وُفق الى اخفائه في يده . حتى
 اذا أُطلقت يده اليمنى ، بعدُ ، من عقالها ، فكته واصطنع المنشار في
 تقطيع الجبال التي « شدّ بها وثاقه » ، وهو ما يفسر الضجة الضئيلة والحركات
 الخفية التي لاحظها ماربوس .

واذ لم يكن قادراً على الانحناء خشية ان يفضح نفسه ، فإنه لم يقطع
 الجبال التي تقيّد رجله اليسرى .

وكان قطاع الطرق قد استفاقوا من ذهولهم الأول .
 وقال بيغرونائي لتيناردبيه :

— « لا تجزع . ان احدى رجليه لا تزال موثوقةً بالجبال ، ولن
 يستطيع الافلات . انا واثق من ذلك . لقد ربطتُ انا ساقه هذه . »
 وهنا رفع الاسير صوته :

- « انتم مساكين ، ولكني حياتي لا تستحق غناء دفاع طويل .
اما تخيلكم انه كان في امكانكم ان تحملوني على الكلام ، انه كان في
امكانكم ان تحملوني على كتابة ما لا اريد كتابته ، انه كان في امكانكم
ان تقولوني ما لا اريد ان اقله ... »
ورفع رُدن ذراعه اليسرى ، وأضاف :
- « انظروا ! »

وفي الوقت نفسه ، بسط ذراعه ، ووضع الازميل المضطرم على
لمحه العاري ، وقد أمسك بذلك الازميل ، من مقبضه الخشي ، بيده
اليمنى .

وسمع فحيح اللحم المحترق . وانتشرت في ارجاء الوكر الرائحة
الخاصة بغرف التعذيب . وترنح ماريوس وقد ذهب الذعر بصوابه .
وصرت الرعدة في أوصال قطاع الطرق أنفسهم . ولم ينقبض وجه الرجل
العجوز الغريب الا قليلاً . وفيما كانت الحديد الاحمر الحامي يغوص في
الجرح الداخن ، الممتنع على الوجع ، والذي كاد ان يكون فخيماً ،
ادار نحو تيناردييه وجهه الجميل حيث لم يكن ثمة كره ، وحيث كان
الألم قد تلاشى في غمرة من الجلال المشرق .

فعند اصحاب النفوس الكبيرة الرفيعة تؤدي ثورة اللحم والحواس على
غارات الألم الجسدي الى إطلاق الروح فتبدو على الحيّا ، كما تُكره ثورة
الجنود قائد الجيش على البوح بما تُكته نفسه .
وقال :

- « ايها الاوغاد ، لا تخافوا مني اكثر مما خفتُ منكم . »
وسحب الازميل من الجرح ، وقذف به الى الخارج من خلال النافذة
التي كانت لا تزال مفتوحة . واختفت الأداة الرهيبة المتوهجة ، مدوامة
في الظلام ، وسقطت في المدى البعيد ، وخدمت وسط الثلج .
واستأنف الاسير كلامه :

- « افعلوا بي ما تشاءون ! »

كان أعزل .

وقال تينارديه :

- « أمسكوا به ! »

ووضع اثنان من قطاع الطرق أيديهما على منكبيه ، ووقف الرجل المقشع ذو الصوت البطنيّ تجاهه ، مستعداً لأن يُطيح رأسه بضربة من المفتاح ، اذا ما قام بحركة ما .

وفي الوقت نفسه سمع ماريوس نخته ، عند أدنى الجدار الحاجز ، ولكن على قرب شديد جعل من المتعذر عليه ان يرى المتكلمين - سمع هذا الحوار يدور في صوت خفيض :

- « لم يبق علينا ما نعمله غير شيء واحد . »

- « ان نقتله ! »

- « هو ذاك . »

كان الزوج والزوجة يتشاوران .

وفي خطى بطيئة تقدم تينارديه نحو الطاولة ، وفتح الدرج ، وأخرج المدية .

ودغدغ ماريوس زناد المسدس الصغير . ارتباك لم يُسمع بمثله من قبل ! فطوال ساعة كان صوتان ينطلقان في ضميره ، الاول يدعوه الى احترام وصية أبيه ، والآخر يهيب به الى إنقاذ الاسير . وواصل هذان الصوتان ، في غير انقطاع ، صراعهما الذي أورثه آلاماً نفسية مريرة . وكان قد رجا ، حتى تلك اللحظة ، أن يجد وسيلة الى التوفيق بين هذين الواجبين ، ولكن أيما طريقة ممكنة لم تنشأ . كانت الخطر قد أمسى الآن ملحاً ، وكان هو قد نخطى آخر تخم من تخوم الرجاء . فعلى بضع خطى من الأسير كانت تينارديه يفكر والمدية في يده .

وأجال ماريوس في ما حوله نظراً شاردآ ، وذلك آخر سهم في كنانة اليأس .

وفجأة ارتعدت أوصاله .

فعند قدميه ، فوق الطاولة ، التمع شعاع مشرق من قمرٍ بدرٍ ، وبدا وكأنما كان يدلّه على قصاصة من ورق . وعلى هذه الورقة قرأ هذا السطر ، مكتوباً باحرف كبيرة ذلك الصباح نفسه ، بخطّ بنت تينارديه الكبرى :

- « لقد اقبلت الشرطة . »

واخترفت عقل ماريوس فكرة ، او 'قل ضياء . تلك كانت الوسيلة التي يبحث عنها ، الحلّ لهذه المشكلة للرهيبة التي كانت تعذبه تعذيباً : ان 'يبقي على السفاح ويُنقذ الضحية . ورُكع على الحزانة ذات الأدراج ، ومدّ ذراعه ، والتقط قصاصة الورق . وفي مكوث ، انتزع من الجدار الحاجز قطعة جصّ ، ولفّها بالورقة ، وطرحها من خلال الثغرة الى منتصف الوكر .

وكان ذلك في الوقت المناسب . ذلك ان تينارديه كان قد قهر آخر مخاوفه ، او آخر وساوسه ، وتقدّم نحو الأسير .

وصاحت تينارديه الزوجة :

- « لقد سقط شيء ! »

فقال الزوج :

- « وما هو ؟ »

كانت المرأة قد وثبت الى أمام والتقطت قطعة الجصّ المغلفة بالورق .

وقدّمتها الى زوجها .

وسألها تينارديه :

- « كيف جاءت هذه الى هنا ؟ »

فقالت المرأة :

« يا السبي ! من أين تريدها ان تجيء ؟ لقد جاءت من
النافذة . »

وقال بيغروناني :

« لقد رأيتها في طريقها الى الغرفة . »

وسارع تيناردييه الى نشر الورقة ، ورفعها الى قريب من الشعة .

« إنها بخطّ إيبونين . يا للشيطان ! »

وأوما الى زوجته ، فاقتربت على عجل ، وأراها الطر المكتوب على
الورقة . ثم اضاف في صوت غائر :

« عجلوا ! السلم ! دعوا اللحم في الشراك ، وولّوا الادبار ! »

فسألته تيناردييه الزوجة :

« من غير أن نختزّ حنجرة الرجل ؟ »

« ليس لدينا متسع من الوقت . »

وقال بيغروناني :

« من أين ؟ »

فأجاب تيناردييه :

« من خلال النافذة . لما كانت إيبونين قد ألقت الحجر من خلال

النافذة فمعنى ذلك ان البيت غير مراقب من هذه الجهة . »

واطّرح الرجل المقتنع ذو الصوت البطني مفتاحه الضخم ، ورفع

كائتا ذراعيه في الهواء ، وفتح واغلق يديه على نحو خاطف ثلاث مرات

من غير ان يقول شيئاً . كان ذلك اشبه بصيحة الاستعداد للقتال على

ظهر سفينة من السفن . وخلص قطاع الطرق المسكون بالاسير سبيله .

وفي ومضة عين كانت السلم المصنوعة من حبال قد طرحت طرفها الى

خارج النافذة ، ثم أحكم تثبيتها الى حافة تلك النافذة بالكلايين

الحديديين .

ولم يُلْقِ الأسير بالاً الى ما كان يجري من حوله . لقد بدا وكأنه كان يحلم أو يصلي .

وما إن تُبَتَّت السلم حتى صاح تيناردييه :

— « تعالي ، ايها الزوجة ! »

واندفع نحو النافذة .

وفيا كان يحاول القفز من النافذة ، أخذ بيغروثاي بخناقه أخذاً عنيفاً :

— « لا ، لا ، أيها الماجن العجوز ! بَعْدَنَا ! »

وهراً قطاع الطرق :

— « بَعْدَنَا ! »

وقال تيناردييه :

— « انتم أطفال . إننا نضيع الوقت . إن البوليس يكاد 'يدركنا . »

فقال احد قطاع الطرق :

— « حسن ، فلنسحب 'قرعة' على من يخرج أولاً . »

فصاح تيناردييه :

— « هل أنتم مجانين ؟ هل انتم تختلّو العقل ؟ انتم مجموعة من

السذج ! ضياع للوقت ، أليس كذلك ؟ سحب قرعة ، أليس كذلك ؟

بأصبع مبلّلة ؟ وبواسطة قشّ متفاوت الطول ؟ نكتب اسماءنا ! نضعها

في قلنسوة ... ! »

وصاح صوت من عتبة الباب :

— « أتريدون قبعتي ؟ »

واستداروا جميعاً . كان جافير .

كانت قبعته في يده ، وكان ييسط ذراعه بها وهو يتسم .

يجب ان يُبدأ دائماً بألقاء القبض على الضحايا

كان جافير قد عهد الى رجاله في مراقبة المنزل ، واختبأ خلف اشجار شارع « لا بارير دو غوبلين » الذي يواجه بيت غوربو العتيق على الجانب الآخر من الجادة . لقد بدأ بأن فتح « جيبه » ليُدخل فيه الفتاتين الشابتين اللتين كُلفتا مراقبة المداخل المؤدية الى الوكر . ولكنه لم يُلق القبض إلا على آزيلما . اما ايونين ، فلم تكن في الموقف المعين لها . كانت قد اختفت ، فلم يتمكن من اعتقالها . ثم إن جافير اخذ الى الراحة ، وأصغى منتظراً الإشارة المتفق عليها . وأقلقه ذهاب عربة الأجرة وإيلها إقلاقاً عظيماً . واخيراً نفذ صبره . واذ كانت واثقاً من انه كان ثمة وكو لصوص ، واذ كان واثقاً من « حسن حظه » بعد ان تبين عدداً من قطاع الطرق الذين دخلوا الى هناك ، فقد عزم آخر الامر على ان يرتقي السلم من غير ان ينتظر إطلاق النار .

والقراء يذكرون انه كان يحمل مفتاح ماربوس العمومي .
كان قد أقبل في الوقت المناسب .

واندفع قطاع الطرق المروءعون التماساً للأسلحة التي كانوا قد طرحوها كييفها اتفق حين حاولوا الفرار . وفي اقل من ثانية ، كان هؤلاء الرجال السبعة ، ذوو المنظر الرهيب ، قد تجمعوا في موقف دفاع : احدهم يحمل مطرقة ثيرانه ، والاخر يحمل مفتاحه ، والثالث يحمل هراوته ، وسائرهم يحملون المقصات ، والكلاليب ، والمطارق ، وتيناردييه يتشبث بمديته . وامسكت

تيناردييه الزوجة بلاطة ضخمة كانت في زاوية النافذة ، وكانت ابنتها
تخذان منها مقعداً منخفضاً .

واعتمر جافير بقبعة من جديد ، ودخل الغرفة ، طويلاً ذراعيه ،
وعصاه تحت إبطه ، وسيفه في قرابه .
وقال :

- « قفوا مكانكم ! انكم لن تقروا من النافذة . إنكم لن تقروا
من الباب . هذا أقل وخامة . انتم سبعة ، ونحن خمسة عشر . فلا
تكرهونا على ان نمك بخناقكم وكأنكم من سكان اوفيرني . فلنكن
لطافاً . »

واخرج بيغروناي مسدساً صغيراً كان قد خبأه تحت قميصه ، ووضعه
في يد تيناردييه وهو يحس في أذنه :

- « هذا جافير ! انا لا أجرو على تصويب النار الى هذا الرجل .
انجرو انت ؟ »

فأجابه تيناردييه :

- « وحق الاله ! »

- « اذن أطلق النار ! »

واخذ تيناردييه المسدس ، وسدده الى جافير .

وحقق اليه جافير ، الذي كان على ثلاث خطوات منه ، تحديقاً
موصولاً ، واجترأ بالقول :

- « لا تطلق النار ! ان زند مسدسك سوف يكبر . »

وضغط تيناردييه على الزند ، فلم يُور .

فقال جافير :

- « لقد قلت لك ذلك ! »

وطرح بيغروناي عصاه القصيرة المغلف طرفها بالرصاص على قدمي
جافير .

- « أنت امبراطور الابالسة ! إني أستسلم . »

وسأل جافير قطاع الطرق الآخرين :

- « وأنتم ؟ »

فأجابوا :

- « ونحن ايضاً . »

فأجاب جافير في هدوء :

- « هو ذاك ! هذا حسن ! لقد قلتُ ذاك ، انتم لطاف . »

فقال بيغروناي :

- « إني التمس شيئاً واحداً ليس غير ، وهو ان لا أحرم التدخين حين

اوضع في الحقيبة المنفردة . »

فقال جافير :

- « لك ذاك . »

والتفت ، ونادى :

- « ادخلوا الآن ! »

واندفعت الى الغرفة ، تلبيةً لدعوة جافير ، شرذمة من شرطة المدينة

الشاهري السيوف ، ومن رجال البوليس المسلحين بالعصي القصيرة

وبالمراوات . وأوثقوا قطاع الطرق . وملأت هذه الجبهة من الرجال

الذين لم تُضهم الشمعة إلا على نحو باهت - ملأت الوكر بالظلام .

وصاح جافير :

- « كتبوا الجميع بالاغلال . »

وصاح صوتٌ لم يكن صوت رجل ، ولكنّ اياً من الناس ما كان

ليقول انه صوت امرأة :

- « اقتربوا قليلاً إذن ! »

كانت ثيناردييه الزوجة قد تحصّنت في احدى زوايا النافذة ، وكانت

هي التي اطلقت تلك الزارة .

وارتد شرطة المدينة ورجال البوليس .

كانت قد اطرحت سالها ، ولكنها ظلت معتمرةً بقبعتها . وكان زوجها ، الجالس القرفصاء خلفها ، قد احتجب او كاد تحت الشال الساقط ، وكانت قد غطته بجسدها ، رافعةً البلاطة بكلتا يديها فوق رأسها في مثل توازن عملاقٍ على وشك ان تقذف صخرةً ما .
وصاحت :

- « خذوا حذرکم ! »

وارتدوا كلهم الى الوراء في اتجاه الرواق . وترك ذلك فراغاً عريضاً في وسط العلبة .

والقت تيناردييه الزوجة نظرة على قطاع الطرق الذين ارتضوا ان يُشدّ وثاقهم ، وغفمت في نبرة حلقة مبعوحة :
- « الجبناء ! »

وابتسم جافير ، وتقدّم الى الرقعة الفارغة التي كانت تيناردييه الزوجة تبتلعها بعينها .
وصاحت :

- « حذار أن تقترب . وإلا سحقتك سحقاً ! »

فقال جافير :

- « ايّ رامية قنابل انتِ ! ايها الأم ، إن لكِ حية مثل رَجُل ، ولكنّ لي برائن مثل امرأة . »
وواصل تقدمه .

وباعدت تيناردييه الزوجة ، شعناً فظيعةً ، ما بين رجلها ، وانحنت الى الوراء ، وقذفت بالبلاطة ، في ضراوة ، رأس جافير . وطأها جافير رأسه ، فمرت البلاطة من فوقه واصابت الجدار خلفه ، مسقطه منه قطعة كبيرة من الجص ، وارتجعت واثبةً من زاوية الى زاوية عبر الغرفة ، الفارغة تقريباً لحسن الحظ ، لتستقر آخر الأمر عند عقبها .

جافير .

وفي تلك اللحظة انتهى جافير الى تيناردييه وامرأته . وسقطت احدى يديه الضخمتين على كتف المرأة ، والاخرى على رأس زوجها .

وصاح :

« الاغلال ! »

وعاود رجال البوليس الدخول زمرة واحدة ، وما هي الا بضع ثوانٍ حتى نفذ امر جافير .

ونظرت تيناردييه الزوجة ، مهيضة الجناح ، الى يديها المغلولتين والى يدي زوجها ، وخرت على الارض ، وصاحت والدموع في عينيها :

« بنتاي ! »

فقال جافير :

« لقد تدبرنا امرهما . »

وفي اثناء ذلك كان رجال الشرطة قد عثروا على السكران الذي كان نائماً خلف الباب ، وهزّوه . فاستيقظ متلجلجاً :

« هل انتهى كل شيء ، يا جوندريت ؟ »

فأجابه جافير :

« نعم . »

كان قطاع الطرق الستة المكبلون واقفين على اقدامهم . بيد انهم ظلوا محتفظين بمظهرهم الاشباحي : ثلاثة كانوا ملطخي الوجوه بالسواد ، وثلاثة كانوا مقتسمي الوجوه .

وقال جافير :

« احتفظوا بأقنعتكم . »

واستعرضهم بمثل عين فريدريك الثاني وهو يستعرض قوات الجيش في بوتسدام ، وخاطب « دكاترة المداخن » الثلاثة قائلاً :

- « طاب نهارك ، يا بيغروفاي ! طاب نهارك ، يا بروجون !
طاب نهارك ، يا دو مييار ! »
ثم إنه التفت الى المقتعين الثلاثة ، وقال للرجل ذي المطرقة الخاصة
بقتل الثيران :

- « طاب نهارك ، يا غولوميه ! »

وقال للرجل ذي المراوة :

- « طاب نهارك ، يا بابيه ! »

وقال لصاحب الصوت البطني :

- « نحياقي ، يا كلاكسو ! »

وفي تلك اللحظة فقط لمح اسيرُ قطاع الطرق ، الذي كان قد اعتصم
بالصمت منذ دخول البوليس ، وخفض رأسه .
وقال جافير :

- « فكّثوا وثاق السيد ، ولا تدعوا احداً يخرج . »

نطق بذلك وجلس ، في سلطان ، أمام الطاولة التي كانت الشمعة
وادوات الكتابة ما تزال فوقها ، وسحب من جيبه ورقة تحمل طابعاً
وشرع يدوّن محضره .

حتى اذا خطّ الأسطر الاولى التي لا تعدو ان تكون صيغة "مألوفة
لا تتغير ابدآ ، رفع عينه :

- « قرّبوا مني هذا السيد الذي كان هؤلاء السادة قد شدوا

وثاقه . »

وأجال رجال الشرطة طرفهم في ما حولهم .

وسألهم جافير :

- « حسناً ، اين هو الان ؟ »

كان أسيرُ قطاع الطرق ، مسيو لوبلان ، مسيو أوربان فابر ، أبو
أورسول ، أو القبرة ، قد اختفى .

كان الباب محروساً ، ولكن النافذة لم تكن محروسة . فما ان رأى الى نفسه محلول الوثاق ، وفيما كان جافير يكتب ، حتى اغتتم فرصة الاضطراب والجلبة ، والاختلاط ، والظلمة ، ولحظة كان انتباههم فيها غير مصوب اليه ، لكي يشب من النافذة .
واندفع شرطي الى النافذة ، والقى نظرة منها . بيد ان عينه لم تقع على احد في الخارج .
كانت السلم الجبالية لا تزال ترتعش .
وقال جافير ، من بين أسنانه :
- « يا للشيطان ! ينبغي ان يكون هذا هو احسنهم جميعاً ! »

٢٢

الصبي الصغير الذي صاح في القسم الثاني

وبعد اليوم الذي تلا وقوع هذه الاحداث في المنزل القائم عند « جادة المستشفى » صعد طفل ، بدا وكأنه قادم من ناحية جسر اوستوليتز ، في الزقاق الضيق الايمن ، باتجاه حاجز فونتابلو . كانت الليل قد اطبق على الكون . وكان هذا الطفل شاحب الوجه ، مهزول الجسم ، رث الثياب ، يرتدي بنطلوناً من نسيج كتاني في شهر شباط ، وكان يغني بأقصى ما يستطيع من قوة .
وعند زاوية شارع ال « بيتي بانكويه » ، كانت عبوز تنقّب في ركام من القاذورات على ضوء مصباح الشارع . واصطدم الطفل بها في طريقه ، ثم انقلب على عقبيه صائحاً :

- « عجيب ! لقد حسبتُ هذه كلباً هائلاً ، هائلاً ! »
ولفظ كلمة « هائل » ، في المرة الثانية ، بصوت منتفخ ساخر
تعبّر عنه الأحرف الكبيرة أحسنَ تعبير : كلباً هائلاً ، هائلاً ! »
ونمّضت المرأة المعجوز مفتاظة .
ونغمّمت :

- « ايها المجرم الصغير ، لو لم اكن منحنية القامة لعرفتُ اين كان
يجب ان اضع قدمي ! »
كان الطفل قد أمسى الآن على بُعد يسير .
وقال :

- « بخ ! بخ ! وعلى اية حال ، فلعلّني لم اكن مخطئاً . »
وغصت المعجوز بالخط ، وانتصبت لتوتها ، وقد اضاء وهجُ الفانوس
الأحمرُ ، اضاءةً كاملةً ، وجهها الشديد الشحوب ، الخدود كله بالزوايا
والتجاعيد ، وبدت أقدام الأوز عند طرفي فمها . كان جسدها محتجباً
في غمرة الدجّة ، وكان رأسها وحده بادياً للعيان . وخلقُ بالمرء أن
يقول إنها قناع المهرّم فصلّه شعاعٌ في الظلام . وانعم الطفل النظر اليها .
وقال :

- « إن سيدتي ليس لها ذلك الطراز من الجمال الذي يلاعنني . »
ومضى لسبيله ، وشرع يغني من جديد :

« الملك كو دو سابو »

ذهب الى الصيد ،

الى صيد الغربان . »

وعند نهاية هذه الابيات الثلاثة كفّ عن الغناء . كان قد بلغ رقم
٥٠ - ٥٢ ، واذا وجد الباب موصداً ، انشأ يرفسه بقدمه رفساً مرثناً
بطولياً كشف عن الحذاء الرجالي الذي انتعله اكثر مما كشف عن

قدمي الطفل اللتين كانتا له .
وفي غضون ذلك كانت المرأة المعجوز نفسها ، التي التقاها عند زاوية
شارع الـ « بيتي بانكييه » ، تعدو خلفه مرسلةً صيحات استقباح ،
ومُسرفة في الایماءات المحبولة .

— « ما المسألة ؟ ما المسألة ؟ يا السهي الرحيم ! إنهم يخترقون
الباب ! إنهم يقتحمون المنزل ! »
وتواصلت الرفسات .

واستبدت اللهاث بالمعجوز .
— « ابتهذ الطريقة يستعملون البيوت في هذه الايام ؟ »
وفجأةً كفت عن الكلام . كانت قد عرفت « المتشرد » .
— « ماذا ! إنه ذلك الشيطان ! »

فقال الطفل :

— « ها ها ! إنها المرأة المعجوز . طاب نهارك يا « بورغون موش » .
لقد جئتُ لأرى اسلافي . »

واجابت المعجوز في تكشيرة مركبة — ارتجال رائعٌ من البغض
أفاد أقصى ما تكون الافادة من الهرم والبشاعة — ضاعت مع الأسف
في الظلمة :

— « لا يوجد أحدٌ هنا ، ايها الولد الفظ » .

فقال الطفل :

— « عجباً ! أين ابي ، اذن ؟ »

— « في لا فورس * . »

— « يا للشيطان ! وأمي ؟ »

— « في سان لازار * . »

— « حسن ، وشقيقتاي ؟ »

* « لا فورس » و « سان لازار » و « المادلونيت » سجون معروفة .

- « في المادلونيت . »

وحكّ الطفل مؤخر أذنه ، ونظر الى « مام بورغون » وقال :

- « آه ! »

ثم انقلب على عقبه ؛ وما هي الا لحظة حتى سمعته المعجوز ، التي
وقفت على عتبة الباب ، يغني بصوته الواضح الناضر ، فيما هو يختفي
تحت شجرات الدردار السوداء المرتعشة في وجه الرياح الشتوية :

« الملك كودو سابو

ذهب الى الصيد ،

الى صيد الغربان ،

متباهياً متفاخراً .

وحين يمرّ الناس به

يدفون اليه فلين . »

فهرست القسم الثالث : « ماريوس »

الكتاب الاول : باريس مدروسة من خلال ذروتها

ص

٧	١ . في نضارة الصبا
٨	٢ . بعض أماراته الخصوصية
١١	٣ . إنه قريب الى النفس
١٣	٤ . إنه قد يكون ذا غناء
١٤	٥ . حدره
١٨	٦ . قليل من التاريخ
٢١	٧ . سوف يحتل المنترد مكانه بين طبقات الهند
٢٤	٨ . حيث نقرأ كلمة فاتنة للملك السابق
٢٦	٩ . روح غالة القديم
٢٧	١٠ . هي ذي باريس ، هوذا الانسان
٣٦	١١ . سخرية وحكم
٤٠	١٢ . المستقبل كامن في الشعب
٤٢	١٣ . غافروش الصغير

الكتاب الثاني : البورجوازي الكبير

- ١ . تسمون عاماً واثنان وثلاثون سنأ ٤٦
- ٢ . سيد كهذا جدير بمسكن كهذا ٤٩
- ٣ . لوقا - الروح ٥١
- ٤ . يرجو ان يعيش مئة عام ٥٢
- ٥ . باسك ونيقوليت ٥٣
- ٦ . حيث نرى مانيون وصنيرها ٥٥
- ٧ . قاعدة : لا تستقبل احداً الا في الماء ٥٧
- ٨ . واحدة وواحدة لا تاويان زوجاً ٥٨

الكتاب الثالث : الجدد والحفيد

- ١ . سالون قديم ٦٢
- ٢ . احد أشباح ذلك العصر الحمراء ٦٩
- ٣ . « لقد رقدوا في سلام » ٧٨
- ٤ . نهاية فاطم الطريق ٩٠
- ٥ . فائدة الذهاب الى القدس في جبل المرء ثورياً . . ٩٥
- ٦ . معنى الالتقاء بوكيل كنيسة ٩٨
- ٧ . تنورة ما ١٠٧
- ٨ . رخام ضد صوان ١١٥

الكتاب الرابع : اصدقاء الانبياء

- ١ . جماعة كادت تصبح تاريخية ١٢٢
- ٢ . بوسوويه يؤذن بلوندو ١٤٩
- ٣ . دهش ماريوس ١٥٤
- ٤ . الحجرة الخلفية في مبنى الموزين ١٥٨

٥ . توسيع الافق ٩٢٠
٦ . موارد موزلة ٩٢٦

الكتاب الخامس : فضل الشقاء

الكتاب السادس : التقاء نجمين

الكتاب السابع : المعلم مینیت

- ٣ . بايه ، غولوميه ، كلاكو ، ومونبارناس . ٢٤٨
٤ . تـكـوـن الشرذمة ٢٥٢

الكتاب الثامن : الفقيو الشرير

- ١ . ماريوس الباحث عن فتاة ذات قبعة يلتقي برجل ذي قلنسوة ٢٥٧
٢ . لقيـة ٢٦٠
٣ . أنصاب ذات اربعة وجوه ٢٦٣
٤ . وردة في الشقاء ٢٧٧
٥ . يوضاس الناية الالهية ٢٨٧
٦ . الرجل الضاري في مأواه ٢٩٠
٧ . ستراتيبيجة وتكنية ٢٩٧
٨ . الشماع في البيت الحفير ٣٠٣
٩ . جوندريت يكاد يبكي ٣٠٦
١٠ . تعرفه عربات الاجرة ذوات الدرلايين فرنكان في الساعة ٣١٣
١١ . عروض خدمة يقدمها البؤس الى الأسى ٣١٧
١٢ . كيف استعملت فرنكات مسيو لوبلان الخمسة . ٣٢٢
١٣ . « وحيد مع نفسي في مكان قصي » فانهم
لم يجدوا حافزاً للصلاة يا أبانا ! ٣٣٠
١٤ . وفيه يقدم شرطي الى احد المهاجرين
مدمسين فولاذيين ٣٣٤
١٥ . جوندريت يتبضع ٣٤٠
١٦ . وفيه سنجد من جديد تلك الاغنية
ذات اللحن الانكليزي دارجة عام ١٨٣٧ ٣٤٤
١٧ . كيف انفلت قطعة ماريوس النقدية
ذات الفرنكات الخمسة ٣٥٠

- ١٨ . كرسيا ماربوس يتواجهان ٣٥٦
- ١٩ . شواغل الاعماق المظلمة ٣٥٨
- ٢٠ . الكمين ٣٦٥
- ٢١ . يجب ان يبدأ دائماً بالقاء القبض
على الضحايا ٤٠١
- ٢٢ . الصي الصنير الذي صاح في القسم الثاني ٤٠٧

انتهى المجلد الثالث
ويليه المجلد الرابع

مَطْبَعَةُ الْعَالَمِ
حارة حريك - لبنان